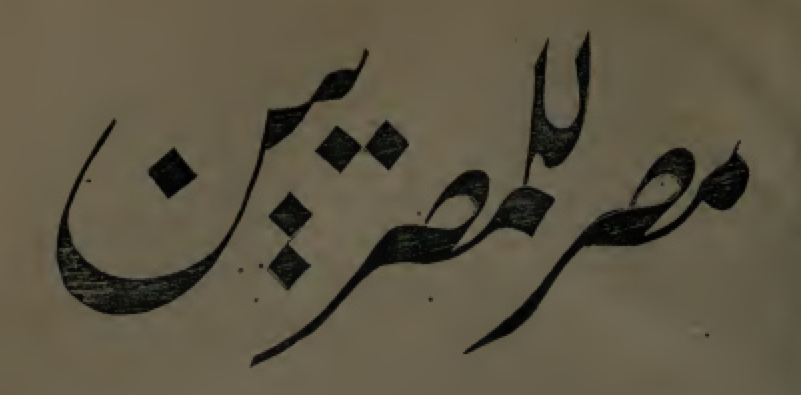
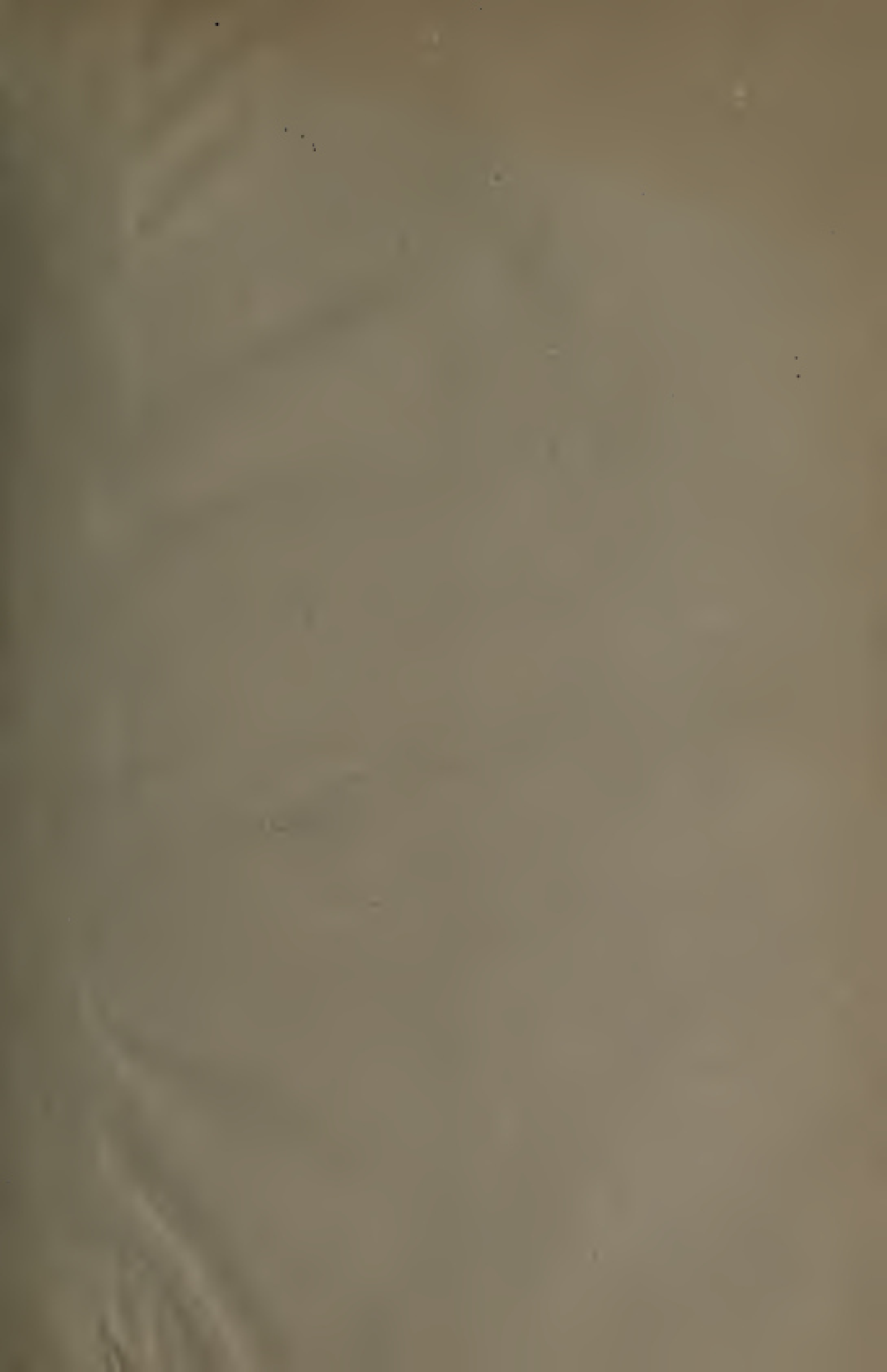


لسليم خليل النقاش

الجزء الخامس

من ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ الى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢

☼(طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية)☼
☼(١٣٠٢ سنة ١٨١٤)☼



فصل

انتهى بنا الكلام في ختام الجزء الرابع الى ما كان من وفود درويش باشا وسعي العرابيين في خلع الخديو وتجسم الفتنة وغير ذلك مما تقدم حادثة ١١ يونيو السيئة الذكر فلنأتِ الان على سرد الحوادث التي تبعت سير تلك الاحوال بما ترى من الايضاح الوافي والبيان الشافي

نقول

وما انقضى شهر مايو (ايار) حتى بلغ الاضطراب في مصر مبلغاً عظيماً واخذ القلق من النفوس مأخذاً جسيماً فكثر اللغط وزادت بواعث الايجاس وتمكن الخوف من القلوب ونزع النزلاء الاجانب الى الجلاء عن البلاد والمهاجرة الى اوروبا وسوريه خوفاً من امرٍ يأتي او فراراً من بلاء محسوب

وكانت الاسواق والشوارع والحانات والمنازل عبارةً عن مجتمعات يقضي الناس فيها اوقاتهم بالتداول في احوال مصر وامور سياستها وفيما عسى ان تؤول اليهِ تلك الحال بل فيما اذا كانت تستقر على ما انتهت اليهِ او تنقلب الى مركز تتبدل فيهِ صورها بمظاهر من الاهوال

وكثر التساؤل في تلك المداولات عما كان وسيكون وتلونت الاخبار وتباينت الاشاعات وتناقضت الروايات واخذ المخبرون والرواة يتهامسون الانباء في السرّ الواناً ويتناقلون الاقوال في الجهر اشكالاً

وكانت مدينة الاسكندرية تخفض اثناء تلك الهواجس والوساوس مَن يفد عليها من جالية الريف ومدن الداخلية وتوسع لهم في جوانبها مقام النزول حتى ضاقت على رحبها بمن امّها من الواردين اليها على رجاء ان يكونوا فيها آمنين غوائل التعدي بسبب كثرة الاجانب فيها بل بسبب وجود الاسطولين الفرنسوي والانكليزي في مرفاءها

وغصت شوارعها وفنادقها بالوافدين وتعاظمت المخاوف وازداد ارتعاد الفرائص بحيث كان الناظر لا يرى الاَّ وجوهاً علتها صفرة الخوف وقلوباً واجفة تملكها الرعب ونفوساً حزينة تولاها الانقباض وكان لا يمر يومٌ بل لا تمر ساعةٌ من غير ان يسمع الناس فيها خبراً مهماً او نبأً جديداً صحيحاً او غير صحيح وكان اول كلام ينطقون بهِ ساعة التلاقي والاجتماع محصوراً في : اي الاخبار عندنا الساعة : فاذا سمعوا كلمةً مخيفةً او خبراً مقلقاً ازدادوا تحسباً من طارئٍ مفاجئٍ وتأهباً للرحيل او استعداداً للدفاع

واحسَّ الاجانب بالملاحظة والمراقبة ان سفلة القوم من الاهالي وجميع رجال الجهادية او اكثرهم اصبحوا قساةً في تصرفاتهم يغلظون معاملة الناس ويستبدون بامورهم استئثاراً يمشون في الازقة تيهاً ويخطرون في الشوارع عجباً واستكباراً ينهنون الرفيع ويستخدمون الوضيع واذا رأوا ما لا يستحسنون نفروا او لقوا من لا يعتد بهم تعاظموا وشمخوا ثم شعروا انهم يريدون بهم شرّاً ويتوقعون اقل حادثٍ يتذرعون بهِ الى الوقيعة وابراز مكنونات صدورهم انتقاماً ممن توهموهم اعداءً لهم واخصاماً نعني بهم الاجانب الاوربيين وكأنهم علموا بما كان في نية اولئك الرعاع

من الهجوم عليهم واخذهم على غرقٍ تشفيًا منهم وانقيادًا لمن كان يحرّضهم على الانتقام فعقدوا (اي الاجانب) عدة اجتماعات سرية جعلوا المسألة فيها موضوع المشاورات والمداولات فبعد ان تفاوضوا فيما يجب اتخاذه من التدابير والوسائل الآيلة الى وقاية ارواحهم واموالهم قرروا باجماع الرأي ان يحشدوا عددًا غير قليل من الافرنج وان يهيئوا له الاسلحة اللازمة ويجعلوهُ قائمًا على قدم الاستعداد لدفع الشر اذا قضت الحاجة بدفعهِ واستشاروا في ذلك اميري الاسطولين الفرنسوي والانكليزي وقائد السفينة اليونانية التي كانت راسيةً اذ ذاك في مينا الاسكندرية فوافقوهم على هذا الرأي موافقة اوجبوا فيها استشارة القناصل الجنرالية ايضاً واستمداد رأيهم فاذعنوا ولما كان اكثر هولاء القناصل موجودين يومئذٍ في القاهرة كتب قناصل الاسكندرية اليهم بما عزم الاوربيون عليهِ وانفذوا اليهم الموسيو بودنكي قنصل اسوج ونروج الجنرال معتمدًا من قبلهم ليعقد معهم مخابرةً في هذا الشأن فلم يفز عملهم بالرضى والاستصواب ولم يحز قبولاً بل انكرهُ عليهم جميع القناصل الجنرالية او اكثرهم كما يستدل على ذلك من تلغراف بعث بهِ المستر مالت وكيل انكلتره السياسي وقنصلها الجنرال في القاهرة اذ ذاك الى المستر كوكسون قنصلها بالاسكندرية وقد وجدناهُ منشورًا بالحرف الواحد في الكتاب الازرق وهو كتاب انكلتره السياسي الذي نشرتهُ متعلقًا باحوال مصر فعرّبناه عنهُ كما ترى

وصل قنصل اسوج ونروج الجنرال قادمًا من الاسكندرية وعرض على وكلاء الدول السياسيين ما عزم الاوربيون عمومًا في الاسكندرية عليهِ من التأهب للمدافعة عن انفسهم بالقوة المسلحة وذلك بحشد عددٍ وافرٍ من الرجال واعدادهم لهذه الغاية اذا مست الحاجة الى انفاذها ثم طَلَبَ اليهم ان يوافقوا على ذلك فابوا مصرّحين بان مشروع هذا الدفاع يقتضي تأهبات كثيرة وتجهيزاتٍ وفيرة لتنظيم قوةٍ كافية موءلفة من ثلاثة الى اربعة الاف مقاتل واعداد الاسلحة اللازمة لهم مبينين ان في ذلك اقوى باعثٍ واعظم داعٍ لوقوع القتال حينًا ما وبناء على ذلك كتبوا الى قناصلهم بالاسكندرية ينهونهم عن الاشتراك في هذا العمل فعليكم اذًا ان تجتنبوه وتكتفوا بالمساعدة التي يمكن لامير الاسطول ان يوافيكم بها عند الحاجة لحماية الرعية الانكليزية ووقايتها وان تثقوا بهِ وتتبعوا رأيه في التدابير التي يجب اتخاذها واجراؤها اذ ذاك

وبما انهُ يحتمل ان يكون امر هذا المشروع الدفاعي قد صار شائعًا ومعروفًا عند بعض الناس فاود ان لا يعرف امر العدول عنهُ بغتةً او يشيع خبرهُ شيوعًا فجائيًا وعليكم ان تحتفظوا هذه الافادات في خزانة اسراركم المحصنة وان تبذلوا الجهد في تسكين الخواطر بقولكم ان ليس بين الوطنيين والاجانب خلاف او نزاع وان المخابرات جميعها الان منوطة بمعتمد الحضرة السلطانية ثم بلغوا الاميرال سيمور هذه الافادات

وكتب بمصر (بالتلغراف) يوم الاحد في ١١ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٢

فصل

وكان اهل الفتنة شعروا ان الاجانب ادركوا ما كان في النية اجراؤه وانهم لذلك يتأهبون ويتخذون التدابير الآيلة الى دفع السوء عنهم وكان الامر كذلك فان الاجانب لم يدعوا فرصة التأهب والاستعداد تفوتهم بل تعجلوا الامر قبل فوات الوقت وتمكنوا من جمع اسباب الدفاع لديهم وظلوا على هذه الحال والناس في هرج ومرج وخوفٍ من حادثٍ يطرأ حتى كان اليوم الحادي عشر من شهر يونيو (حزيران) فما شعر في المدينة الّا وجماهير المسلمين من سفلة القوم ورعاعهم بين صعيدي وسوداني وبدوي ومنهم الحمارة والجمالون وامثالهم يهجمون فرادى وازواجًا وجماعاتٍ وافواجًا على من لقوه في طريقهم من الاجانب كبيرًا كان او صغيرًا كهلاً او فتىً وكان ذلك في الساعة الثانية بعد الزوال اثر نزاعٍ وقع بين مالطيّ وحمار افضى بينهما الى الضرب والشتم فجرح الحمار وعلت الضوضاء فتداخل بين المتضاربين احد جاويشية مخفرة (قره قول) اللبان منتصرًا للحمار على المالطي فلما انقلب الامر الى المناصرات انتصر للمالطي رجلٌ من ابناء جلدتهِ فكثرت على اثر ذلك الغوغاء واشتد اللجب وعلت الضوضاء فسُلّت الخناجر وجُرّدت المدى من الاغماد وأُطلق الرصاص وكأنّ ذلك كان اشارةً لابتداء الفتنة فهجم رعاع القوم ممن تقدم ذكرهم على المارة واصحاب الدكاكين واخذوا يسطون على كل اجنبي وجدوه في طريقهم كائنًا ما كان ويوسعونه ضربًا بالعصي والمراوي ثم انتشروا في الشوارع وانبثوا في احياء الاوربيين منادين بالجهاد وبقتل الكفار ونهب مخازنهم ومنازلهم وعلى نحو هذا القصد وبهذه الهيئة مرّوا بالشارع المعروف بشارع السبع بنات . وشارع المحمودية وغيرهما من شوارع المدينة وكان اكثر الاجانب متفرقين في جهات الرملة قصد التنزه واستنشاق النسيم اللطيف هربًا من حرّ المدينة وذلك جريًا على عادتهم في ايام الآحاد والاعياد واوقات الفراغ فكانت بيوتهم لذلك خاوية خالية ومخازنهم مقفلة ولم يكن في المدينة منهم الّا قوم قليلون لا يقدرون على الدفاع وردّ هجمات الثائرين فتمكنوا ممن وجدوه منهم فتكًا ذريعًا وانصبوا عليهم من كل جهةٍ وصوب يضربونهم بالعصي والنبابيت حتى قتلوا منهم نحو ٢٠٠ نفس وكان صاحب هذا المؤلف قد لزم البقاء في منزلهِ مع عائلتهِ متحرزًا متحرسًا وكان اذ ذاك مقيمًا في الوكالة المعروفة بوكالة راتب باشا وراء المنشية فاشرف من البالكون على الشارع الكبير فرأى جماعات اهل الفتنة يتقدمون في الطريق ضاربين كل من رأوا قبعةً على رأسهِ ورأى كثيرين من الافرنج يركضون واولئك من ورائهم يضربونهم بالمراوي (اذ لم يكن بايديهم سلاح غيرها) ضربًا اليمًا حتى يطرحوهم على الارض مخضبين بدمائهم فينزعون عنهم ثيابهم ويأخذون ما يجدون معهم من حلي ونقود ثم يتركونهم ويسيرون فاذا مرّوا بمخزنٍ من مخازن الافرنج كسروا بابه ونهبوا منه ما تيسر لهم حمله ونقله وغادروا فيهِ ما بقي منثورًا في الارض عرضةً للكسر والبعثرة

وقد تحرّز بعض الاجانب في بيوتهم ودافعوا عن انفسهم بالسلاح فردوا هجمات المسلمين بالرصاص وقتلوا منهم عددًا يكاد ان يوازي

عدد من قُتل من النصارى

وكان قد نزل الى البحر في ذلك اليوم جماعةٌ من الاوربيين للتفرج على السفن الحربية الراسية في المينا فلقيهم الوطنيون عند عودتهم من البحر واوسعوهم ضرباً ثم ساقوهم امامهم سوق الانعام

وكان كل من العائدين الى المدينة يلجأ على اثر فراره من ايدي القوم الى دار الضبطية الكائنة في الشارع المعروف باسمها توهمًا منهُ انهُ اذا بلغ مركز . وقاية الارواح . صار في مأمنٍ من هجمات اولئك الرعاع ولكن واأسفاه فان ذلك المقام اصبح في تلك الساعة مقرًّا للاهوال ومعهدًا للفظائع فان نفرًا من عساكر المستحفظين كانوا قد انبثوا في ساحتها وانتشروا على جانبيها للوقوع بالمارّة فكانوا يقبضون على كل اجنبي لجأ الى الضبطية ويفتكون بهِ فيقتلونهُ ويتركونهُ للرعاع فيسلبون ما عليهِ من ثياب او حلي او نقود ثم يشوهون وجههُ تشويهًا ويرمون بهِ الى البحر

ومن حوادث ذلك اليوم الغريبة ان امراء الاساطيل الاجنبية الراسية في المرفأ لم يحركوا ساكنًا ولم يبدُ منهم مساعدة للاوربيين ردعًا للوطنيين وكبحًا لجماح فظائعهم

ومن اغرب تلك الحوادث تمارُض السيد قنديل مأمور ضبطية الاسكندرية ورئيس المستحفظين اذ ذاك وعدم خروجه من بيته كأن لم يكن شيءٌ في المدينة

ومن اشد حوادث ذلك اليوم غرابةً ان قناصل الدول دُعوا الى عقد جمعيةٍ في دار المحافظة للتداول في الاحوال الحاضرة وذلك قبل حدوث المذبحة بنحو ساعةٍ فتوجه اكثرهم اليها ولكنهم علموا هناك ان المحافظة لم تدعهم قط الى مثل ذلك الاجتماع فحاروا في الامر ثم خرجوا متفرقين وسار كلٌّ منهم في طريق وبينما كانوا عائدين الى منازلهم اذا بالرعاع من الوطنيين هجموا عليهم بالعصي والنبابيت واخذوا يوقعون بهم الضرب الذريع فجرح اكثرهم منهم الموسيو رانغابي قنصل اليونان الجنرال والمستر كوكسن قنصل انكلترة بالاسكندرية وقد أُصيب ثاني هذين القنصلين بجراح بالغة وكسرت عربته ووقع على الارض مغشيًا عليهِ فحمل الى مخفرة « قره قول » اللبان وهو غائب عن الرشد لا يعي ولا يسمع ولا يرى . وضُرب ايضًا الموسيو ماكيافيلي قنصل ايطاليا وجُرح الموسيو روزادوسكي فيس قنصل ايطاليا جرحًا بالغًا وضُرب ايضًا كلٌّ من الموسيو زفيلاريش قنصل الروسية والموسيو سكوتيديس فيس قنصل اليونان وكذلك الموسيو كيلوا الترجمان الاول للقنصلية الفرنسوية فانهُ ضُرب ضربًا مبرحًا اثناء مروره بشارع السبع بنات حتى اضطرَّ ان يلجأ الى مخفرة اللبان السابقة الذكر

ومن الغرائب ايضًا ان محافظ المدينة عمر باشا لطفي دعا الجنود الى اخماد الفتنة وردّ الثائرين فاجابه امير الالاي سليمان داود انهُ لا يسمح للجنود بذلك الاَّ اذا وصلهُ كتاب من عرابي يأمره بما اشار اليهِ ولذلك لم يتيسر إخراج العساكر الى ساحات المدينة الاَّ بعد الساعة الخامسة مساءً (على الاصطلاح الافرنجي) فسار المحافظ امامهم ساعيًا على قدميهِ ومعهم بعض قطع من الموسيقى تعزف بالحان الامان اخمادًا لنار

الهياج وتسكيناً للخواطر فطاف انحاء المدينة مجتهداً باعادة الراحة حتى أُطفئ لهيب الفتنة وعاد الامن وردّ الثائرون سكارى بدماء الابرياء شهداء البغي والغدر فخلت الشوارع الأ من جثث القتلى والجرحى ومن فضلات ما تساقط من اموال المخازن المنهوبة ومن اصناف مختلفة تكسرت فرمى بها الناهبون الى الارض تدوسها الاقدام منتشرةً في الطرقات

وقد عثرنا في الكتاب الازرق على بعض محررات سياسية تتعلق بهذه الحادثة فلخصنا المهم منها على نحو ما ترى

ملخص كتاب مرسل من المستر كوكسون
قنصل انكلترة بالاسكندرية الى
السير ادوارد مالت قنصلها الجنرال
ووكيلها السياسي بمصر
بتاريخ ١١ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٢

بعد ان وصلني تلغرافكم المتعلق بامتناع القناصل الجنرالية من الموافقة على امر الدفاع الذي قرره قناصل الاسكندرية دعتني ضبطية المدينة الى مخفرة اللبان حيث وقعت مشاجرة بين الاهالي وبعض المالطيين فذهبت اليها مع المحافظ ووكيل الضبطية ولكني اضطررت ان اعود الى دار القنصلية في الحال اثر رجمة حجر عنيفة أُصبت بها اثناء الطريق وكانت الساعة ٢ ½ اذ ذاك

ولم أصلْ الى القنصلية حتى جاءني رسول آخر يدعوني الى الذهاب مع سائر القناصل الى مخفرة اللبان لاجل عقد جمعية هناك فركبت عربةً واستصحبت معي المسمى ابرهيم اغا قواس القنصلية بالبستهِ الرسمية فمررت بالمنشية وقصدت شارع السبع بنات فرأيت في الطريق جماعاتٍ من الاهالي ثائرين هائجين يطوفون الشوارع وبايديهم النبابيت والمراوي وقبل ان ابلغ المخفرة المذكورة رُميت بالحجارة ثم ضُربت بالنبابيت من وراء ظهري ولم يكن معي سلاح لادافع عن نفسي وادفع بهِ الخطر . ثم هجم عليَّ احد اولئك الرعاع وكان طويل القامة ضخم الجثة وضربني بهراوةٍ غليظة فطرحني على الارض مغشياً عليَّ ولما افقتُ من الاغماء وجدت نفسي في الشارع ملقىً على الارض ومن حولي اشخاص عديدون اكثرهم يضربونني وبعضهم يدافعون عني ثم نُقلت الى مقر الخفراء والرعاع يتبعونني قصد إعدامي ولم ينهض احدٌ من الخفراء للدفاع عني مع انهم رأوني مخضباً بدمي ممزقاً مهشماً . وقد ضُرِب ايضاً القواس ابرهيم اغا وأُلقي من العربة الى الارض فكسرت رجلهُ — ولست ادري كيف اني لم امت ولم أُقتل في هذه الحادثة وعند الساعة الخامسة بعد الزوال نُقلتُ الى دار القنصلية وسلمتُ ادارتها الى الموسيو كالفير .

ملخص كتاب بعث بهِ المستر كالفير
وكيل قنصلية انكلترة بالاسكندرية
الى السير ادوارد ماليت
قنصلها الجنرال ووكيلها
السياسي بمصر

آذَنَ الاميرال بوشان سيمور للقبطان مولينو من قبودانات الدارعة — انفنسبل — الذي كان

موجودًا في دار القنصلية ان يبقى فيها ويتولّى ادارة امورها لعدم اقتدار المستر كوكسون على ادارتها وقد اصدر الاميرال امره الى البارجة — سوبرب — ان تخرج من المينا وترسو خارج المينا الشرقية القديمة وهو على عزم ان يرسل الى الشاطئ بعض الزوارق لنقل النساء والاولاد الى البارجة وقد وافق المحافظ وبعض القناصل على ذلك الا ان المحافظ عادَ الى القنصلية بعد برهةٍ وجيزة وابى الموافقة على الرأي السابق بقولهِ ان اعتماد هذه الطريقة يبعث الجهادية على الهياج فرجعت الزوارق على اثر ذلك الى حيث كانت وتقرر ان ترسو البارجة — سوبرب — على مسافةٍ بعيدة من المينا

وقد غصت دار القنصلية بالانكليز نساء واولادًا وشيوخًا لاجئين اليها ولجأ نحو ١٥ ضابطًا من ضباط البحرية الانكليزية الى قنصلية الدانيمرك الجنرالية اذ لم يعد في امكانهم ان يبلغوا البحر ليتزلوا الى سفنهم . وقتل في الحادثة المهندس بيبورث ضربًا بالسكاكين وجرح كثيرون غيره من الانكليز

وقد نهب الرعاع البيوت والمخازن واستأنفوا الهجوم والتعدي في شارع الطرطوشه بعد ان ارسلت البكم تلغرافي الاخير غير انَّ الجهادية الخيالة اهمدوا الفتنة وعادت السكينة الى المدينة

(ثم قال صاحبُ هذه المراسلة)

ان المبعوثين من مصر للنظر في امر هذه الحادثة وفدوا الان على دار القنصلية بصحبهم المحافظ فقال المحافظ انهُ يمكن للنساء والاولاد ان ينزلوا الى البحر بنفسٍ مطمئنة وانهُ لا خوفَ عليهم من التعدي فاجابهُ القبودان مولينو انهُ غير واثقٍ بذلك وانهُ فيما يرى يقتضي ان تصحب النساء والاولاد حامية من الجند تدفع عنهم هجمات الرعاع فتقرر لذلك اعداد الحامية وجعلها مُهيَّأةً للساعة السادسة من صباح الغد وتقرر ايضًا ان يُرافقَ بعضُ الجهادية مَن شاء النزول الى البحر لوقايتهِ من كلِ اعتداء .اه

(تابع كتاب المستر كوكسون للسير ماليت)

وقد انقضى ليل الثالث عشر من يونيو (حزيران) بهدو وسكينة . وفي صباح الثالث عشر زارني احد كبار موظفي ضبطية الاسكندرية بصفةٍ سرّية واخبرني انهُ بالرغم عن التاكيدات التي ابداها امس محافظ المدينة ورؤساء الجهادية لم تصرف الجنودُ الليل في مراكزها للمحافظة على الراحة وانهُ وقع بين المحافظ وامراء الالايات نفرةٌ نشأت عن تونيب المحافظ لهم على اهمالهم فأخذت الحدة منهم مأخذًا عظيمًا واجابوه انهم غير راضين عنهُ وانهُ بتصرفاته يخالف دينهُ ولا يعمل بما يأمر بهِ

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر نقلت الى البحر جثة جمس بيبورث احد مهندسي البارجة — سوبرب — وجثة كلٍ من جورج سبراكت واستين خادمي اميرال البارجة هليكون اللذين قتلوا في واقعة يوم الاحد (١١ الشهر) وكان يخفر هذه الجثث نفرٌ من الجهادية عينتهم الحكومة لذلك .اه

فصلٌ

وعند غروب الشمس من اليوم الحادي عشر المذكور هدأت الفتنة وسكن الاضطراب قليلاً ودخلَ كلٌ منزلهُ وتحرز فيهِ . وانقضى الليل ولم يحدث فيهِ شيءٌ يُذكر غير ان الخوف كان ملءَ القلوب وقد تمكن منها حتى انهُ لم

يستطع احد من سكان الاسكندرية إغماضَ جفنيهِ في ذلك الليل — وفيهِ انجهت الرسائل البرقية شرقًا وغربًا منبئةً بما حصل بعد ظهر ذلك اليوم

وخلَتِ الشوارعُ من المارة الا ان شرفات (بالكونات) المنازل ونوافذ البيوت لم تخلُ دقيقةً من مشرفٍ مستكشف يحدق بصرهُ في الطريق كأنهُ يترقب وقوعَ امرٍ او حادثٍ مفاجيء

وكان كل امرء مهتمًا بشانه فهذا يندب فقيدهُ وذاك ينتظر غائبًا لم يستطع الرجوع الى منزلهِ وبعضٌ يجتهدون باتخاذ اسباب الاحتياط والوقاية وآخرون يتأهبون للدفاع وقومٌ يُعدُّون ما يحتاجون اليهِ للمهاجرة والجلاء في صباح اليوم المقبل واستمرّت الحال كذلك الى ان اصبح الصباح فعلم الناس فيهِ ان قد وَفَدَ من مصر وفدٌ مخصوص للنظر والبحث في احوال اليوم الماضي وتحقيق ما حدث فيهِ من الوقائع الشؤمى فُعقدت في دار المحافظة جمعية حضر فيها كبار ضباط الجهادية وكثيرٌ من القناصل الجنرالية وقناصل الاسكندرية واعضاء اللجنة الوافدة من مصر وتذاكروا فيما كان وفيما يجب اتخاذهُ من التدابير المؤدية الى منع حدوث وقائع من مثل الوقائع التي حدثت في اليوم السابق

وكان في جملة حضور هذه الجمعية القبودان مولينو والموسيو شكري خوري ترجمان قنصلية انكلتره بالاسكندرية . وقد رأينا في كتاب انكلتره الازرق السياسي صورة تقرير خطهُ بنان الموسيو خوري المومأ اليهِ في بيان ما جرى في هذه الجمعية فعرَّبناه كما يأتي

«من الموسيو خوري الى الموسيو كوكسون»
الاسكندرية في ١٢ يونيو (حزيران) سنة ٨٢

في الساعة السابعة من صباح هذا اليوم عقدت الجمعية فافتتحها محافظُ المدينة بملخص ما جرى في ليل امس بينهُ و بين القنصلية الانكليزية و بعض القناصل الذين كانوا من حضور الجمعية التي عقدت في الليل الماضي . ثم صرَّح بما اتخذه من التدابير والوسائل لاعادة الامن والراحة وبعد ذلك قال ان القبودان مولينو وان يكن قد وعده بالامس ان يأمر بعدم دنوّ زوارق البوارج الانكليزية من الشاطئ دفعًا لاسباب هياج الجهادية الآ ان بعض تلك الزوارق اقتربت من البر في الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم خلافًا للوعد فاجاب القبودان مولينو انهُ ارسل الى الاميرال سيمور على اثر رجاء المحافظ وطلبهِ كتابةً يرجوه فيها ان يصدر امرهُ بابتعاد الزوارق عن الشاطئ الا ان المواصلات لم تكن متيسرةً في الليل ولذلك تأخر تنفيذ الاوامر اللازمة . ثم قال ان القصد من ارسال الزوارق كان مبنيًا على غاية نقل النساء والاولاد الذين استولى عليهم الرعب في اليوم الماضي

ثم تقرر بناء على طلب الجهادية ان لا ينزل المهاجرون الى البحر الا من جهة الترسانة

وبعد ذلك الحَّ المحافظ بضرورة السعي في اتخاذ التدابير الفعَّالة لمنع حدوث امرٍ سيء مرةً ثانية ثم طلب ان يحتم القناصل على رعاياهم بألاَّ يطلقوا نارًا او رصاصًا على احد من الاهالي (كذا) وسأل القناصل ان يواعدوهُ على ذلك وطلب من الضباط ان يتعهدوا بوقاية الامن

والراحة العمومية وان يكونوا مسئولين عمّا يخل بها فتعهد القناصل انهم يُفرغون جهدهم في حمل رعاياهم على ان لا يطلقوا رصاصًا على الاهالي او الجند وتعهد الضباط بالمحافظة على الامن والراحة وان يكونوا مسئولين عن ارواح الاجانب وعند ذلك نهض يعقوب باشا وكيل الجهادية وخاطب الضباط بهذه الكلمات:

(يجب عليكم ان تحافظوا على القناصل ورعاياهم ما دام في عروقكم نقطة دم) اه

فاجابهُ امراء الالايات بما صدّقوا بهِ على على هذا القول واعتبروهُ امرًا واجبًا

ثم دارت المباحثة على كيفية القاء القبض على كل اوربي يُطلق النار على احد الاهالي او الجهادية وتقرر ان يُعين كلُّ قنصلٍ معتمدًا يعين لهُ المحافظ نقطةً من نقط الضبطية يُقيم فيها بحيث اذا اطلق احد الاجانب عيارًا ناريًا تعين على المعتمد ان يرافق الشرطي الى منزل ذلك الاجنبي ليقبض عليهِ ثم اتفق الجميع على ان يكون قواسة القنصليات او معتمدوها منوضين بذلك وان يكون لهم الحق بالقبض على ايّ اوربي اتهم باطلاق النار . وقد رضي بذلك القناصل الجنرالية وغير الجنرالية غير ان القبودان مولينو قال انهُ لا يقدر ان يتعهد بهذا الامر بالنيابة عن القنصل الانكليزي ولكنهُ مع ذلك يرى ان قنصل انكلتره يوافق على هذا الرأي . وحينئذٍ سأل المحافظ ضباط الجهادية عمّا اذا كانوا يستطيعون صيانةَ المدينة وتأييد الامن والطأنينة فيها فاجابوا ان ذلك في استطاعتهم

ثم تقرر ان يزاد عدد العسس (وهم خفراء الليل) وان يُعين مع الشرط بعض الجنود ليتعاونوا جميعًا على تقرير الراحة وطلب الى رؤساء الجند ان يعينوا العدد الذي يمكن لهم ان يخصصوهُ لهذه الغاية وان يعينوا النقط التي تشترك الجنود بها مع رجال الشرطة في تايبد الراحة العمومية ووقايتها

وصرّح القناصل للضباط انهُ في امكان رؤساء الجهادية ان يمنعوا الاهالي من الاجتماع والاحتشاد فرقًا واقوامًا في شوارع الاجانب فتعهد الضباط بذلك . واجابةً لطلب القبودان مولينو تقرّر ان يُعين نفرٌ من الجند لخفر البوسطة الانكليزية في ارسالها ونقلها ونفرٌ آخرون للمسافرين القادمين من الهند على قطار السويس في اليوم التالي ليخفروهم حال نزولهم وركوبهم

ثم طلب القناصل ان يُرخص لمعتمديهم في الذهاب الى مستشفى الجهادية لتفقد الجرحى والقتلى من رعاياهم الذين نقلوا اليهِ فاُجيب طلبهم وانفضّت الجلسة . اه

فصلٌ

وفي يوم الاثنين ١٢ يونيو (حزيران) كثر عدد النازحين الهاربين حتى خُيّل للناس انهُ لم يبق في المدينة احدٌ من الاجانب وحتى بلغت اجرة العربة عشرين فرنكًا واجرة عربة النقل (كارّو) ٢٠ واجرة الزورق الواحد ٤٠ او ٥٠ فرنكًا

وكان اكثر الناس في ضيقٍ شديدٍ ما عليهِ من مزيد بل كان التاجر لا يجد مائة الغرش الا بشق النفس ومن الناس من الجأتهم الضرورة الى رهن ما عندهم او بيعه بابخس الاثمان او

الاستدانة بفائدةٍ فادحة ومنهم مَن رهن امتعة بيته وما لديهِ من الحلى والجواهر الى غير ذلك مما يصعب تصديقه ولاسيما عن سكانِ مدينةٍ كالاسكندرية عرفوا بسعة الثروة واليسار

وما بقي في المينا سفينة الا مُلئت بالمهاجرين حتى ان السفن الشراعية استؤجرت بقياتٍ فاحشة فكان الناس ينزلون اليها راغبين في السفر عليها بالرغم عما يعلمون بما في ذلك من الاخطار وتكبد المشاق وذلك تفاديًا مما هو اعظم اي البقاء في مدينةٍ بلغ الاضطرابُ من اهلها مبلغًا لا يسع العقل تصوره وتصديقه

وكان الناس بين خوفين او بين شرّين احلاها امرّ من الصبر: الاول ان تطلق الدوارع الانكليزية والفرنسوية من البحر مدافعها على المدينة وحصونها والثاني ان تحصلَ فتنةٌ ما في البلد بين المسلمين والنصارى . وفيما نظن ان هذين السببين كانا كافيين في حمل الناس على المهاجرة والرحيل اتقاء المعاطب

ومن اجل ذلك زاد عدد الراحلين حتى بلغ في ذلك اليوم وحده اكثر من عشرة الاف مهاجر نزلوا الى البحر متفرقين في السفن البخارية والشراعية . وكان من ادارة الجمارك انها لم تعارض احدًا فيما ينزلهُ الى البحر من امتعةٍ وغيرها ولم يتعرض مأموروها البتة لفتح الصناديق والطرود ومثلها ادارة قلم التذاكر (الباسابورتات) فانها تركت الناس وشأنهم يفرون من البلاء ولم تسأل احدًا عن تذكرة مرورهِ او ورقة اقامتهِ او غير ذلك مما يتعلق بها فسهل على الناس الرحيل فتقاطروا من كلِ صوب وزاد عددهم بمن أمَّ الثغر من جالية مصر والارياف وسائر مدن الداخلية قصد المهاجرة والانتقال الى حيث يكونون في مأمنٍ من الاهوال اذا عمت الفتنة البلاد وانتشرت في جميع انحائها

وشاع خبر حدوث مجازر في جهاتٍ عديدة من الارياف كمجزرة الاسكندرية فكان في هذه الاشاعة ضغثٌ على إبالة اذ قال الناس ان المسلمين ثاروا على النصارى في طنطا وكفر الزيات ودمنهور والمنصورة وغيرها من مدن الداخلية فقتلوهم ونهبوا بيوتهم الى غير ذلك من الاشاعات المخيفة المقلقة حتى توهم الناس ان قد نُفخ في الصور وان القيامة قامت على قدم وساق

واستمرت الحال على هذا المنوال بضعة ايام حتى كاد القطر المصري باجمعهِ يخلو من كل اجنبي ونزيل وقد عدل بعضهم عددَ المهاجرين في تلك المدة فقالوا انهُ بلغ زهاء مائة وخمسين الفًا ولا نظن هذا العدد بعيدًا من جانب الصحة

وبعد يوم الاحد المعهود قفلت جميع المخازن ودكاكين الباعة كباعة الخبز وسائر المأكولات وقفلت ايضًا الافران والمعامل وبقي اكثرها مغلقًا اياما عديدة حتى كاد يُقضى على الناس من شدة الضيق

وبطلت المعاملات ووقفت حركة الاخذ والعطاء ولم يبقَ في البلد شغلٌ الا للخامرة وارباب العربات وعجلات النقل واصحاب الصنادل والزوارق وادارات الوابورات ومصلحة السكك الحديدية وما ماثل ذلك

وكان محافظ البلد عمر باشا لطفي يجتهد كل الاجتهاد باعادة الامن ويدعو الناس الى فتح مخازنهم ومباشرة اعمالهم واشغالهم ولكن اتعابة

ذهبت سدى . وظلت المدينة على هذه الحال الحزنة اياماً طوالاً لا يعلم الا الله بمقدار الخسائر والاضرار التي لحقت بها وباهلها

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر الثلثاء ثالث عشر يونيو (حزيران) وصل الخديو الى الاسكندرية وكان قيامه من مصر في الساعة العاشرة قبل الظهر وقد صحبهُ درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفت الجنود لاستقبالها من رصيف محطة الثغر الى سراي رأس التين واطلقت المدافع تحيةً لها واجلالاً جرياً على العادة المألوفة . ولما كان كثيرون من الاهالي يجهلون خبر وصول الجناب الخديوي اضطربوا لسماعهم اصوات المدافع وتوجسوا خيفةً من اطلاقها

وفي حال وصول الخديو الى الاسكندرية زاره قناصل الدول ما عدا قنصلي فرنسا وانكلتره الجنرالين فانهما بقيا في مصر خلافاً لسائر القناصل فابدى لهم اسفه الشديد على ما حدث في الاسكندرية وواعدهم ان يصرف عنايته الى اخماد الفتنة ودرء المفسدة وخاطبهم ايضاً درويش باشا بمثل هذا الكلام وزاد عليهِ قوله انهُ يثق وثوقاً تاماً بحسن نيات الجهادية ورجالها ونبالة مقاصدهم وانهُ على يقين من انهم يحافظون على الراحة العمومية ما استطاعوا الى المحافظة والوقاية سبيلاً

غير ان الخديو اسرَّ الى السير اوكلان كولفين المراقب العمومي الانكليزي انهُ غير واثقٍ باستمرار الامن والراحة وانهُ يعتبر مهمة درويش باشا كأنها قد انتهت ولم تفلح وانهُ لا يرى بدّاً من وجوب مجيء جنودٍ عثمانية لاعادة الراحة والطأنينة

وكان الناس في خوفٍ شديد يضطربون لاقل حادثٍ ويخشون وقوع المكروه ويصدقون اي الاشاعات كاذبةً كانت او حقيقية ولا يرون لهم باباً للخلاص الا بالهرب والفرار

وشاع في ذلك اليوم ان في الاسطولين الفرنسوي والانكليزي جنوداً كثيرة العدد وان هذه الجنود ستخرج الى البر وتستولي على القلاع والمعاقل وقال اخرون انها ستخرج للمحاربة وان الدوارع ستطلق مدافعها على المدينة الى غير ذلك من الاقاويل المخيفة الباعثة على قلق النفوس وانقباض الصدور

ومما زاد الناس خوفاً واضطراباً اشاعة جرت على الالسنة فقيل فيها ان بضعة الاف من العربان مقيمون في ارباض الاسكندرية يتوقعون الفرصة لينقضوا على المدينة وينهبوا مساكنها

وكان في ثكنات الاسكندرية نحو ثمانية الاف من الجند بالاسلحة الكاملة ولديهم من المهمات والمعدات والميرة والذخائر ما يكفي خمسين الفاً

وكان وجود هذه الجنود باعثاً على الرعب والخوف لما انهُ كان في معتقد الجميع ان الاهالي المسلمين اذا حركوا ساكناً ونزعوا الى الفتنة قوي الاجانب عليهم من غير شكٍ الاَّ اذا بدا من العساكر مساعدة للاهالي على الاوربيين وكان هذا الامر موضع الخوف ومحل الرعدة خصوصاً وان الناس كانوا على اعتقاد ان الاهالي لا يحركون البتة ساكناً من تلقاء انفسهم

فصلٌ

وبلغت مصر اخبار حادثة ١١ يونيو (حزيران) فاضطرب لها اهل العاصمة ايما

اضطراب ونزلت على اسماعهم نزول الصواعق

وفي صباح الاثنين ١٢ يونيو خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بنفسٍ منكمشة وكلامٍ عنيف حادّ وسألوه ان يتخذ التدابير الفعّالة لصيانة الاوربيين واموالهم في جميع انحاء القطر المصرى فعقد في عابدين مجلس حضرهُ الخديوِ ودرويش باشا ومن معهُ وشريف باشا ووكلاء اوستريا والمانيا وايطاليا وفرنسا وانكلترة والروسية السياسيون للمذاكرة في هذا الامر الخطير وانحط الرأي على ان يُعطي لوكلاء الدول الاوربية ضماناتٌ اكيدة تكفل اعادة الامن والمحافظة على ارواح الاوربيين واموالهم وكان اخص هذه الضمانات ان يمتثل عرابي باشا لاي الاوامر التي تصدر اليهِ من الخديوِ فدُعي عرابي باشا الى المجلس وسئل عما تقدم فاجاب بالقبول وزاد عليهِ انهُ تعهد لهم بمنع تجمع الناس وانعقاد الجمعيات ايّةً كانت ومنع الخطباء من القاء الخطب العمومية والجرائد من نشر المقالات المهيجة واوضح لهم انهُ سيتمكن بمساعدة جنوده من تأييد الامن والراحة العمومية

وتعهد الخديو كذلك باصدار الاوامر اللازمة في الحال لتهدئة الافكار وتسكين الخواطر واخيرًا قال درويش باشا انهُ يأخذ على نفسهِ تبعة تنفيذ الاوامر الخديوية يعني انهُ يشترك مع عرابي باشا في العمل ويكون مسئولاً معهُ في تنفيذ تلك الاوامر فرضي بذلك وكلاء الدول وانصرفوا

وفي ذلك اليوم نشر عرابي باشا اعلانًا قال فيهِ ما مفادهُ:

اني اكلف حضرة الجمهور عمومًا ان يلتفت كلٌّ الى اشغالهِ واعمالهِ بكل طمأنينةٍ وسكون بدون ان يلتفت الى الاشاعات الكاذبة التي يختلقها اولو الغايات ويذيعها ارباب الفتن والمآرب الخفية واهل الدسائس والمفاسد . اه.

وبناء على ما تقرر في المجلس الذي عُقد صباحًا في سراي عابدين اصدر الخديوِ الى عرابي باشا الامر الآتي نصه وهو:

بناء على ان الحادثة التي وقعت امس تاريخه في ثغر اسكندرية ما بين الاجانب والاهالي اوجبت في قلوب الاجانب خوفًا واضطرابًا قد حضرت لطرفنا قناصل جنرالية الدول المحابة في هذا اليوم بحضور دولتلو المشير درويش باشا وطلبوا منا تأمين ارواح واموال رعاياهم القاطنين بالديار المصرية ومسئوليتنا في ذلك بصفة اننا الخديو ومسئولية المشير اليهِ ايضًا بمناسبة وجوده بهذا الطرف مندوبًا من قبل الحضرة السلطانية الفخيمة فقبلنا منهم ذلك وامناهم على ارواح واموال رعاياهم ثم استحضرناكم بهذا المجلس وامرناكم شفاهًا بنشر التنبيهات والتاكيدات على كافة العساكر المصرية وضباطهم وامرائهم الموجودين بمصر واسكندرية والاقاليم والبنادر بزيادة الدقة والتحفظ كما يجب حتى لا يحصل شيءٌ مغاير للامنية بالكلية وحيث الامر كما ذكر فنأمركم بهذا رسميًا ونؤكد عليكم باعطاء التنبيهات المشددة من طرفكم الى العساكر المحكي عنها وامرائها عمومًا بدوام التيقظ والانتباه والرعاية لحفظ الامن والراحة العمومية واخذ الاحتياطات الكافية بكل طرف حتى انهُ اذا نظر باي جهة حصول ما ينشأ عنه وقوع الاضطراب حالاً تبادر الهيئة العسكرية الموجودة

في تلك الجهة باجراء التحفظات الكافية وتسكين الاحوال والاحتياط الكلي مما عساه ان يخل بشوؤن الراحة وتفهيمهم بانكم كما انتم مسئولون لدينا في هذا الامر فكل ضابط مسئول عنه بانفراده ولزم اصداره بذلك للاجراء كما ذكر . اه

ولما وصل هذا الامر الى عرابي اصدر امرًا الى جميع قادة الجند وضباط الجهادية وهذا نصهُ :

يوم تاريخه صدر لنا امر من الحضرة الخديوية الفخيمة يشير بان حضرات قناصل الدول المتحابة حضروا عند جنابه السامي والتمسوا كفالة الامن والراحة لجميع رعاياهم القاطنين بديارنا المصرية وكان ذلك بحضور دولتلو درويش باشا المندوب من طرف الحضرة الشاهانية الجليلة وحضورنا فجنابه الكريم امنهم على الارواح والاموال اتكالاً على ما يعلمهُ من ان رجال العسكرية المصرية قائمون باداء وظائفهم القانونية التي من ضمنها حفظ الراحة العمومية والتيقظ لجميع الحوادث التي تطرأ ويقتضي التحذير منها وقد صدر نطقهُ السامي لنا بحضور حضرات القناصل الموما اليهم ودولتلو المشير المشار اليهِ بنشر التنبيهات الاكيدة على كافة العساكر المصرية وضباطهم وامرائهم الموجودين بمصر واسكندرية والاقاليم والبنادر بزيادة الدقة والتحفظ كما يجب حتى لا يحصل شيءٌ مخل بالامنية العمومية وقد صرَّح في هذا الامر الرسمي المشار اليهِ بانهُ كما اننا مسئولون امام جنابه العالي عن اخذ الاحتياطات الكافية بكل طرف حتى اذا حدث باي جهة ادنى شيءٍ يوقع اضطرابًا لا قدر الله تعالى تبادر الهيئة العسكرية الموجودة في تلك الجهة باجراء التحفظات الكافية وتسكين الاضطراب واخذ الاحتياطات الكلية لمنع ما عساه ان يخل بشؤون الراحة فكذلك كل امير من امراء العسكرية وضابطٍ مسئول بانفراده امامنا عما تضمنهُ الامر الكريم وما توجبه عليهِ القوانين من كفالة الراحة العمومية في جهته المقيم بها وبناء على هذا نخطر حضرتكم بما تضمنهُ امر الجناب الخديوي لتقوموا بهِ حق القيام كما هو حاصل من سائر الهيئة العسكرية المصرية وعلمنا بسهركم ومن معكم من الضباط والعساكر على اداء وظائفكم يحقق لنا الامل في هممكم التي علمت فيكم ونشاطكم الذي عرفتم بهِ بحيث لا يقع امر من الامور صغيرًا كان او كبيرًا في اي نقطةٍ من النقط التي انتم بها الا كنتم حصنًا بينه وبين سكان ديارنا على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتابعيتهم كما يجب على حضرتكم بذل الهمة ودوام السعي في تسكين كل اضطراب ومنع ما يوجب قلقًا او تشويشًا في الافكار وفي كل هذا تتخذون حسن المعاملة مع جميع الاهالي والاجانب شعارًا لوظائفكم مع التمسك بالاداب المدنية والحقوق الوطنية في سائر الحركات والسكنات كما هو الواجب على كل وطني محب لوطنه ساعٍ في حفظهِ ونجاح اهلهِ ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لحفظ هذا النظام العائدة ثمرته على الوطن العزيز . اه .

وبمثل ما صدر الامر بهِ الى عرابي كتب ايضًا من قبل الخديو بالتلغراف الى محافظي الثغور والبنادر وضابط اسكندرية ومديري الاقاليم في الوجهين البحري والقبلي وهذا نص ما كتب اليهم بهِ :

بناء على ان الحادثة التي وقعت امس تاريخهِ

في ثغر اسكندرية ما بين الاجانب والاهالي اوجبت في قلوب الاجانب خوفًا واضطرابًا قد حضرت لطرفنا قناصل جنرالية الدول المتحابة بحضور دولتلو المشير درويش باشا وطلبوا منا تأمين ارواح واموال رعاياهم القاطنين بالديار المصرية ومسئوليتنا في ذلك بصفة اننا الخديو ومسئولية المشير المشار اليه بمناسبة وجوده بهذا الطرف مندوبًا من قبل الحضرة السلطانية الفخيمة فقبلنا منهم ذلك وامناهم على ارواح واموال رعاياهم فعلى هذا نأمركم رسميًا بزيادة الانتباه والدقة لحفظ الامنية والراحة العمومية بالجهة التي تحت ادارتكم وتخذوا الاحتياطات الكافية بكل طرف من اطرافها مع الاجتهاد والاقدام في تحسين وتسكين احوالها والاحتياط الكلي مما عساه ان يخل بشؤون الراحة وتفهموا افراد المأمورين الذين تحت ادارتكم بانكم كما انتم مسئولون لدينا في هذا الامر فكل منهم مسئول عنه بانفراده فيكون الجميع على حذر . اه

وكان قد صدر امرٌ بارسال لجنة الى الاسكندرية للنظر في امر تلك الحادثة على ما تقدمت اشارتنا اليه وذلك اثر وصول خبرها الى مصر فتشكلت هذه اللجنة برئاسة عمر باشا لطفي محافظ الاسكندرية اذ ذاك مؤلفةً من ياور الجناب الخديوي وبطرس باشا وياور درويش باشا ومندوبي القناصل ووكيل نظارة الجهادية يعقوب باشا سامي

فجاءت الاسكندرية وشرعت في اعمالها فالتأمت وقررت في الحال ما تخيلة اعضاؤها فعّالاً من التدابير التي تعود بها الطأنينة وتعم السكينة ولكن القلق كان قد استولى على قلوب الجميع وصار سكان المدينة في اضطرابٍ مستمر كأن سيف ذيمقليس معلقٌ فوق رؤوسهم وكثرت الاشاعات على ما ذكرناهُ آنفًا حتى بات الناس لا يعلمون اي الاخبار صحيح وايها مكذوب فيه وفي جملة ما تناقلة الرواة يومئذٍ ان الاوربيين يتأهبون للهجوم على المسلمين انتقامًا منهم واخذًا بثأر من قُتل منهم وانهم يعدّون العدد والسلاح ويتأهبون جماهير ليشنوا الغارة على المسلمين الى غير ذلك من الاشاعات فاجتمع رؤساء الجند ثانيةً وقرروا ان يخبروا قناصل الدول بهذا النبأ المهم فكتبوا اليهم بما محصلهُ :

(اذا لم يعنَ القناصل جميعًا بتسكين الهياج وابعاد اسباب الاضطراب والتنبيه على رعاياهم بعدم اجراء ما يوجب حصول المكاره فلا يكون الجهادية قادرين على تأييد الراحة العمومية والمحافظة على النظام والأمن في البلاد . اه .

ولما وصل هذا القرار الى قناصل الدول فهموا ما وراءهُ ولم يخفَ عليهم المقصود منهُ فاجتمعوا في الحال وتشاوروا في الامر ثم اتفقوا على نشر الاعلان الاتي تعريبهُ :

اعلان

الى جميع الاوربيين بالاسكندرية

يا ابناء جلدتنا الاعزاء

وقع امس بالاسكندرية وقائع مهمة ولكن الجهادية المصرية اعادت الراحة وتعهد رؤساؤها بالمحافظة عليها ونحن بهم واثقون فضلاً عن كوننا متوافقين مع المأمورين الملكيين والجهاديين على ما يجب اجراؤهُ من التدابير اللازمة المؤدية

الى وقاية الراحة العمومية وصيانتها

فنتقدم اليكم ان تساعدونا بحكمتكم على القيام بهذا الفرض العمومي

فلا تتقلدوا اسلحةً نارية

والزموا منازلكم ما استطعتم

واجتنبوا اسباب المشاجرات والمنازعات

وحرصًا على المصلحة العمومية قد حصل التوافق بين جميع القناصل الموقعين على ذيل هذا الاعلان على ان يكون لقوّاسة (بسقجية) القنصليات جميعًا من اية تابعية كانوا الاختصاصات المعروفة للبوليس وسائر رجال الشرطة فنكلفكم ان تمتثلوا لهم

وكتب بالاسكندرية في ١٢ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٢

التواقيع

هونهولت	لالمانيا
سوتزارا	لاوستريا والمجر
باركر	لبلجيكا
ناقوس	للبرازيل
دومربكر	للدانيمرك
اونشيلا	لاسبانيا
منثى	للولايات المتحدة الاميركية
كليكسوسكي	لفرنسا
كوكسون	لانكلترة
رنغابي	لليونان
مكيافيلي	لايطاليا
انسلين	لهولاندة
زغيب	للبورتغال
زفيلاريش	للروسية
بنكر	لاسوج ونروج

فصل

وفي اليوم المذكور (١٢ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٢) شكل القناصل لجنة مؤلفة من عدة اطباء مختلفي الجنسية والتابعية وعهدوا اليها ان تحصي عدد القتلى والجرحى في الحادثة المذكورة احصاء رسميًا وان تبذل الجهد في معالجة الجرحى على امل انقاذهم من الموت فطاف اعضاء هذه اللجنة مستشفيات البلدة وتفقدوا من وجدوه فيها من القتلى والجرحى وقرروا ما يأتي

قرار اللجنة الطبية

نحن الموقعون في ذيل هذا القرار نصرّح اننا اجابةً لاوامر قناصلنا دخلنا اليوم (١٢ يونيو) قبل الظهر الى مستشفى الحكومة المصرية العمومي لتفقد جثث القتلى التي نُقلت اليه اثر الحادثة التي وقعت في الاسكندرية بعد ظهر امس والنظر في حالة الجراح التي اصيبت بها تلك الجثث وكيفيتها فوجدنا فيه ٤٢ جثةً اكثرها عريةً من الثياب مبتلة بماء البحر المالح وقد علق عليها قليل من رمل البحر وورق الوارش (نبات بحري معروف)

ومن هذه الجثث ثمانٍ وثلاثون لا اثر فيها للختان وهو ما يدلّ على انها اجساد نصارى وفي اكثر هذه الاجساد وهيئة تركيبها واعضائها دلائل قاطعة تشير الى انها من اصلٍ اوربي . اما الجثث الاربع الباقية فقد رأينا فيها اثر الختان وتحققنا ان ثلاثًا منها جثث اعراب (يريد مسلمين) وان الجثة الرابعة هي جثة ابن الموسيو قطاوي وهو اسرائيليٌّ من تابعية دولة اوستريا والمجر اصيب بعدة جراحٍ بالغة ورضات شديدة في الرأس ومن الجثث

الثلاث السابقة الذكر واحدة منها مصابة بجراح بالغة مسببة عن سلاح ناري والاثنتان الأُخريان مصابتان بجراح قاطعة أُعملت فيها اسلحة حادّة اما الجثث غير المخنونة وعددها ٢٨ كما تقدم فلم يُعرف منها الى الآن الاّ جثةٌ واحدة وهي جثة جورج جميّل احد موظفي قلم الترجمة في قنصلية فرنسا بالاسكندرية وفيها رضاتٌ شديدة وجراحٌ قاطعةٌ وشجاتٌ بالغةٌ في الرأس . واما الجثث الباقية وعددها ٢٧ فلا يمكن معرفة كثيرٍ منها بسبب ما اصابها من الضرب الممزّق والطعن المشوّه في الرأس والوجه . ومنهـا ثلثة اجساد مصابة بجراحٍ متسعة بالغة في الرأس والعنق تدل على انها مسببة عن فعل سلاحٍ حادٍّ قاطع وواحد منها مصاب بجرحٍ بالغٍ في البطن ما عدا جراح الرأس والعنق وثلاثة اخرى مصابة بجراحٍ متعددة بالغة ايضاً في البطن ما عدا آثار الرض في الرأس وقد جُسّ كلٌّ منهـا فوجدت دائرته بالغةً ٤ سانتي وهي كلها تدل على انها منعولة بسلاحٍ حاد يشبه السكين او حراب البنادق وما شاكلها ورأينا في ٢١ جثة (وهي الجثث الباقيات) عدة جراحٍ متسعة في الرأس واكثر هذه الجثث قد تكسر عظم الرأس فيها الى حدٍ ظهر بهِ النخاع ومنها ما شوه فيها الوجه تشويهاً فظيعاً فمن ذلك يستدل انها مضروبة ضرباً شديداً بالعصي الثقيلة او المراوي او ما يماثلها

وما عدا ذلك يتضح من تقرير الدكتور زنكرول طبيب المستشفى اليوناني انهُ نقل الى مستشفاه ثلاث جثثٍ عُرف منها اثنتان الاولى جثة المسمى لانزوتا من تابعية دولة ايطاليا وهو فتىً في الثامنة عشرة من سنيه مصابٌ بعدة جراح مسببة عن ضرب عصا او هراوة والثانية جثة المسمى البرشوتز من تابعية دولة المانيا وقد اصيب بجرحٍ بالغٍ منعولٍ بسلاحٍ ناري اما الثالثة فلم تُعرف ولكن من المؤكد انها ليست جثة رجلٍ وطني وهي مصابة بعدة جراح مسببة عن ضرب عصا او هراوةٍ ايضاً

ويتضح من تقرير الدكتورين ماصّه واردوين طبيبي المستشفى الاوربي والدكتور ديكاسترو مبعوث قنصلية ايطاليا ان قد نقل الى المستشفى الاوربي ثلاث جثثٍ عُرفت واحدةٌ منها انها جسد المسمى جميّلي من تابعية ايطاليا وهو شابٌ يبلغ من العمر نحو ثلثين سنة أُصيب بعدة جراحٍ في الرأس مسببة عن ضرب عصا او نبوت اما الجثتان الباقيتان فلم تُعرفا ولكن يغلب على الظن انهما جثتا رجلين مالطيين وهما مصابتان بجراحٍ بالغةٍ في الرأس

ويتضح ايضاً من تقرير الدكتور ماكي طبيب مستشفى « الدياكونس » انهُ نقل الى مستشفاه جثة واحدة عُرفت انها جثة ضابطٍ من ضباط البحرية الانكليزية وهي مصابة في الرأس برضاتٍ شديدة وجراحٍ بالغة مسببة عن ضرب عصا او هراوة وفي محال كثيرة منها بجراحٍ ورضات متعددة مع جرحٍ بالغٍ مسبب عن سلاحٍ حادٍ قاطع .

فمجموع القتلى والحالة هذه يبلغ في المستشفيات المذكورة تسعة واربعين وعدد الجرحى واحداً وسبعين منهم ستة وثلثون من الاوربيين وثلثة وثلثون من الوطنيين المحليين واثنان تركيان

وكتب بالاسكندرية في ١٢ يونيو

(حزيران) سنة ١٨٨٢

التوقيع

الدكتور كولب ماكي مندوب قنصلية انكلترا
" رودبو فسكي " " اوستريا والمجر
" اردوين " " فرنسا
" ماصة طبيب المستشفى الاوربي
" بورلزي مندوب قنصلية اسبانيا
" ديكاسترو " " ايطاليا
" زنكرول " " اليونان
" كيبس ماكوب " " اسبانيا
نجار " " فرنسا
الياس جرجس ملحمه " ضبطية الاسكندرية

فصلٌ

واشتد قلق الناس وعظم خوفهم في اليومين التاليين لليوم الحادي عشر من شهر يونيو (حزيران) الآنف الذكر وبلغ الاضطراب مبلغًا لم يتوقعهُ او يتصوره احد خصوصًا عندما امكن لبعض الناس وفي جملتهم صاحب هذا المؤلف ان يستطلعوا طلعَ الخباء من بعض قناصل الدول الكبيرة فعلموا منهم انَّ الخطرَ قريب قائمٌ عند الابواب وانهُ لا بدَّ من حدوث وقائع تخلع لها القلوب الثابتة وتباع فيها النفوس الغالية بابخس الاثمان فزاد الخوف وتعاظم القلق وكثر عددُ المهاجرين النازحين وكتب بعض القناصل كتاباتٍ رسمية يحضون بها رعاياهم على المهاجرة اذ لم يبقَ سبيلٌ لحجب الحقائق عن الافهام فصرَّح القناصل بالخوف وضعف جانب الطأنينة تصريحًا جليًا وان كان ظاهرهُ مموهًا تمويهًا ومن ذلك كتابٌ بعث بهِ الموسيو سنكوفيش قنصل فرنسا الجنرال بمصر الى الموسيو كارشر نائب الفرنسويين بالاسكندرية وهذا تعريبهُ

يا حضرة النائب

ارى من المفيد ان الخص لك بالكتابة ما كل المخابرات والمفاوضات التي جرت بيننا من عهدٍ قريب فقد بذلتُ حتى اليوم جهدي في تسكين الخواطر وراحة الضمائر من القلق والخوف ولكنَّ الاحوالَ تغيرَّت ولم تبقَ في مراكزها فلم يَعُدْ في امكاني بعد الان ان اكفل استمرار الراحة العمومية والطأنينة ولذلك فاني اكلف ابناء جلدتنا ان يتخذوا اي التدابير الواقية لهم الكافلة لصيانتهم واوصيهم بان يلزموا جانب السكينة والهدو وان يعتصموا بالحكمة والحزم وخير الوسائل في مثل هذه الظروف هو (من غير شك) الارتحال الموقت عن هذه البلاد

وكتب بمصر في ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٢

التوقيع : سنكوفتش

فصلٌ

ولما شاعت هذه الاخبار وعرف الناس انها صادرة عن وكلاء الدول السياسيين ايقنوا انهُ لا بدَّ من وقوع امرٍ هائلٍ وحدوث شيءٍ مهم فركنوا الى الفرار مسارعين ينزحون من كل جهةٍ وصوب ثم تجدَّد القال والقيل واستؤنف تعاظم الخوف حتى تخيَّلنا القيامة قد قامت في مصر والاسكندرية وسائر مدن القطر المصري

وضاقت قطارات السكك الحديدية عن المسافرين الجالين والسفن التجارية والشرعية عن المهاجرين وكان بعض عمَّال الحكومة يجتهدون باقناع النـاس وحملهم على العدول عن عزمهم وتسكين خواطرهم ولكنهم كانوا اشبه

بن يحاول نيلَ الثريا .

وقد نشر مأمور ضبطية مصر بتاريخ ١٤ يونيو (حزيران) اعلانًا دعا بهِ الناس الى الاطمئنان ودفع المخاوف والاوهام

فلم يحصل عن هذا الاعلان الاثر المطلوب فنشر عرابي في اليوم الثاني اي يوم الخميس ١٥ يونيو (حزيران) اعلانًا بتوقيعهِ أُلصِقَ في شوارع العاصمة قصدَ استمالة الخواطر الى الهدو والسكينة والاعتقاد باستتباب الراحة فلم تترتب على هذا الاعلان الآخر الفائدة المقصودة ولم ينثنِ الناسُ عن عزمهم فاخذوا يهاجرون فرادَى وازواجًا تاركين منازلهم بما فيها واشغالهم واعمالهم على ما هي عليهِ غير ملتفتين الاَّ الى النجاة والهرب متيقنين انَّ في البقاء الهلكة وفي الرحيل السلامة ولو نشأ عنها ما نشأ من الاضرار والخسائر فانَّ بعضَ الشرِّ اهونُ من بعض

ومما شدَّد عزمَ الناسِ على المهاجرة ما كان يشيعهُ بعضهم عن حدوثِ ما لا يستحبُّ حدوثهُ ووقوع ما كان الناس يحذرون وقوعهُ فكانوا يذيعونه غير متروّين فيهِ ولا متثبتين فيصادف في عقول السامعين ايًّا كانوا محلَّ التصديق لتوقعهم حدوث ما يماثله وانتظارهم وقوع ما هم منهُ في خوفٍ مستمر وكانت لا تمرُّ ساعة من غير ان يُسمع فيها خبر وقوع الفتنة في هذه الجهة او في تلك الناحية او حدوث مقتلة في ذلك الشارع قُتل فيها كذا من المسلمين وكذا من الاوربيين الى غير ذلك من الاشاعات الكاذبة والاراجيف المقلقة ومن هذا القبيل ما حدث يوم الاربعاء ١٤ يونيو (حزيران) وهو ان واضع هذا التاريخ بينما كان في دار المحافظة يتنسَّمُ الاخبار ويتسمَّ غاربَ الاستطلاع وفيها المحافظ ويعقوب سامي وكيل الجهادية وطلبه عصمت وغيرهم من اعضاء اللجنة المشكلة لتحقيق حادثة ١١ الشهر يتذاكرون ويتداولون اذ وَفَدَ عليهم رجلٌ ينادي باعلى صوتهِ : يا سعادة الباشا أدرِك المنشية أدرِكها فانَّ النار والرصاص . . . .

وما اتم كلامهُ حتى علت الضوضاء في دار المحافظة وارتفع ضجيج الناس وسارع ضباط الجهادية والمأمورون الى خارج الباب حيث أُعدَّت لهم العربات والخيول فركبوها وقصدوا جهة المنشية وبعد نصف ساعة عادوا منها واخبروا انهم ما رأوا لا نارًا ولا رصاصًا ولا قتالاً وكان السبب في ذلك ان احد اصحاب الدكاكين رأى عربة نقل ملأى بما ينقلهُ المهاجرون الى البحر ورأى في اعلى الشحن كيسًا ابيض يتصاعد منهُ دخان كأنهُ يحترق ببقية سيكارة رمى بها احد المارّين في الطريق فوقعت بالاتفاق على ذلك الكيس فساعدها الهواء على احراقهِ وكان صاحب العربة غير منتبه الى ما وراءه فناداه احدهم بعجلة قائلاً : اطفئ اطفئ : فظن احدهم انهُ يقول : اقفل اقفل : اشارة الى وقوع الفتنة ووجوب المسارعة الى اقفال دكانهِ والمبادرة الى الفرار فقام من حينهِ ولم يلتفت الى ما كان بل ترك دكانهُ وسار في الطريق مضطربًا هاطعًا هلعًا يردد تينك الكلمتين : اقفل اقفل : وهو آسفٌ خائف وكان يسمعهُ اصحاب الدكاكين على جانبي الطريق فيسارعون الى اقفال دكاكينهم ويهربون وكلما مرَّ واحد منهم بصديقٍ لهُ أشار اليهِ ان يقفل مغلقهُ ويهرب فرارًا من شر الفتنة التي وقعت والمذبحة التي حدثت

وصار الخبر ينتقل هكذا من جهة الى جهة حتى بلغ شارع الضبطية وقد تجسم وتنوّع حتى قيل فيهِ ان الفتنة وقعت في المنشية وقال آخر ان النصارى تجمعوا وحملوا السلاح قاصدين حارات المسلمين لينتقموا منهم وانهم متألبون في المنشية جموعًا يبلغ عددهم اربعة الآف مقاتل فسمع رجل هذا الخبر فرأى ان يسرع ويخبر بهِ محافظ المدينة وضابطها ففعل وكان ما كان مما تقدم بيانهُ

واتصل الخبر ايضًا بسراي راس التين حيث كان الخديو ودرويش باشا فارسلا بعض السعاة يستخبرون عن الحقيقة ثم انتقل الى حارات النصارى ولكن على غير تلك الصيغة والصبغة اذ قيل فيهِ ان الجهادية عزموا على الفتك بالمسيحيين واحراق المدينة وذبح الاجانب الى غير ذلك وهو ما جعل الخوف والاضطراب عموميين في المدينة وسبب كل ذلك قول صاحب الدكان:

اطفئ اطفئ

وفي اليوم الثاني شبّت النار في جهة الطرطوشة فشاع الخبر في المدينة ان الاوربيين اضرموها هناك انتقامًا من المسلمين وان الفتنة واقعة لامحالة وبعد ذلك شاعت اخبار غير هذه ولكن من امثالها واشباهها وكانت كلها داعية الى تمكن الخوف من القلوب واشتداد القلق على الافكار والخواطر فرأى الناس انهُ لم يبقَ من وسائل النجاة من هذا الضيق الا الجلاء عن البلاد الى ان تعود اليها راحتها وسكينتها فما انقضى الاسبوع لذلك الا وفي القطر العدد القليل من الاجانب الذين لا يستطيعون الرحيل

ولقد ساعد على المهاجرة ان كل دولةٍ من الدول الاجنبية عينت من سفنها سفنًا مخصوصة لنقل رعاياها المهاجرين مجانًا فتسارع الفقراء والمعوزون من كل ناحيةٍ متقاطرين من مدن الداخلية والارياف الى الاسكندرية وبورسعيد حيث كانت تلك السفن مُعَدَّةً لان تنقلهم الى بلادهم واستمرّت هذه الحال كذلك الى حد انهُ لم يبقَ في القطر المصري الاّ نفرٌ معدودون من الاجانب

ووفد من مصر على الاسكندرية اكثر قناصل الدول اثر حادثة ١١ الشهر كما سبق لنا بيانه وبقي المستر مالت وكيل انكلترة والموسيو سنكوفتش وكيل فرنسا في العاصمة حتى ورد الى الاول منهما تلغرافٌ من لوندره بأمره بالمجيء الى الثغر وان يرافق الخديو اينما ذهب وحيثما توجه فاتى الاسكندرية واتاها ايضًا الموسيو سنكوفتش فخلت العاصمة بقدومهما من رجال السياسة وخلا جوُّها لعرابي وجماعتهِ يتصرفون فيها بامور الحكومة كيف شاؤا من غير معارض او ممانع ولا سيما ان وزارة مصر كانت خالية في ذلك الوقت من نظارٍ يديرون امورها ولم يكن في النظارات الا الوكلاء وكلهم كانوا خاضعين لإرادة عرابي ممتثلين لاوامرهِ عاملين بنواهيهِ كأنهم في يدهِ آلة صماء يحركها ويديرها كيف شاء

وفي ذلك الوقت بدت علائم الشقاق بين الدول الاوربية فانحازت دول المانيا واوستريا وايطاليا والروسية الى الباب العالي وانفردت الدولتان الغربيتان فرنسا وانكلترة في سياستهما

ثم حصل بعض الفتور في صلات هاتين الدولتين حتى توهم الناس ان انكلترة ستنفرد وحدها في المسألة المصرية وتكون سائر الدول الباقيات معارضات لها فتوي بذلك حزب عرابي وجماعته وايد هذا الوهم ما كان في تلك الاثناء من تداخل قنصلي المانيا واوستريا بمساعدة درويش باشا وسعيهما لدى الخديوِ في تشكيل وزارةٍ جديدة يكون عرابي من اعضائها ويبقى فيها ناظرًا للجهادية والبحرية واوهماه ان حال البلاد لا تصلح وان الفتنة لا يمكن اخمادها والقلاقل لا تحسم الاَّ بتشكيل وزارةٍ على الصفة التي تقدم ذكرها والحّا عليهِ بذلك فتطامن واذعن واستدعى شريف باشا ثم مصطفى باشا ثم عمر باشا ثم غيرهم وكلف كلاًّ منهم بتشكيل الوزارة فأبوا جميعًا فخابر القنصلان عرابي مخابرةً غير رسمية وجرت المذاكرة في هذا الشأن اياماً ثم انحط رأي القوم على ان يكون اسمعيل راغب باشا رئيسًا للنظار وناظرًا للخارجية

وفي ٢٦ يونيو كتب الخديوِ من الاسكندرية الى عرابي بمصر ينبئهُ بذلك وهذا نص ما كتب

حيث ان الحالة الحاضرة تستدعي وجود هيئة يعتمد عليها في مباشرة اشغال ومصالح الحكومة انتخبنا وعينا سعادة اسمعيل باشا راغب رئيسًا لمجلس النظار وامرناه بتشكيل وانتخاب هيئةٍ يعتمد عليها والعرض عنها لطرفنا لصدور امرنا باعتمادها فليكن في علمكم احالة مقام الرئاسة لعهدة الباشا المشار اليهِ وكونوا جميعًا يدًا واحدة في المساعدة والمعاونة وصرف الاقتدار والامكان لما فيه انتظام الادارة وحسن سير الاعمال واستتباب الامن والراحة باطراف واكناف البلاد نسأل الله التوفيق والاصلاح. اه

وفي السابع عشر من الشهر المذكور اجاب عرابي بما يأتي:

مولاي

تشرفت بالارادة السنية الواردة اليَّ من سموّكم بطريق التلغراف ناطقةً بتفويض رئاسة نظار حكومتكم الى سعادة اسمعيل راغب باشا نظرًا لما تقضي بهِ الاحوال الحاضرة من احتياج الحكومة الى هيئة نظار يعتمد عليها في مباشرة اشغال الحكومة في تلك الاحوال وقد توجه الينا الامر من سموكم في تلك الارادة بان نكون معهُ يدًا واحدة في المساعدة والمعاونة على تحسين الاحوال بقدر ما في الامكان والاستطاعة واني بالاصالة عن نفسي والنيابة عن جميع ضباط العسكرية نبدي لعظمتكم ارتياحنا لهذا التعيين رجاء ان يؤدي الى الغاية المقصودة منهُ فقد اشتهر سعادة الباشا المشار اليهِ بالدراية والدربة في اعمال الحكومة لما انهُ تقلب في الوظائف المهمة زمنًا طويلاً واشتهر ايضًا بالامانة والاستقامة وحيث ان اوامر الحكومة انما تصدر لصالح البلاد ورفاهيتها وتمتعها بالراحة الكاملة فنحن مستعدون لتنفيذ تلك الاوامر ونؤدي واجباتنا في ذلك بكل ما في الوسع والطاقة ونسأل الله حسن التوفيق. اه.

وبناء على ذلك تم تشكيل الوزارة الجديدة في ٢٠ الشهر على ما في البيان الاتي:

اسمعيل راغب باشا: رئيس النظار وناظر الخارجية

احمد رشدي باشا: ناظر الداخلية

عبد الرحمن بك رشدي: ناظر المالية

احمد عرابي باشا : ناظر الجهادية والبحرية
علي باشا ابرهيم : ناظر الحقانية
سليمان باشا اباظه : ناظر المعارف
محمود باشا الفلكي : ناظر الاشغال
حسن باشا الشربعي : ناظر الاوقاف

وفي الحادي والعشرين من الشهر السالف الذكر شرعت الوزارة الجديدة في الاشغال ثم عقدت جلستها الاولى ونظمت لائحتها وفيها بيان النهج الذي يجب ان نسير على مقتضاه وكيفية ادارة الامور وقد طوى رئيس النظار هذه اللائحة في كتاب رفعه الى الخديو بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٩٩ وهذا نصه :

مولاي

توجهت اليَّ عناية عظمتكم فعهدتم اليَّ بتشكيل هيئة نظارة جديدة فاول واجب عليَّ هو ان اعرض على مسامعكم الشريفة الاصول التي تعتبرها الهيئة المشكلة تحت رئاستنا اساسًا لجميع اجراآتها فاعرض ان حالة القطر المصري قد اخذت اشكالاً متنوعة في ازمنة متقاربة بالنسبة للامور المالية والادارية غير ان الحكومة قد تقررت فيها اصول واجبة الرعاية في جميع الاحوال ولها اصول ينبغي تقريرها في المستقبل على قواعد راسخة ايضًا اما الاصول المقررة الواجبة الرعاية فهي الفرمانات السلطانية العلية الشأن والاوامر الصادرة في تنظيم المالية والكفالات المأخوذة لتسهيل سداد الديون المنتظمة والطرق التي اتخذت لتسديد الديون السائرة ووجود قلم المراقبة على حدوده المذكورة في الامر الكريم الصادر بتحديدها وجميع ما حواه قانون التصفية وتأسيس مجلس النواب بلائحته الاساسية والانتخابية الصادر عليهما الامر العالي باعتمادها وجميع العهود والمواثيق الدولية فجميع هذه الاصول الثابتة التي روعيت قبل الان بكمال الضبط ستراعى في هيئة النظارة الجديدة بغاية الدقة بل ان هذه الهيئة ستأخذ بجميع الاسباب الموجبة لتثبيت هذه الاصول وتقوية جانبها فانها ترى في ذلك توفيقًا بين المصالح يعود على البلاد باجلّ المنافع واما الاصول التي يجب بذل الجهد في ترتيبها على قواعد اساسية موافقة للاصول الثابتة توضع باشتراك هيئة النظارة مع مجلس النواب وتصديق عظمتكم فهي الاصول الاساسية التي تعين حقوق الحكام والمحكومين من كل صنف والقوانين الادارية والقضائية وتنظيم حالة الادارة والقضاء على وجه يلائم مصالح البلاد ويحفظ لها صورتها المدنية فهذه الاصول سنأتي بما في الوسع لاصلاحها ومنها ما نخصه بالذكر لضرورة الحوادث التي طرأت على البلاد اخيرًا ويبتدأ العمل به من اول يوم يستلم فيه النظار وظائفهم وهو

اولاً ان يصدر عفو عمومي ويعين في الجرائد الرسمية باللغتين العربية والفرنسوية عن كل من عليه مسئولية او له اشتراك في الحوادث الاخيرة وهذا عدا المشتركين والمسئولين في حادثة اسكندرية وفي المواد الحقوقية فلا يشملها العفو .

ثانيًا لا يُعامل احد بجزاء ما الاَّ بعد محاكمته في مجلس بمقتضى القانون وصدور الحكم عليه

ثالثًا لاتجري مخابرات في المصالح السياسية من مأموري الحكومة مع احد وكلاء الدول

بالقطر المصري الا من طرف ناظر خارجية حكومتكم فقط وعليهِ ان يستشير مجلس النظار في الامور المهمة وان حصلت مخابرة من احد المامورين فلا تعتبر ولا يعتد بها

رابعًا الاوامر التي تصدر بالاجراء والعمل يكون اصدارها على موجب الدكريتو العالي المؤرخ في ٢٨ اغسطس سنة ٧٨

ومما نرى الاهتمام بهِ واجبًا علينا ايجاد الوسائل لتوسيع دائرة المعارف والصنائع وتحسين احوال الزراعة والتجارة وكل مـا يعود على البلاد بالثروة فهذه يا مولاي هي المبادئ التي يكون عليها العمل من هيئة نظارتكم الجديدة ولا ريب في انها تكون كافلة لاهالي الديار المصرية باتم الفوائد وان لي وثوقًا تامًا بان الدول العظيمة ستعد هذه الاصول ضامنة للراحة والهدو الابديين وان جميعها ستساعدنا كل المساعدة على القيام برعايتها خصوصًا دولتنا العلية العثمانية التي لا يسرها الا ان ترى اهالي اوطاننا في ارغد عيش ورفاهية بال فان حسن لدى مولاي ما اوضحتهُ في هذا البيان فليحسن بالتصديق على هذا التقرير واني لعظمتكم الخاضع والخادم المتواضع

الامضاء اسماعيل راغب

وقد اجاب الخديو على كتاب راغب باشا بما يأتي:

قال . انهُ لوثوقي التام في فطنتكم واعتمادي على حسن درايتكم قد كلفتكم في هذا الوقت المهم بتشكيل هيئة نظارة جديدة تحت رئاستكم يحصل بها الثقة في هذه الاحوال الحاضرة فاجبتم لذلك ورفعتم الينا بيان مبادئ هذه الهيئة وهي اقرار الاصول المقررة الواجبة الرعاية بمقتضى الفرمانات السلطانية العلية الشأن والاوامر المتعلقة بانتظام المالية والكفالات المأخوذة لتسهيل سداد الدين المنظم والطرق التي اتخذت لتسديد الديون السائرة ووجود قلم المراقبة على حدوده المقررة وجميع ما حواه قانون التصفية ولوائح تأسيس وانتخاب مجلس النواب وجميع العهود والمواثيق الدولية مع اشتراك هيئة النظار مع مجلس النواب في ترتيب اصول على قواعد اساسية موافقة للاصول الثابتة وبتصديقنا عليها تكون اصولاً سياسية تعين حقوق الحكام والمحكومين من كل صنف والقوانين الادارية والقضائية وتنظيم حالة الادارة والقضـاء على وجهٍ يلائم مصالح البلاد ويحفظ لها صورتها المدنية ثم ومن تلك المبادئ ما يبتدأ العمل بهِ من اول يومٍ ليتم فيهِ النظار وظائفهم وهو :

اولاً اصدار عفو عمومي يعلن في الجرائد الرسمية باللغتين العربية والفرنسوية عن كل من عليهِ مسئولية او لهُ اشتراك في الحوادث الاخيرة عدا المسئولين والمشتركين في حادثة الاسكندرية وفي المواد الحقيقية فلا يشملها العفو

ثانيًا لا يعامل احد بجزاء ما الاَّ بعد محاكمته في مجلس بمقتضى القانون وصدور الحكم عليه

ثالثًا لا تجري مخابرات في المصالح السياسية من مأموري الحكومة مع احد وكلاء الدول بالقطر المصري الاَّ من طرف ناظر الخارجية فقط وعليهِ ان يستشير مجلس النظار في الامور المهمة وان حصل مخابرة من احد المأمورين فلا تُعتبر ولا يعتد بها

رابعًا الاوامر التي تصدر بالاجراء والعمل يكون اصدارها على موجب الدكريتو المؤرخ في ٢٨ اغسطس سنة ٧٨ لاخر ما اوضحتموه عن وجوب الاهتمام في وسائل اتساع المعارف والصنائع وتحسين احوال الزراعة والتجارة وكل ما يعود على البلاد بالثروة وحيث ان هذه المبادئ التي بينتموها هي اساس افكارنا لما في ذلك من الوسائل والوسائط الموصلة لاسباب العمران وسعادة البلاد فاملي بالعناية الالهية وحسن مساعي الهيئة الجديدة اجراء كل ما يعود بالفائدة وانتظام الاحوال نسأله التوفيق والنجاح . اه .

وفي ٥ شعبان سنة ٩٩ الموافق ٢١ يونيو سنة ٨٢ بعث الخديو الى رئيس مجلس النظار بالكتابة الاتية :

قال :

في علمكم الحادثة الفظيعة التي وقعت في ثغر اسكندرية في يوم الاحد الموافق ٢٥ رجب سنة ٩٩ (١١ يونيو سنة ٨٢) وما ترتب عليها من اعدام وجرح جملة نفوس اجانب ووطنيين ونهب امتعة جملة من الدكاكين وامتداد الحادثة زمنًا ترتب عليه انتشار الفتنة وسريانها الى مواقع متعددة في البلد وكانت النتيجة بعد نهاية الواقعة سلب الامنية العمومية للاجانب ولم تقتصر هذه الحالة على ثغر اسكندرية بل سرى فقد الامنية بباقي الثغور والبنادر وذات مدينة مصر وهرع التجار والرعايا الاوربويون الى القيام والسفر من القطر المصري ومع ما صار من النشر والاعلان والتفهيم بوجود الامنية والتزامنا بها ومسئوليتنا عنها ما زالت التجار تترك محلات متاجرها واعمالها وتسافر الى الخارج وقد تعطلت الاسباب وتوقفت التجارة وتعذر وجود النقدية بالكلية لعدم وجود تجار للاخذ والعطاء وكل ذلك من نتائج تلك الواقعة السيئة التي تسبب منها هذا الضرر العظيم ما يتأسف منه الغاية لعدم سبوق نوادر مثل هذه بالاقطار المصرية يترتب عليها ما يؤول منه التأخير الكلي للبلاد والضرر العام سواء كان لاهالي البلاد خاصةً او للاجانب الذين تركوا اموالهم واملاكهم وقاموا بغتةً خشيةً مما وقع وحيث ان هذه الحادثة من اهم الامور ومن المعلوم ان حدوثها وحصولها بالكيفية التي وصلت اليها لا بد لها من اسباب ومسببات تعلم عند البحث والفحص الدقيق فينبغي المبادرة والالتفات لهذا الامر المهم والوقوف على السبب المنتج لهذه الحادثة والاسباب التي اوجبت اتساعها واستمرارها زمنًا بدون تدارك امرها في وقته والمسئول فيها وفي وقوعها والمهمل في عدم تلافي امرها واظهار الفاعلين والمسئولين والمشبوهين والعرض لطرفنا عن ذلك في اقرب وقت لترتيب الجزاء المقتضي على من يستحق بحسب درجات الجنايات والجنح التي تتضح من التحقيق كما انه من حيث هذه الحالة اورثت للاجانب تخوفًا نشأ عن هذا تنافر بينهم وبين الوطنيين وانقطعت بين الفريقين تقريبًا صلات المحبة والمسالمة ولا يليق ترك هذه النفرة على حالها بدون تدارك امرها واجراء ما فيه بقاء واستمرار معاملات الالفة وحسن الامتزاج بينهما فمن المهم ايضًا استعمال الوسائط والمناسبات الفعالة لاعادة ما كان بين الاجانب والاهالي من التحاب وحسن المعاملة وارجاع ما فقد من الامنية

واستدراك تمشية احوال التجارة العمومية بالاقطار المصرية حسب ما كانت عليه الحالة قبل حصول هذه الحادثة بحيث ان هذه الاجرآت تكون بغاية السرعة لان هذا الامر لا يقاس بسائر الامور ولا باي حادثة من الحوادث ومن الضروري الاهتمام بهِ وانجازه بوقتٍ مستقرب كما هو لازم . اه .

وعلى اثر ذلك انعقد مجلس النظار في سراي رأس التين برئاسة راغب باشا وتليت فيهِ هذه الكتابة فاصدر القرار الآتي نصهُ :

بالتذاكر في هذه المسألة المهمة رؤي ان هذه الحادثة (حادثة ١١ يونيو) في الواقع امرها مهم جدًّا ووقوعها بالصفة التي حصلت بها داخل ثغر اسكندرية مما يبعث على الاسف الزائد خصوصًا وكونها مع اجانب مستأمنين وبيننا وبينهم صلات المعاملة ومناسبات التجارة التي هي من اعظم اركان الثروة والعمارية وما كان يخطر بالفكر وقوع حالةٍ مثل هذه في هذا الثغر بل ولا في اي جهةٍ من جهات القطر المصري كما هو سابق وثابت من شهرة هذه البلاد بالامنية خصوصًا واحترام الاجانب القاطنين بها والمترددين عليها لما هو مترتب على وجودهم من الانتفاع المتبادل بيننا وبينهم فما اشارت بهِ الحضرة الخديوية من المبادرة باجراء التحقيقات الدقيقة المترتب عليها معرفة السبب والمسبب والمسئول والمهمل في هذا الامر لترتيب الجزاء المقتضي على من يستحق بحسب درجات الجنايات والجنح التي تتضح من التحقيق هو من اهم ما يلزم له الرعاية والالتفات من هيئتنا هذه الحاضرة التي جعلت هذا الامر المهم باكورة اعمالها وبادئ بدء في افكارها وحيث انهُ وان كان قبل تشكيل هذه الهيئة كان تعين قومسيون لتحقيق القضية المحكي عنها تحت رئاسة سعادة عمر باشا لطفي محافظ اسكندرية فالاوفق والحالة هذه ان يتشكل قومسيون للفحص والتحقيق تحت رئاسة سعادة عبد الرحمن بك رشدي ناظر المالية ويكون مركبًا من ثمانية عشر عضوًا نصفهم من مأموري الحكومة الخديوية والنصف من مندوبي قناصل الدول المتحابة فمأمورو الحكومة هم سعادة قدري باشا من مأموري الحقانية وسعادة يعقوب باشا وكيل الجهادية وسعادة بطرس باشا وكيل الحقانية وحضرة حماد بك من اعضاء المحكمة المختلطة باسكندرية وحضرة حسن بك محمود رئيس مجلس الصحة البحرية والكورنتينات وحضرة ابرهيم بك الالفي رئيس مجلس ابتدائي اسكندرية وحضرة حسين بك واصف من مأموري الحقانية وحضرة ابرهيم بك فؤاد رئيس مجلس الجيزة والقليوبية وحضرة يوسف بك برتو مأمور الدائرة البلدية باسكندرية اما مندوبو القناصل فيكتب عنهم من نظارة الخارجية لجناب موسيو دومارتيني قنصل جنرال دولة ايتاليا الفخيمة بصفة انهُ اقدم حضرات القناصل امثاله كي انهُ بمخابرة جنابه مع باقي القناصل يجري انتخابهم وتعيينهم مع تفهيم جناب القنصل المومأ اليهِ عن الغرض المقصود من هذا التحقيق والنتيجة المأمول الحصول عليها من اجرائهِ ليكون مندوبو القناصل مرخصين في الاشتراك مع مندوبي الحكومة في مباشرة اتمام التحقيقات والاجرآت المنصوص عنها بالارادة السنية المشار اليها آنفًا وبانضمام هذا القومسيون واجتماعه باسكندرية يباشر في

اجراء ما يترآى له موافقًا لسهولة التحقيق بواسطة تشكيل لجنات خصوصية من اعضائهِ يتفرع فيها النظر والبحث الدقيق الذي اشار عنهُ الخديو الاعظم في مشتملات ومتفرعات هذه المسألة المهمة لما في ذلك من الفائدة في سهولة الحصول على نجاز التحقيق في وقتٍ مستقرب وكل ما تم نظره وتحقيقه في اللجنات المذكورة ينظر فيهِ بهيئة القومسيون ويتم له ما يلزم من الاجراآت العمومية وبعد نهاية التحقيق بسائر اطرافهِ تعمل النتيجة المستوفاة عن ذلك وتُعرض للاعتاب السنية للنظار فيما يلزم لتوقيع الاحكام القانونية المقتضية في ذلك . هذا وحيث ان الجزء المهم في هذا المقام ايضًا انما هو مسألة التأمين العام واجراء ما فيهِ منع الجفوة والنفور الذي حصل فيما بين الاهالي والاجانب واعادة حالة التجارة كما كانت عليهِ من الرواج ومن كل معلوم ان جميع ذلك مسببات ونتائج هذه الحالة النظبعة فمن جهة التأمين هذا بحمد الله تعالى ونفوذ الحضرة الخديوية حاصل بسائر اطراف واكناف الاقاليم والثغور والمدن والبنادر وعموم البلاد على ما يرام مع دوام الرعاية لذلك منا جميعًا حتى لا يتأتى بعناية الله تعالى امر مغاير وما عدا هذا من باقي المسببات المقدم ذكرها يزول بعون الله تعالى بزوال السبب الذي يتوقف على معرفة نتائج التحقيقات التي يجريها القومسيون المشار اليه هذا الذي ترآى ومن طرف مقام رئاسة المجلس يجري تنفيذه

(رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية)
(ناظر الداخلية) (ناظر الجهادية والبحرية)
(ناظر المالية) (ناظر الحقانية) (ناظر النافعة)
(ناظر المعارف) (ناظر الاوقاف)

فصلٌ

وفي ثاني وعشرين يونيو كتب راغب باشا الى قناصل الدول ينبئهم بمآل اللائحة التي رفعها الى الخديو بتاريخ ٣ شعبان سنة ٩٩ الموافق ١٨ يونيو سنة ٨٢ فاجابوا كلهم (ما عدا وكيلي فرنسا وانكلترة) على كتابهِ بما اوضحوا فيهِ انهم راضون عما كان مسرورون بانحسام المشاكل وانهم قائمون على قدم الاستعداد لمساعدة الوزارة الجديدة على تذليل المصاعب وحسم الفتن وازالة العراقيل السياسية والادارية الى غير ذلك مما دلَّ على رضاهم ورضى دولهم عن تشكيل الوزارة على تلك الهيأة

واما وكيلا فرنسا وانكلترة فقد اجابا بما توجبه عليهما الاصطلاحات الرسمية في مثل هذه الحال كأنهما قالا في جوابهما للوزارة : وصلنا كتابكم وأُحطنا علمًا بما فيهِ ؛ اي انهُ صار في علمنا ان قد تم تشكيل الوزارة على الصورة الفلانية — ولم يزيدا على ذلك شيئًا مما يدل على الرضى والاستحسان او عدمها وفي ذلك اشارة كافية الى انهما لم يكونا راضيين عما كان ولم يحل ما جرى لديهما ولدى دولتيهما محلَّ القبول . ولكن بالرغم عن كل ذلك لم تضعف عزيمة الوزارة الجديدة بل شرعت في اعمالها بعزم ونشاط توهمًا منها انها تقدر على ملافاة المشاكل وتدبير الامور قبل فوات الفرصة وانهُ يمكن لها رقع الخرق قبل اتساعه وانها بعد ذلك تثبت في منصبها مؤيدةً معززة ويكون لها الفضل في انها اصلحت ذات البين وسدت الخلل ولكن « ما كلما يتمنى المرءُ يدركهُ » فان الحوادث

جاءت بغير ما كان في وهم اولئك الوزراء

وما ايد هذا الوهم حتى بعث ذويه على الاعتقاد بقرب نجاح مشروعهم وكادوا ان يعدوه امرًا واقعيًا انّ المخابرات في ذلك العهد كانت جاريةً بين الدول في شأنٍ عقد مؤتمر يعهد اليهِ امر النظر والحكم في المسألة المصرية . وكانت الاخبار الواردة الينا في ذلك الحين تدلُّ دلالة صريحة على وقوع الخلاف بين الدول . وكان الباب العالي شديد التمنع من عقد المؤتمر يعارض في تاليفهِ كل المعارضة

ثم ثبت للوزارة ان الدول لا تسمح البتة لدولةٍ واحدة (اعني انكلتره) ان تنفرد في المسألة المصرية وتستبد بها فخيل للوزراء انهم في مامنٍ من هجمات الانكليز وانهُ صار في امكانهم ان يتموا ما شرعوا فيهِ وان يزيلوا الاحن ويعيدوا الى البلاد نظامها ولا سيما ان امر المخابرات السابق الايماء اليها كان قد طال ولم يستقر الرأي فيهِ على شيء

وكان لكل دولةٍ مذهبٌ ورأيٌ وشان فتوهمت الوزارة انها تغتنم فرصة هذه الفترة الناشئة عن الخلاف الواقع بين الدول لتصلح بسعيها ذات البين وتقوّم المعوج وساعدَها على ذلك ما رأتهُ من ميلِ الدول الشمالية اليها : نريد المانيا والروسية واوستريا ; وما تحققته من انعطاف الباب العالي عليها وثقة ايطاليا بها وما شعرت بوقوعه بين فرنسا وانكلتره من الفتور فطمعت ان يعظمَ هذا الفتور لينشأ عنهُ انفصال فرنسا عن انكلتره وانحيازها الى بقية الدول فينفرد الانكليز وحدهم في الامر ولا يستطيعون مقاومة اوربا بجملتها والباب العالي معًا فتحل المسألة من نفسها وتترك الوزارة وشأنها تسعى في رب الصدع ورقع الخرق حتى تبلغ المقصود ولكن ما لبثت ان جاءها نبأٌ عما فاه بهِ اللورد سالسبوري في دار الندوة الانكليزية متضمنًا ان انكلترة وحدها قادرةٌ على انفاذ ما تروم انفاذه في القطر المصري ولو عارضتها فيهِ اوربا بجملتها وسائر ممالك الارض فاضطربت لهذا النبإ ولكنها مع ذلك تشددت عزمًا وجعلت من الضعف قوةً طامعةً في مساعدة الحوادث لها بالرغم عما تبجح بهِ الانكليز في مجالسهم

وكان مما يقوي عزائمهم تصريح عرابي في كل محفلٍ ومجلس انهُ على يقينٍ من ان البلاد المصرية في مأمنٍ من الطارق المفاجئ برًّا وبحرًا وانهُ عالمٌ بحقيقة الحال معتقد واثق ان الانكليز لا يأتون مصر ولا يستولون عليها وان قدوم اسطولهم بامرة الاميرال سيمور الى مياه الاسكندرية ليس الاَّ من قبيل التنزه والتجوُّل كما حصل ايام تنزه الاسطول والاميرال المذكور في مرفاء دولسينو الى غير ذلك من الكلام الذي كان يُوهم سامعيه بهِ انهُ مستوثق بما يقول وان بينهُ وبين بعض الدول سرًّا او انهُ على وفاقٍ مع رجال السياسة في اوربا او بعضهم او انهُ شادٌ ازرهُ بمساعدة الحضرة السلطانية وارتياحها اليهِ

وقد استمرّت الحال على هذا المنوال اياما كان الناس في خلالها بين الخوفِ والرجاء وكانت المخابرة بين الدول جاريةً فيما يتعلق بالمؤتمر وعقدهِ في الاستانة وفي امر مجيء جنود عثمانية او اوربية مختلطة . وكانت الدولة العلية معارضةً في امر المؤتمر كما تقدم لنا ذكره كأنها

اوجست منهُ خيفة الغيلة وكانت انكلترة ملحةً بهِ اما بقية الدول فكنّ بين بين ويغلب على الظن ان الدول جميعها كانت فيما نذكر كانها غير عالمةٍ بما تريد او بما يلائم مصلحتها فكانت لذلك تنتظر وقوع الحوادث متأهبة لمصادمتها ولكن على غير علمٍ بها

اما انكلترة فكانت في الحاحها بعقد المؤتمر تبين وجه لزومه بقولها انهُ يستحيل ان يعود الامن الى البلاد بغير واسطةٍ فعالة والباب العالي يعارضها بقوله انهُ بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجى حصول المرام واستقرار السلام

وكان لكل فريقٍ ادلةٌ وبراهين تؤيد ما يذهب اليهِ وقد رأينا في الكتاب الازرق (١) عدة رسائل ومحررات سياسية مهمة تتعلق بالمؤتمر المذكور وسياسة الدول في المسألة المصرية فرأينا ان نؤثر عنه ما يهمنا الوقوف عليهِ من تلك المحررات اتمامًا للفائدة فعربنا عنه الرسائل الاتية وهي :

من السير باجت سفير انكلترة لدى حكومة ايطاليا الى اللورد غرنفيل وزير خارجية الانكليز في ٣٠ يونيوً سنة ٨٢

سيدي اللورد

ارى من الواجب ان انبئ حضرتكم ان الموسيو مانشيني (وزير خارجية ايطاليا) اطلعني على تلغرافٍ ورد اليهِ من الكونت كورتي (سفير ايطاليا بالاستانة) مآلهُ ان وزير خارجية الدولة العثمانية دعا اليهِ تراجمة سفارات ايطاليا واوستريا والمانيا والروسية وسألهم ان يبلغ كل منهم حكومته شكر الجناب السلطاني على المساعدة التي ابدتها في تسوية المسألة المصرية . قال ومن رأي الجناب السلطاني انهُ بناء على صيرورة جميع المسائل الى حالة الانتظام بعد اذ تشكلت الوزارة المصرية الجديدة على هيئتها المعروفة وصورتها المعلومة لم يبقَ لزومٌ لعقد مؤتمر دولي لعدم بقاء شيءٍ يتفاوض المؤتمرون في شأنهِ .اه .

وقد ابدى لي الموسيو مانشيني الملاحظة الاتية وهي : ان المسألة قد دخلت الان في دورٍ جديد وهو ان الدولة العثمانية لا تأبى الاشتراك في المؤتمر فقط بل هي تعارض في امر انعقاده في الاستانة ثم قال لا امراء ان لوكلاء الدول الاوربية حرية الاجتماع وحق التفاوض في المسألة ولكن لا يليق باوربا ان تعقد هذا الاجتماع في غير العاصمة العثمانية كما انهُ لا يليق بوكلائها ان يتذاكروا في المسألة المصرية من غير علم الجناب السلطاني فانها تعلم جيدًا ان قراراتهم لا تكون حائزةً لديه قبولاً اذا صدرت على غير علمٍ منهُ بالامور التي تأسست عليها .اه .

ومن رأي الموسيو مانشيني وجوب إخبار سائر الدول الاوربية بتلغراف الكونت كورتي لتنظر الى ما فيهِ بعين الاعتبار فرجوتهُ ان لا يفعل ذلك وقلت لهُ انك تقدر ان تكون متيقنًا ان وكلاء الدول الاخر لدى الباب العالي سلكوا من غير شكٍ في هذه المسألة مسلك الكونت كورتي اي انهم نقلوا الى حكوماتهم ما تلقوه من وزير الخارجية العثمانية وقلت لهُ ايضًا ان جميع

---

(١) كتاب سياسي تنشره حكومة انكلترة لكل مسألةٍ من مسائلها المهمة تضمنه المحررات والرسائل والمخابرات التي جرت متعلقةً بتلك المسألة

الناس يرون الان انهُ لا بد من عقد المؤتمر اشتركت الحكومة العثمانية فيهِ او لم تشترك وان ما صرّح بهِ وزير الخارجية العثمانية ليس الاَّ من قبيل سعي الآيس يحاول بهِ الجناب السلطاني تأجيل المؤتمر او ابطاله ثم قلت لهُ اذا فتحتم حضرتكم باب هذه المسألة فلا شك ان الحكومة العثمانية تغتنم الفرصة فتفسد جميع اعمالنا المتعلقة بها

وقد زرت الموسيو مانشيني بعد ذلك مرةً اخرى وخابرتهُ في هذه المسألة ملحًا عليهِ بما رجوته بهِ سابقًا فقبل اخيرًا ان ينتظر ما تخابره بهِ سائر الدول في هذا الشأن ليقف على ارائها اه

فصل

يستخرج من هذه الرسالة التلغرافية ثلاث مسائل مهمة الاولى اجتهاد الباب العالي ورغبته في عدم عقد المؤتمر ذهابًا منهُ الى ان مسائل مصر قد تمت تسويتها واستقامت امورها بعد تشكيل وزارة راغب باشا فلم يبقَ من موجبٍ للمؤتمر والثانية موافقة الدول الاربع لهُ وهي المانيا واوستريا وايطاليا والروسيــة والثالثة اجتهاد انكلتره في عقده ولو على غير رضى الباب العالي وسعيها في استمالة الدول الى رأيها تنفيذًا لاغراضها ولا خفاء ان الدول كانت تخشى ان يدفع الطمع انكلترة الى الاستيلاء على القطر المصري او على قسم منهُ بحجةٍ ظاهرة او غير ظاهرة فكانت تحاول ان تقاومها وتشفع تلك المحاولة بممالأة الباب العالي واستمرت كذلك حتى احسَّ الانكليز بما كان في خلد الدول ولاسيما حليفتهم دولة الفرنسيس فاوعزوا الى وكلائهم وسفرائهم ان يقنعوا الدول بحسن نياتهم وان يجعلوها على يقين من انهم لا يقصدون تملك مصر ولا غيرها من بلاد الله ففعلوا واقنعوها اقناعًا ظهر بما تقرر من ان يوقع المؤتمرون على قرارٍ تتعهد بهِ جميع الدول وفي مقدمتها انكلتره انها لا تسعى البتة في ضم ارضٍ ما اليها او الاستيلاء على مصر او قسمٍ منها او الحصول على امتيازٍ ما سياسيًا كان او متجريًا بدون ان يكون لسائر الدول نصيبٌ منهُ فبناء على ذلك نجحت انكلتره في مسعاها فمالت اليها الدول موافقةً على عقد المؤتمر كما يتضح من كتابٍ بعث بهِ السير باجت سفير انكلترة لدى الحكومة الايطاليانية الى اللورد غرنفيل وزير خارجية الانكليز مؤرخًا في ٢٢ يونيو وهذا تعريبهُ :

سيدي اللورد

انبأني الموسيو مانشيني ان السفير العثماني ارسل اليهِ في الليل الماضي منشورًا واردًا من الباب العالي مفاده انهُ بناء على انتظام احوال مصر بحسن مسعى درويش باشا (اي بناء على نجاح درويش باشا في المهمة التي عهدت اليهِ وانتظام احوال مصر) لم يبقَ البتة من لزومٍ لعقد المؤتمر وانهُ قال لموزوروس بك (سفير الدولة العثمانية في رومية) جوابًا على ذلك المنشور انهُ لا يقبل مفادهُ ومؤدَّاه بل يعتبر انهُ بعد ان جرت المخابرات وقتًا طويلًا في شأن المؤتمر وتقرر انعقادهُ في هذا اليوم لم يبقَ من الوقت فرصةٌ كافية لاستئناف تلك المخابرات بين الدول .

ثم قال لي انهُ بعد ان حصلت هذه المقابلة بينه وبين موزوروس بك ارسل في الحال الى الكونت كورتي (سفير ايطاليا في الاستانة) تلغرافًا اوضح لهُ فيهِ جليًا ان توقيف انعقاد

المؤتمر في اليوم المعين لانعقاده بكلمةٍ صدرت عن الباب العالي يُعدُّ عنده ضعفًا وجبنًا وتكون الحكومة مسئولة عنهُ وانهُ بناء على ذلك يرغب في إبطال ذلك التوقيف وفتح ابواب المؤتمر في نفس هذا اليوم اذا كانت الافادات المرسلة الى بقية السفراء بالاستانة تأمرهم بالاشتراك فيهِ. قال ومن رأيه ان المؤتمرين يمكنهم ان يؤجلوا في الجلسة الاولى عقد الجلسة الثانية الى اجلٍ معين وذلك بعد ترتيب ادارة المؤتمر الداخلية والتوقيع على البروتوكول وان تعرض قرارات هذا المؤتمر على الباب العالي اذا صدرت باجماع الرأي كما هو الامل فيتعين على الباب العالي حينئذٍ ان يختار احد امرين: اما ان يستمر على عدم الرضى بقرار اوربا الذي سيصدر عن وكلائها المؤتمرين واما ان يعدل عن هذا العزم

وقد تبين لي ان الموسيو مانشيني غير واثقٍ باقتدار هذه المساعي على استمالة الحكومة العثمانية الى موافقة اوربا اذا اصر الجناب السلطاني على عدم ارسال جنوده لمقاتلة عرابي وتطويع العصاة وقد ابدى لي الملاحظة الآتية وهي: ايُّ التدابير يجب اتخاذها لاعادة الانتظام الى احوال مصر وايُّ الدول يا ترى تكلف باعادة هذا الانتظام ثم قال لي انهُ كان حتى الان ممن يجتنبون الدخول في مثل هذه المباحث اجتنابًا مطلقًا غير انهُ يعتقد ان تشكيل وزارة راغب باشا لا يُعَدُّ كافيًا في جعل المسألة المصرية حاصلةً على مركزٍ يرضي خواطر الدول وانهُ من الواجب على اوربا ان تجعل لصيانة مصالحها في مصر ضمانةً غير الضمانة القاصرة على ما لحزب الجهادية من نفوذ الكلمة. وبعد هذا قال لي انهُ عرض هذه المسائل على مجلس نواب ايطاليا في الثاني عشر من شهر يونيو (حزيران) الجاري وان الجرائد عارضته في بعضها وقاومته بجدةٍ وعنف

(ملحق) فانني ان اذكر لكم ان الموسيو مانشيني اعترف انهُ لم يكن من رأيه في بادئ الامر ان يعقد مؤتمر من غير ان تشترك الدولة العثمانية فيهِ ولكن بعد ان تقرر الان ذلك لم يعد من المصلحة العدول الى سواه. اه

فصل

يتبين من هذه الرسالة ان ايطاليا وافقت انكلترة على عقد المؤتمر في الاستانة رضيَ الباب العالي او لم يرضَ كما تبين من غيرها سير الدول الثلاث الشمالية نفس هذا السير بحيث يظهر انهُ لم يبقَ من ممتنعٍ عن الاشتراك فيهِ الا الدولة العثمانية التي املت ان تكون وزارة راغب باشا ضمانةً كافية لاعادة السلم الى القطر المصري. ويؤيد ذلك ما كتبه درويش باشا المندوب العثماني متعلقًا بهذا الشأن في تلغرافين بعث بهما الى الاستانة في ثالث وعشرين يونيو وهذا تعريب اولها

الى جانب رئاسة الوكلاء الفخيمة

زارني اليوم روساء الجند وضابطان الجهادية الشاهانية المصرية بالاسكندرية فالقى يعقوب باشا وكيل نظارة الحربية الخطاب الاتي بالنيابة عن جميع روساء الجيش والعساكر المصرية وهذا مفاد ما قال:

بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع العساكر المصرية الشاهانية اتشرف بان اصرح لدولتكم ان جميع الجنود المصرية على تمام الغاية

من الخضوع والقيام على عهد الطاعة لجلالة مولانا السلطان المعظم وانهم مستعدون لانفاذ الاوامر الصادرة اليهم من لدن جلالته اية كانت وللنهوض بفروضهم وواجباتهم على ما ينبغي وفقاً لاحكام الايات الشريفة الآمرة بالخضوع لاولي الامر

وانا جميعاً لا ارب ولا غاية لنا الا ان نكون حاصلين على رضى الجناب الشاهاني مشمولين بعنايته خاضعين لعظمته قائمين بخدمته وهو ما نعده خير الامور لنا في الدارين وواسطة سعادتنا الحسية والمعنوية

وفي ارسال دولتكم الى مصر (وانتم من اعظم مشيري السلطنة واقدمهم) لاصلاح احوالها دليلٌ واضحٌ جليٌّ على انعطاف جلالته الينا فنحن لذلك نصرّح بشكرنا وامتناننا ونكرر على مسامعكم العبارات الدالة على خضوعنا لمقام خلافته العظمى موضحين اننا مستعدون لانفاذ اوامر الجناب الخديوي بالدقة التامة فارجو دولتكم أن تعتبروا هذا الكلام صادراً عن جميع الجنود الشاهانية المصرية في اي محلٍ وجدوا من هذه الديار . اه .

وبعد فراغه من هذا المقال اجبته بما يأتي

ان السعادة الناشئة عن الخضوع لارادة الخليفة الاعظم لا تحصل الا بالانقياد لاوامر الجناب الخديوي وبما ان نيات جلالة مولانا السلطان المعظم موجهة بغير انقطاع نحو تحسين حال البلاد المصرية اعد نفسي سعيداً بان اوضح للجنود الشاهانية المصرية حسن تعطفات الحضرة الشاهانية عليهم وان اشكر لكم جميعاً ما ابديتموه من العواطف الدالة على خضوعكم ونبالة مقاصدكم . اه .

اما التلغراف الثاني الذي ارسله الى الاستانة في اليوم المذكور فقد اخبر به عن تشكيل الوزارة ومقاصدها وعما عزمت على اجرائه ثم اردف ذلك بقوله

ان ما ذكر من منويات وزارة راغب باشا ليس من شأنه ان يغير شيئاً من الحال السياسية المقررة للقطر المصري وقد صادف ذلك عند الجميع حسن القبول

ولا بدّ فيما اظن من ان يعرض على الحضرة الشاهانية ان وكلاء الدول الاجنبية (ما عدا قنصل انكلترة الجنرال اولاً ثم قنصل فرنسا الجنرال) والجناب الخديوي والجهادية وجميع الاهالي راضون عما جاء في لائحة النظار

وأُعيد الان ما قلته مراراً من ان النتائج الحسنة المرضية التي نجمت عن اجراء التدابير الصادرة عن ارشادات الحضرة السلطانية قد جعلت لجلالته الفخيمة نفوذاً عظيماً وفوزاً في هذه الاقطار عجيباً

اما ما يتعلق بمذبحة الاسكندرية التي حدثت في ١١ الشهر فقد تشكلت من اجلها لجنة ذات ثلاثة فروع وشرعت في اعمالها

والله المسئول ان يقرن مساعي جناب ولي النعم بالفوز والتوفيق . اه .

فصلٌ

ملاحظة مهمة

حملنا على ابداء هذه الملاحظة هنا ما رأيناه في تلغراف درويش باشا من الثقة بما كل مقال يعقوب باشا واعتماده عليه في الامور الخطيرة التي لا يصح في مثلها الاستناد الى مثل هذه المقالات

فكان درويش باشا جهل (ولعل المصلحة الجائة الى التجاهل) ماهية هذه المقالات ومقدار الاعتبار الذي يجب اعارته لها وهي عند كل عاقلٍ لبيب كفارغ البندق يسمع له طقش ولكنهُ خليٌ من النواة. ونحن نعلم ان هاته الاقوال ليست الأ مما تعودهُ الخطباء على منابرهم والرؤساء في اقوالهم لا يترتب عليها اثر ولا تستخرج منها فائدةٌ ما ولا تعلق في الاذهان شأن الاقوال التي لا تصدر عن صحة اعتقاد بما تشير اليهِ فلا تكون على هذه الحال الأ كلمات يرددها الناس ولا يدرك اكثرهم معناها ولا يعلمون ما يُقصد منها فاذا تناقلوها كان ذلك على حكم المألوف من سماعها بمعنى انهم يألفونها ويتناقلونها حتى يصير من مقتضيات الواجب التحدث بها ولو في غير محلها وعلى غير ما يرام منها كما جرت عادة الجند مثلاً ان يقولوا للجناب الخديوي (افندمز جوق يشا) فانهم يقولونها كما لو قالها الفونوغراف مثلاً او كما لو عادها رجع صدى الوادي ولقد طالما سمعوا اثناء الحوادث يكررون هذه العبارة في جميع احتفالاتهم وجمعياتهم ومواقفهم العمومية وتصريحاتهم العلنية ويعملون في الوقت ذاتهِ على خلع الخديو وربما نطقوا وضجوا بها يوم حصروه في سراي الرمل بالاسكندرية هاجمين عليهِ قصد الوقيعة بهِ. وطالما سمع ايضًا خطباء مصر او المتطفلون من اهلها على الخطابة يعيدون على الناس اقوالاً من مثل «حب الوطن» و «شرف العمل» و «التحلّي بالفضائل» و «التخلّي عن الرذائل» و «السعي في الاصلاح» وغير ذلك من كلامٍ طنان وقول رنان قد لا يدركون معناه ولا يفقهون المراد منهُ فيأخذه السامعون عنهم ويرددونه في المنتديات والمحافل منشرحين صدرًا معجبين بانفسهم كانهم على علمٍ بما فيهِ وما هم الا كالببغاء يعيدون ما يسمعون ولكنهم لا يعلمون ومثلهم في مَثَل صغار الطلبة في مدارس النصارى فانهم يأتون المعبد ويتلون «ابانا» مرارًا متتابعة وهم لا يعرفون ما يتلون وانما يقولونها كما تلقنوها اذ من المفروض عليهم ان يقولوها

وعلى هذا النحو رأينا كثيرين في مصر يقومون على المنابر خطباء يرشدون الناس الى السبيل الذي لا يحسنون السلوك فيهِ منادين بالحرية وحب الوطن فيأخذ الجهلة عنهم هذه الالفاظ ويرددونها في كل نادٍ ومقام واذا سئلوا عنها اجابوا بما يدل على جهلهم لها متوهمين ان حب الوطن قائمٌ بحب تراب مصر والحرية عبارةٌ عن ارتكاب اي المعاصي والمحارم بدعوى ان الانسان حرٌ لا يُعارض فيما يفعل ولا يحق لاحدٍ ان يكون آمرًا عليهِ حاكمًا الى غير ذلك مما نضرب عن ذكره ونولي الاشارة اليهِ صفحة الإعراض خيفة الاسهاب الممل

فصلٌ

ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول ان درويش باشا جهل او تجاهل ماهية تلك التصريحات التي فاه بها يعقوب باشا بالاصالة عن نفسهِ وبالنيابة عن جميع الجنود وضباطها فلم يعدّها من سقط المتاع بل اعتمد عليها واستند اليها ووثق بها واكتفى بالظاهر منها فبنى عليها ما بنى من الامور الخطيرة والاعمال السياسية المهمة

وقد حصل لوزوروس باشا مثل ما حصل لدرويش باشا بان وثق كل الوثوق بما كل

التلغرافين المذكورين يوم وصولها الى الاستانة حتى انه تحصل على تصديق الحضرة السلطانية على المنشور الاتي ملخصه فارسله الى جميع وكلاء الدولة العلية لدى الحكومات الاجنبية وهذا مفاده بعد سرد البيان المندمج في تلغرافي درويش باشا قال

(ومما تقدم يتضح جليًا لسعادتكم ان مهمة درويش باشا جاءت باحسن النتائج فقد عاد الى البلاد امنها وسلامها بعد ان اقلقها وقتًا ما جماعة ضابطان الجهادية المصرية الشاهانية واستتبت الراحة وساد النظام وابدى رجال العسكرية علائم طاعةٍ وخضوع من شأنها ان تشد رباط الاتحاد بين المتبوع الافخم ونائبهِ ورعاياه الامناء وان تزيل المفاسد من تلك الولاية وتستجلب رضى الدول الاوربية فبذلك صار يحلو لنا الامل بما نعهد من عدالة الدول وتنزهها عن المقاصد السيئة ان تنظر بعين الاعتبار الى هذه المقدمات والنتائج فيتاكد لديها اذ ذاك ما نحن عليهِ من حسن النية والاجتهاد بنض المسألة المصرية وصرف مشاكلها وتحصل لها الثقة باننا قد بلغنا الغاية المطلوبة ولم يبقَ من حاجةٍ الى اجراء غير التدابير التي تمّ الى الان اجراؤها من مثل التي يعسر علينا تحقق حصول الفائدة منها وانبعاث النفع عنها (يعني بذلك الاستغناء عن عقد المؤتمر ويقصد بهِ عدم الثقة بحصول ما يترتب عليهِ الاثر المطلوب) وبناء على ذلك نتكل على غيرتكم ونباهتكم في تأييد هذه المبادئ عند وزير الخارجية وان توضحوا لحضرته اننا سلفًا واثقون بموافقتهِ على ما رأينا واعترافهِ بوجوب العدول عن عقد المؤتمر للنظر في المسألة المصرية عدولاً قطعيًا اذ لم يبق له البتة من لزوم

وقدموا نسخةً من هذا المنشور الى جناب وزير خارجية الدولة التي انتم في وكالتنا لديها . اه .

فيظهر مما تقدم من ذكر هذه المحررات الرسمية السياسية ان الدولة العثمانية كانت تحاذر عقد المؤتمر كل المحاذرة وتهرب منهُ خيفة ان تستميل انكلترة سائر الدول الاوربية الى رأيها اما الدول الاوربية فانها لم تنكر المؤتمر بل وافقت عليهِ لان ذلك موافق لمصلحتها او انهُ غير مغاير لها اذ بواسطته يكون لها جميعًا حق النظر والحكم في المسألة بخلاف ما لو كان هذا الحق لواحدةٍ او ثنتين منها تستبدان في القضاء والفصل وتستأثران بالامر كما تريدان

ولقد شاع في اواسط شهر يونيو الآنف الذكر ان الدول الثانوية اي الدول الصغيرة كالبورتغال واسبانيا واليونان وغيرها (١) طلبت ان يكون لها اشتراك في المؤتمر وصحة الامر فيما نظن انها لم تطلب ذلك من تلقاء نفسها بل حملتها على طلبه دولة او دولتان من الدول الكبيرة التي كان لها مقاصد ومآرب فيهِ وكيف كانت الحال فلم يُعطَ لها ان تشترك في المؤتمر وقد ارسل المستر مورتيه سفير انكلترة لدى حكومة اسبانيا كتابًا في هذا الشأن الى اللورد غرنفيل مؤرخًا في ٢٢ يونيو فجاءً متضمنًا

---

(١) الدول الكبيرة هي : الدولة العثمانية وفرنسا وانكلترة والروسية وايطاليا والمانيا واوستريا

ما يستدل منهُ على ما كان من امر اسبانيا فيما طلبت وهذا تعريبه :

من مدريد عاصمة اسبانيا

سيدي اللورد

امس سئل وزير اسبانيا في مجلس نوابها سؤالاً اجاب عنهُ بما معناه : ان حكومة اسبانيا لم تطلب من احدٍ إدخالها في مؤتمر الاستانة وحسبانها في عداد الدول المؤتمرة وانما كلفت للاشتراك فيهِ وهي لها الحق ان تترقب الحوادث وتتبعها ولكنها ما رجت احدًا ان ينيلها هذا الحق الحاصلة هي عليهِ فلا يحق اذًا لدولةٍ او اكثر ان تأبى على اسبانيا ما لم تطلبه هي لنفسها ولن تطلبه مطلقًا .اه .

وكانت حجة الباب العالي في رفض المؤتمر مبنية على حسن اعتقادهِ بوزارة مصر الجديدة وثقتهُ بان احوال مصر قد انتظمت او كادت استنادًا منهُ الى الافادات التي وردت عليهِ من درويش باشا . اما انكلتره فكانت معارضةً لهُ في ذلك على خطٍ مستقيم وكان من رأيها انهُ لا بدَّ من عقد المؤتمر وان وزارة مصر الجديدة غير كفوءة لاعادة الامن والراحة الى البلاد . يؤيد ذلك نص الكتاب الذي بعث بهِ المستر كارترايت من الاسكندرية الى اللورد غرنفيل بتاريخ ٢٦ يونيو وهذا تعريبه

سيدي اللورد

لقد لاح لي انهُ صار من المرجح الان لدى حكومة الاستانة ان وزارة راغب باشا ستكون حسنة الادارة وان نفوذ عرابي آخذٌ في التناقص وانهُ لم يبقَ من موجب للالتجاء الى تدابير فعالة ووسائل مشدّدة فرأيت من الملائم ان اخبر من هذا المقام سفير جلالة الملكة بالاستانة ان ليس للامن من اثر في الديار المصرية بسبب ما يجريه المتحزبون للجهادية فيها من الاعمال الموجبة لفقدانه منها وان نفوذ عرابي آخذٌ في النمو والازديادَ بحيث اصبحت اقتراحاته الان اكثر صعوبة من اقتراحاته الماضية وامست حالة الجهادية حالة عجبٍ وكِبَر وتيهٍ وخُيَلاء وكل ذلك ناشىءٌ عن بقاء عرابي في الوزارة

ويؤيد هذا القول ما تلاقيه اللجنة المشكلة للنظر في حوادث ١١ يونيو من المصاعب في وظيفتها فان يعقوب باشا وكيل نظارة الجهادية وهو عضوٌ جهادي في هذه اللجنة يقاوم مجرى التحقيقات القانونية ويجهد بالمعارضة والممانعة فيها حتى ان العضو الانكليزي في اللجنة المذكورة اضطر ان يستعفي منها وما بقاؤه الى الان فيها الا لاتمام استنطاق بعض الجرحى ممن تحتاج اللجنة الى شهاداتهم كل الاحتياج

وقد صرَّح بطرس باشا (وكيل نظارة الحقانية وهو المندوب المدني المعين من قبل الحكومة لينوب عنها في هذه اللجنة) غير مرة مؤكدًا ان ما من احد يستطيع ان يقرر امام اللجنة ما لا يكون موجبًا لرضى احزاب الجهادية وانهُ هو عينهُ مكره على احتمال بقاء يعقوب باشا في اللجنة حتى في الحالة التي يكون فيها مخالفًا لارائهِ على خطٍ مستقيم ولا يزال الى الان كثيرون من الاوربين في السجون (وهم الذين قبض عليهم اثر حادثة ١١ الشهر) فان يعقوب باشا يأبى اطلاق سبيلهم خيفة ان يكون ذلك موجبًا لغضب الضباط اما حجتهُ بعدم اخراجهم

فهو قولهُ انهُ اذا افرج عنهم لا يكون بعد ذلك مسئولاً عن الامن والسلام العموميين

وقس عليهِ راغب باشا فانهُ للاسباب عينها لا يستطيع اجراء شيء مخالف لرضى الجهادية ولديَّ ما يثبت الان ان سياسة سعادته ومآل اقواله في محادثاته ومباحثاته وكيفية سلوكه كل ذلك صار مائلاً لسياسة روساء الجهادية ومآل اقوالهم بمعنى انهُ صار موافقًا لهم

وكذلك مأمور ضبطية الاسكندرية ووكيله اللذان لم يُعزلا الى الان جزاء تصرفهما السيء اثناء حوادث ١١ الشهر لانهما من حزب الجهادية وفوق ذلك لم يُسألا عن شيء ولم يُعاقبا كما انهُ لم يعاقب احدٌ من ضبطية الجهادية (المستحفظين) الذين اساؤا التصرف بما يفوق الوصف

ومما زاد في الطين بلة النيشان الذي انعم بهِ جلالة السلطان على عرابي في هذا الوقت المقلق فانهُ رفع مقامه في اعين الجميع واعلى كلمته وشدَّد عزائم الجهادية وجعل عرابي هو المشار اليهِ والمعني بهِ والمحدث عنهُ فاذا ظهر في محفلٍ عمومي أُعدَّت لهُ اسباب الاحتفال الفائق والاستقبال الشائق واذا مرَّ بشوارع المدينة سار في ركابهِ من دون سائر الوزراء جماعة من الخيالة مثل الذين يسيرون في ركاب الخديو

ومما لا يجب التغاضي عنهُ هو ان عرابي ليس حاصلاً فقط على النفوذ التام وعلى مزية كونهِ لا يُعارض في مجلس الوزراء بل ان الجهادية انفسهم هم ارباب الامر والنهي والنقض والابرام واصحاب الكلمة النافذة في اي الادارات التي لهم دخلٌ ما في امورها فبات المحافظون لذلك والمديرون والمأمورون الملكيون في جميع جهات القطر لا يستطيعون الاَّ انفاذ اوامر الجهادية بل باتوا لا قوة لهم ولا سلطة ولا نفوذ كالروساء الجهادية لادارة الامور والاعمال على ما يريدون

والذي ذكرتهُ هو عين الحقيقة وواقع الامر ويزاد عليهِ ان في المدينة اشاعات كثيرة عن تظاهر احزاب الجهادية بالقسوة وتهددهم لمن كان من غير حزبهم وان الضباط في اي مكانٍ وُجدوا يتفوهون بما يوجب خوف الاوربيين ويلقون الخطب المثيرة المهيجة وروساء الجهادية لا يمنعونهم من التظاهر بهذه الامور ولا يخفى ان هذا الامر كثير الاهمية يستلزم دقة النظر فيهِ والالتفات اليهِ

التوقيع كارترايت

فصلٌ

ومما يتعلق باللجنة التي شكلت لتحقيق حادثة ١١ يونيو وذكر في هذا الكتاب بعض ما كان جاريًا فيها قول المستر كارترايت المومأ اليهِ في تلغرافٍ مخصوص بعث بهِ الى اللورد غرنفيل مؤرخًا في ٢٦ يونيو (حزيران) وهذا معربهُ:

سيدي اللورد

انبأت حضرتكم في تلغرافي الاخير ان قد شكلت لجنة مخصوصة لتحقيق حادثة ١١ الشهر وان المستر كوكسون عين المستر غروجان المشرع الانكليزي المقيم في هذا الثغر عضوًا انكليزيًا في هذه اللجنة بناء على طلب محافظ الاسكندرية

وقد التأمت هذه اللجنة وشرعت في العمل

وبينما هي آخذةٌ فيهِ اعترضتها صعوبة مهمة وطرأ على مجرى التحقيق امرٌ ذو بال وهو هل يحق لها تفتيش البيوت والمنازل التي يُشتبه بوجود اشياء منهوبة فيها فألحّ وكيلا الجهادية والحقانية وهما معتمدا الحكومة المصرية في اللجنة بوجوب جعل هذا الحق متبادلاً (كما انهُ يباح دخول منازل الوطنيين وتفتيشها) ولا خفاء ان في ذلك ما يدعو الى اتهام الاوربيين بالسلب والنهب ويبعث على معاملتهم بمثل ما يُعامل بهِ الوطنيون المعتدون عليهم بل يكون فيهِ حجة للحكومة تتمحل بها عذرًا عما تنويه من معاكسة الاوربيين والتضييق عليهم في حالة كونها لم تأتِ الى الان في هذه المسألة امرًا يوجب الرضا عنها ولم تعزل احدًا من ضباط البوليس الذين وجدوا يوم حادثة ١١ الشهر في مكان الفظائع مجرئين بسوء تصرفهم سفلة القوم من العرب الثائرين على ما كانوا يفعلون

فبناء على هذه الاحوال وغيرها مما ذكرتهُ لحضرتكم في رسالتي التلغرافية السابقة امرت المستر غروجان ان ينسحب من اللجنة المختلطة السابق الايماء اليها

ومن موجبات الاسف ان نرى وكلاء الدول هنا وقنصلياتها قد وافقوا على تشكيل هذه اللجنة قبل ان تأتي الحكومة المحلية بادلةٍ وبراهين صحيحة تدل على حسن نيتها وصحة رغبتها في ان تبحث بحثًا دقيقًا في شأن الضباط المذكورين الذين يجب ان ينظر الى سيرتهم التي تقدم بيان امرها بعين الدقة والاعتبار . اه .

ففي قوله (من موجبات الاسف الى اخر ما قال) دليل على ضعف الثقة بما ستفعل حكومة انكلتره وغيرها من الحكومات وهذا ما اوجب زيادة الخوف والقلق عند الاجانب واطمع احزاب الجهادية في نوال مآربهم وفوزهم بالغاية المقصودة

فصلٌ

ولنعد الى كلامنا في شأن المؤتمر فنقول:

قد كان من نتيجة المخابرات السالفة الذكر ان المؤتمر عُقد في الاستانة رابع وعشرين شهر يونيو (حزيران) من غير ان يكون للدولة العلية معتمدٌ فيهِ . وفي جلسته الاولى وقع المعتمدون على البروتوكول الاتي تعريبه وهو

ان الحكومات التي وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوكول تتعهد انها لا تقصد البتة اغتنام ارضٍ ما ولا الحصول على امتيازٍ ما ولا ان يكون لرعاياها من الامتيازات التجرية ما لا يستطيع ان يناله غيرهم من رعايا اي الدول في مصر وذلك في اية مسألةٍ حصل التوافق عليها بسعيها واشتراكها في المخابرات لتنظيم امور تلك البلاد

(التواقيع)

اونو للروسية . ماركيز دي نوايل لفرنسا . كاليس لاوستريا . هرشفلد لالمانيا . دوفرين لانكلترة .

وبعد التوقيع على هذا المحضر اخذ المؤتمرون يتداولون في المسألة وقد رأينا في الكتاب الازرق صورة رسالةٍ تلغرافية بعث بها اللورد دوفرين سفير انكلترة بالاستانة الى اللورد غرنفيل وزير خارجيتها يشتمل على بيان ما جرى في المؤتمر حتى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو (حزيران) وهو يوم تاريخ الرسالة فاثرنا

تعريبها عنه كما يأتي

عقد المؤتمر امس جلسته الثانية كما انبأت حضرتكم بالتلغراف فكان افتتاح اعمالنا اننا وقعنا جميعاً على البروتوكول الاول وهذه صورته . . . . . . وفقًا لما جاء في امركم الصادر اليَّ بالتلغراف الذي وصلني من حضرتكم بتاريخ ١٧ الجاري وقد اخبرنا الكونت كورتي سفير ايطاليا ان المذكرة التي رجوناه ان يبلغها لسعيد باشا (رئيس الوكلاء بالاستانة) قبلها حضرة المشار اليهِ بصفة شبيهة بالرسمية فقلت اثر ذلك ان حكومة جلالة الملكة بالاشتراك مع حكومة فرنسا كان لها الاهتمام الاول والسعي الاهم في المخابرات التي ادت الى اتمار وكلاء الدول الست بالاستانة للتداول في مسائل مصر فبناء على ذلك استمنح ان يرخص لي في استلفات انظار رصفائي الاجلاء الى اهم الامور في الحالة الحاضرة فابينها بجلاء واختصار . على انني اقول وان يكن رصيفي وكيل الحكومة الفرنسوية اقدر مني على ايضاحها بالنظر الى ما يُعهد فيهِ من بلاغة الكلام وفصاحة القول الاَّ انني اقدم منه في السفارة هنا ولذلك ارى من فروضي ان اقوم بهذه المهمة على ما فيَّ من الضعف والعجز

ولقد كان من حسن حظي ان الامور التي ستدور عليها مذاكراتنا ومباحثاتنا هي في ذاتها واضحة جلية وان ضرورة المباشرة والاسراع في اتخاذ التدابير الفعالة والوسائل المقتضاة امرٌ مقرر عند الجميع لا يحتاج الى دليلٍ وبرهان وان اراء حكوماتنا جميعاً على وفاقٍ تام في هذه المسألة . كل ذلك لقيته من الاسباب المسهلة لان الخص لكم مجمل الحوادث ببيان يسير فاقول

لا اغالي ان قلت ان الفوضى بكامل ما يحتمل معناها قد تمكنت في مصر تمكنًا شديدًا في الاشهر الاخيرة (يريد انهُ لم يكن للحكومة في مصر اثرٌ من الوجود) فقد رأينا قومًا من الجهادية عصوا بلا سبب شرعي صحيح يسترون بهِ مقاصدهم الخفية فكان اول ما بدا منهم العسف والشدة والاغتصاب ثم دفعهم ذلك الى مخالفة الاوامر ومنها انصلوا الى الثورة والعصيان ثم الى اغتصاب السلطة والحكم في البلاد فنشأ عن ذلك اختلال الادارة ووقوف حركة الاعمال التجرية المألوفة وبات الفلاح غير قادرٍ على تسديد ما عليهِ من الاموال الاميرية اذ لم يبقَ في القطر امن ولا ثقة للتجار تبعثهم على شراء حاصلاته وبذلك تضيع لا شك واردات الحكومة ويفقد دخلها وتصبح المصالح التجرية في تضعضعٍ عظيمٍ وخسرانٍ جسيم وهذه الخسارة تلحق برعايا الدول كلها وتضر بهم ضررًا وفيرًا

ولا تقتصر الارتباكات الحاصلة في مصر على هذه الامور فقط بل تتناول ايضًا التعهدات الخصوصية المبرمة بين مصر وحكومتي فرنسا وانكلترة فانها قد مُست وأُنكرت ومنع المأمورون المعينون لانفاذها من اجراء وظائفهم ونزعت منهم الحقوق الممنوحة لهم من اجل اجرائها وأُفسدت الطريقة التي شرع في اتخاذها والسير على مقتضاها حرصًا على مصلحة ارباب الفلاحة والزراعة في مصر

وكل هذا ليس بجزء من مائة مما هي عليهِ الحال الحاضرة التي اوجبت قلق اوربا فان

حيوة الاوربيين واملاكهم في داخلية القطر اصبحت في خطرٍ عظيم ولا شيء لدينا يضمن صيانتهـا ووقايتها وذلك فضلاً عن ان الثقة العمومية قد فقدت فاوجبت خسائر جمة وشاهدنا على وجود الرعايا الاوربيين معرضين لاخطار القتل والفتك لا يستطاع انكاره الا وهو مجزرة الاسكندرية التي لم يسمع بوقوع مثلها المجزرة التي قتل فيها رعاع الشعب وسفلة القوم اناساً كثيرين مسالمين لا معتدين مصافين غير معادين وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ويتبع هذا الشاهد تسابق الوف من ابناء جلدتنا الى السفر والرحيل من مصر ومدن الداخلية والارياف مع ما في ذلك من الاضرار التي شملت الجميع ولحوق الخراب التام بكثيرين منهم

ومن الواضح الغني عن البيان ان مثل هذه الحال تحتاج الى المعالجة بدواء ناجع فعالٍ سريع التأثير

ولا انكر ان وكلاء الدولة العثمانية اخبرونا ان قد اهمدت الفتنة واصلح الخلل وان قد شكلت وزارة جديدة واُعيد للخديو سلطته ونفوذه وانهٔ لم يعد بعد ذلك لمصاعب المسالـة المصرية وجود امـا انا فاجيب على ذلك ان هذه الروايات ما صدرت الا عن فكرة غريبة في بابها وانها عرية عن الصحة بل لا اثر للصحة فيها وقد اخذت على عهدتي ان ابلغ ذلك لسعيد باشا بكلامٍ معتدل واسلوبٍ غير جاف ولكن بتمام الصراحة والوضوح فان الحكومة الحالية بمصر ما هي الا عبارة عن حكومة عرابي باشا ومريديه الثائرين والخديو بين ايديهم لا قوة لهٔ ولا سلطة ومثلهٔ المندوب العثماني (درويش باشا) الذي ما لبث ان اخبر حكومتهٔ من مدة ان الحكومة الجديدة او الحالة الراهنة ان هي الا ضربٌ من العصيان فاز فتغلب ونجح فتسلط وان عرابي باشا لا يزال هو المالك في مصر وانهٔ لا هو ولا غيره يستطيع ان يدفع عرابي من مركزهِ بدون قوةٍ عسكرية

فهل تصبر الدول الاوربية بعد ذلك على استمرار هذه الحال في ولايةٍ لها علائق متجرية مهمة فيها وعدد كثير من رعاياها وهل يجدر بها ان تتركها مقرًّا للقلاقل والارتباكات والسلم العمومي موقوف على وجود الراحة فيها لا شك ان الدولتين الغربيتين فرنسا وانكلترا لا تستطيعان الصبر على ذلك وفي وجود رصفائنا الاجلاء هذا اليوم ملتئمين في هذا المقام دليل كافٍ وجواب شافٍ على السوال الذي تقدم ايراده فان المؤتمر قد عقد اثر تشكيل وزارةٍ تزعم انها ساعية في تنظيم امور مصر واصلاح احوالها وما نعهدها الا العوبةً بين الوزارات

ولقد عرف الكل هذا الداء اليوم فلم يبقَ الا التشاور في كيفية اعطاء العلاج ولحسن الحظ انهٔ يتفق احياناً اصلاح مثل هذا الفساد السياسي من غير التجاء الى وسائل كثيرًا مـا تكون شرًّا من الفساد عينه

وبناء على ما تقدم وجب على اوربا ان توافق على اراء وكلائها ووجب علينا نحن اولئك الوكلاء ان نسعى في الوصول الى التوافق والاتحاد . وقد كلفتني حكومتي بصفة كوني وكيلها في هذه الهيأة ان اعير رصفائي الكرام وافكارهم اعظم جانبٍ من الرعاية والاحترام واعد

نفسي – بدًا بامتثالي لهذا الارشاد الصحيح الحق بالنظر الى ما اعهد فيهم من الخبرة وادراك حقائق الامور

ولهذا ارى ان مشروعنا ينقسم الى فرعين الاول « وهو اهم الاثنين واقربهما منالاً » يتعلق بالحال الحاضرة والثاني « وهو ما يمكن اطالة المخابرة والتشاور فيهِ اكثر من الاول » يتعلق بالمستقبل

اما الاول فينحصر في سرعة اعادة حكومة منظمة الى مصر وجعلها عادلة مستقيمة نافذة الكلمة تعترف بسلطة الخديو وتكون حاصلة على ارادة القيام بالتعهدات الدولية المستمرة الى الان والاقتدار على اجراء احكامها وعلى ضبط الادارة ووقاية الامن وصيانة حياة الاوربيين القاطنين في القطر المصري واملاكهم

واما الثاني فهو عبارة عن احتياط واحتراس يضمان استمرار الراحة والسلم في المستقبل وعدم وقوع حوادث محزنة من مثل التي حدثت اخيرًا فاوجبت اجتماعنا اليوم هنا ولا شك اننا لا نصل بالسرعة الى التوافق على الامر الاول ولكن لا يجب ان ننسى ان كل حركةٍ ثوروية اذا لم تعارض وتقمع تكتسب قوةً وعزمًا وتمسي راسخة في ارضِ نشأتها فلا يعود من السهل استئصال شأفتها والعصاة الجهاديون بمصر هم في هذا الاسبوع اشد واقوى مما كانوا قبله وسيكونون في الاسبوع القادم اكثر قوةً وتقدمًا مما هم عليهِ في الاسبوع الحاضر وفضلاً عن ذلك فان كثيرين من الاوربيين لا يزالون في مصر ومدن الداخلية رغمًا عن مهاجرة كثيرين منهم وارواحهم جميعًا كائنة تحت تصرف عرابي باشا المطلق واحزابهِ وسلامتهم من الاخطار متوقفة على سرعة اجراء ما يخط راينا عليهِ وينصرف تبصرنا وتدبيرنا اليهِ

ولا ارى بعد هذا محلاً لان أُلقي مذ الان على حضرات رصفائي تفاصيل التدابير التي ينبغي اجراؤها واستبدال ادارة مصر بها وفقًا للمرام وان اشغل خاطرهم بها فان المهم في المسألة الان قد عرضتهُ حكومة بريطانيا على الدول واظنها وافقتها عليهِ ولم يبقَ الا ان يكلف الجناب السلطاني صاحب السيادة على القطر المصري ان يدافع عن سلطة وكيله في بعض امورٍ واحوال بصير تعيينها وتحديدها بالدقة والضبط وان يصونها صونًا تامًا اكيدًا ملاشاةً لثورة الجهادية الذين اختلسوا بعصيانهم السلطة والقوة بمصر

وقد ارسل الجناب السلطاني الى مصر مأمورًا عسكريًا رفيع المقام مطلق التصرف ووافقت الدول على ارساله وان لم تكن هي المشيرة اليهِ بذلك وصدقت على ما للجناب السلطاني من حق التداخل في المسألة فلم يبقَ الا التشاور فيما اذا لم يكن من المصلحة التداخل بصفةٍ اقوى وافعل من ذلك التداخل (انتهى كلامي)

وبعد ان فرغت من مقالي نهض المركيز دي نوايل (سفير فرنسا بالاستانة) وافاض في الكلام فاستحسن بداءة بدء ما قلتهُ وصرَّح بانطباق رأيه عليهِ ثم ابان بفصاحةٍ وبلاغةٍ بالغتين امتناع رضى اوربا عن الحالة الحاضرة بمصر اذ لا شيء فيها يضمن سلامة المستقبل من الخطر ثم ختم قوله بملاحظةٍ ابداها وهي اننا لم

نجتمع لاجل ارغام حكوماتنا على قبول ارائنا والموافقة عليها واجراء ما نعين لها اجراءهُ ولكنا اجتمعنا للتداول والتوافق على احسن الوسائط واقربها لحسم النازلة الحاضرة واخماد الفتنة ثم قال ان الوسائط المؤدية الى ذلك كثيرة فلا يجمل بنا والحالة هذه الآن ان نبحث اولاً فيما لا يمكن ان يكون منها آيلاً الى الرضى بهِ والاتفاق عليهِ فنجتنبهُ ونبحث في غيره الى ان نتصل بالبحث الدقيق بعد ذلك الى نتيجةٍ وضحية

وبعد ان انتهى من كلامهِ ابدى البارون كاليس (سفير اوستريا) الملاحظة الاتية وهي : يحق للمؤتمرين جميعاً ان يسألوا رصيفيهم سفيري فرنسا وانكلتره بياناً منفصلاً واضح التحديد واضاف الى ذلك قوله : وفي ظني انهما لم يفعلا ذلك الى الان

ثم قال ان هذه الامور ينشأ عنها مسألةٌ وهي : هل يوافق جميع الاعضاء على ان حالة مصر الحاضرة هي في الصفة التي اشار اليها سفير انكلتره واردف ذلك بقولهِ انهُ (شخصياً) لا يستطيع ان يبدي رأيه في شأنها وليس لهُ من موارد الاخبار والاستعلام عن وقائع الحال ما لغيرهِ من سفراء الحكومات التي لها مصالح مهمة في القطر المصري وكيف كانت الحال فهو يود ان يحصل التوافق اولاً على تحديد الحال الحاضرة في مصر وحصرها في بيانٍ جامعٍ شاملٍ

وقد انضم الموسيو دي هرشفلد (سفير المانيا) الى رأي البارون كاليس . اما الكونت كورتي (سفير ايطاليا) فقال انهُ يقبل البيان الذي قدمتهُ انا عن حالة مصر ويعتقدهُ صحيحاً غير انهُ اضاف الى ذلك ملاحظةً وهي ان المسائل المصرية قد دخلت في دورٍ صعب شديد الارتباك كثير الاشتباك باطراف المحن والنوازل تتلاقى في بحرهِ العجاج تيارات شتى وتتصادم في فلواتهِ الفسيحة قوات مختلفة متباينة وقال ان من رأيه ان حلَّ هذه المشكلة لمن اصعب الاشياء واكثرها اشكالاً وان على سفيري فرنسا وانكلتره ان يعرضا على المؤتمر لائحةً صريحة البيان والتحديد

واما الموسيو اونو (سفير الروسية) فقال انهُ موجود في مثل مركز البارون كاليس اذ ليس لديه من الاستعلامات عن احوال القطر المصري الا اخبار غير وافية بالمرام ولكنهُ يرى مع ذلك انهُ يمكن اعتبار نتيجة الملاحظات التي ابداها اللورد دفرين بمثابة الامر الذي تريد انكلترة عرضهُ على المؤتمر

فاجبت على ما تقدم انني ساقدم لحضرات رصفائي جميع التفاصيل التي يهمهم الوقوف عليها متى حان الوقت الملائم لتقديها غير انني لا اظن انهُ من المصلحة ان اشرح وافصل منذ الان (اي في بداية المخابرة والتداول بيننا) طريقة الشروع في العمل وكيفية السير فيهِ فانني لا استطيع معرفة اراء حضرات الاعضاء مؤتلفي هذه المياة ومناصدهم وافكارهم

ثم قلت انهُ قبل الشروع في البحث والنظر في تفاصيل المسألة يجب ان نتفق على مبادئ الامر ونقررها وانهُ من رأيي ان الوسائط الفعالة الصارمة التي يجب اجراؤها لاعادة حكومةٍ منظمة الى مصر يجب ان تصدر عن الحضرة السلطانية وان للاعضاء الاخرين الحق والحرية ان يعرضوا على المؤتمر غير هذه الطريقة ان

كان لديهم ماهو خيرٌ منها وأنفع كأن يطلب مثلاً أن يُهل درويش باشا وان يعطى زمنًا اطول مما أُعطي له لاجل اتمام مأموريته او ان يُقال مثلاً ان امر الخديوِ غير نافذ وانهُ يجب ايجاد وسائط اقوى وافعل من الوسائط التي أُجريت الى الان لاجل ردع العصاة بمصر وقمع طغيانهم وقطع دابرهم او ان يكتفى (١) بالنظام والترتيب اللذين وضعهما القناصل الاربعة (قناصل اوستريا والمانيا وايطاليا والروسية بمصر) ويُعتبرا كافيين وافيين بالحاجة فيستنتج مثلاً من ذلك انهُ لم يعد على المؤتمر ان يعرض غير ذلك من الطرق والوسائل المؤدية للوصول الى المقصود

وبناء على ما تقدم ارى انني قدمت للمؤتمر مشروعًا واضح التحديد وافي البيان اذ قد تبين ووضح القصد الذي نسعى وراءهُ وقد قال رصيفي سفير دولة اوستريا انهُ يود ان نبين اراءنا في حال مصر الحاضرة ونرى هل اننا متوافقون على ذلك ام لا واني اصادق على قوله واوافقه على طلبه ولاجل ذلك شرحت بالتفصيل الكافي كل ما اعلم من احوال مصر غير اني الان اصحح بعض ما فهتُ بهِ في المؤتمر واخبر حضرات رصفائي اني علمت من مصدر يوثق بهِ ان درويش باشا اعترف بصفةٍ رسمية انهُ لم ينجح في المهمة التي أُرسل بها الى مصر وانهُ لا يستطيع قط انقاذ الخديوِ من استبداد الجهادية من غير ان يكون حاصلاً على قوةٍ لا تنقص عن عشرين طابورًا من الجند ثم اثبت ان الوزارة المصرية

(١) كما عرض ذلك وزير الخارجية

الجديدة ليست الا وزارة عرابي وان الخديوِ باقٍ غير نافذ الكلمة وسيبقى كذلك اذا استمرَّ غير حاصلٍ على جيشٍ يؤيده ويعيد لهُ سلطته

وقد انفضت الجلسة بعد هذا على قرار ان تعقد غدًا: يوم الثلاثا سابع وعشرين يونيو (حزيران) الجاري

وعندي ان النتيجة التي يمكن استخلاصها مما قدمتهُ هي انهُ لم يرد لاحدٍ من رصفائي افادات من حكومته صريحة بينة تعين لهُ الطريقة السياسية التي يجب ان يسير على مقتضاها في هذا المؤتمر

التوقيع دوفرين

فصلٌ

وفي اثناء المخابرات التي كانت جارية بين الدول لعقد المؤتمر على ما تقدم بيانه كانت انكلترة تتأهب للحرب بحشد الجنود واعداد المهمات وكان اكثر الناس يتوهمون ان ذلك انما صدر منها على سبيل التهديد لترهب عرابي واشياعه وتنال اغراضها فاحست الدول الاوربية بما وراء الاكمة ولكنها لم تجسر على مقاومة الانكليز ومعارضتهم علنًا لا سيما بعد ان صرح اللورد سالسبوري في مجلس نواب انكلترة ان الانكليز وحدهم قادرون على نوال مآربهم وتحصيل ما يطلبون رضيت الدول اولم ترضَ وكانت الدول تحاول اقناع الانكليز ان لا يستبدوا في الامر وحدهم وان يستشيروا غيرهم ويشركوهم معهم في العمل فكانوا ينفرون من ذلك ولا يعترفون لاحد غير الفرنسيس بحق التداخل في المسألة المصرية اذا اشتعلت نار

الحرب وهم وان كانوا قد عرضوا على الدول ان تشترك معهم في كبح عصاة مصر الا ان سياستهم كانت في الباطن على غير ذلك المنهاج . وقد عرضوا على الباب العالي ان يرسل جنوده الى مصر ولكنهم اشترطوا عليهِ شروطًا لا يمكنه الرضى بها مع علمهم ان عسر المالية العثمانية لا يسمح للدولة العلية ان تتكبد نفقات ارسال جيشٍ كافٍ لقمع العصيان في مصر

وكأن انكلترا كانت على وفاقٍ مع الفرنسيس فيما اذا وقعت الحرب فانها كانت موقنةً ان جيرانها سيتنحون فيخلو لها الجو

وكانت في كل يوم تعرض على الدول الاوربية ان تشترك معها في ارسال جنودها الى مصر وما كان ذلك الا تظاهرًا بما كان مخالفًا لمساعيها الخفية وشاهدنا على ذلك قول المستر باجت سفير انكلترة بايطاليا في الكتاب الذي بعث بهِ الى اللورد غرنفيل وزير الخارجية الانكليزية بتاريخ ٢٧ يونيو وهذا تعريبه

لقيت اليوم الموسيو مانشيني (وزير خارجية ايطاليا) فخابرني هذه المرة ايضًا فيما عسى ان تكون نية حكومة الملكة في اتخاذ تدابير فعالة قاطعة لوقاية ترعة السويس ثم قال لي ان الاخبار الشائعة عن تأهبات الانكليز الحربية وما نسمع من الاسئلة الملقاة في مجالسهم وجواب رئيس الوزارة عليها وهي الاسئلة المتعلقة بالوسائل التي يجب اتخاذها لوقاية الترعة وحرية الملاحة فيها لا تنطبق البتة على ما تقرر ان تجرى المخابرة في شأنه في المؤتمر وقال ايضًا انه لا ينكر قط ان هذا الامر مسبب له بعض الاشمئزاز وانه يعترف ان الدول ستضطر بذلك الى الاقرار بافضلية مصالح الانكليز السياسية والتجرية في حفظ الترعة ووقاية حرية الملاحة فيها ثم استدرك بقوله انهُ لا ينكر ايضًا ان للدول الاخر مصالح مهمة جدًا في الترعة ولا سيما دولة ايطاليا فانها ثانية الدول بعد انكلترا في اهمية المصلحة في خليج السويس . فهو والحالة هذه يرى ان التدابير التي يجب اجراؤها لصيانة حرية الملاحة في برزخ السويس ينبغي ان تكون من المسائل العمومية التي تهم اوربا بجملتها ولاوربا حق النظر فيها فلا بدَّ اذًا من عرضها على المؤتمر وطرحها اليهِ للتداول فيها . قال وانهُ يأسف لانفراد انكلترة في العمل في المسألة المصرية من غير موافقة جميع الدول عليهِ وارتضائها بهِ

فاجبته ان ليس لديَّ من حكومتي افادات تتعلق بما تنوه به في المسألة التي عرَّض حضرته بذكرها وانهُ لم يرد اليَّ قط امرٌ قاضٍ عليَّ بالدخول في البحث والمخابرة في مسألة الترعة فعليهِ لذلك ان يعتبر الاراء التي ابديتها في هذا الشأن صادرةً عني لا عن حكومتي . ثم قلت لهُ عما يتعلق بالاسئلة والاجوبة التي تلقى في مجالس حكومتنا انني متيقن ان الغاية المقصودة منها بالذات انما هي حفظ البرزخ حرًا للجميع فعلى الجميع اذًا ان يعلموا ان انكلترة لا تقبل قط ان يكون لهذه المسألة قسمٌ من المخابرات الدولية في المؤتمر . وقلت لهُ ايضًا اني أعيد على خاطر سعادتكم الحادثة التي جرت بيننا اخيرًا اذ سألتموني عما اذا كان صحيحًا ما روته احدى جرائد الفرنسيس مثبتةً ان اللورد غرنفيل من جهةٍ وموزوروس باشا من جهةٍ ثانية قد وقعا على ميثاقٍ من احكامهِ ان يكون لانكلترا

في بعضِ الاحوال حقُّ الحلول في البرزخ فاني علمت يومئذٍ من الملاحظات التي ابديتموها ان هذه المقدماتِ لا يسوّغ حصولها وفهمت انكم لا ترون في هذا الامر الأحفظ مصلحة جميع الدول المجربة وان ليس فيهِ البتة ما يخالف مآل البروتوكول الاول الذي تعهد فيهِ المؤتمرون بالامور الموضحة فيهِ وقد اجبت سعادتكم في ذلك الحين ان ليس لديَّ افادات او تعليمات مخصوصة متعلقة بهذا الامر وانهُ مع ذلك يمكنني ان اؤكد لسعادتكم ان ما فعلته انكلتره في هذه المسألة لم تفعله الا لمصلحة الجميع بدون ان يكون لها اربٌ ذاتيٌّ فيهِ وانها بوقايتها للبرزخ وانقاذه من الخطر الملم بهِ بقوة التدابير المؤثرة والاحتياطات الفعّالة التي اجرتها تدعو الدول الى الشكر لها والثناء عليها لا الى ممانعتها ومعارضتها

وفيما يتعلق بالتأهبات الحربية التي استلفت شأنها نظر السياسي اليها ذكرت لحضرته انهُ هو عينه ابدى لي في احدى مكالماتنا الماضية انهُ يحاذر ان تأبى الحضرة السلطانية اجابة الطلب وارسال جنودها الى مصر وانهُ لا يعلم اي الوسائل يجب اذ ذاك ان يتخذ لاعادة انشاء حكومة منظمة لمصر بدل حكومة العصاة الجهاديين التي لا يمكن الاغضاء عنها فقال نعم فقلت اذا كان الامر كذلك ولزم منهُ اثر وقوعه ان تتداخل الدول الاوربية فيهِ فلا اظن ان دولةً منها تعارض حكومة انكلتره فيما لها من حق التقدم على الجميع في هذا التداخل ومن اجل ذلك وجب التأهب والاستعداد بالنظر الى ما نراه من سير الامور في الاحوال الحاضرة سيرًا قاضيًا بهما ملجئًا اليهما وما عدا هذا فان لنا مع المصريين حسابًا لا بدَّ من ترصيده وهو حساب الخسائر الجسيمة التي تكبدها ابناء التابعية الانكليزية في القطر المصري وحساب ما حلَّ بالضباط الانكليز فيهِ قتلاً وفتكًا

فاعترف الموسيو مانشيني بحقيقة هذه الملاحظات غير انهُ مع ذلك لبث يقول انهُ لا يوافق قط على انفراد انكلتره في العمل بمصر من غير رضى الدول الاوربية وموافقتها عليهِ وانهُ وان لم يكن معارضًا لسياسة الانكليز في هذا الشأن الا انهُ مع ذلك يجد نفسه في مركز صعب

ولقد طلب اثناء هذه المكالمة ان تشترك الدول الاوربية مع الحكومتين فرنسا وانكلترة في المراقبة على مالية مصر واعاد لي ما ذكره غير مرةٍ وهو ان وزارة راغب باشا لا يمكن الرضى بها لانها غير قادرة على ضمانة الراحة في الاستقبال وانهُ لا بد من ابعاد حزب الجهادية ولكنهُ ذكر ذلك بكلامٍ يحتمل التاويل الى معنيين

واجاب بعد ذلك عما عزي الى قنصل ايطاليا الجنرال في مصر بقوله انهُ خابر الدول في تفويض القنصل المومأ اليهِ ان ينضم الى رصيفيه قنصلي المانيا واوستريا في اجراء التسوية التي تقررت للحصول على ما يضمن سلامة الاوربيين في القطر المصري وحفظ حياتهم وانهُ بناء على ذلك ارسل الافادات اللازمة في هذا الباب الى الموسيو دي مارتينو (قنصل ايطاليا الجنرال في مصر) قال ولكنهُ مع ذلك لا يرى في هذه التسوية حسمًا للمشكلة وانهُ غير ناظرٍ اليها بعين الاعتبار بل يعدها تسويةً وقتية لحادث مخصوص

واعادَ لي ما فاه بهِ غير مرة (وقد نقلته اليكم في رسالتي المؤرخة في ٢ يونيو الجاري) متعلقًا باستبقاء توفيق باشا على كرسي الخديوية او استبداله بحليم باشا غير انهُ صرَّح في هذه المرة كل التصريح بالامر وجزم في الكلام فقال: نُفِيَ اليَّ ما شاع من ان حكومة ايطاليا تود رجوع اسمعيل باشا الى خديوية مصر فكان في هذه الاشاعة افتراء محض فاننا على عكس ذلك نرى انهُ لا بد من استبقاء توفيق باشا وان دون رجوع اسمعيل مصاعب عديدة يجب تذليلها لاجله . ثم قلت لحضرته في كلامنا على الاسئلة والاجوبة التي أُلقيت في مجلس نواب لوندرة متعلقة بما تنويه حكومة جلالة الملكة في امر الخديو الحالي ان سعادته كان قد ابدى لي الملاحظة الآتية وهي ان بين الحكومتين (ايتاليا وانكلتره) ميثاقًا مبرمًا في هذا الشأن فلم يبقَ الذلك من اقتضاء للتكلم فيهِ

التوقيع : باجت

فصلٌ

يتضح من هذه الرسالة ان الدول الاوربية كانت شديدة الحذر من انفراد انكلتره في المسألة المصرية تحاول اقناعها بلزوم اشتراك الدول معها ولا تستطيع معارضتها بالعنف والعناء ويتبين ايضًا ان اهم مسائل ذلك الوقت كانت مسألة برزخ السويس وصيانة واستبقاء الخديو توفيق باشا او استبداله

وكانت هذه المخابرات جاريةً بين وزارات اوربا والناس في مصر لا يعلمون بما سيحط عليهِ الرأي ولا يعرفون اي الاخبار يصدقون .وكان اختلاف الروايات موجبًا لزيادة تشويش الاذهان وعلى الخصوص ما شاع في ذلك الحين من وقوع الخلاف الشديد بين الدولتين الغربيتين فرنسا وانكلتره فذهب الناس حينئذٍ الى ان فرنسا لا توافق انكلتره على نياتها الاّ على شريطة ان يخلع الخديو الحالي توفيق باشا ويُدال منه بعمهِ حليم باشا وايدوا هذا القول بما شاع حينئذٍ من ان الحضرة السلطانية راغبة في هذه الإدالة وانها تظهر كل يوم ميلها الى حليم باشا ونقربهُ منها وهو يعدها بالخضوع والانقياد لاوامرها ونواهيها بخلاف توفيق باشا الذي وافق انكلتره على سياستها وأبى انفاذ الاوامر السلطانية والعمل بها وخالفها بعدم ذهابه الى الاستانة اثر ورود الفرمان العالي المؤذن بتعيينهِ خديويًا لمصر فقد كان عليهِ ان يتوجه الى دار السعادة تبعًا للرسوم المألوفة ليتقلد من يد الحضرة الشاهانية وظيفته السامية الى غير ذلك مما رسخ في عقول كثيرين من المصريين صحة وقوع الخلاف بين انكلترة من جهة وفرنسا والباب العالي من جهةٍ اخرى حتى صار في معتقدهم ولا سيما حزب الجهادية منهم ان انكلتره لا تستطيع مقاومة الدولتين المشار اليهما مخالفتين فلا بد لها اذًا من الرجوع بخفي حنين فتخسر مقامها في مصر وتعود من حيث اتت

وكان الجميع في ذلك الحين يترقبون ورود الاخبار من الاستانة ليقفوا على ما كان من اعمال المؤتمرين وما سيستقرُّ عليهِ رأي الدولة العثمانية . وكانت وزارة راغب باشا تعلل نفسها بالامال والاماني توهمًا منها انها قادرة على اصلاح ذات البين وقناصل الدول الاربع

اوستريا والمانيا وايطاليا والروسية يشددون عزائمها ويقوونها واحزاب الجهادية يستميلونها اليهم بما كانوا يشيعون من الاخبار الكاذبة كقولهم ان بين الحضرة الشاهانية والبرنس بسمرك ميثاق موافقة على قطع دابر الانكليز من مصر وبما كانوا يتحدثون به من ان بين فرنسا وانكلتره خلافًا شديدًا الى غير ذلك مما راجت بضاعته في ذلك الوقت وانتشر وذاع حتى عُدَّ صحيحًا واقعيًا

وكانت انكلترة اثناء هذه الاحوال تسعى بدسائسها ودهائها في الانفراد بمصر وتحشد الجند وتعدُّ ما يلزم للقتال والناس في غفلة يتوهمون انها انما تفعل ذلك من قبيل التهديد ليس الاّ

وكان ما يشيعهُ الجهادية واحزابهم يومئذٍ موجبًا لعدم الثقة بانكلتره وعزمها فمن اقوالهم: اي شيء نخافهُ من ذوي اللحيتين (اشارة الى الانكليز) وهم اضعف من ان يصلوا الينا ويلحقوا بنا الضرر والاذى فثغورنا محمية ومدافعنا مهيأة وجنودنا عديدة منظمة وحصوننا منيعة معززة وقلاعنا متينة مستحكمة وميرتنا وافية بالحاجة وفيرة وذخيرتنا كافية غزيرة وبأسنا شديد واملنا بالنصر والفوز وطيد ونصراؤنا كثيرون واعداؤنا ضعفاء واوطاننا تلبي دعوة الداعي للذود عنها ونقوم لقومتنا فالان آنَ النصر والظفر واليوم يوم الفوز والنجاح والتخلص من ربقة الاجانب الذين ساموننا الخسف والهوان وملكوا رقابنا واستعبدوا احرارنا فهذه تونس الخضراء على قلة عدد رجالها وخلوها من المهمات الحربية ابلت بلاءً حسنًا في قتال الفرنسيس وكادت تعجزهم في حربها وهم اولو شدةٍ وبأس وذوو مهارةٍ واقتدار وجنودهم كثيرة المدد وافرة العدَد فكيف بالانكليز لو اتوا لمحاربتنا ونحن آلآف مؤلفة من الجنود ولدينا ما ليس للتونسيين من آلات القتال واسباب الدفاع في حالة ان الانكليز ليس لهم ما للفرنسيس من كثرة العساكر والبسالة فنحن لذلك لا شك ظافرون ان شبت نيران الوغى بيننا وبينهم وسنردهم باذن الله خائبين خاسرين ونخلص اوطاننا من مخالب مطامعهم — وهذه الدولة العلية قد وافقت على اراء اميرنا (عرابي) وبرهنت على ذلك باهدائها لهُ النيشان الرفيع الشان وهي ودولة الفرنسيس والالمان وغيرها من الدول الاوربية مائلةٌ لنا على الانكليز الفجار تساعدنا عليهم وان كنا في غنىً عن مساعدتهم فاننا وحدنا باذن الله اكفاء قادرون على صدهم ودفعهم ولولا ذلك فاي شيء يمنع ذوي اللحيتين من محاربتنا ولاسيما بعد ان رددنا لائحة قنصلهم التي اشترك معهُ قنصل فرنسا فيها وبعد ان سفَّهنا رأيه تسفيهًا بل بعد ان حصلت مجزرة الاسكندرية وقتل فيها من الاجانب عدد كثير ونهبت منازلهم ومخازنهم ودوارعهم راسية في مرافئنا لم تحرك ساكنًا ولم تستطع حراكًا خوفًا من بأسنا وبطشنا . . . . الى غير ذلك من الكلام الذي كثر في ذلك الوقت تحدث الجهادية واحزابهم به ازدراء بالانكليز ونصرائهم

وكان الاجانب كلما سمعوا مثل هذا القول سخطوا على انكلتره ورموها بالضعف والجبن ووهن القوى وقلة الحزم والتدبير وعنفوها تعنيفًا مرًّا شديدًا وقد ملأ الخوف افئدتهم

واوهن الرعب قوام وحط عزائمهم فضاقت صدورهم واخذوا يشكون هذا الاهمال الذي بلغ حد الاغفال ناسين او متناسين ان القصد من ذلك انما كان لاغراض في نفوس الانكليز يسعون وراءها ولاعطاء الفرصة الكافية لمن بقي في القطر المصري من نزلاء الاجانب للهاجرة منهُ والجلاء عنهُ قبل قيام الساعة

وكان اعتقاد الجهادية واشياعهم بما كانوا يتوهمون من احجام الانكليز عن مصادرتهم يبعثهم يوماً بعد يوم وساعة بعد اخرى على التمادي في الصلف والطغيان فظنوا ان قد خلا لهم الجو ولم يبقَ من يخشون منهُ معارضةً ومقاومة والحارث وزارة راغب باشا اليهم في هذا الاعتقاد الفاسد واخذت توافقهم على ارائهم ومقاصدهم وتمالئهم توهماً منها ان في الانتصار لهم نصرةً لها وطول بقاء وفي الاعتقاد بصحة ما يشيعونه سيراً في السبيل القويم والطريق الامين فصارت كانها في ايديهم آلة يديرونها كيف شاؤا وشاء زعيمهم عرابي حتى انهُ في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو (حزيران) وفد على راغب باشا المستر كارترايت وخابره في امر مياه الاسكندرية وطلب اليهِ ان يعنى بوقاية المستر كورنس وجماعته عمال شركة الماء وصيانتهم وان يتخذ الوسائل الفعالة الآيلة لحمايتهم ودفع كل مضرةٍ عنهم والا فانهم يهاجرون فيمن هاجر تاركين المدينة من غير ماء. فاجابهُ راغب باشا انهُ لا يستطيع اتخاذ مثل هذه الوسائل الخصوصية لوقاية شخصٍ واحد في حالة كون الحكومة المصرية متعهدة بوقاية جميع الاوربيين وصيانتهم فاجابه المستر كارترايت انهُ لم يطلب بما طلب وقاية شخصٍ واحد بل صيانة جميع سكان المدينة فانهُ لو هاجر عمال شركة الماء لبطل عمل الشركة وانقطع الماء عن المدينة فلم يجبه راغب باشا عند ذلك بشيء ولم يضع طلبه موضع الاجابة والاجراء بل اصرَّ على رأيه تمام الاصرار

وهذا نص ما بعث بهِ ناظر الخارجية الى مأمور اشغال القنصلية الانكليزية في شأن ما طلبه مدير اشغال قومبانية المياه بثغر اسكندرية

جناب مأمور اشغال قونسلاتو دولة انكلترة الفخيمة

اتشرف بان اجاوب جنابكم عن الافادة التي تكرمتم بارسالها اليَّ بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ٨٢ ورغبتم فيها الالتفات الى الطلب الذي قدمهُ الخواجا كورنس مدير اشغال قومبانية المياه بسكندرية وهو الزام الحكومة الخديوية بتعيين عساكر خصوصية متنوعة من البيادة (المشاة) والسواري (الفرسان) لحفظ حياة ومال مستخدمي الوابور

ان حكومة الحضرة الخديوية متعهدة ومتكفلة بحفظ النظام في داخلية بلادها على العموم وبراحة وامن سكانها في كل اطرافها حتى انهُ في اليوم الثاني لواقعة اسكندرية المعلومة وهو يوم ١٢ يونيو سنة ٨٢ تكفل الجناب الخديوي لحضرات القناصل ووكلاء الدول عموماً بحفظ الامن العام ونشر بذلك منشورات لاتخفى على علم قنسلاتو جنابكم المحترمة ثم بعد ذلك ورد تلغراف من جناب الموسيو دولسبس رئيس قومبانية قنال السويس بناء على ما بلغهُ باوربا من الاخبار المنبئة لعدم امنية التجارة بطريق القنال وسأل

من الحكومة (بهذا التلغراف) عن ذلك فاجيب على الفور بتكذيب هذه الاشاعة بالكلية وبأن الحكومة معترفة بانهُ من الواجب عليها حفظ راحة القطر عمومًا والقنال خصوصًا والذي يؤيد سريان قوة الحكومة الفعالة في حفظ الامن هو ما اجرته من التحصينات والتحفظات الكافية التي بها لم يحصل ولن يحصل البتة من الحوادث ما يكون فيهِ ادنى مغايرة للنظام

وحيث ان وابور اسكندرية لم يخرج عن كونهِ من داخلية البلاد المهتم بحفظ نظامها العمومي فانا تأسف من عدم وجود موجب لهذا الطلب الاستثنائي الذي طلبه الخواجا كورنيس واعرف جنابكم ايضًا ان قومبانية المياه الفرنسوية بمدينة مصر لما تحقق لها اهتمام الحكومة بحفظ النظام وتأمين عموم السكان لم يخطر في بال مديرها موسيو بير ان يقدم طلبًا خصوصيًا مثل طلب الخواجا كورنيس مدير وابور مياه اسكندرية بل انهُ زيادة على ذلك اخبرني بانهُ لا يتأخر ابدًا عن الاستمرار على ادارة اشغاله بكل همة

ومع قيام حكومة الجناب الخديوي بتعهداتها في حفظ الامنية واجرائها التحصينات والتحفظات الظاهرة للعيان وعدم حدوث ما يوجب القلق وتشويش الافكار من طرف الحكومة السنية فاني اتعشم بان تساعدوني في عدم وجود موجب ولا مقتضى لتشبثات الخواجا كورنيس التي لا اعدها على حسب اعتقادي الا انها تكون سببًا جليًا لزيادة القلق والارتياب في اذهان الناس ولا اشك في كون جنابكم تشتركون معي في عدم احداث امرٍ ما يكون داعيًا للاضطراب وارجوان تقبلوا مزيد احترامي ورعايتي الخصوصية لجنابكم . اه .

فصلٌ

ووفد ايضًا في ذلك اليوم بعض قناصل الدول على راغب باشا واخبروه ان الفعلة والخدمة من الاهالي اصبحوا في ضيقٍ شديد من جراء سفر الاوربيين اذ توقفت الاعمال وبطال الاستخدام فبات الوف منهم لا عمل لهم ولا قوت يصلهم ولا رزقَ يجري عليهم وهم عطلٌ لا يعرفون موردًا يحصلون منهُ على معائشهم وانهم نظموا عريضةً عمومية وقع عليها اكثرهم على عزم ان يرفعوها الى الخديو وعرابي وفيها يشكون سوءَ الحالة التي صاروا اليها ويلتمسون الامداد واجراء الارزاق عليهم وعلى عيالهم لكي لا يهلكوا جوعـًا .

وفيهِ ايضًا وفد وكيل قنصلية انكلترة وقنصل اوستريا الجنرال على راغب باشا وابلغاه ان عددًا كثيرًا من الاهالي واكثرهم من رعاع القوم يتألبون زمرًا وجماعات في مساء كل يوم محتشدين في المنشية احد احياء الاجانب وكأنهم يفعلون ذلك بامرٍ او ايعاز وان الاجانب خائفون من جراء ذلك قلقون فكان جواب راغب باشا على كلام القنصلين انه يسعى في اتخاذ التدابير اللازمة منعًا لوقوع امرٍ مكدّر وانهُ واثق كل الوثوق بانفضاض المسألة قريبًا على الوجه الذي يلائم مصلحة الجميع ويندفع بهِ كل قلق وايجاس وانهُ لا شيءَ يوجب الخوف ويبعث على الاضطراب واكثر من امثال هذا القول المسكن للروع غير ان الانكليز ما كانوا ليرضوا عن مثل هذه الحال بل كانوا كأنهم ينتظرون حدوث شيءٍ يتذرعون بهِ الى التداخل العنيف

منفردين فيهِ وحدهم فكان عمالهم ووكلاؤهم يجسمون الصغير في محرراتهم ويجعلون الحبة قبة سعياً وراء مآربهم واغراضهم وقصد ان يكون لهم عذرٌ فيما هم عازمون على انفاذه واجرائه

وكان المستر كارترايت لا يرسل من الاسكندرية كتاباً ولا يبعث برسالة برقية الى الاستانة او الى لوندرة من غير ان يضمنها بيان احوال مصر السيئة ويشرح فيها حالة الخوف والاضطراب الحاصلين في البلاد . وفي السادس والعشرين من شهر يونيو (حزيران) ارسل الى اللورد دفرين تلغرافاً بهذا المعنى واردفهُ بآخر الى اللورد غرنفيل من مثلهِ واشد وهذا تعريبهُ

سيدي اللورد

ارسلت اليوم الى اللورد دفرين بالاستانة تلغرافاً ثانياً بينت فيهِ احوال هذه البلاد تحت وزارة راغب باشا الجديدة واكّدت لهُ ان ما يذيعهُ البعض من تداعي نفوذ عرابي واحزابهِ الى السقوط ان هو الا محض هذيان لا يلتفت اليهِ فان نفوذهم على ازدياد مستمر لا يماثلهُ في سرعة تقدمهِ الا تعاظم الخوف عند ذوي البصيرة والنقد من انتهاء الامر الى حدٍ يعسر معهُ اصلاح الخراب المالي والمتجري الذي الم بالبلاد فقد نقص دخل الحكومة كثيراً ونقصت ايضاً واردات الجمارك والسكك الحديدية نقصاً فاحشاً واشتد الخوف من ان الكوبون الذي يستحق في شهر اوكتوبر ونوفمبر لا يمكن صرفهُ في وقتهِ المعين وقد اوجبت مذ الان نفقات الجهادية استقراض مبالغ تُعتبر ديناً سائراً جديداً على الحكومة كل هذا مع نقص الدخل ووقوف حركة الاعمال وتعطل التجارة يُضاف اليهِ ما استولى على قلوب الموظفين الاجانب من الخوف والقلق حتى ان ادارة السكة الحديدية ومكاتب البرد الاميرية والتلغراف امست لا تستطيع الاستمرار على اعمالها الاّ بشق الانفس وفوق هذا وذاك نرى الفعلة وسفلة القوم من الاهالي في فقرٍ مدقع بسبب وقوف الاعمال ولم يبقَ فيما اظن الاّ واسطة واحدة لمنع حدوث ما يخشى حدوثه في داخلية البلاد . . . ولا يجب ان يكتفى بانقاذ الخديو من عرابي وجماعته احزاب الجهادية بل يجب المبادرة الى انقاذ مالية مصر وتجارتها من خرابٍ يتعذر اصلاحه اذا طالت الحال سائرةً على هذا المنوال اه

وقد جاءت الحوادث في تلك الايام مؤيدةً لرأي المستر كارترايت فان الاهالي او الجهلة منهم ولاسيما في الارياف تمادوا في الغيّ والغرور وظنوا انهم اصبحوا احراراً يفعلون ما يشاؤون من غير حساب ولا خوفٍ من عقاب فكثرَ التعدي على المسيحيين بان اخذ الاهالي يسومونهم خسفاً وهواناً ويوسعونهم شتماً وسباباً بحيث اصبح التاجر منهم غير قادرٍ على تحصيل حقوقه واستيفاء ديونه من الفلاحين

وفي سادس وعشرين يونيو ورد الى الاسكندرية نبأ برقي من بنها العسل يخبر بقتل احد اليونان فيها قيل ان احد مديونيه الفلاحين قتله وقيل بل قُتل معهُ ايضاً بضعة اشخاص من التجار اليونان والاسرائيليين وقد كتب المستر كارترايت بذلك الى اللورد غرنفيل وهذا تعريب رسالته البرقية . قال .

الاسكندرية في ٢٦ يونيو سنة ٨٢

سيدي اللورد

انشرف بان ارفع لجنابكم انهُ بالرغم عما

تهدد به عرابي من المحافظة على الامن والراحة على ارواح الاجانب واموالهم وحقوقهم بلغني اليوم من مصدرٍ يوثق به ويُركن اليهِ ان المسلمين ذبحوا عشرة من اليونان وثلاثة من الاسرائليين في بنها (بلدة واقعة على خط السكة الحديدية المؤدية الى مصر)

اما الخبر الرسمي الذي ورد على الحكومة في هذا الشأن فينبئ ان القتيل واحد فقط وهو يوناني وان الباعث على قتلهِ تمنعهُ من اعطاء الفلاحين سنداتهم التي لهُ بمقتضاها دين عليهم واجب الاداء وقد اخذتُ في البحث الدقيق لاقف على صحة عدد القتلى

التوقيع (كارتر ايت)

فصلٌ

(قوة العرابيين)

وفي تلك الاثناء كانت دولة انكلترة باذلة مجهودها في استمالة الدول الى موافقتها على طلبها المتعلق بمسألة مصر والانفراد فيها صارفة عنايتها الى حملهنَّ على ان يتركنها وشأنها في مصر وكانت تتأهب للقتال بحشد الرجال واعداد المدافع والميرة والذخائر وكان عمّالها في القطر المصري يرصدون حركات الجهادية واعمالهم ويتجسسون اخبارهم ويستطلعون اسرارهم وكان المستر بورج فيس قنصل انكلترة بمصر شديد الرغبة في الوقوف على صحة عدد العساكر المصريين ومبلغ قوتهم وما عندهم من المهمات الحربية وقد كتب بهذا الصدد الى السير ادوارد مالت القنصل الجنرال بتاريخ ٢٥ يونيو ما يأتي تعريبه وهو :

مصر في ٢٥ يونيو سنة ٨٢

سيدي

لقد علمت من مصدرٍ اركن اليهِ واعوّل عليهِ ان الجهادية قرروا انهُ اذا انتشبت الحرب وولج الانكليز ابواب القاهرة تُنقل اذ ذاك عائلات الضباط منهم الى القلعة ويتحصنون هم فيها فيدافعون عن انفسهم وقد شرعوا من الان في اجراء التدابير اللازمة لذلك وصرفوا في الايام الثلثة الاخيرة معظم عنايتهم الى هذا الامر فملأوا الشوَن والمخازن ميرةً وذخيرةً واستجلبوا كمية وافرة من الدقيق وعدداً كثيراً من الثيران والبقر والغنم والخيل وهم في كل يومٍ يبتاعون ما يجدون من ماشية وعلف . ولا يزال الماء المنصرف الى القلعة من مستودعات شركة المياه بمصر جارياً اليها وما عداه فقد اعتنوا باصلاح آلات بئر يوسف ليجعلوا ماءهـا احتياطياً اذا حدث ما يبعث على انقطاع ماء الشركة عنهم وهم من اليوم يستقون منها وقد خزنوا كذلك في شونة (طرنات) ومجلس بولاق ٢٥٠ الف اقة من البقسماط ولا تزال افران البقسماط تشتغل الليل والنهار والمسموع انهُ يخرج منها في كل يوم ٥٠٠٠ اقة واذا عدلنا قوت الشخص الواحد في اليوم بنصف اقة من الخبز كان مجموع مـا عندهم من البقسماط كافياً لثلاثة عشر الف جندي في ستين يوماً

اما محصنات القلعة فهي عبارةٌ عن ٤٢ مدفعاً قديماً من المدافع التي كانت مستخدمةً في السفن المصرية على عهد محمد علي باشا ولهذه المدافع نحو ٢١٠٠٠ حشوة ومع هذا فان هدم القلعة سهلٌ من جهة جبل المقاطم حيث انشئت في اعاليهِ « من جهة القلعة » استحكامات متينة

وضع فيها ستة مدافع من مثل المدافع التي تقدم ذكرها ولهذه المدافع الستة ٣٠٠٠ حشوة

ولديهم ايضاً من المدافع المعروفة بمدافع الجبال ٤٩٧ مدفعاً من ٨٪ سنتيمترات و ٧٪ سنتيمترات من صنع كروب ومن هذه المدافع ١٢٠ مدفعاً وضعت في مراكزها ولكن ليس لديهم ما يلزم لها من الخيل والرجال الا ما يكفي لخمسة وستين او سبعين مدفعاً فقط ومع ذلك لا اظنهم اهلاً لادارة اعمالها اذا دهمهم اخصامهم مفاجأةً اذ ليس عندهم من جنود المدافع المدربين الذين يمكن الاتكال عليهم اكثر من العدد اللازم لخمس بطاريات او ستٍ فقط

وعلمت ان لديهم خمسمائة حشوة لكل مدفع من مدافع الجبال وان لهم في العباسية مدفعاً واحداً من طراز كروب مصنوعاً من الفولاذ يبلغ محيط دائرتهِ ١٤ إبهاماً ومدفعاً آخر من مدافع ارمسترونغ فيما اظن زنتهُ ٢٥ طناً

اما الاسلحة الصغيرة فلديهم مما يصلح للعمل منها نحو ١٤٠ الف بندقية من بنادق ريمنكتون ونحو عشرين الفاً من بنادق انفلد وعندهم من الفشك نحو ٣٠ مليوناً لبنادق ريمنكتون وسبعة ملايين لبنادق انفلد ومن الفشك المعدة لبنادق ريمنكتون نحو ١٢ مليوناً من صنع معمل هوخام ولودلوف وهي صالحة للاستخدام جيدة اما الباقي وقدره نحو سبعة ملايين فمن صنع المصريين ومعاملهم الوطنية وقد علاهُ الصدأ فاكلهُ او كاد فهو لذلك غير صالح للعمل ولا فائدة منهُ

التوقيع : بورج

فصل

فمن هذه الرسالة تتضح للقارئ المتأمل جسامة الفرقِ الكائن بين سهر الانكليز واجتهادهم ونشاطهم وتيقظهم وانتباههم ومراقباتهم واستعلاماتهم وعلمهم بما للمصريين من القوة الحاصلة لديهم كانهم اهل الدار واصحاب المنزل وبين غفلة العرابيين واكتفائهم من النشاط والاجتهاد بالاستكبار والاعتداد وجهلهم التام بما عند اخصامهم من وسائل التملك والاستيلاء وذرائع الإتلاف والإفناء

وكان المؤتمرون بالاستانة يعقدون في تلك الاثناء الاجتماعات ويتداولون في المسألة المصرية والناس يوجهون نحوهم الابصار من جميع الاقطار ويتوقعون صدور قرارهم القطعي بذاهب الصبر اعتقاد ان هذا القرار سيكون وحده فاصلاً مشكلات النازلة المصرية بوجهٍ من الوجوه ولا سيما بعد اذ ايقن الجميع ان درويش باشا اخفق سعياً ولم ينجح وان الخديو توفيق باشا اصبح في مصر حاكماً بالظاهر محكوماً بالواقع فاقداً كل سلطة عادماً كل نفوذ

واشتدت الازمة في ذلك الحين بما بدا من دلائل وقوع الخلاف بين انكلترة وفرنسا من جهة وبين تلك والباب العالي من جهةٍ اخرى فان الحكومة الانكليزية سألت الباب العالي ان يرسل جنوداً لمحاربة الثائرين بمصر ولم يكن من مصلحة الباب العالي ان يوافقها على ذلك لاسباب سياسية خطيرة لا تخفى على الناقد البصير

وكانت الحضرة السلطانية شديدة الرغبة في محو اثار الفتن في مصر من غير ان تتكلف ارسال قواتها اليها واثارة الحرب عليها ولذلك حاول درويش باشا مرةً اخيرة تسكين الخواطر وحمل القوم على التزام السكينة بمنشورٍ اذاعه

في القطر المصري وعُلق على الجدران في الطرق والشوارع نسخ عديدة منه

فاطلع الناس على هذا المنشور وذاع بينهم امره وشاع ولكن من غير ان يترتب عليهِ اثرٌ ما بل بقي الاضطراب في البلاد ضاربًا اطنابه واستمرَّ خوف السكان على ازدياد والخطب على تفاقم وتعاظم

فصل

وبلغ عدد المهاجرين مبلغًا عظيمًا فكان الناس يتسابقون افواجًا من المحروسة والارياف الى السواحل والثغور ومنها يقصدون جهات سورية واوربا وغيرها مزدحمين ازدحامًا غريبًا كأن قد اقتربت الساعة وانشق القمر ودام ذلك حتى بلغ السيل الزبى وايقن الجميع ان لا بدَّ من الحرب والقتال ولا سيما بما كانوا يسمعون من فم عرابي وهو قوله (لا نسمح لاني كان بدخول ارضنا المصرية بل نحارب حتى نموت وسيان عندنا ارسال الباب العالي جنوده او انكلترة عساكرها فانَّا متأهبون لمحاربة الجميع) فكانوا يسمعون ذلك ويرون باعينهم التأهبات الحربية والاستعدادات الجندية للقتال

وكان المستر مالت قنصل انكلترة الجنرال في ذلك الحين قد تمارض فانتقل في ثاني وعشرين يونيو الى البحر واقام في الباخرة « مونغوليا » من بواخر الشركة الشرقية وبقي فيها الى السابع والعشرين من الشهر المذكور وهو اليوم الذي سافر فيهِ الى برندزي . وفي ٢٥ الشهر تنحى ايضًا المستر كوكسن قنصل انكلترة بالاسكندرية عن اشغال القنصلية بحجة انهُ مريض بسبب الجراح التي اصيب بها في حادثة ١١ يونيو وحذا حذوه المستر كالفر بحجة انهُ مريض ايضًا واقتفى اثرهما المستر بورج قنصل مصر فخرج منها بعد ان عهد باشغال القنصلية الى المستر هوجمان متولج قنصلية انكلترة بدمياط اما قنصل فرنسا الجنرال وقنصلها في الاسكندرية فقد لبثا في الثغر الى اليوم التاسع من شهر لوليو (تموز) وهكذا كل من قنصل اوستريا وقنصل المانيا وغيرها

وكان الخديو ودرويش باشا مقيمين بسراي رأس التين وعرابي مقيمًا بديوان البحرية او الترسانة وكان بالاسكندرية نحو عشرة الاف جندي مصري معدين لخدمة عرابي وقومه وانفاذ اوامرهم وكان في المينا ما عدا الاسطولين الفرنسوي والانكليزي عدة سفن حربية باعلام مختلفة منها سفينة نمسوية من نوع « الفرقاطة » اسمها « لاندون » بامرة الكونتر اميرال ويلنجر وسفينتان امركانيتان بامرة الكونتر اميرال نيكلسون تدعى الاولى لانكاستر والثانية جيلينا وسفينتان يونانيتان احداهما مدرعة واسمها « له روا جورج » اي الملك جورج « ملك اليونان » والثانية من نوع الفرقاطة واسمها إلاس وسفينة المانية مدفعية اسمها هابخت ودارعة ايطاليانية اسمها كستلفيداردو وسفينتان روسيتان تدعى الاولى ازي (اسيا) والثانية زودياكا

وكان الخوف في ذلك الحين عامًا شاملاً ولم يكن عند الاجانب اكثر منهُ عند الاهالي ولا سيما عندما رأى هولاء ما كان يجريه العازمون من الاوربيون على البقاء في المدينة من التأهب والاستعداد ليوم عظيم فان كثيرين من الاجانب لما لم يستطيعوا المهاجرة لاسباب شتى

اضطروا الى البقاء في اماكنهم فاخذوا في تحصينها على قدر ما وصل اليهِ امكانهم مدّخرين الميرة والزاد وجعلوا همهم قاصرًا على التأهب واتخاذ وسائل الدفاع فكانوا يعقدون الاجتماعات ويتشاورون فيما يجب ان يفعلوه لوقاية نفوسهم

وشعر الاهالي والجهادية بذلك فاضطربوا واتصل الخبر بالحكومة فخافت سوء المغبة فكتبت في سادس يوليو بصفةٍ رسمية الى قناصل الدول ولا سيما قنصل انكلتره تكلفهم بتنبيه رعاياهم الى الامر ومنعهم من التحصن وشراء الاسلحة وذكرت على سبيل الاستشهاد بصحة الامر ما كان يتخذه موظفو ادارة التلغراف الانكليزي من وسائل التحرز ويعدونهُ من لوازم القتال والدفاع .

وطلبت من قنصل الانكليز ان يرسل مندوبًا الى دار التلغراف مصحوبًا بمن تعينه الحكومة للتفتيش على ما فيهِ وتحقيق تلك الاشاعة فاجاب القنصل بما تيسر من المحاولة ولكن جوابه لم يكن كافيًا لاطمئنان خواطر الاهالي والجهادية فاخذوا لذلك يكثرون من عقد الجمعيات ويتداولون فيها بما كان يجريه الاجانب من التأهبات والاستعدادات ثم انتشر الخبر في المدينة فامتعض منهُ الرعاع وجهلة القوم وطفقوا يتجمعون ويطوفون عصابات وشراذم في شوارع الاجانب ولا سيما ساحة المنشية فكانوا يتصدون لاي اجنبي صادفوه في طريقهم كانهم يريدون بذلك اثارة الفتنة فتوجست الحكومة خيفة من ذلك وخشيت ان يكون باعثًا على وقوع امرٍ مكروه فاعلنت انها تعاقب كل من يتسبب في وقوع فتنةٍ ما اشد العقاب وان اخف عقاب عندها لاصغر جريمة لا يكون اقل من ارسال الجاني الى الطوبخانة

وقد اعتمدت الحكومة ايضًا تدابير اخرى فعالة لمنع وقوع الفتنة واوعزت الى رجالها وعمالها ان يتنبهوا ولا يتغافلوا عن شيء ومع كلِ ذلك لم تطمئن الخواطر ولم يهدأ البال بل كان الجميع يترقبون وقوع امرٍ جلل تحسم بهِ المشكلة على وجهٍ من الوجوه

وكان الناس او اكثرهم في مصر غير عالمين الى ذلك الحين كنه السياسة الانكليزية ينظرون الى الامور من حيث ظواهرها الا الخبيرون منهم فانهم كانوا على يقين من ان دولة انكلتره لا ترجع خاسرةً ولا بدّ لها من اجراء شيء يعود اليها بهِ ما فقدته من نفوذ كلمتها بل تحصل على اكثر من ذلك وكانوا يترصدون اخبار الاستانة ليقفوا على ما يخط عليهِ رأي المؤتمرين وما يكون من سياسة الدولة العلية واستمروا كذلك الى ان تقرر في المؤتمر وجوب التداخل لكبح جماح العصيان وردع الثائرين واعادة الامن والراحة الى البلاد وان يعهد بانفاذ هذا الامر الى الدولة العلية مراعاةً لحقوق سيادتها على مصر فكتب كلٌ من السفراء الى حكومتهِ يسألها ابداء رأيها في هذا القرار وهذه صورة ما كتبوا وقد أُرسلت بالتلغراف في سادس شهر يوليو من الاستانة الى وزارات خارجية الدول الاوربية وذلك بعد ان عقد المؤتمر جلسته السابعة

قالوا :

حصل التوافق بيننا في هذا اليوم على اللائحة التي يجب عرضها على الباب العالي المبينة كيفية تداخل الجنود العثمانية التي سترسل الى مصر وتحديد الشروط التي يجب العمل على مقتضاها

وهذا نصها :

بعد ان اعترفت الدول الاوربية بوجوب المسارعة الى معالجة علل مصر الحاضرة بالدواء العاجل الناجع قررت في المؤتمر الذي عقده وكلاؤها ان يلجأ الى سيادة الجناب السلطاني ويسأل ان يتداخل في مصر وان يساعد الخديو بارساله اليه قوة كافية من الجند لاعادة الامن والنظام الى البلاد وانقاذ مصر من الفوضى التي تمكنت فيها ونشأ عنها اهدار الدماء وخراب الوف من بيوت الاجانب والمسلمين وتضرر كثير من مصالح الاجانب والوطنيين

وسيكون من شأن الجنود العثمانية بمصر ان تؤيد وجوب احترام الحقوق السلطانية عليها وتعيد للخديو سلطته ويكون من شانها ايضاً ان تشرع في اصلاح حال العسكرية بمصر وفقاً لاصول يتفق عليها فيما بعد اتفاقاً عمومياً ويتم ذلك على شريطة ان لا يكون هذا التداخل موجباً لمس الترقيات النافعة التي نفذت في نظام مصر المدني والاداري والقضائي على غير مخالفة لما تقضي به الفرامين السلطانية

والدول الاوربية واثقة كل الوثوق في التجائها الى الجناب الشهاني ببقاء ما هو مقرر لمصر على حاله في مدة وجود الجنود العثمانية فيها معتقدة ان حقوق مصر والامتيازات الممنوحة لها بمقتضى الفرامين السابقة لا تمس البتة ولا يمس ايضاً شيء من الاصول المقررة لادارة الاحكام فيها ولا من العهود والمواثيق الدولية ولا من اعمال التسوية التي نجمت عنها وتقررت في شانها

اما مدة استقرار الجيش العثماني في مصر فتكون ثلاثة اشهر ما عدا اذا طلب الخديو تمديدها الى اجل تتفق على تحديده الدولة العلية مع الدول الاوربية وحكومة مصر وتعين قادة هذا الجيش بالاتحاد في الرأي مع الجناب الخديوي اما مصاريف هذه التجريدة فعلى نفقة مصر وستعين مقاديرها باتفاق يحصل بين الدولة العلية والدول الست الاوربية وحكومة مصر .

واذا اجابت الحضرة السلطانية دعوة الدول كما هو في مأمولها فكيفية تنفيذ الاحكام السابقة الذكر تتم بتوافق يحصل بعد الان بين الدولة العثمانية والدول الست الاوربية (انتهت صورة اللائحة)

ومن رأينا (اي رأي السفراء المؤتمرين) ان يكون تقديم هذه اللائحة للحكومة العثمانية بصفة رسمية اذا وافقت عليها حكوماتنا وان يقدمها كل منا باسم دولته (انتهى قرار السفراء)

وقال في الختام هذه نتيجة مخابراتنا نعرضها على حكوماتنا ولا نجتمع بعد الان حتى يرد الى كل منا افادات شافية من حكومته مبينة رأيها في هذه المسألة . (انتهى كتاب السفراء الى حكوماتهم)

فصل

فوافقت الدول على تقديم هذه اللائحة الا ان الباب العالي لم يوافق عليها فاتخذت انكلترة ذلك حجة لأن تتداخل بالقوة وكان به نجاح سياستها فاوعزت سرًّا الى وكلائها ورجالها في القطر المصري ان تذرعوا الى ايجاد اسباب ولو طفيفة لمباشرة القتال وكان ذلك من ايسر الامور لديهم فان الاميرال سيمور زعم يومئذ ان الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وقال

ان هذا التحصين منافٍ لحقوقهِ فكلف الحكومة المصرية ان تكف عن تقوية الاستحكامات وتُمسك عن تعزيز حصونها من غير ابطاء والاَّ اضطرتهُ الحال الى اطلاق مدافعه عليها فيدكها ويهدمها عن آخرها فاجابهُ طلبه باشا عصمت ان لاصحة لما يقول وان الجهادية لم يهتموا قط بتحصين القلاع

وشاع هذا الخبر في المدينة فايقن الناس بقرب وقوع القتال واوعز كلٌّ من قنصلي فرنسا وانكلترة الجنرالين الى رعاياها ان اخرجوا من مصر وهاجروا منها سريعًا فتسابق الناس الى الرحيل ولم يبقَ منهم في المدينة الاَّ القليل حتى ان الاهالي المسلمين اخذوا يهاجرون الى داخلية البلاد منتشرين في الارياف وحتى ان الخديو نفسهُ اخذ يفكّر في طريقةٍ يتخذها لصيانتهِ ووقاية عياله وذويه فاستدعى اليهِ في سابع شهر يوليو المستر كولفين مراقب المالية الانكليزي وخابرهُ في ذلك فقال لهُ ما مؤداهُ

اني لا أبرح من مكاني ولو وقعت الواقعة وأُطلقت المدافع على الاسكندرية فإنَّ لي من رعيتي قومًا امناء لم يخونوني بل خدموني بامانةٍ وصداقة فلا يصح ان اتركهم اوان الشدة لانجو بنفسي ولا يليق بي كذلك ان اترك البلاد في وقت الحرب فان في ذلك عارًا عظيمًا واذا جاءت جنود عثمانية لتحل بالبلاد وقاومها احزاب الجهادية الثائرون اصرّح حينئذٍ للعموم مع درويش باشا اننا تابعون لمولانا السلطان المعظم وان من واجباتنا ان نطيع اوامره واذا خالفناها نكون قد خالفنا فروضنا المقدسة وبعد ذلك اذا بقي الجهادية مصرّين على عنادهم فانا ودرويش باشا ننزل الى البحر ونقيم في البخت العثماني « عز الدين » اما اذا جاءتنا جنود غير عثمانيـة او اذا أطلق الاسطول الانكليزي مدافعه على الاسكندرية فحينئذٍ انا ودرويش باشا نذهب الى سراي نمره ٣ الكائنة في المحمودية هذا ما صممت النية عليهِ فارجوك ان تبلغهُ لجناب اللورد غرنفيل وزير خارجيتكم . اه .

فاوعز المستر كولفين الى المستر كارترايت ان يخبر اللورد غرنفيل بما جرى بينهُ وبين الخديو ففعل وارسل في اليوم ذاتهِ رسالة برقية الى وزارة لوندرة الخارجية ضمنهُ مآل مقال الخديو واردفهُ بقولهِ : (واظن لا خوف على حياة الخديو ولا سيما اذا لم تطل مدة القتال ومن رأيي ان انذر درويش باشا بان الحكومة الانكليزية تعرفهُ مسئولاً عن حياة الخديوِ وان التبعة تعود عليهِ اذا أُصيب الخديوِ بسوء وذلك يوم اطلاق المدافع وقبل نزولي الى البحر . اه .)

وقد بلغ الاضطراب منتهاه في ذلك اليوم وايقن الناس بدنو الساعة آسفين لما سيحل بالاسكندرية من هول الخطب متكدرين لما ستمنى بهِ من الخراب والتدمير ورأى كلٌّ من قناصل الدول الاجنبية ان سيلحق برعاياهم قسم عظيم من هذا الخراب فحاولوا ابعاد الخطر المحدق بالمدينة واجتمعوا سابع الشهر للتداول في هذا الامر الخطير وكلفوا المستر كارترايت للحضور معهم فابى متعللاً معتذرًا واجاب بقوله ان الاميرال سيمور ما رجا القناصل قط ان يتوسطوا في المسألة فهو لذلك لا يستطيع الحضور معهم

فعقدوا عندئذٍ مجلسهم ولم يحضر فيهِ احدٌ من قبل انكلترة وبالتداول والتشاور اتضح لهم ان جواب طلبه باشا للاميرال لم يكن في محله ولذلك قرروا ان يسعوا لدى الحكومة المصرية في تعديل هذا الجواب وتلطيفه وان يرسلوا الى الاميرال اللائحة الاتي تعريبها :

لائحة

قناصل الدول الاوربية بالاسكندرية
الى الاميرال سيمور

ان لرعايانا مصالح مهمة في الاسكندرية ولهم فيها املاك واسعة وعقارات كثيرة والمتخلفون منهم عن المهاجرة كثيرون وهو ما دعانا ان نتقدم اليكم ونسألكم هل اقتنعتم من جواب الحكومة المصرية على سؤالكم المتعلق بتحصين القلاع ام لا فان كان الثاني فاننا نستطيع ان نطلب تعديل الجواب المذكور بحيث يرضيكم ويقنعكم .واذا كنتم لا ترضون بذلك ولا تريدون ان تقتنعوا بامرٍ ما فنرجوكم ان تبينوا عن المهلة التي تتركوها لرعايانا قبل الشروع في القتال ليتمكنوا من الرحيل

واننا نخطركم ان اطلاق المدافع سينشأ عنه كيف كانت الحال ضررٌ عظيم يلحق بسكان المدينة من نصارى ومسلمين ولا بد من ان تنهدم بهِ ابنية عديدة للاوربيين

وبودنا لو انكم ترفعون الى حكومتكم ملاحظاتنا هذه قبل ان تنفذوا اوامرها (التواقيع)

بارون كوسجك	دي لكس	دي مارتينو
للنمسا	للروسية	لايطاليا

بارون ساورما	دي فورج
لالمانيا	لفرنسا

فاجابهم الاميرال بما يأتي

لائحة

الاميرال سيمور الى قناصل الدول
الاوربية الجنرالية بالاسكندرية

تلقيت في هذا اليوم الكتاب الذي انفقتم على ارسالهِ اليَّ وتفضلتم فيهِ بالاستفهام مني عما اذا كنت قد ارتضيت بجواب طلبه باشا على كتابي الذي ارسلته اليهِ بالامس ثم تكرمتم وعرضتم ان تتوسطوا في الامر بحيث احصل بوساطتكم على جوابٍ يرضيني فاشكر لكم كثيرًا هذه العناية واجيب على خطابكم بقولي اني انفذ ارادتكم اذا كان لكم لدى المومأ اليهِ من النفوذ والسلطة ما تستطيعون بهِ ان تجعلوه صادقًا في اجراآتهِ وان يبطل عاجلاً اشغال التحصين وتعزيز الاستحكامات التي شرع فيها ولا ارى جواب المومأ اليه . بالكتابة . كافيًا في حملي على الاقتناع بما يقول وعلى الوثوق بما أكد لي في جوابه من انهُ يجيب طلبي ومهما تكن عبارة هذه الكتابة فانها لا تكفيني بالنظر الى المصالح المهمة التي عُهد بها اليَّ

واخبركم اني ما اعلنت قط عن عزمي على رمي الاسكندرية بنار المدافع واذا اقتضت الحاجة لذلك فاني اوجه قوتي على القلاع والاستحكامات فقط وبذلك لا ارى من موجبٍ لخوفكم من انهدام منازل الاوربيين وغيرهم

وسارفع الى حكومتي امر الملاحظة التي ابديتموها في العبارة الاخيرة من خطابكم ونبهتموني اليها

واذ استمر الجهادية على اشغال تحصين القلاع والاستحكامات فاني انفذ في الحال ما كتبت اليهم بهِ محافظًا على كل حرف من حروف

تلك الكتابة وكيف كانت الحال فاني قبل الشروع في العمل اعلن عنهُ ولا اباشر اطلاق المدافع الاَّ بعد اربع وعشرين ساعة من تاريخ الاعلان

وكتب في السفينة « لنفنسيبل » بمينا الاسكندرية تحريرًا في ٧ يوليو سنة ١٨٨٢

التوقيع : بوشان سيمور

ولما ورد هذا الجواب على قناصل الدول اجتمعوا ثانيةً واخذوا يحاولون اقناع الجهادية بارضاء الاميرال سيمور واجابتهِ الى ما طلب والعدول عن تقوية الاستحكامات وتحصين القلاع ولكن اتعابهم ذهبت سدًى وقد كتب المستر كارترايت بهذا المعنى الى اللورد غرنفيل فقال :

سيدي اللورد

ارفع الى حضرتكم ان الاميرال سيمور علم اليوم ان قد وضع مدفعان في القلعة المعروفة بقلعة « سلسله » الكائنة تجاه المينا الجديدة علاوةً على المدافع الموجودة فيها فلم يعد في امكانهِ ان يتحمل هذه الامور ويصبر عليها ولذلك عزم على اطلاق المدافع في فجر الثلاثا الاتي (١١ الشهر) وسأخبر بهذا العزم القناصل الجنرالية والخديوِ ودرويش باشا في مساء هذا اليوم ثم اجري من التدابير ما يلزم لكي يتمكن الباقون في الاسكندرية من النزول الى السفن والالتجاء اليها

وكتب في السفينة « هليكون » بمينا الاسكندرية في ٩ يوليو سنة ١٨٨٢

التوقيع : كارترايت

وفي مساء اليوم المذكور اعلن المستر كارترايت للقناصل جميعًا عن عزم الاميرال فاوعزوا الى رعاياهم ان يهاجروا في الحال وشاع الخبر بين السكان من مسلمين ونصارى وغيرهم فصار اولئك يتسابقون الى محطة السكة الحديدية مهاجرين الى داخلية البلاد منتشرين في الارياف وهولاء يهرولون الى البحر لاجئين الى السفن الراسية في المرفاء بخارية كانت او شراعية ولم ينقضِ اليوم العاشر من شهر لوليو حتى خلت المدينة من السكان او كادت ولم يبقَ فيها الا الجند والحامية ونفر قليلون من الاجانب وبعض الاهالي

وفي مساء اليوم التاسع من الشهر توجه المستر كارترايت الى سراي رأس التين واعلن للخديو بصفةٍ رسمية عن عزم الاميرال على مباشرة القتال صباح الثلثاء الواقع في ١١ الشهر ثم الح عليهِ ان يترك سراي رأس التين ويلجأ الى سراي الرمل وبعد ذلك قصد درويش باشا فلم يجدهُ فكتب اليهِ بصفةٍ رسمية يطلب اليهِ ان يحافظ على الخديو ملقيًا عليهِ تبعة ما اذا اصيب بسوء وضر

وفي صباح اليوم العاشر ارسل الاميرال كتابةً الى طلبه باشا قومندان موقع الاسكندرية ورئيس حاميتها عين لهُ فيها الاماكن التي شهد اشغال التحصين جاريةً فيها

وفيهِ أيضًا ارسلت كتابات رسمية الى كل من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة المصرية اعلن لها فيها عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصري اشارةً الى قطع العلائق والصلات الودية

وفيهِ عم الخوف كل من بقي في المدينة

فايقن الناس بحلول الدمار وصاروا في انتظار النار والرعب ملء افئدتهم . وفيما اخذ الجهادية يتهيأون للقتال ويعدون المدافع والمهمات واخذت السفن والمراكب الراسية في المينا في الرحيل وذهب الاسطول الفرنسوي قاصدًا بورسعيد الا سفينتان منه لبثتا مستقرتين خارج المينا فرحل تاركًا قوم الانكليز وشأنهم مع جهادية مصر يتصرفون في الامر بما يريدون

فصل

(اطلاق المدافع على الاسكندرية)

وفي اليوم ذاته ايضًا انتشر الخبر في عواصم اوربا ونقلته اسلاك التلغراف باسرع من البرق فارتجت له اقطار العالم واهتزت له جوانب الارض فرأت وزارة خارجية لونده ان تلطف الخبر للدول مجانبةً لمعارضتهن لها فيما تريد ان تفعل فكتب اللورد غرنفيل بالتلغراف الى جميع سفراء انكلتره لدى الدول كتابةً رسمية وهذا معربها :

من اللورد غرنفيل وزير خارجية جلالة
ملكة الانكليز الى وكلاء حكومة انكلتره
لدى حكومات باريس وبرلين
وويانة ورومية وبطرسبرج
والاستانة

حُرّر في النصف الثاني من اليوم العاشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢

بناء على رسالتي التلغرافية المرسلة اليكم مساء امس اخبروا الحكومة التي انتم نائبون لديها عن حكومتنا ان ما سيجريه اميرالنا سيمور بالاسكندرية لا يكون الأ من قبيل الدفاع والحماة (عن الاسطول) ولسوء الحظ لا نرى بدًا من ذلك غير اننا مع ذلك نصرّح ان ليس لنا اربٌ خفيّ او نية غير بينة

وقد اتضح لنا من تقرير اميرالنا ان حكامَ الاسكندرية قد استمروا على تحصين القلاع والاستحكامات مظهرين لنا العدوان والبغضاء بالرغم عن نواهي الحضرة الشاهانية واوامرها الصادرة لهم بالكف عن التظاهر بالامور العدوانية وخلافًا لارادة الخديو ولما ابدوه لنا مرارًا من انهم مسالمون مصافون . اه

وفي الرسالة التلغرافية المرسلة بهذا الصدد الى اللورد دفرين بالاستانة زيدت العبارة الآتية وهي :— (وهذا حرصًا منا على مصلحة الجناب الشاهاني الذي خالف الثائرون اوامره ونبذوا مشوراته ووصاياه) . اه

فقدم وكلاء انكلتره هذا الخطاب الى حكومات اوربا وفي جملتهم اللورد دفرين وكيلها في الاستانة الذي بعد ان قدم للباب العالي الصورة التي أُرسلت اليه كتب الى اللورد غرنفيل بما كان وهذا معرب ما كتب

الاستانة في ١٠ لوليو سنة ٨٢

سيدي اللورد

ارفع الى حضرتكم صورة الكتاب الذي عرضته على الباب العالي مبينًا فيه عزم الاميرال سيمور على ضرب قلاع الاسكندرية اذا لم تستسلم له وهي هذه

كتاب اللورد دفرين الى الباب العالي :

ان سفارة انكلتره تخبر الباب العالي انه بناء على استمرار حكام الاسكندرية على تحصين قلاعها وتقوية استحكاماتها يعلن الاميرال سيمور في صباح هذا اليوم انه عزم على رميها بنار المدافع بعد اربع وعشرين ساعة اذا لم تستسلم تلك

الحصون له وتكف عن التظاهر بالعدوان

وكتب في ترابيا (مقر سفارة الانكليز بالاستانة) تحريرًا في ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢

قال . وبعد ان قدمت هذا الكتاب بصفة رسمية ذهبت الى المابين الهابوني لاقف على افكار الحضرة السلطانية وارى اذا كان من المكن العدول عن مباشرة القتال فاجابني الجناب الشاهاني ان حكومته تلقي اليّ في بكرة الغد (اي عند الساعة الخامسة افرنجية من الصباح) جوابًا رسميًا باتًا على كتابي الذي تقدم ابراده ثم طلب اليّ تأجيل اطلاق المدافع على الاسكندرية فاجبته اني ارفع هذا الطلب الى حضرتكم ولكني لا اظن ان الاميرال سيمور يستطيع العدول عما صمم عليهِ اذا لم يمتثل رجال الحصون لاشارته وينفذوا طلبه . اه

التوقيع (دفرين)

وبعد ذلك كتب اللورد دفرين بالتلغراف ايضًا الى الاميرال سيمور بما يأتي . قال

لستُ ادري اي الاوامر اديك من حكومتنا وهل انت مفوضٌ بالتساهل عند اللزوم ام لا فاذا كان الاول لا بأس من تأجيل العمل ثلاث ساعات او اربع ساعات يتمكن اللورد غرنفيل في خلالها من النظر في جواب الحكومة العثمانية فربما كان كافيًا لتعديل ما تقرر اجراؤه وذلك لان هذا الجواب المنتظر لا يمكن وصوله اليّ قبل الساعة التي عينتموها لمباشرة القتال . اه التوقيع (دفرين)

فصلٌ

ولا يجهل احدٌ نتيجة ما كان من امر هذه المخابرات فان نار المدافع صبت على القلاع والحصون صباح الثلثاء الواقع في ١١ لوليو على نحو ما في التفصيل الآتي نقلاً عما جاء في الكتاب الازرق مأخوذًا عن ثقةٍ من شهود العيان وهو

تلغراف من المستر مور كاتب سر الاميرال سيمور امير الاسطول الانكليزي خارج مينا الاسكندرية الى وزارة خارجية لونده في الساعة ٧ (افرنجية) من صباح ١١ لوليو سنة ١٨٨٢

اطلقت الان سفننا مدافعها على قلاع الاسكندرية وهي في المراكز الاتي بيانها :

السفن (الكسندره) و(سلطان) و(سوبرب) سائرة من الشمال الشرقي على مسافة ١٥٠٠ متر منه او ١٩٠٠ متر من المنارة

السفينة (انفلكسيبل) في الشمال الشرقي من قلعة مكس وعلى مسافة ٢٧٠٠ متر منها

السفينة (تيمريز) في المضيق المتوسط على مسافة ٢٥٠٠ متر من الشمال الغربي من المكس

السفينة (انفينسيبل) سفينة الاميرال على مسافة الف متر من غربي المكس

السفينة (مونارك) على بعد ١٢٠٠ متر من شمالي المكس

السفن غير المدرعة تطلق مدافعها بدقةٍ على استحكامات المكس في تنقلها تقدمًا ورجوعًا

مدافع الحصون ضعيفة ولا اثر لفعلها في سفننا

السفينة (هكلا) وصلت الان الساعة ٨ (افرنجية) اطلاق المدافع مستمر . من الصباح حصل الان

انفجار شديد في قلعة مرسى القناط

نار القلاع ومدافعها آخذة في التناقص شيئًا فشيئًا

مساء امس سافر الاسطول الفرنسوي تاركًا هنا خارج المينا سفينتين (بيزون) و(هيرونديل)

(الساعة ١١ افرنجية صباحًا)

رمينا القلاع الواقعة عند البوغاز بالخرس (اشارةً الى انها باتت لا تستطيع ان تطلق مدافعها على السفن)

مورسكريف بالقرب من المنارة ومدفع في قلعة اطه يطلقان عشر طلقات في الساعة والسفن (الكسندرا) و(سلطان) و(سوبرب) تجيبها بمدافعها

السفن غير المدرعة تغلغلت فيما داخل قلعة مرابوط

اتضح لنا ان بحرية مصر لا اهمية لها

(الساعة ١ والدقيقة ٣٠ افرنجية بعد الظهر)

انفجر الان مستودع البارود في قلعة اطه

فصل

هذا ما كان من اخبار الشروع في القتال اما ما كان من الحوادث الداخلية في الاسكندرية اثناء اطلاق المدافع وما كان من امر الخديوِ وجماعته واحزاب الجهادية وغيرهم فقد ورد في تقرير انشأه في هذا الشأن المستر جرار بوستال وهو في السفينة (تانجور) بمينا الاسكندرية وهذا معرَّبه :

عند فجر الاثنين عاشر شهر اوليو خرج الخديوِ من سراي رأس التين بموكبه قاصدًا سراي الرمل

وفي صباح يوم الثلثا الواقع في ١١ منه وفد عليهِ راغب باشا واخبره ان الحصون والقلاع قاومت مدافع الاسطول الانكليزي اشد مقاومة وان بعض السفن المحاربة أُصيبت باضرار جسيمة وكان راغب باشا مسرورًا بذلك منشرح الصدر غير ان هذا الخبر لم يلبث ان نُقض وكذب بما ورد على الخديو بعد ظهر اليوم المذكور من ان الحصون والقلاع تهدمت اوكادت وانهُ لم يعد في وسعها ان تقاوم او تدافع فلما بلغتهُ هذه الاخبار ارسل يستدعي عرابي في الساعة السابعة بعد الظهر فامتثل ووفد عليهِ فسألهُ عن نتيجة محاربة ذلك اليوم فاجاب متعجبًا مندهشًا من تجاهل الخديوِ وقال : واعجباه كيف ان افندينا يجهل الى الان ما كان . فساء الخديو هذا الجواب وقال لعرابي : كل العجب منك فانك لم تنظم الى الان تقريرًا بما حصل في حالة كونك وزيرًا للجهادية فقص عليهِ عرابي حينئذٍ ما كان من تهدم القلاع والحصون وقال :

لم يبقَ في الاستطاعة ان نحاول الدفاع ولم يبقَ لنا الاَّ ان نلجأ الى تدابير اخرى او نتساهل مع الاميرال فطلب الخديو حينئذٍ منهُ ان يقدم لهُ تقريرًا رسميًا بما كان وان يفصل فيهِ حوادث ذلك اليوم تفصيلاً ويبين في خلاصتهِ نتيجة المحاربة والنقط التي صارت المسألة اليها فاجاب عرابي انهُ لا يستطيع ذلك وكان درويش باشا حاضرًا اذ ذاك فابدى التعجب والحيرة من جواب عرابي وقال لهُ كيف تجسر على مثل هذا الجواب وانت قد اقسمت من زمنٍ غير بعيد ان تخضع للخديوِ وتمتثل لاوامرهِ فلا شك ان خسرانك كان نتيجة سوء تصرفك ومخالفتك

لما نصحت لك ان تفعل باجابة الاميرال الى ما طلب

فلزم عرابي الصمت عند ذلك ولم يفه ببنت شفة ثم تقرر بعد المخابرة والمذاكرة ارسال طلبه عصمت الى الاميرال ليخابره في الامر وعاد عرابي بعد ذلك من حيث اتى

فصلٌ

وفي اليوم ذاتهِ (اي يوم الثلثا ١١ لوليو) بلغ الخديوِ ان خباز القصر انسل باكرًا وذهب الى عرابي وجماعتهِ فاخبرهم ان الخديوِ واحزابه فرحوا اذ علموا بانهزام الجهادية وانهدام القلاع ثم بلغهُ ان في عزم الجهادية ان يهجموا على قصره فاشتد القلق والخوف في السراي واحيا الخديوِ وآلهُ ورجالهُ الليل تيقظًا وانتباهًا الى ان اصبح صباح ثاني عشر الشهر فوفد فيهِ على السراي نحو خمسمائة رجل من عرب الجيزة (١) فلما سئلوا امام القصر عن سبب وفودهم عليهِ اجابوا انهم عبيد الخديو وانهم انما جاؤوا ليأخذوا بناصرهِ وبعد هذا التصريح رجعوا من حيث اتوا

وعند الظهر جاء القصر طلبه باشا عائدًا من البحر فاخبر الخديو انهُ خابر الاميرال في الشأن المقرر فطلب الاميرال ان يرخص لجنوده (الملاحين) في النزول الى البر والحلول في ثلاث قلاع والاَّ يستأنف اطلاق المدافع في الساعة الثانية بعد الظهر — ثم قال للخديو اني لم اجب الاميرال الى ما طلب واعتذرت اليهِ بقولي ان الوقت الذي عينهُ غير كافٍ لأَنْ أصلَ الى الرمل وأسأَل الخديو عن رأيهِ في شأن هذا الطلب ثم اعود اليهِ بالجواب. وطلبت منه اكثر من هذه المهلة فأبى فاتيتُ ملتمسًا رأيكم في المسألة

فعُقد في الحال مجلسٌ حضرهُ مَن تيسر لهُ الحضور فيهِ وتقرر ان يجاب الاميرال انهُ لا يحق لمصر ان ترخص لجنودٍ اجنبية في النزول اليها بدون رضى الباب العالي وعُين لنقل هذا القرار الى الاميرال طلبه باشا وتيغران بك وعبد الرحمن بك فلما وصلوا الى ديوان البحرية رأى طلبه باشا ان الاجل المعين قد ازف فلم يشأ ان ينزل الى البحر بل ترك رفيقيه وسار فعاد رفيقاه من حيث اتيا

وفي ساعة نزولهم جميعًا من الرمل الى البحر شهدوا في مرورهم بالطرق والشوارع جماعات من الجنود يطوفون الازقة وينهبون المخازن والبيوت ولم يمنعهم احد ولا طلبه باشا الذي رآهم في جملة من رأوهم على تلك الحال رأيَ العين

وبعد ذلك بهنيهةٍ من الزمان وفد نحو اربعمائة فارس وفرقة من المشاة وحصروا سراي الرمل بمن فيها وما فيها فظنَّ اهل السراي بادئ بدء انهم العربان الذين اقسموا للخديو ان يدافعوا عنهُ ويموتوا بين يديه عبيدًا وخدامًا غير انهُ علم بعد ذلك انهم عساكر جهادية ارسلهم عرابي لاحراق السراي بمن فيها فاشتد الرعب والخوف على قلوب سكانها وبلغ الاضطراب منهم مبلغهُ الاعظم فارسل الخديو الى الهاجمين

---

(١) قيل ان ابرهيم بك توفيق مدير الجيزة اذ ذاك ارسلهم لمساعدة الخديو وانجادهِ وقيل غير ذلك

يسألهم عن قصدهم فاجاب مقدَّمهم انهم مأمورون بالمحافظة على السراي (مع ان الاوامر الصادرة لهم تأمرهم باحراق السراي وقتل من يحاول الخروج منها) فارسل الخديو حينئذٍ حسن باشا الشربعي وسليمان باشا اباظه وسلطان باشا ليسألوا عرابي عن ذلك وامر مَن لديه من الخدم والحرس الامناء ان يتأهبوا ويعدُّوا السلاح ويستعدوا للدفاع اذا امكن لهم ان يقوموا بشأنهِ

وبعد ساعةٍ وفد طلبه باشا ومعهُ بعض النظار وغيرهم من الباشاوات فصرَّحوا للخديو ان رئيس الفرقة التي حصرت السراي اخطأ فيما فعل وانهُ لم يُرسل الاَّ للمحافظة عليها وعلى مَن فيها وانهُ لا بد من ان يُعاقب عقابًا شديدًا

وعند الساعة السابعة بعد الظهر اصدر عرابي امره الى جميع العساكر بالذهاب اليهِ فسار كل من كان قائمًا من حول سراي الرمل الاَّ منيب افندي البكباشي فانهُ تخلف عنهم ومعهُ ٢٥٠ جنديًا ثم اقبل على الخديوِ هو ورجاله وحلف لهُ ان يموت بين يديه وانهُ يدافع عنهُ الى اخر نسمة من حياتهِ واقتدى رجالهُ بهِ ثم قبَّلوا جميعًا يد الخديو ويد درويش باشا فانعم عليهم الخديو ببعض النياشين والرتب جزاء امانتهم وصداقتهم

وفي صباح ثالث عشر الشهر جمع الخديوِ مَن بقي لديه من الامراء والذوات واستشارهم في الامر فكان من رأي درويش باشا ان يذهبوا جميعًا الى بنها ومنها الى السويس فرارًا من الخطر وارتأى غيرهُ من الحضور ان يقصدوا العاصمة ويتحرزوا فيها اما الخديو فقال ان اهم الامور ان نجعل الاميرال سيمور على علمٍ بامرنا اذا امكن لنا ذلك فعهد الى زهراب بك ان ينزل الى البحر ويخبر الاميرال بما كان ويعلمهُ ان الخديو ينزل الى سراي رأس التين اذا كان القصر سالمًا لم يتهدم حتى ذلك الحين

فذهب زهراب بك بهذه الرسالة وفي الساعة الاولى بعد الظهر عاد فاخبر الخديو انهُ بلَّغ الاميرال مـا القاهُ اليهِ وان الاميرال امر باقامة الحرس الكافي في جهة ديوان البحرية وفي جهة القباري

وفي الساعة الثانية بعد الظهر ارسل تيغران بك الى الاميرال يخبره عن قدوم الخديو بعد ساعـةٍ

وفي الساعة الرابعة وصل الخديو الى سراي راس التين فلقي في طريقهِ السير اوكلان كولفين مراقب المالية الانكليزي اذ ذاك والمستر كارترايت وقد استقبلهُ في السراي الاميرال بوشان سيمور . (انتهى بتلخيص وبعض تصرف)

وكتب في ٢٠ لوليو (تموز) سنة ١٨٨٢

فصل

والذي علمناه من تفاصيل تلك الحوادث غير ما ذكر ان الاميرال سيمور شكا في سابع الشهر من تحصين القلاع وتقوية الاستحكامات زاعمًا ان القصد منها انما هو الاضرار باسطولهِ ومفاجأته بحيث لا يبقى في الامكان اخراجه من المينا الى بسيطة البحر وقد ذكر ذلك في الكتاب الازرق اخذًا عن تلغرافات كاتب سر الاميرال سيمور وذكر ايضًا في تقرير الموسيو جيرار

وزاد الاميرال على شكواه انهُ رأى عدة

« مواعين » (زوارق كبيرة) تنقل احجارًا ضخمة تلقيها عند فم المضيق وان القصد منها سدّ مدخل المينا عند الضرورة ليمتنع على السفن الانكليزية الراسية في المرفاء الخروج منهُ كما يمتنع على ما يمكن استقدامه من السفن الدخول اليهِ اذا استقدمت طلبًا للمدد عند الحاجة

وقد اجاب الجهادية على انذار الاميرال انهم لا يريدون باسطولهِ سوءًا وان الاعمال التي رآها جاريةً في الاستحكامات والحصون انما هي من الاعمال الضرورية المألوفة التي تجريها جهادية مصر في كل عام ترميمًا للقلاع والحصون ووقاية لها من التداعي الى التهدم فلم يقنع الاميرال بهذا الجواب بل طلب توقيف تلك الاعمال او انهُ يباشر القتال فانعقد حينئذٍ مجلس النظار برئاسة الخديوِ ودعي الى الحضور في هذه الجلسة كثير من الوزراء السابقين وغيرهم من باشاوات مصر ورجالها المعروفين وامراء الجهادية ودارت المذاكرة بينهم على انهُ هل يجب التطامن الى الاميرال ام رفض طلبهِ فكان من رأي الكثيرين منهم ان يجاب الاميرال الى ما طلب وان توقف اشغال التحصين في القلاع لتجنب القتال الا ان طلبه باشا وعبد العال باشا وعلي باشا فهمي ومحمود فهمي باشا ومحمد كامل باشا وغيرهم وفي مقدمتهم عرابي باشا ذهبوا الى انهُ لا بد من عدم التطامن الى الاميرال وكان لكل فريق ادلة ومستندات تؤيد ما ذهب اليهِ وبينما هم كذلك اذ دخل عليهم كامل باشا وكان قد أُرسل الى الاميرال ليخبره ان الاشغال التي يراها في القلاع والاستحكامات إن هي الا من قبيل الترميم واصلاح ما هو محتاجٌ الى الاصلاح من تلك المعاقل والحصون فاخبرهم ان الاميرال لم يقنع بالجواب (الذي سبق ايراده) وقال انهُ لما رفع حجتهُ ودعواه وفهم المقصود من تلك الاعمال الجارية في الحصون اطلعهُ في الحال على سجلات سفينتهِ الرسمية فوجد فيها بيان الاشغال التي أُجريت لتحصين المعاقل وتعزيز الاستحكامات مدوّنًا يومًا بيوم وساعةً بساعة واطلع فيها ايضًا على بيان عدد المدافع الجديدة التي وضعت في تلك الحصون والمعاقل وتواريخ وضعها باليوم والساعة الى غير ذلك مما قويت بهِ حجة الاميرال على تلك المحاولة . قال (اي كامل باشا) ولما اعيته الحيلة طلب من الاميرال ان يمهله الى الساعة الخامسة (افرنجية) بعد الظهر ليعرض الامر على الحكومة ثم يأتيهِ بالجواب الشافي

ولما اخبر قاسم باشا المجلس بهذا الامر سألهُ بعض امراء الجهادية عن السفن الانكليزية وقوتها وهيئتها وما شاكل ذلك فاجابهم بما استدل منهُ ان الاسطول الانكليزي غير كفوء للتغلب على حصون الاسكندرية فتشددت عزائم الجهادية بذلك واصرّوا على رأيهم ثم تفرّق الحضور ولم يحصل بينهم توافق على شيء من الاشياء

وفي المساء اجتمع محمود سامي وعرابي وغيرهما من امراء الجهادية واستدعوا احمد بك رفعت نجل كاني باشا وكان وقتئذٍ كاتب سر مجلس النظار فحرر امتثالاً لامرهم تقريرًا في المسألة حملهُ ليلاً ودار بهِ على منازل النظار وغيرهم ممن حضروا في المجلس الذي انعقد نهارًا فوقع بعضهم عليهِ مختارين وبعضهم مكرهين وقبل

ان الخديو نفسه صدق او أُلجئ للتصديق عليهِ

ومفاد هذا التقرير ان الاميرال تجاوز الحدود فيما طلب وانهُ لا بد من مقاومتهِ وان عرابي وقومه مفوضون بامر الدفاع عن البلاد وصد صدمات الاعداء الى غير ذلك . ولكن لما لم يعد في الامكان ارسال هذا التقرير بصفة جواب للاميرال او بلاغ اذ كان الوقت قد بلغ نصف الليل ساعة اكمال التواقيع على التقرير تقرر ارساله الى الاميرال في صباح اليوم التالي ساعة شروق الشمس

وشاع هذا الخبر في المدينة وتناقلتهُ السنة الناس واحدًا عن آخر فعظم الاضطراب واشتد القلق والخوف وايقن الناس بحلول الساعة المنتظرة خصوصًا وان القنصليات اعلنت بصفة رسمية لرعاياها ان يهاجروا في الحال وبما امكن من السرعة

وقد عني القناصل بتيسير حاجات السفر لرعاياهم فصاروا يتقاطرون افواجًا وعينت الحكومات الاوربية سفنًا مخصوصة لنقل المهاجرين الفقراء مجانًا (وقد تقدم لنا ذكر ذلك في محله) وبعضها خصص قدرًا من المال لينفق في سبيل مساعدة الفقراء كحكومة اثينا فانها ارسلت بعض سفنها مع معتمدين من رجالها لتوزيع ما خصصته لتلك المبرة وقدره نحو مائة الف فرنك

ولم يكن الخوف في الاسكندرية اشد منهُ في العاصمة فان الاخبار كانت تصل الى اهلها مجسمة تجسمًا عظيمًا بحيث كانت الحبة عندهم قبة . وزاد خوفهم عندما علموا ان قناصل الدول كلها او اكثرها بارحوا العاصمة وان الموسيو مونج قنصل فرنسا بمصر والموسيو تاليه الكنشليار وغيرهما من رجال القنصلية الفرنسوية مسافرون الى الاسمعيلية ومنها الى بورسعيد

وازدحمت اقدام المهاجرين في محطة مصر ازدحام الناس يوم الحشر فهرعوا اليها نساء ورجالاً شبانًا واطفالاً فاقدي الرشد حيارى وبغير خمر سكارى كأن قد نفخ بالصور وحلَّ يوم النشور

وكان كلما وصل قطار الى الاسكندرية نزل ركابهُ وانطلقوا الى البحر توًا وهناك كان ما يفتت الاكباد ويمزق الاحشاء اسفًا على تلك الالوف الذين كان اكثرهم لا يملكون شروى نقير يتسابقون الى الزوارق فيتقاضاهم اصحابها مقادير فادحة اجرة نقلهم فيعجزون عن تأديتها فتتولاهم الحيرة ويلبثون واقفين على ارصفة المينا يرون الموت باعينهم وما هم بقادرين على النجاة منهُ .

وقد حصل مثل ذلك في الاسمعيلية وبورسعيد اذ تواردت عليها جالية مصر والارياف ولبثوا فيها الى ان اقبلت عليهم سفن الدول تنقلهم مجانًا الى مواني اوربا وسورية واليونان

وكانت السفن تخرج من المينا واحدةً بعد اخرى حاملةً اضعاف ما تحمل في غير ذلك الوقت واستمرت الحال كذلك الى ان كان اليوم العاشر من الشهر فلم يبقَ في الاسكندرية بل في القطر كلهِ الاَّ نفر قليلون من الاجانب والنصارى المحليين . وفي ذلك اليوم نزل القناصل الى البحر ما عدا الموسيو دومريكر قنصل الدانيمرك فانهُ بقي في منزلهِ وحضر اطلاق المدافع وشهد حريق الاسكندرية وغير ذلك مما سيأتي ذكره في حينهِ

ولم يبقَ يوم الاثنين في مينا الاسكندرية

من السفن الحربية وغيرها سوى سفينتين نتين من السفن الشراعية لم يساعدها الوقت ولا وافقتهما الريح على الرحيل فلبثتا اثناء المحاربة وراء دارعتين انكليزيتين خشية ان تصيبهما مدافع القلاع والحصون . وقد علمنا بعد ذلك انهما بقيتا هناك الى نهاية المقاتلة ونجتا فلم يصبهما سوء واذى

وفي مساء الاثنين (عاشر شهر يوليو) خلت مدينة الاسكندرية على سعتها من السكان او كادت فان الاجانب هاجروا على السفن الى البلاد البعيدة والاهالي المسلمون هربوا الى مصر والارياف

وعند فجر الثلثاء انتقلت الجنود المصرية من جهة باب رشيد الى جهة راس التين وفي الساعة السادسة (افرنجية) من الصباح اخذت السفن الانكليزية تنتقل من جهةٍ الى جهة قصد ان تتخذ لها مراكز ملائمة لاطلاق نيرانها على القلاع

وكان الجهادية قد جعلوا على سطوح المنازل العالية ديادبة من ضباطهم يرقبون حركات الاسطول الانكليزي . وعند الساعة السابعة من الصباح اطلقت السفينة « انفلكسيبل » المدفع الاول ثم تلتها السفن الاخر فاجابتهــا القلاع والحصون فاشتبك القتال وحمي الوطيس فكان يومًا عظيمًا ضارعت فيهِ لعلعة المدافع قصف الرعود وحكى لمعان السلاح وميض البروق . وكانت السفن تمخر عباب البحر كأنها براكين تقذف من فوهاتها نارًا تصب على الناس موتًا احمر ودامت هذه الحال الى ان كانت الساعة الحادية عشرة فعجزت بعض الحصون عن المقاومة فان السفن كانت تطلق قنبلة المدفع فتصيب بها مدافع القلاع فتعطلها واستمر الامر على هذا المجرى في مدة القتال الى ان ابطلت السفن عمل مدافع الحصون فتغلبت عليها وكان على كل سفينة شبكة من فولاذ مدلاَّة من اعلاها الى اسفلها تحمي جوانبهــا وتميت تأثير المدافع المصرية فان القنبلة كانت قبل ان تصل السفينة تصيب تلك الشبكة المدلاَّة فتضعف قوتها ولا تؤثر في الدارعة

وكانت المدافع اثناء دورانها تحشى بالقنابل حشوًا لا يبقي ولا يذر فاذا أُطلقت تصاعد من السفينة دخان كثيف يحجبها عن اعين الراصدين وكثيرًا ما انطلق من مدافع الحصون قنابل لم تصل الى السفن لبعد المسافة اما مدافع السفن فكانت تطلق قنابل كثيرًا ما تجاوزت القلاع بمراحل لقوتها وشدة اندفاعها

وبالجملة فان طلائع النصر بدت من جانب البحر فطفق الجنود ومَن بقي في المدينة من السكان يهربون مشاةً حفاةً غير عالمين اية جهةٍ يقصدون ونحو اي ملجاءٍ يتجهون يزيدهم دويُّ المدافع في اذانهم خوفًا والتيقن بقرب نزول الانكليز الى البر رعدةً ورعبًا

وكان منزل الموسيو دومريكر القريب من الحمام المعروف بحمام باللوني مفتوح الابواب يلجأ اليهِ من اراد فلاذ بهِ كثير من الناس اجانب ووطنيين وكانت سطوح المنزل مغطاة بالرمل ليمنع عنه اذى انفجار القنابل النارية التي كانت السفن تقذفها على القلاع فتنفجر حال وقوعها وتندفع منها النار اندفاعًا هائلاً يهدم ما اصاب من حائط او سقفٍ او جدار ومــا

مائل ذلك

ولجأ كثيرون ايضًا الى كنيسة سانت كاترين المختصة بالرهبان الفرنسيسكانيين كما سيجيء بيان ذلك في محله وكان جماعة الرهبان الافرنج والراهبات العازاريات في جملة من احتموا فيها

وفتح المستشفى الاوربي كذلك ابوابهُ للاجئين وكان فيهِ بعض الاطباء كالدكاترة اردوين وماصه ودوتريو وبعض المتشرعين (الافوكاتية) كالموسيو جاكين والموسيو دي لابومري وغيرهم

واحتضنت دار الروم الارثوذكس البطريركية (بطركخانة) نحو مائتي نسمة ومثلها المستشفى اليوناني وبقيت منازل اخرى مفتوحة الابواب فلاذ بها كثيرون من الخائفين

ومن المنازل التي بقي اصحابها فيها يدفعون عنها هجمات الثائرين الناهبين ومضرمي النار بنك «الانكلو اجبسيان» الكائن في شارع شريف باشا وقد تحرز فيهِ مديره الموسيو جوسبو ومعهُ امرأتهُ واهلهُ وتأهب للدفاع فاعد كل ما يحتاج اليهِ من سلاح وميرة وجمع اليهِ بعض الرجال ممن يعهد بهم الطاعة والامانة وبقي في محلهِ الى نهاية الحرب ومثلهُ بنك «كريدي ليوني» الكائن ازاء بنك الانكلو في الشارع المذكور وكان قد لجأ اليهِ الموسيو موج الفرنسوي احد مديري خزينة الدين مع عائلته واودع فيهِ النقود التي اجتمعت الى ذلك الحين في الخزينة المذكورة لحساب الحكومة المصرية وارباب دينها وكانت مبالغ وافرة

وفي اثناء اطلاق المدافع على الاسكندرية اي في نحو الساعة الثامنة (افرنجية) من الصباح ركب عرابي عصمت عربته والى جانبهِ طلبه باشا وتجولا في شوارع المدينة يتفقدان احياءها ويرسلان بعض الضباط والجنود الى منازل الاجانب متجسسين مستطلعين خشية ان يكون فيهم من يخابر السفن الانكليزية بالتلغراف او التليفون او باشارات متعارفة بينهم وكان بعض العساكر يصعدون الى السطوح ويقطعون الاسلاك التلغرافية والتليفونية ويقتلون من يرونهُ من الناس على السطوح توهمًا منهم انهم يخبرون الاميرال في البحر بما هو جارٍ في المدينة من اعمال الجهادية خصوصًا وانهم كانوا قد علموا ان الاميرال وصل الاسلاك التلغرافية البحرية باحدى سفنه قبل انتشاب الحرب بنحو عشرين يومًا ورَسا بالسفينة التي وصل بها الاسلاك فيما خارج البوغاز وجعلها مثل محطةٍ للتلغراف يخابر منها قبرص ولوندرة مخابرةً تلغرافية بالاسلاك المدودة تحت المياه وانهُ وصل ايضًا اسلاك التليفون بتلك السفينة بحيث صار في امكانهِ ان يخابر الاسكندرية مخابرةً شفهية وان لهُ ما عدا ذلك جواسيس من الاجانب في البر اقاموا في المدينة اثناء القتال ليبلغوه الاخبار باشارات اصطلح عليها الفريقان

وقد اتخذ بعض الجهادية هذا الامر ذريعةً للوقوع والايقاع بمن يرونه من الاجانب فكانوا كلما لقوا واحدًا منهم قبضوا عليهِ واوثقوه كتافًا وارسلوهُ الى السجن المعروف بسجن محرم بك الى ان بلغ عدد هولاء السجناء نحو عشرة تحملوا من العذابات الوانًا وكابدوا من انواع الهوان اشكالاً حتى يئسوا من النجاة وكادوا يهلكون لولا ان السجان (وهو اوربي) اهتمَّ بانقاذهم فاخبر الموسيو مارك مأمور البوليس بأمرهم فذهب

في الحال الى « محرم بك » (١) واخبر الجهادية ان الاوربيين المسجونين مطلوبون الى الضبطية للمحاكمة فتمكن بهذه الوسيلة من انقاذهم واخلاء سبيلهم فنجوا وهم غير مصدقين بالنجاة

واستمر اطلاق المدافع الى الساعة العاشرة (افرنجية) صباحاً بغاية ما يكون من الشدة والتعجيل حتى تعطلت القلاع والحصون في زمن يسير ما عدا قلعتي « العجمي واطه » فانهما ثبتتا بعض الثبوت ثم انخفضت حدة النيران وقل اطلاق المدافع فجاء سراي الرمل الميرالاي حسين بك احد اركان حرب الخديو واخبر ان اكثر القلاع والحصون تعطلت وان قد قتل عددٌ وافر من طوبجيتها وحاميتها وان ابرهيم بك صبري قومندان الموقع يطلب مدداً . وكانت ابواب السراي مفتوحة للواردين يدخلها من يشاء بلا استثناء. فكثيراً ما دخلها جواسيس الجهادية متنكرين ثم يعودون فيخبرون عرابي باشا وقومهُ بما كان فيها وبعد الساعة العاشرة (على الاصطلاح الافرنجي) وفد على السراي احد النظار واخبر ان لا صحة لما اخبر بهِ الميرالاي حسين بك غير ان ذو الفقار باشا وصل بعد ذلك بقليل وانبأ بما جاء مؤيدًا لرواية حسين بك ثم زاد على ذلك قولهُ ان الجنود البحرية المصرية قد ادبرت وهرب معها جميع من كانوا في «ليمان» الاسكندرية ونوتية السفن المصرية « مصر » و « محمد علي » و « الغربية » وان قد قتل كثيرون من حامية القلاع . ثم جاء السراي عند الظهر قائد اليخت الخديوي « المحروسة » وايد رواية ذو الفقار باشا وزاد عليها قولهُ ان قنبلة اصابت السفينة «مصر» فاضرَّت بها ضرراً عظيماً

واخبر بعض الثقات ان عرابي وجماعته كانوا اثناء اطلاق المدافع اي قبل الظهر بساعتين مجتمعين في قلعة «كافاربللي» في محرم بك وهناك نظموا منشوراً قرروا ارسالهُ بالتلغراف الى جميع المديرين في داخلية البلاد . ومآل هذا المنشور ان الحرب انتشبت بين انكلتره ومصر وان على الحكام جميعًا ان يمتثلوا لاوامر ناظر الجهادية والبحرية وان يلبوه فيما يطلبهُ من ارسال الجنود والنقود والميرة وغير ذلك مما يرى لزوماً لاستخدامهِ . وقيل انهُ كان من نيتهم ان يطلبوا تصديق النظار والخديو عليهِ ولكن الفرصة لم تسمح لهم بذلك فبقي هذا الامر مكتوماً حيناً ما

وكان بمعية الخديو وهو في سراي الرمل بعض الذوات من مثل الجنرال ستون باشا والاميرال فريدريكو باشا والميرالاي زهراب بك وطونينو بك ودي مارتينو بك واباتي بك وتيغران باشا وغيرهم . وكان من الوطنيين ايضاً جماعةٌ يتنقلون جيئةً وذهاباً استقصاء للوقائع والتماساً للاخبار

وبعد ان عجزت القلاع والحصون عن اطلاق المدافع والاستمرار على المحاربة اشاع الجهادية انهم انتصروا على الانكليز وغرَّقوا سفينتين من اسطولهم وعطلوا خمس سفن اخر تعطيلاً فعاد الى المدينة على اثر هذه الاشاعة بعض الهاربين من الاهالي ولكنهم لما تحققوا بعد ذلك عدم صحة تلك الاشاعة عاودوا الهزيمة والفرار

---

(١) اسم المستقر العسكري

وايقنوا ان هذه الاشاعات وامثالها كاذبة وان النصر كان للانكليز وباتوا بعد ذلك لا يصدقون ما يسمعون

فصل

ومما يذكر انهُ في صباح اليوم المذكور شاع بين القوم على اثر دوي المدافع ان قد وصل عثمان باشا الغازي قادماً من الاستانة لمحاربة الانكليز وان المدافع انما تطلق اكراماً لهُ فاطمأنت نفوسهم وتشددت عزائمهم ولكنهم بعد ذلك تاكدوا ان في اطلاق تلك المدافع كان ابتداء الحرب والقتال فخابت آمالهم واستولى عليهم الفشل . ومثل ذلك لما بلغهم ان سفينتين من الاسطول الانكليزي غرقتا فانهم تاكدوا بعد هذا الخبر ان السفن لم تصب باذىً وانما القلاع والمعاقل هي التي غلبت وتعطلت وباتت عاجزة عن الدفاع فايقنوا اذ ذاك بحلول الدمار والخراب وعادوا الى الهزيمة راضين بها غنيمة غير مصدقين بالنجاة فازدحموا في محطة السكة الحديدية متسارعين الى الفرار قاصدين مصر والارياف هرباً من سطوة الانكليز

وقبيل مغيب الشمس بلغ الخديو ان بعض الجنود المصرية هجموا على مستشفى الراهبات (دياكونس) وقتلوا من لقوه فيهِ من الاجانب وعند ذلك وفد على السراي حسن بك محمود رئيس مجلس الكورنتينات بالاسكندرية واخبر ان الظروف قضت باقفال محل ادارته الذي جعل مستشفى للجرحى بادارة جمعية الهلال الاحمر فامره الخديوِ ان يذهب في الحال الى مستشفى الراهبات ويحقق صحة الخبر فسار مسرعاً وسار معهُ فيدريكو باشا فثبت لهما ان تلك الاشاعة غير صحيحة وانهُ لم يقتل في المستشفى احد فعادا واخبرا بما كان

فصلٌ

وكان في جملة من تخلفوا عن المهاجرة ولبثوا في الاسكندرية حتى نهاية القتال فشاهدوا الوقائع عياناً السائح الالماني الشهير الموسيو شونيفورث وقد اقام في بيت عُبيد الكائن قبالة المستشفى اليوناني وبصحبتهِ الموسيو فريد هيم . وكان يدوّن الحوادث والوقائع يوماً يوم وساعةً بساعة وقد نشرت احدى جرائد الاسكندرية الافرنجية صورة تقريره فاثرناه عنها كما يأتي

يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ (الثلاثاء)

الساعة السابعة افرنجية من الصباح

ابتدأ اطلاق المدافع — اطمئنان نفوس الاهالي بتصديق ما شاع من ان هذه المدافع انما تطلق الان ترحيباً بالاسطول العثماني المنتظر وفوده بامرة الغازي عثمان باشا

الساعة ٧ والدقيقة ٤٥

أُطلقت المدافع على قلعة العجمي — لا يزال الاهالي مطمئنين وقد سمعت بعض النساء البائعات ينادين في الشوارع . لبن . لبن . (بائعات الحليب صباحاً) اخذ الخوف من العصافير وسائر الطيور كل مأخذ ورأيت الحمام ينتقل من جهةٍ الى جهةٍ حائراً لا يعلم اين يستقرُّ آمناً

الساعة ٨

وصل عجين بعض البيوت الى الفرن — وقعت قنبلة كبيرة بين البيوت الخشبية وراء

محطة الرمل وسكانها من الاهالي فاضطربوا لها كثيرًا وهربوا جميعهم لاجئين الى البناية الجديدة الكائنة بالقرب من المستشفى اليوناني ــ القلاع البعيدة عن البحر لم تطلق الى الان مدافعها بالنظر الى بعد المسافة الفاصلة بينها وبين السفن

الساعة ٩

خلت الطرق من المارة ــ القلاع تطلق مدافعها على السفن ولكن بين المدفع والاخر وقتٌ طويل ــ سقطت قنبلة على جدار منزلٍ كائن بالقرب من بيت منشى في شارع الباب الشرقي فاحرقتهُ ــ وسقطت الان قنبلة وراء قلعة كوم الدكة فوق قنصلية المانيا الجنرالية

الساعة ٩ والدقيقة ١٥

كُفَّ عن اطلاق المدافع قليلاً ــ جاءنا الان مخبر ينبئنا ان الاهالي مجتمعون في احيائهم يتعاطون القهوة والنارجيلة في القهاوي العمومية وانهم فرحون بما بلغهم مستهزئون باعدائهم مستخفون بقوتهم وانهم غير مبالين بما هو حاصل بين السفن والحصون

الساعة ٩ والدقيقة ٤٥

السفن الراسية في الجهة الشرقية ابتعدت عن الشاطئ كثيرًا وهي لا تزال تطلق قنابلها على القلاع بضبطٍ وحسن اصابة الاَّ انها قللت عدد الطلقات عن ذي قبل

الساعة ١٠ والدقيقة ٣٠

تحولت الان سرعة اطلاق المدافع من السفن الى ما يعدّل طلقين اثنين في الدقيقة

الساعة ١١

الاهالي يخبرون بعضهم بعضًا في الطرق والشوارع ان الاسطول الانكليزي لم يبقَ منهُ الاَّ ثلاث سفن وان البقية اغرقتها مدافع القلاع

الساعة ١١ والدقيقة ٣٠

لا نزال نسمع بعض طلقات من جهة الغرب وبلغنا الان ان بعض الجهادية فتحوا باب ادارة التلغراف الانكليزي عنوةً وقسرًا وقطعوا جميع الاسلاك التلغرافية فيهِ وذبحوا المنكود حظه « ترنان »

الظهر

اخذ الان اطلاق المدافع في الازدياد بعد ان تناقص قليلاً ــ نُقل كثيرون من الجرحى على عربات اومنيبوس الى ما خارج المدينة وقد نظرتهم حال مرورهم امام المستشفى اليوناني

الساعة ١٢ والدقيقة ٣٠

سقط الان قنبلتان بالقرب من المدرسة الحرة المجانية وبانفجارها تصاعد من الارض غبارٌ كثيف ــ في هذه الساعة وصل الى ما امام منزلنا ثلاثة من الجنود ومعهم اثنان من البوليس وجماعة من رعاع القوم واحاطوا بالبيت الذي كنت فيهِ مع الموسيو فريدهيم وكلفونا النزول ليأخذونا الى المخفرة (القره قول) فان الاوامر صدرت فيما يظهر بالقبض على كل مَن يرونهُ على السطوح او مشتغلاً بمخابرة السفن الانكليزية بالاشارات وسوقهِ الى دائرة البوليس ــ وفي الساعة عينها رأيت احد المشائخ قد اغتصب من احد الجهادية بندقيتهُ ليطلقها على نوافذ المستشفى اليوناني ــ ورأيت كذلك اولئك السفلة الرعاع يركضون وراء رجلٍ خرج من المستشفى وهرب فتبعوه ولكنهم لم يدركوه فنجا

وهنا وقف السائح في تقريره ولم يعد اليهِ الاَّ في اليوم الثاني عند الساعة الثامنة وسبب

ذلك انهُ لما حصرَ في المنزل عند الظهر مع رفيقهِ الموسيو فرَيدهم لم يعد في امكانهِ ان يكتب ما يرى . ثم ان المحاصرين تمكنوا من كسر باب المنزل فدخلوهُ طالبين مَن فيهِ فايقن السائح انهُ مقتولٌ لامحالة فاختار ان يموت من يدهِ لا من يد اولئك الرعاع فعمد الى غدارةٍ مسدسة كانت لديــهِ وصوَّبها نحو رأسهِ غير ان رفيقهُ منعهُ من ذلك فاخذ السلاح من يدهِ واقنعهُ انهُ لايجب ان ييأس ويقنط من النجاة فخرج السائح عند ذلك من خبائهِ واخذ يخاطب الهاجمين برقيق الكلام الى ان قال لهم « ان الاوامر الصادرة لكم مفادها ان تقبضوا على مَن ترونهُ يخابر السفن الانكليزية بالاشارات وما انا منهم بل انا الماني التابعية وصديق المصريين وقد انعم عليَّ جلالة مولانا السلطان المعظم برتب شرفٍ عالية ولي عندهُ حظوة وشأن » الى غير ذلك من الكلام اللّين حتى تركوهُ ثم احتال عليهم هو ورفيقه وهربا من بين ايديهم فنزلا من احدى النوافذ الى حديقة المنزل وصرفا فيها سواد الليل مختبئَين متواريَين عن العيان الى ان جاء في صباح اليوم الثاني ذو الفقار باشا ومن معهُ فانقذوهما واخذهما الموسيو مارك في عربتهِ الى مستشفى الراهبات (دياكونس) فعاد الى كتابة الحوادث كما يأتي :

يوم ١٢ يوليو سنة ٨٢ (الاربعاء)

الساعة ٨ افرنجية من الصباح

رأيتُ جماعاتٍ من الاهالي وفي مقدمتهم نفرٌ من الجهادية يطوفون الازقــة والشوارع وربما يفتشون على الاجانب المختبئين

الساعة ١٠ والدقيقة ٣٠

وصل الينا الان محافظ المدينة ذو الفقار باشا ومعهُ سالم باشا واباتي بك وانقذنا انا ورفيقي من الخطر ثم اتانا بالموسيو مارك مأمور البوليس وامره ان يرافقنا الى مستشفى الراهبات وقد علمنا ان اباتي بك هو الذي اخبر المحافظ بامرنــا والتمس منهُ انقاذنا من الخطر

الساعة ١٠ والدقيقة ٤٥

استؤنف اطلاق المدافع ــ وقد سمعنــا نحو ١٠ طلقات من جهة المغرب

الساعة ١١

وصلنــا مستشفى الراهبات (دياكونس) الواقع على مقربةٍ من باب محرم بك ووجدنا فيهِ نحو ٧٠ شخصاً

امس عند الظهر جاء المستشفى نحو مائتي رجل من الاهالي والجهادية والضبطية وغيرهم ودخلوا المستشفى وكلفوا رئيستهُ ان تنزل العلم المرفوع فوق السطوح زعماً منهم ان في ابقائهِ مرفوعاً فائدةً للانكليز في البحر

وقد وجدتُ في المستشفى (ماعدا الراهبات) جماعةً من اللاجئين اليهِ عرفت منهم الموسيو مورب قنشلير القنصلية الالمانية وامرأتهُ وابنه والموسيو دي فيلبسكيربش المبشر الالماني واباه والدكتور كولب وامرأتهُ

وشهدت اثناء الحوادث من رئيسة المستشفى الراهبة برباره ثباتًا وهدوًّا عجيبين تستحق عليهما اطيب الثناء

الساعة ٢ افرنجية بعد الظهر

لايزال الوطنيون يهربون من المدينة حتى كادت الاسكندرية تخلو من السكان ــ

قطارات السكة الحديدية متتابعة من الاسكندرية الى كفر الدوار واحدًا بعد اخر وجميعها ملأى بالركاب اما القطارات العائدة من كفر الدوار فخلوٌ من كل روحٍ ناطقة

شارع محرم بك غصّ بالناس المارين القاصدين ضواحي المدينة واكثرهم يحملون ما يطيقون حملهُ من الاشياء المنهوبة من مخازن الاسكندرية ومنهم من ينقل تلك الاشياء على عربات النقل ومنهم على حمير وغيرهم على خيل وكلهم مسرعون في المسير لينجوا بما نهبوا ولا تقف اقدامهم الاَّ عند ما يحاولون ان يسرق بعضهم بعضًا وكثيرًا ما افضى ذلك بينهم الى المضاربة والملاكمة . وقد استمر مرورهم بالشارع المذكور الى ان ارخى الظلام جناحيهِ فكانوا كلما مرَّت جماعةٌ منهم وفدت جماعةٌ اخرى وهكذا حتى جنَّ الليل

قال ـ كان عندنا في المستشفى خمسة رجالٍ من الحرس منهم ثلاثة ارسلتهم ادارة البوليس للمحافظة على المستشفى والاثنان الاخران كانا مع الموسيو مارك حين جاء بنا الى المستشفى فابقاها عندنا لحمايتنا ففي الظهر هرب الخمسة المذكورون وقصدوا المدينة رجاء ان يصيبوا نصيبًا من النهب والسلب فلم يلبثوا لذلك في مراكزهم الاَّ ساعةً واحدة او اقل منها

الساعة ٣ والدقيقة ٣٠

اشتعلت النار حوالى المستشفى

يوم الخميس ١٣ يوليو

في الصباح

لم يبقَ عندنا ماءٌ فان شركة المياه تعطلت اشغالها

الساعة ٩ (افرنجية) من الصباح

شبت النار في منزل بالقرب من المستشفى فاحرقتهُ ـ عدد الناهبين المارين من المدينة في ازدياد

الساعة ١ بعد الظهر

عادت مياه الشركة الى مجاريها

الساعة ٤ بعد الظهر

بدت حرائق جديدة حوالى المستشفى

الساعة ٤ والدقيقة ٥٠

مرَّ الان الخديوِ وبطانتهُ بالشارع امام المستشفى وساروا من جهة باب محرم بك ليدخلوا المدينة

الخديوِ في عربة مكشوفة والى جانبهِ درويش باشا ووراء عربتهما عربة في مقدمتها ثلاثة من الخصيان وعربة نقل عليها بعض امتعة ـ موكب الخديوِ مؤلف هذه المرة من ٦٠ او ٧٠ فارسًا تتقدمهم طائفة من الحرس بسيوف تعلو رؤوسها اعلامٌ بيضاء (اشارة الى المسالمة)

واضطر الخديو في رجوعه الى المدينة ان يمر بجماعات الناهبين السابق ذكرها وبين المنازل الملتهبة بالنار

الساعة ٥ والدقيقة ٣٠

رأيت بعض الافندية يطوفون في الشوارع باحثين عن المنازل المختصة بادارة الوقف المعرضة لخطر الاحتراق

الساعة ١١ بعد الظهر

ارسل الخديوِ اربعة فرسان من فرسانهِ الى المستشفى لوقايتهِ

يوم الجمعة ١٤ يوليو

الساعة ٥ والدقيقة ٣٠ من الصباح
(على الاصطلاح الافرنجي)

جماعات الناهبين من سفلة الاهالي يعودون الان الى المدينة وبايديهم النبابيت

الساعة ٦

واخذ كذلك قومٌ اخرون في العود الى المدينة ولكنهم مستصحبون هذه المرة عربات مثقلة بالاحمال وهم بهيئةٍ تشبه هيئة القوافل وجميعهم بين نساء ورجالٍ واولاد مسلحون بنبابيت تعلو رؤوسها خرقٌ بيضاء

الساعة ٧

احترق ثلثة منازل غير المنازل الاولى ـ يحاول بعضهم بالقرب منا فتح ابواب بعض المنازل عنوةً

الساعة ١٠ والدقيقة ٣٠

شبت النار في المنزل الكائن تجاه المستشفى ونحن في خوفٍ من ان ينالنا لسان النار

الساعة ٢ بعد الظهر

وصل عندنا الان امير الاي من حرس الخديوِ أُرسل لتفقد احوال المستشفى

الساعة ٣ والدقيقة ٣٠

مرَّ الان امام المستشفى نحو مائة من الجنود الانكليزية متجهين نحو ترعة المحمودية

عدد العربات العائدة الى المدينة يتزايد في كل دقيقة

الساعة ٣ والدقيقة ٤٥

وفد علينا نحو خمسة عشر رجلاً من الانكليز ليتفقدوا المستشفى وعلمنا انهم نزلوا من السفينة . طنجور . وانهم يطوفون المدينة

الساعة ٥ والدقيقة ٤٠

جاء نحو ٢٠٠ رجل من الجنود الانكليزية واقاموا عند باب شارع محرم بك بامرة القبودان كامبل

الساعة ٦

قدم الان الى المستشفى ٢١ رجلاً من ملاحي السفينة المدفعية الالمانية (هانبش) بامرة الليوتنان دي بريتوبتز واقاموا فيهِ وعُهد اليهِ امر وقايتهِ

يوم السبت ١٥ لوليو

نزلنا الى المدينة فرأينا منازل كثيرة تحترق بالنار وفي الساعة ١١ (افرنجية) من الصباح شبت النار في المنزل الكائن فيهِ بنك همبورجر وشركائهِ

في الساعة الثانية بعد الظهر شاع في المدينة ان عرابي قادم بجيش جرار لمهاجمة الاسكندرية

في الساعة التاسعة مساءً ارسل البارون دي ساورما قنصل المانيا خبرًا للراهبات ان يتأهبنَ لاخلاء المستشفى في الوقت الذي يعينه للاخلاء الضابط الالماني الذي عُهد اليهِ امر وقايتهِ وانهُ متى صدر لهنَّ امر الضابط بالرحيل يجب عليهنَّ جميعًا ان يهرعن في الحال الى البحر وينزلن الى السفينة المدفعية الالمانية (هانبش)

في الساعة الاولى بعد نصف الليل ارسل الضابط شنفلدر رئيس حامية المستشفى الالمانية بعض رجاله الى جهة محرم بك ليقف على التدابير التي عولت الجنود الانكليزية على اتخاذها واجرائها

فتوجه وعلم انها غير كافية لوقاية اللاجئين الى المنازل الكائنة فيما خارج ابواب المدينة فان رئيس قوم الانكليز الحالين في مخفرة محرم بك صرح له انهُ غير حاصلٍ على مراكز متقدمة على مركزهِ فيما خارج المدينة لتنبئهُ قبل حين بقدوم الهاجمين وانهُ اذا وقع مثلُ ذلك اضطر ان ينسحب مع رجالهِ الى حصن كوم الدكة امتثالاً للاوامر الصادرة اليهِ فعاد الضابط الالماني وشرع في التأهب لاخلاء المستشفى ولم تمض ساعة حتى كنا جميعًا على اهبة السفر والفرار

ـــ وفي الساعة المعينة للرحيل (اي في نحو الساعة ١ والدقيقة ٣٠ بعد نصف الليل) رأينا شهابًا ناريًا صادرًا من جهة البحر فعلمنا انهُ اشارةٌ اتفق عليها الاميرال سيمور وقنصل المانيا للايعاز بوجوب هرب الاجانب واسراعهم في الفرار الى البحر وكان قد قال للقنصل ان ليس لديه من الجند قوة كافية لصد هجمات عرابي وجماعتهِ عن المدينة فاذا هاجمها اكره الاميرال على استرجاع جنوده الى السفن والتحرز فيها واذا وقع ذلك او توقع حدوثهُ أُطلق في الجو سهمًا ناريًا دلالةً على ما تقدم فيكون اذ ذاك من الواجب عن من بقي في المدينة ان يسارع في الحال الى الفرار

فلما رأينا السهم منطلقًا ساطعًا في الفضاء عمدنا الى الهرب متجهين الى البحر من جهة شارع محرم بك ولا يخفى ان بين المستشفى وباب الشارع المذكور نحو الف قدم فقبل ان نقطع هذه المسافة وقع حادث مهم تناقلت الجرائد الانكليزية خبره ولكن على غير تثبت فيهِ فقد زعمت ان قلعة كوم الدكة اطلقت علينا مدافعها خطاء وواقع الامر اننا استصحبنا بنزولنا الى البحر اربع عربات تقلُّ الضعيف منا سائرةً ومن حولها الملاحون الالمانيون فلما بلغت قافلتنا المضيق المؤدي الى السكة الحديدية الممتدة فيما يلي شارع محرم بك وكان بعض العربان مختبئين هناك يحجبهم سواد الليل عن الابصار (وربما كان من بينهم الفتك بمن بروتهُ منفردًا من الحرس الانكليز) فاحسوا بنا وبدا لهم في الدجنة بياض لباس الملاحين فاطلقوا علينا النار اطلاقًا متواليًا فكان من الحصن الآنف الذكر ان اطلق مدافعهُ في الفضاء ارهابًا

ومرّت قافلتنا بدون ان يصاب احدنا بسوء وضرٍ ثم بلغنا المدينة فقصدنا البحر ونزلنا الى السفينة (هاتبش فاطمأنت نفوسنا وصرنا في حرز الامان وكان الوقت اذ ذاك بالغًا حدَّ الساعة الخامسة من صباح سادس عشر شهر يوليو . اه .

فصلٌ

واشترط الاميرال لدى افتتاح المخابرة في امر التسليم ان يُرخص لملاحيهِ في النزول الى البر واستلام القلاع ليكف عن القتال وطال امرُ هذه المخابرة بضع ساعات نزل في غضونها بعض مئين من الجهادية المقيمين في محلة محرم بك الى المدينة فاخذوا يطوفون احياءها ويحثون الاهالي المسلمين على الهرب بقولهم ان النصارى سينزلون الى المدينة ويذبحون المسلمين فتسارع الى الفرار جميع من كانوا باقين الى ذلك الحين في مساكنهم حتى ان نواطير البيوت وخفراءهـا والبرابرة حرّاس الابواب وامثالهم

هربوا جميعًا تاركين المنازل مسلمةً لرحمة الله ولكن لم تطل غيبتهم بل عادوا بعد ثلاث ساعات منضمين الى قوم الناهبين

وكان الجهادية قد ايقنوا بانتصار اعدائهم لما رأوه من بأسهم وبطشهم وتغلبهم بوقت يسير عليهم وعلى قلاعهم وحصونهم وعلموا ان لا بد من ان ينزلوا الى المدينة ويستولوا عليها فلا يبقى لهم الا الفرار وسيلةً للنجاة ولكنهم خافوا مع ذلك ان يتبعوهم بالرجل والخيل ويوقعون بهم .

وكأنهم تذكروا ما فعل الروس ايام هاجمهم نابوليون الاول فانهزموا فتبعهم فصاروا كلما انهزموا من جهة احرقوها قبل ارتحالهم عنها فيصلها نابليون بجنوده فلا يجد فيها مؤنة ولا ذخيرةً لرجالهِ فيقتفي اثر المنهزمين حتى تغلغل في بلادهم وبات لا يستطيع الخروج منها بسهولة ليعود الى وطنه ثم استمر سائرًا متنقلاً على هذه الحال حتى دخل فصل الشتاء وقرس البرد فهلك من جيشه السواد الاعظم وعاد بعد ذلك بالخيبة والفشل

قلنا وكأنهم تذكروا ذلك فعمدوا الى الاقتداء بالروس فقرروا احراق المدينة ونادوا بالمسلمين ان اخرجوا منها فخرجوا قاصدين جهات الداخلية وكانت الاوامر تصدر بذلك من مخفرة رأس التين حيث كان مقيمًا بعض روساء الجهادية والضباط وعساكر المستحفظين

وفي الساعة الاولى بعد الظهر اصدروا الامر الى الرعاع والسفلة بنهب البيوت واضرام النار فيها فانتشروا في الازقة وانبثوا في الشوارع والاسواق غير مبالين بما عزموا ان يحملوه من اثقال هذه الجرائم وكان اول محل نهبوه دكان

بقالٍ رومي واقع بالقرب من المخفرة المذكورة ثم اتوا مخازن الموسيو بونشيا تاجر الموبيليات ونهبوها وبعد ذلك جاء الميرالاي سليمان داود ومعهُ بعض الضباط الى المنشية وأمر بالنهب والاحراق فانصبت جموع الرعاع على المخازن والبيوت تنهبها وتُضرم النار في جوانبها ثم انتقلوا من المنشية الى شارع شريف باشا وشارع البوسطة الايطاليانية واستمروا على هذه الحال الى ان كانت الساعة الرابعة (على الاصطلاح الافرنجي) بعد الظهر فشبت النار في جهات متعددة دفعةً واحدة فعلم من ذلك ان الجهادية ومن انحاز اليهم من سفلة الناس ورعاع القوم تعمدوا احراق المدينة

وكانت تلك الجماعات تطوف البيوت والمخازن وتنهب منها ما يتيسر لهم نهبهُ ثم تضرم النار فيها وتنتقل الى غيرها

اما الطريقة التي اعتمدوها في إحراق تلك الابنية والمنازل فهي ايقاد اخشاب مغموسة بزيت البترول والقائها الى ما داخل البناية وغير ذلك مما سنأتي على تفصيلهِ في مكانهِ

وخاف مَن في سراي الرمل ان يهجم الثائرون عليها فعقدوا مجلسًا برئاسة الخديو للتبصر في الامر واصدر درويش باشا امرهُ للبخت العثماني « عز الدين » بالدنو من الشاطئ الى جهة القصر واشار الى قبودانه ان يكون مستعدًا للفرار حتى اذا هاجم الثائرون السراي نزل مع الخديو واهل السراي الى البخت ولكنهم علموا بعد ذلك انهُ لو دنا البخت من الشاطئ واحس الثائرون بما في النية ربما قطعوا عليهم الطريق ومنعوهم من النزول بل ربما توصلوا الى اغراق البخت

فعدلوا لذلك عن هذا الرأي

وكان جواسيس حزب الجهادية ينقلون لعرابي اخبار الخديوي ودرويش باشا وسائر من في سراي الرمل فعلم ما كانوا يتقلون اليهِ ما تذاكروا فيهِ من النزول الى اليخت العثماني فجاء بنفسهِ الى الرمل ووزع على العربان نحو ٥٠ الف فرنك (وهو ما المعنا اليهِ في مكانهِ الاول) وأمرهم ان لا يدعوا احدًا يخرج من القصر حيًّا فخاف من في السراي خوفًا شديدًا وهرب بعضهم خفيةً اما الخديو فقد ابدى من الضعف قوةً واستدعى اليهِ قائد الفرقة المحاصرة للسراي وسألهُ عما يريد فاجابه انهُ غير مسئول الا لدى ناظر الجهادية وان مرجع امره اليهِ ولا يعرف غيرهُ رئيسًا لهُ وبعد ان اتمَّ القائد جوابه اخذ يتهيأ للهجوم فاعد المشاة وأمرهم بالانتظام من حول السراي وجعل الفرسان وراءهم وشرع في الحصار فتأهب مَن في السراي للدفاع وكانوا نفرًا قليلين فاقفلوا الابواب واعدُّوا سلاحهم وعزموا على المقاومة حتى الموت ولم يكن في السراي اكثر من ٥٠ نفسًا منهم عثمان باشا واسمعيل باشا الجركسيان وزبير باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفدريكو بك وطونينو بك ودي مارتينو بك واباتي بك وتيكران باشا وزهراب بك وغيرهم

ثم ارسل الخديو وفدًا الى عرابي ليستفهم منهُ عما يقصده القوم المحاصرون للسراي وكان هذا الوفد مؤلفًا من حسن باشا الشريعي وابرهيم بك رشدي وتيغران باشا فانطلقوا الى مقر عرابي وسألوهُ عن الخبر فاجابهم متبرئًا مما عزي اليهِ وارسل معهم طالبه الى الخديو يخبره ان قائد الفرقة غير مأمور بمهاجمة السراي بل بالمحافظة عليها حرصًا على حياة الخديو وسكان القصر فالح درويش باشا حينئذٍ ان ينسحب القوم المحاصرون للسراي فأمرهم طالبه بالانصراف فانصرفوا

وفي تلك الاثناء كان الاميرال سيمور مطلق البال على الخديو ونزلاء سراي الرمل فعين ثلاث دوارع من اسطولهِ لترسو ازاء السراي بالقرب من الشاطئ . ويقال ان رسوَّها في تلك الجهة كان سببًا في كفِّ الجهادية عن مهاجمة السراي والله اعلم

وسكن جأش اهل القصر بعض السكون بما اتخذ لهم الاميرال من وسائل الوقاية الا انهم استمرُّوا يحاذرون استئناف العمل ويخشون ان يعود الثائرون الى عزمهم الاول ويهاجمون السراي فتشاوروا في الامر وقرروا اخيرًا وجوب الارتحال فاصدر الخديو امرهُ الى ذكي باشا احد مديري السكك الحديدية اذ ذاك ان يعد القطار الخديوي في الليل ويبقيه مهيئًا معدًّا للسفر حتى الساعة الرابعة بعد نصف الليل وان يكون هو نفسهُ حاضرًا في الوقت المعين المذكور في محطة سيدي جابر فمنها يركب الخديو ومن معهُ ويرحلون الى حيث يشاؤن

فأخذ لذلك اهل القصر في التأهب للسفر واقاموا ينتظرون القطار الخديوي المعد لنقلهم الا انهم عند الفجر علموا ما ساءهم من ان سفلة الناس الذين احرقوا المدينة ونهبوها اوقفوا القطار المذكور حال مسيرهِ وشحنوه مالاً منهوبًا واستبدوا بهِ فعظم الامر عليهم ولا سيما اذ علموا بعد ذلك ان المشاة والفرسان من الجنود خرجوا

من الثكنات بسلاحهم وامتعتهم وتوجهوا الى كفر الدوار حيث كان الجهادية معسكرين فاستدعى الخديو اذ ذاك البكباشي (١) الذي كان محاصرًا للسراي (وكان قد تخلّف عن بقية العساكر بنحو مائتين من الجنود ولبثوا حوالى السراي) وخاطبه بالرقة واللين فامتثل للامر واقسم للخديو انهُ يفتديه بنفسهِ وقال لهُ انهُ كان مأمورًا باحراق السراي وقتل مَن فيها فانعم عليهِ الخديو برفع رتبتهِ الى رتبة ميرالاي وانعم على الفرسان من جندهِ براتب شهرين يصرف لهم من جيبهِ الخاص

وورد اثناء ذلك على السراي تلغراف من الاستانة باسم الاميرال سيمور فارسل الخديو زهراب بك واحد ياوران درويش باشا الى الاميرال يحملان اليهِ تلغراف الاستانة ويخبرانه بالحالة التي بات فيها فتوجها مصحوبين باربعة فرسان من الجند لوقايتهما

وفي ذلك الحين وصل ذو الفقار باشا محافظ الاسكندرية الى السراي واخبر الخديو بالحريق والنهب الحاصلين في المدينة فعين الخديو الفريق اسماعيل كامل باشا الجركسي قومندانًا لموقع الاسكندرية مأمورًا بتوقيف النهب والسلب والنار والتدمير فسار في مأموريتهِ برافقة زبير باشا السوداني

وفي الساعة الثانية بعد الظهر عاد الميرالاي زهراب بك الى السراي واخبر الخديو انهُ لقي الاميرال واعلمهُ بجلاء جنود عرابي عن المدينة باجمعهم وان الاميرال عزم على انزال جنودٍ بحرية الى رأس التين وانهُ يدعو الخديو الى سفينتهِ وهو يضمن لهُ سلامته فيها فتداول الخديو ودرويش باشا في الامر واخيرًا قررا ان ينزحا عن السراي وينزلا الى سراي رأس التين فركبا وسارا يتبعهما من كان معهما في الرمل ولما وصلا الى رأس التين وجدا المستر كارترايت والسير كولفين وبعض ضباط الانكليز ينتظرونهما عند باب السراي وكان الاميرال سيمور ايضًا وفرقة من جنوده ينتظرون الخديو في ساحة القصر

وكان الثائرون قد اضرموا النار في السراي الاَّ ان الجنود الانكليزية اوقفت سيرها بان هدمت بعض الجدران بقوة الديناميت منعًا للنار من الامتداد والسير من جهةٍ الى اخرى في السراي

وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول الى البر وهنأُوا الخديو بسلامتهِ

وكان عدد حامية السراي من الجنود الانكليزية البحرية نحو ٢٠٠ جندي وهو عددٌ كان غير كافٍ للدفاع لو عاود الثائرون مهاجمة السراي ليلاً فبقي لذلك من في السراي غير مطمئنين على ارواحهم اطمئنانًا تامًا وداموا على هذه الحال الى ان بزغ نور الصباح فأنزل الاميرال فرقةً اخرى من جنوده واردفها بفرقة ثانية طافت شوارع المدينة وامامها عددٌ من المدافع المعروفة بالمترالبوز ثم توافق الاميرال سيمور مع الاميرال الامركاني والكونتر اميرال اليوناني والاميرال الروسي على ان ينزل كل منهم عددًا من بحريته الى المدينة فعند الظهر انزل قائد السفينة الالمانية « ها بخت » الى البر

---

(١) هو منيب افندي الذي مرّ ذكره في غير هذا المكان

نحو عشرين رجلاً من ملاحيه وبتز ولم انطلقوا الى مستشفى الراهبات (دياكونس) لحمايته

فصلٌ

تقرير الضابط بريتو يتز

وقد نظم الضابط بريتو يتز قائد السفينة «هابخت» الالمانية تقريرًا ضمنهُ ما مرَّ بهِ من الحوادث فعرَّبناه كما يأتي:

نزلت من السفينة رابع عشر لوليو عند الساعة السادسة بعد الظهر وبامرتي ضابطان و٢٢ رجلاً على قصد ان نحمي مستشفى الراهبات (دياكونس) ونقيه من طوارق العدوان فوصلنا الى الترسانة في نحو الساعة السابعة من غير معارضة ثم دخلنا ابواب المدينة وقد قام عليها جنود من بحرية الانكليز حراسًا فاطلعناهم على كتابٍ اصحبني بهِ ضابطٌ من ضباط الاميرال سيمور حين مرورنا في البحر امام سفينتهِ متوجهين الى البر فرخصوا لنا في الدخول ومررنا كذلك بباب محرم بك فلم يعارضنا الانكليز للسبب الذي تقدم ايراده وكنا مستصحبين قواسًا من قواسة قنصلية المانيا الجنرالية ليدلنا على الطريق ويرشدنا الى المستشفى

وبعد ان مررنا بالباب الاول امرت رجال فرقتي ان يحشوا بنادقهم ففعلوا وسرنا سيرًا زميلاً والقواس الى جانبي قصد ان نصل الى المستشفى قبل ان يظلم الليل

وبعد ان سرنا نحو ساعةٍ بلغنا المستشفى من غير ان نلقى في الطريق معارضةً من الاهالي بل ان البعض منهم كانوا يحيونا بالسلام. وقومٌ منهم رحبوا بنا وصفقوا لنا تأهيلاً وتسهيلاً وقد اخبرني القواس انهم انما يفعلون ذلك حبًا بالمانيا

واضطررنا اثناء مسيرنا ان نغير طريقنا مرارًا لامتناع المسير في الطريق القريبة بسبب اتقاد النار في البيوت المحترقة على الجانبين وتهدم جدرانها

وفي الشوارع الاولى التي مررت بها وجدت جميع البيوت والمساكن منهوبة ومحروقة وابوابها محطمة تحطيمًا والمخازن مفتحةً فارغة ولما وصلت الى الجهة القريبة من مركز قنصليتنا الجنرالية وجدت الاتلاف وآثار الفظائع اقل منها فى الطرق التي مررتُ بها وكان بودي ان ادخل القنصلية لاتفقدها ولكنَّ الوقت لم يسمح لي بالدخول اليها فارجأتُ ذلك الى اليوم الثاني

وقد مررنا اثناء مسيرنا بنحو عشر جثثٍ مطروحة على الحضيض وفي اليوم الثاني خرجت الى الطرق فرأيت عدد الجثث قد ازداد وباستطلاعي طلعَ الامر علمت ان هذه الجثث الزائدة هي اجساد بعض رجال الضبطية الذين رمتهم الجنود الانكليزية بالنار اذ رأتهم ينهبون ويسرقون

وكانت الشوارع خاليةً من المارَّة ولم اجد من الاهالي غير الرعاع السقاط وبعض ساقة العربات (عربات الاجرة) وجميعهم متنكبون من النبابيت والعصي ما تعلوهُ خرقٌ بيضاء اشارةً الى المسالمة فعلمت من ذلك ان قد بطل النهب وان الثائرين قد هربوا قاصدين داخلية البلاد. ورأيت النار كذلك تخمد شيئًا فشيئًا وقد شبَّت في منزلٍ بالقرب من المستشفى فتداركناها واطفأناها بعد عناءٍ عظيم

ولما بلغنا المستشفى سُرَّ بقدومنا من كان

فيهِ من الراهبات والمرضى واللاجئين اليهِ منهم السائح الافريقي الشهير الاستاذ شوينفورث والموسيو فريدهيم وقسيس الماني وطبيب الماني وامرأته

وتفقدتُ حال وصولي جوانب المستشفى واطرافهُ وجعلت من خارجه سبعة مراكز للحرس واشرتُ الى بقية فرقتي ان تقيم في غرفةٍ خارجية قائمة بالقرب من مدخل المستشفى ثم دخلنا قاعة الطعام وتلونا بعض الصلوات واكلنا وفي الليل سمعت بعض طلقات نارية صادرة من جهة المدينة وإرعاد البيوت المتهدمة فقلت لمديرة المستشفى اني ارسلت اليهِ (اي الى المستشفى) رجالاً لحمايتهِ ووقايتهِ من اعتداء السفلة الاجلاف ولكن اذا هاجمت الجنود المدينة فاني مأمورٌ بالرجوع الى السفينة مع رجالي مستصحبًا كل من اجدهُ في المستشفى

ومذ حينئذٍ اخذنا نتأهب لاخلاء المستشفى اذا مسَّت الحاجة الى ذلك ولم يكن من صعوبة الاَّ في امر نقل المرضى وهو ما جعل حضرة المرسل (القسيس) الالماني ان يتخذ في صباح اليوم الثاني الوسائل اللازمة لنقل المرضى الى المستشفى الفرنسوي لما انه اقل تعرضًا من سواه لهجوم العساكر او رعاع الناس

وكان قد بُدئ في المدينة بالنهب والسلب في اليوم التالي لاطلاق المدافع اما المستشفى الالماني فلم يُنهب

وقد وجدت رجلاً ايطاليًا مقتولاً بالقرب من مخزنهِ فدققت النظر في جثتهِ فاذا هو مقتول ضربًا بالعصي فامرت العساكر بدفنهِ

وكان الناس قد تسارعوا الى المستشفى يوم اطلاق المدافع لاجئين اليهِ فكسروا باب حديقته الحديدي وازدحموا في مماشيهِ ونزل بعضهم الى الاقبية (حيث كنا قد نقلنا المرضى المثقلين بالاسقام) واختبأوا فيها فعند ذلك اطلق كاتب سر القنصلية على الهاجمين رصاصةً من غدارةٍ كانت في يدهِ فارتدوا ناكصين على اعقابهم مصرّحين ان لا قصد لهم الاَّ انزال العلم المرفوع فوق المستشفى خشية ان يكون علامةً او اشارةً للدوارع الانكليزية فلما أُنزِل العلم اخذوهُ وساروا

وفي الجملة انهُ لم يحصل في المستشفى الاَّ امور طفيفة قويَ عليها خدامهُ الوطنيون بسهولةٍ ومع ذلك فان الراهبات واللاجئين الى المستشفى والمرضى غير المثقلين بالامراض كانوا يتناوبون السهر للحراسة ليلاً ونهارًا خيفةَ ان يغتنم الرعاع فرصةً ما فيضرمون النار في المستشفى ولما اتيناهم رأينا على وجوههم شارات التعب

وفي الساعة الثامنة (على الاصطلاح الافرنجي) من صباح اليوم الثاني جاء القنصل الجنرال الى المستشفى وعلى اثره وصل ايضًا الرجال الذين أُرسلوا لتقلنا ونقل الاحمال وكانوا بامرة اللبوتنان شنفلدير

وكان قد تم لي ساعة وصولهم اطفاء الحريقة التي سبقت الاشارة اليها فقسمت رجالي حينئذٍ الى فرقتين تسير احداها بمعية القنصل الجنرال من المستشفى الى دار القنصلية وتسير الاخرى معي الى دار القنصلية ايضًا ولكن من غير الطريق التي يسير فيها القنصل الجنرال . وكان عليَّ ان امرَّ بمنزل المرسل (القسيس) الالماني ومنزل الموسيو فريدهيم فان هذين المحترمين طلبا ان

يفتقدا منزليهما ليطلعا على ما عسى ان يكون قد اصابهما من الاضرار ثم كان عليَّ ايضاً ان ابلغ اهل المستشفى الفرنسوي الطلب المتعلق بنقل مرضانا اليهِ فررنا ببعض الشوارع وحصل في نفسي التأثير الذي ألمَّ بي عند مروري بها في الامس

اما الاضرار التي تسببت عن اطلاق المدافع فلا تستحق الذكر . واما الخراب والتدمير فكان كلهُ من عمل الرعاع فانهم خربوا واتلفوا كل ما لم يقدروا على حملهِ ونهبهِ

ولحسن الحظ وجدنا منزلي المحترمين اللذين تقدم ذكرهما غير مصابين باضرارٍ تُذكر وكان منزل القسيس مصاباً باكثر ما أُصيب بهِ المنزل الاخر ومع هذا فانهُ بقي على حالٍ تمكن معها السكنى والاقامة فيهِ

ثم وصلت الى دار القنصلية فوجدت فيها الفرقة التي ارسلتها بمعية القنصل الجنرال ووجدت القنصل على اهبة المسير فتوجهنا جميعاً وبوصولي الى البحر وجدت فرقة كبيرة من جنود البحر الانكليز برئاسة ضابطٍ من ضباط اركان الحرب قال لي انهُ هو قومندان المدينة وانهُ سيجري التدابير اللازمة لدفن الجثث المتعفنة في الحال وانهُ يرجو ان تكون المدينة في وقتٍ قريب في حالة أمنٍ مرضية — ولم اجد في مروري ذهاباً وإياباً الا فرقةً صغيرة من الملاحين الامركيين غير الجنود الذين ذكرتهم ونفراً من الملاحين اليونان وفي نحو الساعة العاشرة (افرنجية) نزل القنصل الجنرال ونزلت انا وجماعتي الى البحر .

التوقيع بريتوبتز

فصلٌ
(تقرير يوناني)
(والجنود اليونانية)

وفي الرابع عشر من شهر لوليو نزلت فرقة من جنود اليونان الملاحين الى البر وقد نشرت بعض الصحف الافرنجية تقريراً في هذا الشأن أُرسل الى عاصمة اليونان فعرَّبنا عنهُ ما يأتي ملخصاً :

كان من فروض الجنود اليونانية البحرية الراسية بسفنها في مرفاء الاسكندرية ان تدفع عن قنصلية الاروام ودارهم البطريركية وكنيستهم ومنازل ابناء جنسيتهم هجمات المعتدين وصدمات الثائرين وتقي تلك الاماكن من النهب والحريق وكان ذلك من رأي الموسيو رانغابي قنصل اليونان الجنرال فعرضهُ على الموسيو كاناريس كومودور السفينتين اليونانيتين فاستحسنهُ فقصد القنصل الجنرال ثالث عشر الشهر سفينة الاميرال سيمور واستأذنهُ في انزال الجنود اليونانية الى البر للغاية التي تقدم ذكرها فاجابهُ الى ما طلب ولكن انذره وحذره بقوله ان كثيرين من نهبة البيوت والمنازل ومضرمي النار لا يزالون مختبئين في اماكن خفية ويخشى ان يسطوا على الجنود اليونانية وبناء على ذلك رجاه ان يؤجل الى اليوم الثاني امر نزول الملاحين الى البر

وفي مساء الخميس (ليلة الجمعة) أُضرمت النار في اماكن عديدة من الاسكندرية حتى تحيلنا الليل نهاراً وفي تلك الاثناء اتى السفينة هيلاس اليونانية زورق واخبر رئيسها ان النار شبت في قنصلية اليونان وان احياء الاوربيين صارت طعاماً للنار فنهض الموسيو رانغابي باكراً وقصد

سفينة اللورد سيمور واستأذنهُ في انزال الجنود اليونانية الى البر فاجاب طلبه واعلن للموسيو رانغابي انهُ عازمٌ على تشكيل حرسٍ مختلط لوقاية المدينة وانهُ سيدعو قادة السفن الراسية في الميناء الى الاشتراك معهُ في ذلك ثم اخبره انهُ عين للاسكندرية اللورد بيرسفورد بصفة مأمور لضبطها وانهُ يجب ان يسأل منهُ عن كيفية السلوك الذي يجب ان تسلكه الجنود اليونانية في البر

وبعد ذلك عاد الموسيو رانغابي الى الكومودور اليوناني وتحادثا ثم ارسلا الى البر فرقةً من الجند اليوناني البحري مؤلفة من ١٢٠ ملاحًا برئاسة الليوتنان الكساندر سارتوري وكان الملاحون مدججين بالسلاح وقد أُخذوا من السفينتين اليونانيتين «هيلاس» و«روا جورج» (اي الملك جورج) فنزلوا الى رصيف القباري ومعهم مطفئتان (طلمبتان) ونزل معهم الى البر ايضًا موظفو القنصلية والموسيو رانغابي والموسيو سكوتيديس قيس قنصل اسكندرية والموسيو متاكاس كاتب القنصلية الاول

وحال وصولهم الى البر قسم القائد فرقته الى قسمين جعل الاول منها شبه مقدمةٍ لهم والثاني مؤخرةً وجعل بينها المطفئتين وسائر ادوات الاطفاء وما شاكلها وسار القوم على هذا الترتيب الا انهُ لم يستطع المرور بشارع الجمرك بسبب الحريق وتهدم المنازل فاتجه نحو الجهة الجنوبية ومرَّ بمحص نابوليون ثم شارع السبع بنات فلقي هناك بعض الاهالي متأهبين وعلى زنودهم قطع بيضاء علامة على المسالمة ثم بلغ شارع الساقية ومنها الى مشمس التبن حيث مجتمع منازل اليونانيين ودار القنصلية اليونانية فرأى ان النار كانت قد التهمت حيَّ الافرنج ولم تبقِ من ابنية المنشية اثرًا ثم رأى ان النار امتدت الى دار القنصلية اليونانية فعمل على اطفائها وتغلب عليها عند الساعة الثانية بعد الظهر

اما البطريركية فلم تبلغها النار لكونها في موقع بعيد عن اماكن شبوبها وبعد ذلك بنصف ساعة دُعيت الفرقة اليونانية الى الاخذ بناصر المدافعين عن منزل الموسيو انطونيادس احد اغنياء اليونان وعن المنزل الكائن ازاءه وفيهِ بنك كريدي ليونيه وانقاذهم من المهاجمين فلبَّت الدعوة واجابت النداء مُسرعةً الى المكان المقصود وتمكنت من انقاذ المنزلين المذكورين من الحريق وكان بصحبنا في هذه الحادثة مراسل لجريدة «غرافيك» فاخذ رسم هذه الحوادث ولا سيما رسم احد ضباطنا الذي خاطر بحياتهِ والقى بنفسهِ الى المهلكة لانقاذ البنك المذكور فانهُ لما رأى المنزل الملاصق للبنك ملتهبًا خشي ان يمتد اللهيب واتى شرفته وهي في حالة الاشتعال وكان بيدهِ فأس فاخذ يضرب بها الجسور الخشبية الملتهبة واخشاب النوافذ المحاذية للشرفة حتى اقتلعها ورمى بها الى الارض فلم يبقَ في البناء المذكور خشب تعلق بهِ النار وبهذه الوسيلة دفع شر النار عن البنك ثم نزل مكانهُ المشتعل وما بارحهُ حتى رأينا الشرفة ساقطة الى الارض بفعل النار وحتى رأينا البناء قد تقوّض وانهدم حتى اساساته

وفي اليوم الثاني سارت فرقتنا بقيادة الليوتنان ساكوري والليوتنان طومبازي فرأت حريقة بالقرب من القنصلية فاطفأتها وفي هذا اليوم

اطفأت الجنود الانكليزية اكثر الحرائق بقوة الديناميت وكان كثيرون من الاجانب قد نزلوا الى البرّ من السفن التي كانوا قد لجأوا اليها وكانوا يودّون ان يدخلوا منازلهم ومخازنهم لافتقاد ما بقي منها واذ كان ذلك غير مباح لهم بدون اذنٍ مخصوص جلس الموسيو بونكر قنصل اسوج ونروج الجنرال والموسيو سكوتيديس فيس قنصل اليونان وراء طاولةٍ اعدت لهما فيما خارج دار القنصلية الامركانية بالقرب من مخزن بناسون واخذا يدفعان للاجانب اوراقًا مخصوصة ناطقة بالترخيص لهم في تفقد منازلهم

وكانت هذه الاوراق تُعرض على القومندان الانكليزي الذي عين لموقع الاسكندرية اذ ذاك وقد جعل مركزه امام باب سراي المجالس المختلطة الواقعة في صدر المنشية فيوقع عليها ثم يأخذها اصحابها ويذهبون بها الى منازلهم وبهذه الطريقة تمكن كثيرون منهم من انقاذ امتعته من النهب فان بعض السفلة من الاجانب كانوا قد طافوا المنازل لنهب ما يجدونه فيها فلما بلغ ذلك القومندان الانكليزي امر برميهم بالرصاص حال ارتكاب الجريمة عقابًا لهم وردعًا لمن كان على شاكلتهم . اه

فصلٌ

الجنود الامركانية

وفي مساء الخميس ثالث عشر الشهر انزل قائد السفينة الامركانية ١٤٠ جنديًا بحريًا الى البر واصحبهم بمدفعين من المدافع « الميتراليوز » فنزلوا وانبثوا في الطرقات والشوارع فبوصولهم الى دار قنصليتهم الكائنة في الوكالة المعروفة بوكالة « سين مرك بولدنك » رأوا النار مشتعلة في مخزنٍ واقعٍ فيما وراء دار القنصلية فاطفأوها وانقذوا الدار باطفائها بل انقذوا الوكالة باجمعها ثم تحرزوا في الوكالة واعدّوا اسباب الدفاع فوضعوا احد المدفعين في الجهة المشرفة على المنشية والاخر في الجهة المقابلة لها ثم اقام الضباط منهم في « السركل » المعروف بسركل محمد علي في الوكالة المذكورة

وفي اليوم الثاني انضمت فرقة منهم الى الضبطية الانكليزية وقسمٌ من فرقة الجنود اليونانية الملاحين واخذوا يطوفون المدينة حرّاسًا لمطاردة الناهبين

الجنود الروسية

امـا الجنود الروسية التي نزلت الى البر فلم يكن عددها اكثر من ثلاثين رجلاً انطلقوا الى دار قنصليتهم حال خروجهم فوجدوها سالمةً غير انهم رأوا في جوارها بعض المنازل تلتهب فتعاونوا على اطفاء النار المتقدة فيها

وفي مساء خامس عشر الشهر اعلن الاميرال سيمور للكونترامبرال الامركاني والكومودور اليوناني انهُ لم يعد من موجبٍ لبقاء الملاحين من الجنود الامركانية اليونانية في البر اذ لم يبق من خطرٍ يستلزم مساعدتهم لدفعهِ

واعلن في اليوم الثاني لفرقة الجنود الروسية مثل مـا اعلنهُ لاولئك فعادت جميع تلك الجنود الاجنبية من حيث اتت وفي مساء ١٧ يوليو لم يبقَ منهم في الاسكندرية احد

فصلٌ
(في الاسطول الانكليزي)
(في مياه الاسكندرية)

استيفاء للتفاصيل الواجبة الاستيفاء في هذا المقام نثبت البيان الاتي معرَّبًا عن رسالة حربية مخصوصة نشرت في باريس عام ١٨٨٢ مشتملةً على شرح حالة الاسكندرية يوم اطلاق المدافع عليها وقوة الاسطول الانكليزي ازاءها وهاك ما تضمنت

(اطلاق العمارة الانكليزية مدافعها)
(على الاسكندرية في ١١ تموز)
(سنة ١٨٨٢)

ان قسمًا من مدينة الاسكندرية واقع في شبه جزيرة تمتد على مسافة كيلو مترين من الشاطئ وتنتهي بمضيقين مختلفين طولاً يتجه احدهما الى الشمال الشرقي وفيهِ قصر فاروس الذي يظن انهُ مبني في المكان المعروف قديمًا بفنار ملوك مصر القدماء (من عهد بطليموس الاول اي بثلثمائة وستين سنة قبل المسيح) والثاني وهو اقل منهُ طولاً ينتهي عند رأس اونستوس

فهذان المضيقان يؤلفان مرفأين احدهما المرفاء الجديد الواقع في الجهة الشرقية وهو مرفاء معرضٌ للانواء والريح الشمالية لا تأوي اليهِ الا السفن الصغيرة والزوارق بسبب وجود قسم منهُ مغطى بالرمال والاخر المرفأ القديم وهو المختلف عن ذاك اهميةً وموقعًا فانهُ ملجأ جميع البواخر والسفن الكبيرة والبوارج التي تدخل مياه الاسكندرية بسبب كونهِ هادئًا من داخله ساكنًا امينًا . وعلى جانبيه سلسلة ارصفة تمتد على خطٍ طويل من رأس اونستوس الى جزيرة «مرابوت» على مسافة نحو ثمانية كلومترات وخلال هذه الارصفة ثلثة ممار ضيقــة متعوجة يعرف احدها بممرّ مرابوت والثاني بممر البوغاز والثالث بممر السفن الحربية ويعرف الاوسط منها بالممر الاكثر عمقًا اما معدل ارتفاع المياه في كلٍ منها فثمانية امتار ونصف في نحو مثلها عرضًا وهذه المار لا تستطيع السفينة اجتيازها الا في النهار وبواسطة ديادبة السفن المخصوصين من اهل البلاد

ويمتد من اول الصخور الواقعة عند رأس اونستوس حاجز متين يقي المينا من الرياح الشديدة والامواج ولا بدع من عند خط امتداده الاَّ ممرًّا ضيقًا للسفن الصغيرة ثم ينتهي بخطٍ منحنٍ عند مسافة ثمانمائة متر من الشاطئ. وهو يدرأ معاطب الرياح والانواء عن المرسى البالغة مساحة سطحهِ ثلثمائة وخمسين هكتارًا والكائن على ارتفاع عشرة امتار من الماء

ويمتد من غربي ترعة المحمودية (الكائنة خط اتصالٍ بين مينا الاسكندرية ومياه النيل) سدٌ منشأ لانزال البضائع منهُ الى السفن يبلغ طوله تسعمائة متر وعرضهُ ٢٠ مترًا وهو قائم حدَّ المينا الداخلية على مساحة ٧٢ هكتارًا من سطح المياه وعمق ثمانية امتار ونصف متر بحيث ان قسم الشاطئ الواقع بين هذا السد والمضيق الغربي قد تحول الى رصيفٍ كبير تصله خطوط الحديد بسكة القاهرة الحديدية

ويوجد عند منتهى المضيق الغربي فنار موصوف بكونهِ من اشهر فنارات المواني الكبيرة ثم سراي رأس التين مصيف الخديو وحرمه والقشال والترسخانة ومجبراتها وما يختص بها من

مواضع بناء السفن وتصليحها ووراء ذلك المدينة العظيمة التي يبلغ طولها الف وثمانمائة متر وعرضها ٥٠٠ متر المتخذة موقع محمد علي او المنشية. خط مركزها الذي يذهب منهُ الى جميع شوارع الاوربيين

وهذه الشوارع كانت في بادئ الامر مجتمعة في الجهة الشرقية اي على طول شاطئ المينا الجديدة ولكنها لم تلبث حتى اخذت تمتد شيئًا فشيئًا على خط اللسان الفاصل بين البحر وبحيرة مربوط بحيث امست مجاورة لقلب المدينة القديمة او متصلةً بها وهي المدينة التي تخربت وتردمت وكانت من قبل على طول خط المرفاء القديم متجهةً نحو الجنوب والشرق بالقرب من باب القباري وباب المحمودية والتي تحولت اراضيها المجاورة للمرفاء القديم الى محلةٍ جديدة توفرت فيها المستودعات والمعامل وذلك منذ عشر سنوات حتى اصبحت مركز حركة تجارية مهمة

اما عدد اهالي الاسكندرية فقد بلغ في السنين الاخيرة مائتي الف منهم خمسون الفًا من الاوربيين

(اعمال الدفاع في الاسكندرية)

للاسكندرية عدة حصون وقلاع ومتاريس وابراج مستديرة يراها الناظر من ممار السفن السالف الايماء اليها ومن داخل المينا وخارجها ولكن اكثرها خالٍ من القيادة لا معدات لها تنفع ولا سلاح يدفع بحيث لا تصلح لمقاومة الدوارع الانكليزية غير ان في بعضها عددًا قليلاً من مدافع ارمسترونغ وهي وحدها الاسلحة النارية التي تصلح لخرق دروع السفن الانكليزية وبعضًا من المدافع المضلعة القليلة العيار اما بقية المدافع فكانت من ابسطها زنةً وصنعًا اي من المدافع المسكوبية الملساء التي لا تقدر كراتها ان تخرق جسمًا صلدًا او تصل الى النقطة المقصودة بعدًا ووضعًا واما مدافع ارمسترونغ التي ابتاعتها حكومة مصر من معمل ارمسترونغ الانكليزي فكانت قريبة في المشابهة لمثلها زنةً وسعةً من المدافع الاعتيادية الاصولية في انكلترة ومماثلةً لها فيما تحتاجه من مقادير البارود

وقد نقل بعض الانكليز الى جرائدهم ان كرات المصريين كانت كرات بيضية الشكل محددة الرأس ليس لها فعل كرات الهدم والخرق والتخريب

(الحصون)

يوجد في الجهة الغربية ازاء ممر مارابوت حصنٌ من امنع حصون الاسكندرية واهمها يسمى حصن مارابوت وهو واقع في الجزيرة المسماة بهذا الاسم. فهذا الحصن كان معززًا باربعة مدافع ضخمة ومدفعين من ١٨٠ طنًا و٨ ابهام. واثنين من ١٢٠ طنًا و٩ ابهام. وثلثين مدفعًا اخرين من المدافع الصغيرة و٣٢ ليبرة من البارود وخمسة مدافع من مدافع القنابل

ووراء مارابوت اي في الرأس الغربي من الفرضة حصن اخر يعرف بحصن «عجمي» وهو حصن لم يكن ذا اهمية ايام الحرب فانهُ لم يشترك في القتال وقد عدهُ بعض الناقلين الرواة مشتركًا وهو خطاء

وبعد هذا الحصن حصن المكس وهو مرتفع من الارض واقع «من جهة الساحل» على منتهى خط الحاجز السابق الذكر ووظيفته الدفاع عن مدخل المينا

وبين حصن مرابوت وحصن المكس اي في « مرسى القناط » استحكامٌ قالت الجرائد الانكليزية انهُ كان خاليًا من رجال الدفاع ولكن ذلك كان غير مانعٍ للانكليز من رميهِ بنار المدافع

وكان حصن المكس معززًا باحدى وثلاثين قطعةً من المدافع منها اربع قطعٍ من ذوات العيار الاعظم

وتمتد على طول خط المرفاء القديم الى المجيرة الداخلية عدة متاريس وابنية استحكامية وهي طابية القمرية وفيها ٥ مدافع و «ام كيب» وفيها ١٨ مدفعًا ثم برج مستدير وفيهِ مدفعان وحصن صالح اغا القديم وهي كلها استحكامات منصبة على المرسى معززة بستة وخمسين مدفعًا وفيها ابتدأ المصريون باجراء اعمالهم الدفاعية على مرأى من رجال الاسطول الانكليزي وخصوصًا في بطاريات المكس التي كانت اهم النقط الدفاعية

ويوجد في الجهة الاخرى من المرفاء القديم عند منتهى شبه الجزيرة بالقرب من رأس اونستوس قلعة الفنار المدلول عليها في التلغرافات الانكليزية باسم قلعة « ليكتوز » اي قلعة الفنار وهي قلعة مشرفة على الميناء الداخلية ومحتوية على مساكن خشبية تسع ٢٠٠٠ رجل ومعززة باربعة وعشرين مدفعًا منها ٥ من طراز ارمسترونغ قطر احداها عشرة ابام وزنتهُ ١٨ طنًا وقطر كلٍ من الاربعة الاخرين ٩ ابامٍ وزنتهُ ١٢ طنًا

وفي محلة رأس التين عدة بطاريات مسماة باسمها معززة بسبعة عشر مدفعًا منها بعض قطعٍ من ذوات العيار الاول وعند منتهى خط هذه البطاريات مدفع قطره ٨ ابـــامٍ من طراز ارمسترونغ فحصين هذه الاماكن هو الذي جعل للاميرال الانكليزي فيما بين حجة اطلاق المدافع على الاسكندرية

وفي الجهة الشرقية يوجد الحصن المعروف بحصن اطه وهو عبارة عن بناء قائم على رصيف متصل باليابسة بواسطة خندق ضيق تلجهُ مياه البحر ولم يكن هذا الحصن فيما يقال معززًا الا بمدفعٍ واحد قطره ١٠ ابامٍ وزنته ١٢ طنًا من طراز ارمسترونغ

وعند منتهى خط شبه الجزيرة يقوم الحصن المعروف بحصنِ فاروس وهو حصنٌ مبني بالحجر كحصن اطه معدٌ لان يحوي ١٢ مدفعًا

وهذا الحصن يشرف على سطح البحر الواسع ووظيفتهُ هي ان يكون متوليًا حماية مدخل المرفاء الجديد ويشترك معهُ في هذه الحماية الحصن المعروف بحصن «فاربليون» القائم على رأس شبه جزيرة ضيقة في الجهة الاخرى من الفرضة ممتدٌ الى ما داخل البحر يحميهِ حصن مهم يُعرف بطابية السلسلة

ويكتنف الاسكندرية من جهة اليابسة سورها العربي القديم الباقي منهُ في جهة باب رشيد بعض اثار تدل على شهرتهِ ومنعته في الدفاع ويحاط بها ايضًا عدة متاريس او استحكامات قائمة على مرتفعات متوجة بها وهي مطلة على بحيرة مريوط ومياه ترعة المحمودية الجارية بين هذه المرتفعات والبحيرة المذكورة . وكل هذه الابنية تعرف من بقايا الحصون التي انشأها الفرنسويون حوالى المدينة ايام الحملة الفرنسوية حيث كانت

معززة من الخارج بكل من حصن كافاريلي المعروف اليوم بحصن نابوليون (او كوم الناضوره) وحصن كريتين (او كوم الدكه) ومتراس كليوباتره المعروف بحصن (ياود) اما اليوم فالحصنان الاولان وهما حصن كوم الناضوره وحصن كوم الدكه مرتكزان في قلب المدينة لقيام البناء من حولها ولكن اهميتهما الحربية مفقودة لعدم وجود اسلحة فيهما من اسلحة الحصون العظيمة وان تكن سعة كل منهما تبلغ نحو ٣٠ مترًا والحصن الاول منهما مطلاً على داخلية المرفاء القديم شاهقًا عظيم الارتفاع فقد افادت بعض الرسائل ان هذا الحصن مسلح بمدفع واحد من طراز ارمسترونغ قطره ١٠ ابلهم وزنته ١٢ طنًا

وعند باب العرب استحكامات تعادل حصن المكس علوًا وارتفاعًا ونقفل لسان الارض الواقع بين البحر وبحيرة مربوط وهي واقعة الى ما وراء المقطع القديم الذي خرقه الانكليز عام ١٨٠١ قبل خروجهم من مصر ليدخلوا به مياه البحر الى البحيرة فتغرّقت يومئذٍ قرى كثيرة وتحوّلت به صحراء واسعة يابسة الى مستنقع رديء مضر

النتيجة

هذه هي حالة الاسكندرية وحالة الدفاع فيها قبل انقذاف نيران الانكليز عليها في ١١ لوليو (تموز) عام ١٨٨٢ وهو الحادث الحربي الاتي تفصيله وبيانه بما هو اوفى واوضح مما اتت على ذكره صحف مصر الاجنبية والوطنية فاننا صرفنا العناية (قول النشرة الحربية الفرنسوية) الى الاستحصال على الرسوم الممثلة اندفاع نار كل دارعة من الدوارع الانكليزية على الطوابي وبالعكس معتمدين في النقل والرواية والتفصيل والايضاح على اصدق الاقوال والكتابات المنزهة عن شوائب التغرض والتشيع — وبعبارة اخرى — التي لا دخل فيها لقلم انكليزي او وطني

تعديل وبيان

عدّل البعض ان حاميات الحصون المصرية كان عددها بالغًا من ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ رجل وقال اخرون بل ١٢ الفًا منهم ٧٠٠ فقط من رجال المدافع

ونقول نحن (النشرة الحربية): من الصعب معرفة عدد المصريين الصحيح في الحصون والقلاع بالنظر الى اختلاف عدد الجيش بمقتضى الميزانيات ولكن المعلوم ان الجيش المصري كان مؤلفًا من ثمانية الايات من المشاة وثلاثة الايات من الخيالة والايين من رجال المدافع المخصصين لساحات القتال وثلاثة الايات من مثلهم المخصصين لوقاية الثغور وفرقة من رجال الهندسة اما الايات المشاة الثمانية فكل منها مؤلف من ثلاث اورط . (او ثلاث طوابير على الاصطلاح التركي) وثماني فرق واثنان منها مؤلفان من السودانيين . واما الايات الخيالة فكل منها مؤلف من اربع اورط الا ان الالاي الاول يزيد الالايين الاخرين باورطتين مخصصتين لخفر قوافل الحج الشريف . ولكل من الايي المدافع الاولين ستة بطاريات

ويعزز الجيش المنظم عند الاقتضاء بجيش اخر غير منظم يعدل ٢٨٠٠٠ مقاتل اكثرهم من الخيالة

اما انواع الاسلحة فللمشاة منها بنادق بحراب

من سلاح رمنغتون وللخيالة السيوف والغدارات المسدسة وللطوبجية مدافع من الفولاذ مضلعة من طراز كروب

وفي القاهرة مسلحة كبيرة ومعمل للبارود في طره ومقام لتعليم اطلاق النار واخر في بولاق للتمرينات النارية

تفاصيل

ولنأتِ على ذكر التفاصيل المتعلقة بكيفية اطلاق المدافع على الاسكندرية وبيان ترتيب السفن الانكليزية امام الحصون ومقابلة الحصون لنارها بنار الدفاع الى غير ذلك مما اثرناه (كما تقدمت لنا الاشارة اليهِ في فاتحة هذا الفصل) عن اهم المجموعات الحربية غير الانكليزية فنقول

العمارة الانكليزية

ان قوة الاميرال الانكليزي كانت مؤلفة من ثماني دوارع وهي :

١ انفلكسيبل
٢ مونرك
٣ تيمرير
٤ الكسندره
٥ سوبرب
٦ سلطان
٧ انفنسيبل
٨ بنلوب

ومن خمس سفن مدفعية وهي :

١ دبكوي
٢ سينيه
٣ كوندور
٤ بيترن
٥ بياكون

(انفلكسيبل)

انشئت هذه الدارعة عام ١٨٧٦ وهي من اقوى الدوارع الانكليزية واعظمها يعلو سطحها بناء عظيم يحتوي على آلات السفينة الجارية ومداخنها والدولاب الذي تدار بهِ اثناء القتال وعلى اساسات برجيها العظيمين

واسفلها تحت الماء ١٫٧٦ (متر) اما بقية اجزائها فدرعة بالحديد تحتوي على ١٢٥ حجرةً واما البرجان فكل منها معزز بمدفعين (قطر واحدهما ١٦ ابهامًا وزنتهُ ٨٠ طنًا) وهما مبنيان على خطٍ منحرف الزاوية قائمان على نظام يمكن بهِ ان تطلق المدافع الاربعة منها دفعةً واحدة إطلاقًا محكمًا وان يطلق مدفع واحد من كلٍ منها على انفراد

وعدد رجال هذه الدارعة ٣٤٩ ومحمولها ١١٤٠٠ طن

مونرك

أُنشئت ودفعت الى البحر عام ١٨٦٨ وهي كالدارعة السابقة الذكر يقوم في وسطها برجان في كلٍ منها مدفعان من قطر ١٢ إبهامًا وزنة ٢٥ طنًا ويمتد على خط طولها درعٌ متين. وفي مقدمها بطارية مؤلفة من مدفعين (من ٩ اباهم و ١٢ طنًا) وفي مؤخرها مدفع واحد قطره ٧ اباهم وزنته ٦ طونولاتات ونصف طونولاتة وفيها ٥١٥ رجلاً ومحمولها ٨٣٢٠ طنًا

تيمرير

انشئت وقذفت الى المياه عام ١٨٧٦ وهي سفينة ذات قلعة قائمة في وسطها معززة بستة مدافع وفي اطرافها طاقات لافواه المدافع وفي

كل طاقة مدفعان من قطر ١١ ابهامًا وزنة ٢٥ طنا وفيها ايضًا اربعة مدافع من قطر (او عيار او سعة) ١٠ اباهم وزنة ١٨ طنًا اثنان في ميمنتها واثنان في ميسرتها. وعلى سطحها مدفعان من عيار ١١ ابهامًا وزنة ٢٥ طنًا مرتكزان في برجين غير مسقفين اما عدد رجالها فخمسمائة واربعة وثلثون ومحمولها ٨٤٥٠ طنًا

الكساندره

انشئت ودفعت الى المياه عام ١٨٧٥ لها قلعة مركزية بطبقتين في كلٍ منها بطارية من المدافع فبطارية الطبقة العلياء مؤلفة من ثمانية مدافع من عيار ١٨ ابهامًا وزنة ١٨ طنًا. وهذه المدافع مرتكزة في طرفي الطبقة. وبطارية الطبقة السفلى مؤلفة من اربعة مدافع مرتكزة في طاقاتٍ تنطلق منها وهي من عيار ١١ ابهامًا و٢٥ طنًا. وعدد رجالها ٦٧١ ومحمولها ٩٤٩٠ طنًا

انفسيبل

كان انشاؤها في عام ١٨٦٩ وهي دارعة قوية ذات بطارية بطبقتين مرتكزة في وسطها فالطبقة العليا ممنعة بستة مدافع من عيار ٩ اباهم وزنة ١٢ طنًا والطبقة السفلى معززة باربعة مدافع مرتكزة في طاقاتٍ تنطلق منها وعدد رجال هذه الدارعة ٥٤٠ ومحمولها ٦٠١٠ طونولاتات

سوبرب

دفعت الى البحر عام ١٨٧٥. يقوم في وسطها بناء مركزي يحتوي على طبقة واحدة يرتكز فيها بطارية مؤلفة من ١٢ مدفعًا من عيار ١٠ اباهم وزنة ١٨ طنًا وهذه المدافع منقسمة الى قسمين يرتكز كل قسمٍ منها في طرفٍ من طرفي الطبقة وكلها تطلق كيفية مدافع الدوارع السابقة الذكر اطلاقًا يتصرف فيهِ رجال السفينة كيف شاؤا

وفي هذه الدارعة ايضًا ثلثة مدافع من عيار ٦ اباهم وزنة ٧ طونولاتات منها اثنان يطلقان بالالات اما الثالث فيدار وينقل ويطلق من طاقةٍ يرتكز فيها

وعدد رجال هذه السفينة ٦٢٠ ومحمولها ٩٠٠٠ طن

بنيلوب

أُنشئت عام ١٨٦٧ ببطاريةٍ في وسطها مؤلفة من ثمانية مدافع (من عيار ٨ اباهم وزنة ٩ طونولاتات) يرتكز كل اربعةٍ منها في طرفٍ من طرفي البطارية وبعضها يطلق بالالات والبعض الاخر ينقل ويدار وفيها ما عدا ذلك ثلثة مدافع من عيار ٤٠ ليبرة وزنة ٣٥ طنًا. وعدد رجالها ٣٢٢ ومحمولها ٤٤٧٠ طنًا

وفي كل هذه الدوارع مدافع اخرى من مدافع الرش (مترليوز) وغيرها من طراز كاتلنك

(السفن المدفعية)

اما السفن المدفعية فبيان قوتها كما يأتي

كوندور

قوتها ثلثة مدافع (منها ١ من زنة ٧ و٦١/٢ طن و٢ من عيار ٦٤ ليبرة) وملاحوها ١٠٠ ومحمولها ٧٨٠ طونولاتة

بيترن

قوتها ٣ مدافع (منها ١ من زنة ٧ و٦١/٢ طن و٢ من طراز ارمسترونغ من عيار ٤٠ ليبرة) وملاحوها ٩٠ ومحمولها ٨٠٥ طونولاتات

يـاكـون

قوتها ٤ مدافع وملاحوها ٧٥ ومحمولها ٤٢٠ طنًا

دبكوي

قوتها ٤ مدافع وملاحوها ٥٩ ومحمولها ٤٥٥ طنًا

(اطلاق المدافع على الحصون)

لو قابل مدقق ما بين قوة هذه السفن الحربية وقوة الحصون المصرية قبل وقوع القتال لايقن ان النصر لا شك للانكليز بالرغم عما كانت الحصون حاصلةً عليهِ في ذلك الوقت من المدافع الكبيرة كمدافع ارمسترونغ التي كان لها من القوة ما تخرق بهِ دروع تلك السفن ما عدا « الانفلكسيبل » منها

ولو وقف نظر الراغب في معرفة الحقيقة على كيفية انتشاب تلك الحرب لرأى ان قتال الانكليز لم يكن يومئذٍ الاَّ حركة تمرين من تمريناتهم الحربية المألوفة ومع ذلك فقد دكت بهِ الحصون دكًّا

ومن الغرابة ان الدارعة « انفلكسيبل » التي لم تخض قبل ذلك اليوم معامع الحروب هي التي تكفلت بهدم تلك الحصون وفعلت فيها فعل النار في الورقة الملساء

وهاك كيفية انتظام تلك السفن واشتباكها بالقتال مع الحصون

جعل الاميرال كلاًّ من « الكسندره » و« سلطان » و« سوبرب » في المضائق التي ينتهي عندها مدخل مينا الاسكندرية وحصر وظائفها في الحمل على الاستحكامات المنصبة على البحر فنعلت وبعد ان هدمت استحكامات رأس التين بمتابعة اطلاق النار عليها اتجهت نحو الجهة الشرقية فدكت حصني فاروس واطه

وبقيت السفن « انفنسيبل » و« مونرك » و« بنيلوب » فيما داخل المضائق المارّة الذكر مأمورةً باطلاق مدافعها على الحصون والبطاريات الواقعة عند رأس المرسى والمينا الداخلية

اما السفينتان « تيميرير » و« انفلكسيبل » فأمرتا ان ترتكزا فيما بين العمارتين لتسعفا عند الاقتضاء ما يكون من السفن في حاجةٍ الى الاسعاف

وفي اثناء الليل الفاصل بين عاشر وحادي عشر الشهر اي قبل القتال خرجت السفن الانكليزية الأ « مونرك » و« انفنسيبل » من مراكزها لتكتشف على مراكز الحصون وتسبر غور قوتها وتكون على بينةٍ من امرها وفي صباح ١١ منهُ عادت الى مراكزها واستعدت للقتال

المسافات

من ١٤٠٠ الى ١٧٠٠ متر بين بطاريات راس التين وقلعتي اطه وفاروس وبين السفن « الكسندره » و« سلطان » و« سوبرب » الى الجهة الغربية الشمالية

٢٤٠٠ متر بين السفينة « انفلكسيبل » في الجهة الشمالية الغربية وبين حصن المكس

٣٠٠٠ متر بين « تيميرير » الى الشمال والشمال الغربي وبين المكس ايضًا

من ٩٠٠ الى ١٥٠٠ متر بين « مونرك » و« انفنسيبل » و« بنيلوب » الى الشمال الجنوبي وبين قلعة المكس . وكانت السفينتان الاوليان من هذه السفن الثلاث راسيتين والثالثة تحت البخار

وكان الاميرال بوشان سيمور مقيماً في السفينة «انفسيبل»

(السفن المدفعية)

اما السفن المدفعية فجعلت مراكزها وراء خط الدوارع على مسافة بعيدة من الحصون لكي لا تصل قنابلها اليها وكانت وظيفتها ان تنجد السفينة التي تحتاج الى النجدة عند الاقتضاء. ولذلك انجدت السفينة «كوندور» الدارعة «تميرير» عند ما لحق بها الضرر وكان ذلك في نحو الساعة السادسة والدقيقة ٢٠ صباحاً

انقذاف النار

واطلقت الكسندره مدفعها الاول في الساعة السابعة والدقيقة ٤ وكان مركزها في الطرف الشرقي من خط القتال موجهة نحو استحكامات رأس التين

وبعد ذلك بخمس دقائق بدت من جانب الانفسيبل علامة الحمل العام على بطاريات العرابيين بان فتحت ابواب النار واخذت في قذف القنابل على الاستحكامات القائمة على خط الساحل الواقع في مدخل المينا وتلتها السفينتان «مونرك» و«بنيلوب» واقتدت بهما «الكسندره» و«سلطان» و«سوبرب» فاخذت تطلق مدافعها على بطاريات رأس التين وقلعة الفنار

فاجابتها القلاع في الحال بنار شديدة حامية ولكنها كانت ناراً طائشة لم تؤثر في الدوارع ولم تصبها باذى فان مقذفاتها كانت تسقط حول السفن وكثيرٌ منها كان يسقط في الماء قبل ان يقطع ثلث المسافة

وعلى مثل هذه الحال استمرَّ القتال نحو ساعة واحدة كان دخان المدافع فيها مخيماً حاجباً فعل النار في الحصون عن ابصار الانكليز بحيث انهم اصبحوا لا يعرفون كيف يقذفون كراتهم والى اية جهة يطلقونها وهو ما اوقعهم حيناً في الارتباك

وقد اصاب السفينة «مونرك» من اسباب الانقطاع عن اطلاق النار اكثر مما اصاب غيرها اما «الانفسيبل» فبالعكس فانها امتازت بثباتها واستمرارها على عمل التدمير وقد ساعدها على ذلك ضابط من ضباطها لزم خطة الاستكشاف والاستطلاع بالمرقب والمنظار حتى تيسر لها ان تفعل في الحصون فعل الصواعق في الاجسام

وكثيراً ما انقطعت السفن عن قذف النيران لتجعل لدخان المدافع وقتاً كافياً للانجلاء عن الابصار

وكانت السفن الثلاث «الكسندره وسلطان وسوبرب» تتنقل على التعاقب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وتطلق مدافعها على الاستحكامات بدقةٍ وضبط اطلاقاً متوالياً وفي نحو الساعة السابعة والدقيقة ٣٠ (كل هذه الاوقات معينة على الاصطلاح الافرنجي) تقدمت السفينة المدفعية «سبنيه» الى جهة راس التين واخذت ترميها بنارها المهلكة

وكانت السفينة «انفلكسيبل» تطلق مدافع احد برجيها على استحكامات راس التين ومدافع برجها الاخر على حصن المكس

اما (مونرك) فكانت قد ابتدأت باطلاق مدافعها على حصن نابوليون ولكن نارها انقطعت بعد وقتٍ يسير من شروعها في العمل مع ان (الانفسيبل) استمرت على رمي الاستحكامات الواقعة على طول خط الساحل بين المرسى

وحصن المكس وحذت حذوها الدارعة (بنيلوب) فانها لم تنقطع عن نسف المعاقل القائمة عند مرسى القناط على ان هذه السفن الثلاث اجتمعت اخيرًا ووجهت نارها على حصن المكس فلم تبقِ فيهِ ولم تذر

واقتربت السفينتان «بنيلوب» و«مونرك» بعد ذلك من الساحل على مسافة ٨٠٠ متر واخذتا في تدمير ما بقي من استحكاماته بمدافعهما الرشاشة

وفي نحو الساعة الثامنة انفردت الدارعة «تيميرير» واصلت حصن المكس نارًا حامية وفي الساعة التاسعة انقطعت مواقع الدفاع الكائنة في جهة ذلك الحصن عن اطلاق النار ما عدا اربعة مدافع فيها من العيار الاعظم استمرَّت على رمي سفينة الاميرال «انفسيبل» بنارها وقد احكمت ايصال كراتها الى هذه السفينة مرارًا متعددة وفي الساعة العاشرة والدقيقة ٢٠ دفعت السفينة مونرك قنبلةً اصابت مخزن البارود الكائن في حصن المكس فاشعلتهُ وكان لانتهايهِ صوتًا هائلاً

وعلى اثر وصول القتال الى هذا الحد عمد حصن «مارابوت» الى الاشتراك في الدفاع وكان قد بقي الى ساعة ابتدائهِ بالعدوان معنيًا من حملات السفن الانكليزية فوجه نارهُ على السفن الثلاث التي كانت مستقرةً فيما داخل المضايق ففي الساعة الثامنة انسلخت السفينة المدفعية «كوندور» عن الدارعة «تيميرير» لانقطاع احتياجها اليهـا واندفعت نحو ذلك الحصن ترميهِ بنارها فاشتبكت معهُ بقتالٍ مرَّ عليهِ اكثر من ساعةٍ واحدة وفي الساعة العاشرة والدقيقة ٢٠ صدر الامر للسفينتين «بيترن» و«ياكون» بانجادها فامتثلتا وانحازت اليهما كل من السفينتين «ديكوي» و«سبنيه» لتكونا معدتين لاسعاف هذه السفن الثلاث لدى مسيس الحاجة وفي الساعة الحادية عشرة اصدر امير الاسطول امرهُ بالكف عن اطلاق المدافع على الحصن المذكور فامتثل الامر وكان الحصن قد تعطلت مدافعهُ ولم يبقَ منها الا مدفع واحد صالح للعمل

ثم اتجهت السفن بعد امساكها عن القتال نحو حصن المكس واشتركت مع الدوارع في تدميرهِ فرمته بالخرس بعد حينٍ يسير وحولته من بقية ما كان لديه من القوة الى الضعف التام

وكانت جهة رأس التين قد كفت عن قذف النيران فارسل الانكليز نظرهم اليها فاذا بسراي الخديو الواقعة الى ما وراء الاستحكامات قد تهدم نصفها واضرمت النار فيها فكان حينئذ من السفن «الكسندره» و«سلطان» و«سوبرب» ان رست على مسافة ٧٠٠ متر من حصن اطه واخذت في اطلاق مدافعها على ابنيتهِ وابنية حصن فاروس غير غافلة عن رمي بطاريات رأس التين ببعض القنابل

وفي وقت الظهيرة انقطع القسم الاعظم من مدافع خط الساحل عن مقاتلة السفن الا حصن اطه فانهُ استمرَّ يطلق عشر طلقات في الساعة

ثم خرجت الدارعة «انفلكسيبل» من مركزها الاول وجاءت شمالي الدارعة «الكسندره» حيث استقرت امام حصني اطه وفاروس على قصد ان تمخن في ابنيتهما قنابلها ذوات الثمانين طنًا ففعلت وتبعتها الدارعة «تيميرير» لتشترك

معها في تدمير ذينك الحصنين وهي التي كان قد صدر لها الامر في الساعة العاشرة والدقيقة ٣٠ بالانقطاع عن اطلاق المدافع على حصن المكس .

وفي نحو الساعة الثانية بعد الظهر اندفعت من « الانفلكسيبل » قنبلة نسفت مخزن البارود الكائن في حصن اطه وفي نحو الساعة الرابعة خمدت نار الحصنين اثر وقوع رجال المدافع قتلى او اثر انهزامهم مع من اخذ منذ الساعة الثالثة في الجلاء عن المدينة

وفي الساعة الاولى أُرسلت الى البر فرقة مؤلفة من ١٢ ملاحاً من ملاحي الدارعة انفنسيبل وعينت السفن المدفعية لوقايتهم اثناء المسير فدخلوا حصن المكس فلم يجدوا فيهِ احداً فعطلوا ما وجدوهُ فيهِ من المدافع

وفي الساعة الخامسة استأنفت الدارعتان مونرك وبنيلوب اطلاق المدافع على حصن نابوليون والاستحكامات الواقعة فيما داخل المينا وفي الساعة الخامسة والدقيقة ٣٠ انقطعت النار عن خط القتال بناء على امر الاميرال

ولبثت السفن الانكليزية مدة الليل مستقرة في مراكزها ففي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي دفن الانكليز قتلاهم ثم شعرت الدارعتان (انفلكسيبل) و(تيميرير) ان العرابيين رمموا ما تخرَّب من البطارية الواقعة وراء المستشفى القديم فاطلقتا النار على هذا الموقع وكان ذلك في الساعة العاشرة والدقيقة ٣٠ ولم تطلق كل منهما اكثر من ٣ طلقات اما البطارية فلم تجبهما بشيء

ثم ارتفعت راية المخابرة فوق رأس التين فألقى الاميرال شروطاً لم يقبلها العرابيون فأُطلق مدفع على حصن المكس اشارةً الى استئناف القتال ولكن الراية ارتفعت ثانيةً فانقطع انقذاف النار

بعد القتال

ومن الصعب بيان حقيقة المعاطب التي لحقت بالحصون فان الرسائل التلغرافية التي بعث بها مراسلو الصحف الى جرائدهم كانت غير جلية وكثيرة التفاوت في بيان تلك الاضرار على ان كثيرين قد اعتمدوا ما ورد الى جريدة (غرافيك) الانكليزية من ممثلات وقائع القتال وتفاصيلها فقد اوردت ان مدافع المكس ورأس التين تعطلت بتمامها وان حصني فاروس واطه تدمرا برمتهما وان الفنار الكائن عند رأس اونستوس أُصيب باضرارٍ جسيمة

اما ما يتعلق بالمضار التي لحقت بالمدينة من جراء تجاوز بعض القنابل الى بعض ابنيتها فقد ورد عنه في جريدة التان ما معربه

اصابت بعض منقذفات السفن الانكليزية المطلقة على حصن نابوليون مساكن الاوربيين التي تبعد كثيراً عن خط القتال وسقطت قنبلة منقذفة من السفينة (انفنسيبل) في المستشفى الاوربي الذي كان محتضناً اذ ذاك الراهبات و٨٣ يتيماً و٦٠ مريضاً فخرقت مرقد الراهبات ولكن لحسن الحظ لم يكن فيهِ احد ثم استقرت في الطبقة السفلى من المستشفى فلم تنفجر فيهِ . وكان المستشفى ملوَّاً برايات الصليب الاحمر ولكن الانكليز اكدوا انهم لم يروا فوق هذه البناية رايةً قط . اه .

وقالت جريدة التيمس ان قد سقط في

شوارع الاوربيين الكائنة في جوار القنصلية الانكليزية بعضٌ من قنابل السفن وكان سقوطها على مسافة ٢٠٠٠ متر من حصن فاروس الذي وجهت عليهِ فنشأَ عنها اضرار كثيرة

وروى الاوربيون الذين اقاموا في الاسكندرية اثناء انقذاف النار عليها ان المدينة لم تتكبد خسارةً وعناء في حادي عشر الشهر (لوليو) ولم ترَ شيئًا من ذلك الا في صباح ١٢ منهُ حيث أُخذ في القتل والنهب اللذين اعقبهما احتراق المدينة

وكانت السفن الانكليزية مستقرةً في مراكزها ازاء هذا المشهد تتحمس تارةً لاستئناف القتال وتتربص طورًا على نية انزال الجند الى البر ثم مضى ذلك اليوم وفي صباح ثالث عشر الشهر تحقق الاميرال انهُ لم يبقَ احدٌ في المدينة من الجيوش العرابية فامر جندهُ بالخروج اليها

(فعل مدافع العرابيين في السفن الانكليزية)

وقد اضرَّت مدافع العرابيين ببعض السفن الانكليزية بالرغم عن قلة الاحكام والاجادة في اطلاقها فأُصيبت الدارعة (الانفنسيبل) بعدة قنابل منها ستة عطلت الاجزاء غير المدرعة من السفينة وانفجرت واحدة جرحت ستة رجال من رجالها .

وأُصيبت الدارعة (سلطان) بثلاث وعشرين اصابة اتلفت صواريها ومدخنتها وخرقت قنبلتان الجدران غير المدرعة منها

وتعطلت زوارق السفينة «انفلكسيبل» بقنابل الحصون وكانت السفينة سوبرب اكثر سفن العمارة تشكيًا مما لحق بها من جسامة الضرر فان قنبلتين اخترقتا درعها ومدخنتها على ما جاء في الرسم الذي نشرتهُ جريدة «الغرافيك» الانكليزية وتعطل احد مدافع «بنيلوب» ولكن لم يعرف ما اذا كان تعطل بانطلاقهِ او بقنبلةٍ غريبة

اما الدارعة «الكسندره» فلم يلحق بها سوى اذىً خفيف في جدرانها وفي مدفعين من مدافعها احدهما من عيار ١٠ اباهم وزنة ١٨ طنًا والاخر من عيار ١١ ابهامًا وزنة ٢٥ طنًا وقيل انهما تعطلا بانقذاف نارها

واما السفن المدفعية فلم تُصب بجسيم ضرر

(خسارة السفن الانكليزية)

وهذا بيان خسارة النفوس التي تكبدتها العمارة الانكليزية

(سلطان) قتيلان وسبعة جرحى

(سوبرب) قتيل واحد وجريح واحد

(الكسندره) قتيل واحد وثلثة جرحى

(انفلكسيبل) قتيل واحد وجريحان

(انفنسيبل) ستة جرحى

وجملة ذلك خمسة قتلى وتسعة عشر جريحًا

(خسارة المصريين)

اما خسارة المصريين من الرجال فكان قد عدَّلها بعض مراسلي الصحف في بادئ الامر بثلثمائة وخمسين ثم بالفين في جملتها الخسائر التي تكبدها الوطنيون اثناء اطلاق المدافع

(معدَّل الطلقات في الساعة)

(ومدة القتال)

وقد كان معدَّل الطلقات من جانب كلٍ من الفريقين ستة في الساعة الاَّ ان المصريين لم يطلقوا مدافعهم الاَّ بضع ساعات قليلة بعكس الانكليز فانهم استمروا يطلقونها ثماني ساعات

وقد خصت الدارعة الكسندره بذكر انها اطلقت وحدها ٤٢٠ قنبلةً من القنابل الاعتيادية

فصل

جون نينه

ولا نرى في عرض هذا التفصيل والبيان اوجب من ذكر الاعمال والمساعي المضرة المنسوبة الى الذين انحازوا من اهل الفتنة ورؤسائها كهذا الرجل المعروف باثارة الاحن ايام السطوة العرابية وجلب المصائب والمحن وقد عثرنا لبعضهم على تقرير مشتمل على بيان ما بدا منه يوم ١١ يوليو وما كان من شأنه فعرَّبناه كما يأتي قال

يوم ١١ يوليو (تموز)

في نحو الساعة السابعة من صباح هذا اليوم صعدنا (انا وجون نينه) الى سطوح منزلينا وكان هو مصحوبًا ببعض السودانيين فاخذنا في الحديث ومبادلة الافكار في شأن الحوادث السائرة وكانت هي المرة الاولى التي سمعتهُ يقول فيها انهُ عدو الانكليز الالد وصديق عرابي الاود فابديت العجب من ذلك وظهرت عليَّ ملامح الاستغراب لهذا الامر لما اني اعرفهُ انكليزيًا ثم قلت لهُ وقد تبينت منهُ شدة الميل الى العصابة العرابية ان الاليق بهِ ان ينصح لعرابي بالاستسلام للانكليز اعتقاد ان هذه الوسيلة هي الاوقى للبلاد والابقى لهُ فتحجب بها الدماء ويكتفي الناس شرَّ المصائب والشقاء فاجابني انهُ لا يثق بشرف الانكليز ووعودهم فازداد تعجبي بهذا الجواب لعدم تحوُّل ظني عن كونهِ انكليزيًا مترديًا برداء ذلك الميل مكرًا ورياء فلما رأى مني ذلك اوضح لي بجلي العبارة انهُ سويسري الاصل وان انكليزيتهُ جنسية طارئة غير اصلية وانهُ ينكرها ويمقت التجنس بها فقطع هذا الجواب حديثنا وكان في الواقع جوابًا الجأني الى الصمت

وفي اثناء ذلك الحديث رأينا بعض قنابل منطلقة في الفضاء فمرَّت واحدة منها من بين منزلينا وراحت منفجرة فوق سطوح الخواجا بيجا الكائن في شارع الباب الشرقي

وقد اصيب منزل الخواجا يوسف نصر بثلثة منها وسقط بعضها في معمل الخواجا دهان وتخرَّب ببعضها الاخر عدة بيوت . كل ذلك جرى ونحن غير قاطعين حديثًا او مؤجلين الى غير حين كلامًا

وبعد انقطاع حديثنا اخذت في رصد منزله وترقب ما يجري فيهِ معتقدًا انهُ لا يخرج من هذا المنزل خبرٌ خيرٍ — ثم شرعت في تدوين حوادث ذلك اليوم ساعةً بعد ساعة ودقيقةً تلوَ اخرى فكان ما يتعلق منها بصاحبنا نينه قبوله اربع زيارات وفد عليهِ في الاولى اثنان من كبار الضباط فوقفا تحت سقَّفةِ البيت نحوًا من عشرين دقيقة ثم خرجا مصحوبين بهِ فرافقهما الى الطريق وهناك دنا من العربة التي كانت تنتظرهما ووضع لهما فيها كيسًا مملؤًا من السيكارات

وفي نحو الساعة الثانية من بعد منتصف النهار زاره ضابطان اخران يصحبهما بعض الرعاع وبعد ان تحققا كون الرجل المزور عرابيًا ودَّعاه وانصرفا

وفي الساعة الرابعة زاره الجنرال ستون فبعد ان اقام عنده نحو ٢٠ دقيقة خرج واياه وانطلق كلاهما الى جهة منزل الخواجا دهان ليقفا على مـا فعلت القنبلة هناك . ثم رأيت

الجنرال ستون ينسلق عقبات الدرج المأخوذ في بنائهِ ليرقب اتجاه القنبلة التي خرَّبت حصن «اطه» اما نينه فلم يجسر على ذلك اثناء القنابل التي كان انقذافها متواصلاً متتابعًا بل التجأ اثناء اهتمام الجنرال بما ذكرناه الى ما وراء الدرج تحاميًا من نار الانكليز ولكنه لما رأى الجنرال ثابتًا في مكانهِ خرج من ملجائهِ ودنا من الجنرال فوقف عن يسارهِ مضطربًا خائفًا ثم ابتعد كلاهما عن المكان وسارا الى حيث لا اعلم

وفي نحو الساعة السادسة اي في الوقت الذي انقطعت فيهِ الضوضاء وخلت الطريق من المارَّة وقفت على منزلهِ مركبة نقلٍ ثلثة ضباط فصعد احدهم الى المنزل ولبث فيهِ برهةً ثم خرج مصحوبًا بالرجل (نينه) وكان متزيًا بالزي العربي ابتغاء الحصول على سهولة الامتزاج مع رجال العسكرية المصرية . اهـ

هذا مـا القاه صاحب هذه الافادات مما يتعلق بجون نينه في يوم ١١ يوليو اما ما نعلمهُ نحن فهو ان نينه رافق عرابي وزمرته في اليوم التالي الى كفر الدوار ولبث مستقرًا في هذا الموقع الى يوم استيلاء الانكليز عليهِ

فصلٌ

في حريقة الاسكندرية وغيرها

ولنأتِ على ذكر بقية ما جرى في الايام التالية ليوم ١١ يوليو من الحوادث السيئة استيفاء لها فنقول

إن رجال الحصون المصرية عندما ايقنوا ان لا استطاعة لهم على مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الابيض اي علم السلام اشارة الى الاذعان والخضوع فانقطعت السفن عن قذف النيران وكانت الحصون قد تردَّمت وتهدَّمت ولم يبقَ فيها ما يصلح للاستمرار على القتال وبعد ان رفع الثائرون راية الاستئمان وعلموا ان انقطاع تلك الحرب لا بدَّ ان يعقبها نزول الانكليز الى البر وان لا حربة لهم ولا هنـاء بدخولهم بعد ذلك في حوزة الاعداء صمموا على ان يتركوا لهم ثغر الاسكندرية خرابًا فعقدت النية على ذلك وجرى ما يأتي

وزع العرابيون في غلس اليوم الثاني عشر من شهر يوليو فرسانًا في احياء البلدة وطرقاتها وامروهم بان يوعزوا لكل من صادفوهُ من الوطنيين بالخروج من الاسكندرية على الفور

وكانت هذه الاوامر تصدر فيما هو مقرر معلوم من جانب امير الالاي سليمان داود فاخذ اولئك الفرسان ينفذون الاوامر وبينما كانوا يهتمون باخراج الوطنيين من الثغر كانت زمرٌ من رعاع المدينة تطوف شوارعها وتتوعد من تصادفهُ من الاوربيين بالموت ثم ينقضون على المنازل والحوانيت فيكسرون ابوابها وينهبون ما فيها

وكانوا يحتجون فيما يأتون بان من بقي من الاوربيين في المدينة كانوا مساعدين للانكليز عليهم بابلاغهم كل ما كان يجري في المدينة بالعلائم والاشارات . وكانوا يشفعون الوعيد بالعمل فيقتلون من لم تتيسر لهُ وسائط النجاة من ايديهم

وقد رأينا لبعضهم تقارير مطولة في هذا الشأن وفي حريقة الاسكندرية فآثرناها كما ترى .

(تقرير الموسيو دومريكر)

قال : ان التاكيدات المتوالية التي كانت

الحكومة المصرية تسكن بها خواطر الخائفين وتضمن لهم بها ارواحهم واموالهم كانت تصدر لاشك عن نية سليمة وعزم صادق وكان من شأنها ان تجعل نفوس الاوربيين مطمئنة وتعيدهم الى تعاطي اشغالهم على نحو تعاطيهم لها قبل وقوع الحوادث ولكن بالنظر الى ما كان يتظاهر بهِ اهل العدوان من رعاع القوم كان الاوربيون يرون من الحكمة ان يعتمدوا على انفسهم اتقاء البلاء

وكان قد خطر في بالي قبل حلول ذلك الزمن السيء ان اسعى في تأليف عصابة من الاوربيين لتكون جميعًا متضافرين لدى مسيس الحاجة على القيام بشأن الدفاع عن انفسنا فلما عمدت الى هــذا المسعى لقيت منهم نفوسًا مطمئنة وقلوبًا هادئة وافكارًا واثقة بعدم حصول شيء مما كان منتظرًا حصوله وربما كان ذلك منهم مبنيًا على الاعتقاد بامكان النجاة من الخطر قبل وقوعه

وكان من مقويات الخوف ومثبتات وقوع الاهوال جمود حركة السفن المتحدة الراسية في الاسكندرية واستمرار الاهالي على ايقاع الاذى من غير معارضٍ او منازع فان علم رجال البوارج بما كان يجري في المدينة من الوقائع المخيفة واهمالهم بعد ذلك شأن المحاماة عمن كان معرّضًا فيها للاخطار من الاوربيين وتقوية الجهادية للطوابي والاستحكامات وتعزيزهم للحصون كل ذلك كان باعثًا على انفاذ مثل المشروع الذي خطر لي انفاذه ثم استقليت في رأيي واخذت اسعى في الاستحصال على الوسيلة التي يمكنني بها انباه اهل السفن بالحوادث الجارية وبمركزنا الذي كانت تكتنفهُ الاخطار من كل جانب وما رأيت لذلك افضل من وسيلة اعادة الضابط الامركاني والضباط الانكليز الثلاثة عشر الى سفنهم وهم الضباط الذين كانوا قد التجأوا الى منزلي بعد ان جُرح بعضهم عند ما حاولوا ان يركبوا البحر من المينا ليعودوا الى بوارجهم وبعد ان تمكنت من ذلك بعد بذل الجهد ورد اليَّ من قائد السفينة «انفنسيبل» جواب يخبرني فيهِ انهُ عالمٌ بما نحن فيهِ من شدة الاحتياج الى المساعدة ولكنهُ لا يقدر ان يأتي عملاً الا بامر حكومتهِ

ولا ارى افضل من اغتنام هذه الفرصة لذكر ما صرف اولاد الشيخ سليمان باشا من العناية وما بذلوه من الاهتمام في سبيل المحافظة على المركز الذي كنا فيهِ فانهم باتخاذهم مدخل المحلة التي كنت ولم ازل مقيمًا فيها مستقرًا يقضون فيهِ اوقات النهار منعوا حدوث القتل فيها مما كان يجري في المواقع القريبة منها ولو لم يمنعوني من الانطلاق الى مخفرة (قره قول) السبع بنات لحل بي ما افقدني الحيوة

ولم تأتِ السفن في ذلك النهار عملاً مرهبًا ولكني علمت بعد ذلك ببضعة اسابيع انها كانت تتوقع الاستمساك باقل حجة لتصعق المدينة بصعقات الاخافة والارهاب انقاذًا للاوربيين

وكان من البين الواضح ان روساء الحزب العسكري كانوا في ذلك الوقت مصممين على ان يغادروا الاسكندرية خرابًا للانكليز بل كان من الامور التي لا ريب فيها انهم كانوا متخذين الاوربيين رهينةً على كل ما يبديه اصحاب السفن من التظاهرات العدوانية ومعتقدين ان سكون

الحركة الحربية في بوارج الدول غير ناشيء الأ عن خوفها من وقوع الضرر بالاوربيين انتقاماً

وكانت المهاجرة في تلك الاثناء قد اخذت تتسع نطاقاً وتتوالى اياماً فلما شعر العرابيون بتعاظمها حاولوا منعها ولكنهم لما راوا ان منع الاوربيين من الجلاء عن المدينة سيزيد الشر تفاقماً اباحوا لهم الخروج فاخذوا يركبون السفن ويترحون واحداً بعد آخر ولم يألُ العرابيون مع ذلك جهداً في اقناعهم بالبقاء فكانوا عندما يرون المخازن والحوانيت تقفل يتقدمون الى اصحابها ويؤكدون لهم انهم سيكونون في مأمنٍ من الخطر واذ كنت من المعتقدين ان منع خراب المدينة لا يتم الا بالبقاء والاستقرار لا بالجلاء والفرار اخذت اسعى في حمل الذين كنت القاهم في طريقي على الاقامة والعدول عن المهاجرة فكان كثيرون يجيبونني انهم لم يكونوا ليتوقعوا مني الاصرار على البقاء وكنت قد انصلت الى اقناع بعضهم بوجوب الاقامة فلما تفقدتهم في اليوم التالي علمت انهم كانوا في مقدمة الجالين . ثم ان كثيرين ممن دعوتهم الى الاختباء في وكالتي على شريطة ان يدفعوا عنها البلاء عند الاقتضاء نبذوا نصائحي ومشوراتي والتجأوا الى سفن النقل مهاجرين وكان مخزن الموسيو البي المخزن الاخير الذي رأيته مفتوحاً في ساحة المنشية والقهوة الاخيرة قهوة الكلوب اجسبان التي اقفلت في الاثنين التالي اقفالاً تاماً

ـ اطلاق المدافع على الاسكندرية ـ

وفي الساعة السابعة من صباح الاحد (تاسع لوليو) اعلنت قنصلية انكلترا لجميع قنصليات الدول وجوب خروج رعاياها من الاسكندرية في مدى اربع وعشرين ساعة

ففي ذلك النهار خرجت للتنزه ومضيت الى ما خارج المدينة ثم سرت الى ان بلغت مدفن الاوربيين فلم القَ في طريقي اوربياً فعدت الى المدينة وانطلقت الى دار المحافظ ومأمور الضبطية لانبئهما ببقائي فيها وبانتمائي الى غير الدولة النازعة الى الحرب فقدما لي عند ذلك حارسين من رجال البوليس ليخفرا باب وكالتي اثناء اطلاق المدافع على الاسكندرية فقبلت ذلك شاكراً مثنياً وانصرفت

وكان المحافظ قد اخبرني ان الخديو توجه الى سراي الرمل وان الاميرال منح الراغبين في المهاجرة مهلةً جديدة تنقضي في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثاني فرأيت ان اغتنم هذه الفرصة للذهاب الى مقر سموه وتقديم احتراماتي له ولكن منعني من ذلك ما لم اكن اتوقعه قبل انقضاء ذلك الاجل وهو ابتداء الانكليز باطلاق مدافعهم على حصون المدينة في الساعة التي كنت استحم فيها فانقطع لذلك مرور الناس وصار الخروج من المنازل امراً محظوراً فتبين لي اذ ذاك ما في افادة المحافظ من الخطاء وهي الافادة التي كادت تلقيني في الخطر لو وُجدت ساعة اطلاق المدافع فيما خارج البيت وكان احد اصدقائي الموسيو اغوست جبني في ساحة المنشية قبل ذلك بقليل فلما علم بوجودي وحيداً في الوكالة اتاني ولازمني رفيقاً غير مفارق

وبعد وفوده عليَّ ببرهةٍ يسيرة ابتدأ اطلاق

المدافع فكنا نرى جماعاتٍ من العساكر المسلحين بالعصي والسيوف تطوف الشوارع والطرقات صارخةً . النصر للسلطان ولعرابي .

ورأيت بعين رأسي . لا بعين الوهم والخوف . جمعًا غفيرًا من الوطنيين متقدمين نحو المنزل الذي كنا فيهِ وامامهم راية فمنعهم رجال البوليس من التقدم ولكن بجهدٍ جهيد وعناء شديد

وصرفنا الساعات الاول من اطلاق المدافع براحةٍ وطمأنينة لم يشبها امرٌ مكدر فان الخفراء كانوا قائمين بشأن الحراسة عند باب الوكالة حق القيام ولكنَّ بعض المشاغبين عندما سمعوا الطلقة الاولى اتوا شادر البطيخ وطلبوا تنزيل الراية النمسوية التي كانت مرفوعةً فوق سطوح منزلي الى جهة الشادر وبعد ذلك بقليل قُتل بالقرب من الوكالة ثلثة اشخاص من الوطنيين بمقذوفات المدافع فكان ذلك داعيًا الى خوف الاخرين وفرارهم من المحل الذي كانوا فيهِ وتخلصنا من لغطهم وضوضائهم

وفاجأنا ايضًا من جهة مجلس الصحة القديم (المعروف الان بمركز المحاكم الاهلية الجديدة) قومٌ من الوطنيين باصوات الوعيد والتهديد ولكنهم لم يلبثوا ان دُفعوا عنا بما رأوا من انقذاف النيران وانفجار القنابل فيما وراء حمام باللوني . وفي مساء ذلك النهار انقطع اطلاق المدافع وظهرت رجال البوليس على اثر ذلك فتراءى لنا ان الاحوال اخذت تسير على ما تكون الحوادث فيهِ اخف وطأةً ومع ذلك لم يكن لي عظيم ثقة بوقائع الليل واليوم التالي بل اعتبرت ان العساكر الانكليزية اذا لم تخرج الى البر تبقى الحال على ما هي عليهِ ويزداد الخطر علينا وكنا جميعنا اذ ذاك خمسة رجال ملء قلوبهم الخوف وملء نفوسهم الاضطراب بل كنا نفرًا ضعافًا لا طاقة لنا على الدفاع زمنًا طويلاً عن بنايةٍ واسعة اذا هجم علينا الرعاع بشدة وعنف

ومما لا انساه اننا كنا حاصلين على عددٍ وافرٍ من الاهالي في الوكالة من خدام وموظفين تركهم المستأجرون قبل سفرهم حراسًا لمنازلهم فمن هولاء الرجال ثلثة اشخاص كنت اعتقد فيهم الامانة واما الباقون فكنت متوجسًا منهم خيفة الغدر والخيانة وكان بينهم رجلٌ من حرّاس الابواب يخشى من شرّه ومكره لانضمامهِ الى رجال الحريق واشتراكهِ مع الناهبين في اقتحام البيوت وسلب ما فيها فكنا لذلك مضطربين اثناء وجوده في الوكالة الى تهديده بالسلاح وتوعده بالسوء اذا بدا منهُ مـا يلجئ الى معاقبتهِ . وفي صباح اليوم الثاني اي ١٢ يوليو ايقظني الخادم واخبرني ان بالقرب من مركز الاورناتو فرقةً من العساكر عددها من ٣٠ الى ٤٠ جنديًا مع ضابطٍ من العرابيين يعلنون انهم مأمورون من قبل عرابي باشا بتنزيل الراية النمسوية والاَّ اطلقوا علينا الرصاص فنهضت من الفراش مذعورًا واتيت شرفة المنزل المطلة على المحل الذي كانت العساكر واقفةً فيهِ فرأيتهم في الواقع متألبين امام المنزل جمعًا غفيرًا يضجون ويجلبون ويشيرون بايديهم الى الراية فأخذتُ في تسكينهم وتسكيتهم لاكلمهم بما يمكنهم ان يسمعوه وبعد بذل الجهد في تهدئتهم خاطبتهم بقولي . ألا تخجلون مما تفعلون باقلاق الناس في الصباح وتكديرهم . ألا تعلمون اني انا القنصل الوحيد الباقي في المدينة . ثم قلت لهم — اني كنت متيقنًا ان رجال حربيتكم

يكونون على علم باصول الحرب وقوانينها وانهُ اذا كان لاحدٍ منهم ما ينبغي ابلاغه لي يجب ان يرسل اليّ ضابطًا عالي الرتبة لا ضابطًا ثانويًا وان عرابي كقائد ووزير حرب معًا يجب ان يعلم اني ما دمت باقيًا في المدينة لا استطيع تنزيل رايتي فبناء على كل ذلك لا اريد ان انزلها واذا صمم على تنزيلها فليرسل الى الشاطئ القريب من منزلي زوارق مخصوصة ليمكنني الذهاب الى السفن حيث احصل على الاكرام والرعاية واكتفي مؤونة التنكيد والنكاية في بلدةٍ عرفت من نزلائها زمنًا طويلاً . اه .

ولم انتهِ من هذا الكلام حتى هجموا على القطع الحمراء التي كانت منشورة على جوانب الشرفة واجتذبوها اليهم عنفًا وقد حملهم على هذا الفعل المخالف للاصول احد موظفي الاورناتو فتركتهم يفعلون من غير ممانعة او معارضة ولكنهم لم يكتفوا بما فعلوا بل عاودوا طلب تنزيل الراية فكررت عليهم تصريحي باني لا اقدر ولا اريد ان انزلها فانصرفوا عند ذلك وهم يضجون باصواتهم ويقولون (سوف ترون ما يحل بكم) ويشفعون ذلك بقولهم (سنعود ان شاء الله اليكم ونرميكم بنارنا من فوق السطوح) فظننت عند ذلك انهم توجهوا على عزم ان يعودوا بعددٍ كثير من الجند ويتعاونوا جميعًا على اقتحام الوكالة والدخول اليها

ثم اخذت اتوقع هجومهم من حينٍ الى آخر واتساءل عما اذا كان في امكاننا ان نقاومهم وقتًا طويلاً وبينما كنا مشتغلين بهذه الافكار أُخبرت ان الاهالي آخذون في التجمع والاحتشاد في ساحة البطيخ بحجة مراقبة العلائم والاشارات التي تبدو للانكليز من جهتنا ثم أُنبئت انهم عازمون على ان ينصبوا حبالاً ويصعدون عليها الى السطوح لتنزيل الراية فعند ذلك ظننا ان من الملائم ان نلجاء الى وسائل الدفاع التي اعددناها من قبل كالماء السخن والماء الشديد الاندفاع بالآلات وقطع الآجر والحجارة وقراطيس الديناميت ونحو ذلك فهذه المعدات جعلنا لاستعمالها ترتيبًا متقنًا عليهِ بحيث لا يصعب علينا استخدامها لدى الاقتضاء وتكون مغنيةً لنا وقتًا طويلاً عن استخدام البنادق التي ابقيناها ذخيرةً للوقت الذي يشتد علينا الضيق فيهِ ولا يكون لنا من بعدهِ سبيلٌ للنجاة

وكانت هيأة المتجمعين امام باب الوكالة مخيفةً تدلُّ على ثبات عزيمةٍ وقلبٍ جريءٍ . ثم انهم لما علموا بازدحام عددٍ كثير من رفاقهم في ساحة البطيخ ازدادوا جرأةً وعزمًا فقلت لهم عند ذلك بصوتٍ عالٍ ان حججهم فاسدة وانهم يختلقون اسبابًا للهجوم علينا ونهب ما لدينا وانهم اذا كانوا ثمت مصممين على انفاذ مقاصدهم الخبيثة فليمتحنوا الامر ليروا ما هو معدٌّ لهم ثم افهمتهم ان تأخرنا عن مقابلتهم بما يروعهم لم يكن ناشئًا الاَّ عن اتقائنا الله فقط وان توعداتهم لم تخفنا ولم ترهبنا ولم يكن لها عندنا اقل تأثير وانهُ سبق لنا ان اعلمنا الحكومة ومأمور الضبطية بعزمنا على البقاء في المدينة وانهُ يجب المحافظة علينا وردع الثائرين عنا وختمت ذلك بقولي لهم انهم اذا لمسوا باب الوكالة باطراف الانامل حل بهم على اسفٍ مني ما يكرهون

فاثر هذا القول بما فيهِ من الوعيد في نفوس اولئك المتجمهرين فابتعدوا عن الوكالة بضع

خطوات وظهرت عليهم ملامح السكينة وشارات العدول عن سوء النية . ورأيت العساكر الذين كانوا بمجونهم مطرقين بعد ذلك في الارض يفكرون في الامر ويتبصرون في عواقبه ثم دنا احدهم مع بعض رجال البوليس من عامة الجمهور واخذ في تسكينهم وصرفهم عن المكان وسار في اثرهم وهو يلتفت نحونا ويقول . معليش . لا تتكدروا ولا يسؤكم ما جرى

ولاح لي انهُ اشار الى العصابة بعدم التوغل في الامر والتهور فيهِ اجتنابًا لشؤم العاقبة فسرنا ذلك من وجهين اولها حسن ما ابدته تلك العصابة من اللين والثاني نجاحنا مرةً ثانية في دفع الشر عنا ودرء الخطر

وبعد دقائق قليلة استشرفنا على الساحة من نوافذ الوكالة وشرفاتها فلم نرَ فيها اثرًا للمتجمهرين فحمدنا الله على هذه المنة وشكرناه

وبلغني بعد وقوع هذا الحادث ان اهل المستشفى الالماني لم ينجحوا في التخلص من شرّ الهائجين الذين حطموا ابواب المستشفى ودخلوه قاصدين تنزيل الراية بل انهم اضطروا الى الاستحكام في اقبيتهِ واتخاذها حصونًا يدفعون من داخلها غارات الهاجمين

ولم ننجُ من تلك المحنة حتى اقبل علينا الحارس الذي كان يخفر الجهة الثانية من الوكالة واخبرنا ان قد لجأَ الى الوكالة الفرنسوية التي كانت قد اودعت حراسة الموسيو سيرا كثيرون من رجال البوليس الاوربيين آتين اليها من دار الضبطية حيث ذبح المستحفظون عددًا كثيرًا منهم ومالوا بعد ذلك عليهم فنجوا وانبأَنا من ثم ان هولاء اللاجئين يثبتون ما اتصل بنا سابقًا من اخلاء سبيل الاوربيين الذين كانوا مسجونين في سجن محرم بك ويخبرون ان المدينة ستنهب بعد الظهر وتضرم النار بعد النهب في شوارع الاوربيين وان طائفة الحراس لم يبقَ لها رابطة او نظام وان الاهالي الوطنيين سيخلون المدينة بناء على امر روسائهم الذين اعلنوا لهم ان ستطلق عليها المدافع من الحصون

وكان ما أُنبئنا بهِ امرًا واقعيًا فان ضابطًا من كبار الضباط العرابيين (ولعله سليمان داود) اتى جوار الوكالة الفرنسوية في نحو الساعة الثانية بعد الزوال مصحوبًا بفرقةٍ من العساكر وهناك اصدر امره بالنهب مشيرًا الى بعض الجند بكسر باب احد المخازن الكائنة في الوكالة الانكليزية ومن ذلك الوقت لم يسمع الا فرقعة الابواب المحطمة وزجاج النوافذ الساقط منثورًا في الهواء .

وبعد منتصف النهار رأينا المستحفظين وحراس الشواطئ وسائر رجال المحافظة والخفراء مهتمين بنقل قطعٍ من الجوخ وانواع القماش وامتعة كثيرة من الاموال المنهوبة على الحمير والبغال والخيول ورأينا من جهة ساحة البطيخ رجالاً مسلحين بالعصي والسيوف يأتون مرةً بعد اخرى ويودعون عند باعة البطيخ امتعةً مسلوبة وبضاعةً منهوبة ورأيناهم يدفعون اليهم حلى ثمينة فيدفنونها فيما تحت اعمدة الخيام المنصوبة لبيع البطيخ وربما لا تزال موجودةً الى الان في مكانها (قول صاحب التقرير يوم كتابته اي بعد انقضاء الحوادث بزمنٍ يسير)

ورأينا امام باب الوكالة الفرنسوية احد الوطنيين واقفًا امام سلم الجامع وفي يده خنجر

يتحفز على درجات المسجد الصغيرة وكان يشير الى رفيقه بوجوب الدخول الى وكالتنا ونهب ما فيها اما رفيقه فكان يتضح من اشارات يديه انه لا يرى في ذاك النهب خيراً لوجود اشخاص كثيرين في الوكالة قادرين على المقاومة ثم رأيناهما بعد ذلك كأنهما عدلا عن الوقوع بنا خوف لقاء ما لا يحبون فقصدا مكاناً آخر وانطلقا في سبيلهما منقلبين عنا

وفي خلال ما بعد منتصف النهار اي في الوقت الذي دخلت فيهِ الوكالة عائداً من جولةٍ صغيرة تفقدت بها بعض الاحوال اخبرني الموسيو . اغوست جيني . ان العرابيين اطلقوا علينا من الحصون مدفعين محشوين رصاصاً رشاشاً وان منقذفات هذين المدفعين لم تصب لحسن الحظ ابنية الوكالة ولا الراية التي صوب المدفعان نحوها بل سقطت في البحر فظننا اثر ذلك ان رجال الحصون عزموا على رمينا بنار المدافع ايقاعاً بنا ولكن لما مضى علينا بعد ذلك وقت طويل من غير ان نلقى في مداه اعتداء آخر ايقنا ان العرابيين ارادوا قبل خروجهم من حصن كوم الدكة ان يحيونا بمثل تلك التحية العدوانية جزاء لنا على عدم الامتثال للامر الذي صدر لنا بتنزيل الراية

وكنا قد اخذنا بعد ذلك في الاطمئنان جاعلين نصب اعيننا ركوب البحر وسيلة مثلى للنجاة من الاخطار اذا مست الحاجة لاخلاء الوكالة وبينا نحن كذلك اذا بلمع نار الحريق قد بدا لنا من جانب القنصلية الانكليزية والبورصة آخذاً في الامتداد شيئاً فشيئاً فاحمر بهِ كبد السماء واسود بدخانهِ فراغ الفضاء وفي خلال امتداده كانت ابواب البيوت والدكاكين وما داخلها مراسح لمناظر تقشعر منها الابدان

وعلمت بعد زمنٍ قصير ان الاهالي عندما صدر لهم الامر بالجلاء عن المدينة قصد احراقها بالنار وتدميرها باطلاق المدافع عليها من الحصون اخذوا يسرعون في الخروج ناقلين معهم كل ما لديهم من الحلى والامتعة الثمينة وانهم عندما وصلوا الى ابواب المدينة هجم الرعاع عليهم وسلبوهم ما كان معهم من كل غالٍ ورخيص موقعين بالنساء المحصنات من نساء الاتراك انواع التحقير والعذاب فكانوا يقطعون اذن البعض منهنَّ ومعاصم البعض الاخر بالسلاح انتزاعاً لما فيها من الحلى والجوهرات بالسرعة بل كانوا يقتلونهنَّ اسكاتاً لهنَّ وتخلصاً مما كنَّ يفتتن بهِ الاحشاء من الاستغاثة بكاء ونحيباً .

على انهم دهموا بعد ذلك بما كان جزاء لهم وعقاباً بان قيض الله لهم من سلبهم الاموال التي نهبوا واذاقهم من العذاب مثل ما اذاقوا وذلك انهم لم يبتعدوا قليلاً عن ابواب المدينة حتى فاجأهم العربان الذين كانوا قادمين الى الثغر ليشتركوا في السلب والنهب فقبضوا عليهم وسلبوهم كل ما كان معهم مما هو خفيف الحمل غالي الثمن

وهذه الوقائع تثبت ان الوطنيين انفسهم تكبدوا عناء شديداً في ايام تلك الحوادث الهائلة وما كان جهلنا لتفاصيل هذه الحوادث التي نقلتها الالسنة الينا بعد انقضاء تلك الاهوال الا لاشتغالنا بالتأمل فيما عساه ان يصيبنا من هول الحريق وبلائه

وعند مغيب الشمس وفد على وكالتنا اشخاص كثيرون التماس التواري فيها عن اعين الفتكة الذين جعلوا بثأرونهم افناه لم يجد السيف فاخذوا يقرعون ابوابها سائلين قبولهم فيها انقاذًا لهم من الخطر الذي كان محدقًا بهم ففتحناها في وجوههم وادخلناهم ساحة البناية فدخلوها آمنين وبعد ان أُضرمت النار في جوار الوكالة ازداد عدد اللاجئين ازديادًا عظيمًا بحيث بلغنا مائة وخمسين نسمة في مساء الاربعاء بعد ان كنا نفرًا قليلين في صباح الاثنين .

وكان اللاجئون نساء واطفالاً وشيوخًا وفتيانًا من جميع الجنسيات بل كانوا من اهل جميع المراتب والطبقات في عالم الاجتماع الانساني فمنهم التاجر والطبيب والعالم والاديب والوجهاء والاغنياء والاوساط والفقراء ووكلاء الدعاوي والخدام والصنّاع واهل الحرف والمهن وغيرهم الى المتسولين العراة فغصت بهم ساحة الوكالة ثم التفت نحوهم فرأيت منهم عشرين رجلاً فقط يصلحون للمقاومة والدفاع فانهم كانوا مسلحين ثابتي الجنان مترقبين بلا خوف وقوع المحظور متشددين عزمًا واستعدادًا لدفع المكروه

وكنت مع ذلك ارى الجميع على اختلافهم جنسيةً ونزعةً متحدين متفقين على الموت في سبيل الدفاع اذا مست الحاجة اليه ولكن جهلي لكثيرين منهم كان يحملني من حين الى آخر على الخوف من ان تستولي عليهم الرعبة ويتولاهم الجبن فلا يستطيعون القيام بما اقسموا عليه اليمين المغلظة

وما كنت شديد الوثوق الا بالقومندان مارك الذي جمعتنا به اهوال الحريق فاتى الوكالة منضمًا الينا وبرجاله الحربيين الذين كانوا تحت قيادته فانهم اظهروا من ثبات الجأش والاستعداد لملاقاة الاشقياء ما كان مزيلاً خوف الجميع مذهبًا بعض ما كان ملمًا بهم من الاحزان والاكدار . وفي اليوم الثاني كانوا لنا من اكبر المساعدين في ايصال الجمهور الى البحر وانزالهم الى السفن

وكنا نكتشف من سطوح الوكالة على حرائق أُخر في جهة كلٍ من شارع شريف باشا وشارع كنيسة الروم الارثوذكس اما النار الاولى فكنا نرى لهيبها آخذًا في الامتداد والاتصال بالبنايات البعيدة الشاهقة حتى كنا نخالها قريبةً منا

وكنا نرى من جانب البحر ضوء ثلاث دوارع من دوارع الانكليز تنفذ في الجهة التي كنا فيها نورًا كهربائيًا ينير الرابة ومكانها وسائر جوانب الوكالة فرأينا ان نغتنم هذه الفرصة لرفع اشارة الضيق ففعلنا فحمل ذلك من بقي في الوكالة على الذهاب الى حمام باللوني انتظارًا لوصول الزوارق التي ظنوا ان الدوارع تبعث بها الينا لانقاذنا وكان قد اخافهم مشهد النار وامكان وصولها الينا

وبعد انحداري من السطوح وجدت باب الوكالة مفتوحًا فراعني ذلك ولكني لم البث ان علمت ان جميع من كانوا فيها خرجوا الى حمام باللوني فسكن روعي واقمت اترقب اخبارهم فحدث بعد قليل انهم بعد ان صرفوا وقتًا طويلاً في انتظار الزوارق على غير طائل عرفوا انهم اذا فوجئوا من الوطنيين يمسون بين النار والماء ويكون الحمام ادنى الى خطر الحريق من

الوكالة بسبب كونهِ مبنيًا من الخشب فتقرر في عقولهم ان يعودوا الى الوكالة وان يقيموا فيها مستعدين للدفاع عنها اتقاء لمعاطب الهلاك

وتسكينًا لجزع النساء والاطفال رجوت الموسيو البي دي بريس وابنه والموسيو بينار ورجلين من الطليان وآخرين من اليونان لا اعرف اسماءهم ان يذهبوا الى ساحة محمد علي ويستطلعوا لي احوال الحريق لنكون على علمٍ بما نحن فيهِ من الخطر وكانت الطريق وراء الوكالة الانكليزية من جهة البحر خالية خاوية لا اثر فيها لبشر. وكنت قد خرجت لاقتفي اثر الذين ارسلتهم للاستطلاع والاستكشاف فبعد ان جلت قليلاً في اطراف البناية رجعت على عقبيّ منضمًا الى رفقائي الذين كانوا مجتمعين في ساحة الاورناطو ومنها انطلقت بصحبتهم الى ساحة محمد علي (المنشية) ولكننا لم نتجاوز المخفرة الواقعة بين سراي زيزينيا وقهوة محمد علي حتى لقينا قومًا من رجال الحريق مشتغلين بحشو صررٍ صغيرة من المواد السريعة الالتهاب فلما اقتربنا منهم انتصبوا على اقدامهم واقفين ثم تقدموا نحونا منادين بصوت عالٍ رفقاءهم الذين كانوا متفرقين في تلك الساحة

فلما رأينا ذلك اخذنا في الانقلاب الى الوراء وتقرر بيننا على الفور انهُ اذا احاط بنا اولئك الاشقياء قبل دخولنا الى الوكالة ندافع عن انفسنا بالسيوف فقط ومُدَى الصيد وحراب البنادق التي كنا مسلحين بها من غير ان نستخدم اسلحتنا النارية . ثم خطر ببالي اننا اذا تركناهم يتقدمون الى ما امام باب الوكالة لا يمكننا الدخول اليها الاّ بصعوبةٍ ولكن بدون ان نلقي الذين كانوا من داخلها في الخطر

فارتأيت بعد التردد في الامر ان لا ندع الهاجمين يتقدمون نحو الوكالة بل ندفع غارتهم في الطريق ونوقف سيرهم وعملاً بهذا الرأي اخذنا نتباطأ في التأخر الى الوراء وكان رفقائي قد لبثوا ثابتي الجنان غير جازعين ثم عدنا اليهم واخرجت انا غدارةً مسدسة من جيبي فصوبتها نحو وجوههم موجهًا لهم هذا القول (خذوا حذركم منا والاَّ ارميكم بالرصاص) ثم شفعت هذا الوعيد باشارةٍ اوعزت بها لرفقائي ان يقفوا فوقفنا بين المخفرة والوكالة الفرنسوية قصد مصادرتهم فلما رأوا منا ما ابدينا من الثبات اقلعوا عن عدوانهم فانصرفوا عنا وتركونا ندخل الوكالة من غير قلق

وقد تيسر لنا بخروجنا الى تلك الجهة ان نقف على احوال الحريق فرأينا ان النار كانت قد أُضرِمت في الوكالة الجديدة اضرامًا هائلاً فانها كانت ساعة خروجنا مبتلعةً جانبًا عظيمًا منها ثم رأيناها ايضًا مشتعلةً في ثلث جهات متفرقة من ساحة المنشية

وقضينا بقية ذلك الليل بأَرقٍ وسهاد لم يتخللها لحظة عينٍ من الرقاد فاننا صرفناها منتصبين على الاقدام متقلدين السلاح موجهين الاذان نحو النوافذ والابواب على امل ان نسمع صوت النفير الانكليزي دلالةً على حلول زمن النجاة وكان في جملة الاسباب التي ابعدت عنا شرَّ الثائرين خوفهم من خروج الانكليز الى البر وهو ما يدل على مسارعة البعض الى القتل والنهب اغتنامًا للفرصة قبل ان يفاجئهم الانكليز ولا يخفى ان يوم ١١ يونيو كان يوم فتك وقتل

فقط ولم يكن النهب فيهِ الا امرًا تابعًا اما يوم الحريق فكان يوم نهب وسلب ولم يكن القتل فيهِ الا من الاحكام القاضية بالتعجيل فيهما قصد الفرار من المدينة قبل خروج العساكر الانكليزية الى البر فكانوا لذلك يقتلون من يصادفونهُ في الاسواق ومن يجدونهُ في البيوت تخلصًا من اثقال المانعات والمعارضات

ويلوح لي ان انعقاد عزم الروساء على تدمير الاسكندرية بالنار هو الامر الذي كان لديهم من الضرورة والاهمية بمكان وان النهب والقتل هما المعوَّل عليهما في الوصول الى هذه الغايـــة

ولما شاع قبل اطلاق المدافع على الاسكندرية خبر عزمي على البقاء في المدينة ملئت وكالتي ببضائع المهاجرين الذين ظنوا انها ستكون لاشك محفوظةً سالمةً من خطر النهب اكثر مما لو بقيت في البيوت المقفلة المهجورة

وفي مساء الاربعاء كانت النار مضرمة في جوانب الاسكندرية وشوارعها الكبيرة المعروفة بشوارع الاوربيين والبيوت والمخازن منهوبة وفي صباح الخميس كان البعض لا يزالون مستمرين على احراق المخازن بعد نهبها وكان الخروج الى الازقة لبذل وسائط الاطفاء لا يزال عسيرًا بسبب انتشار المستحفظين فيها الذين لما امتنع عليهم الدخول الى الوكالة الفرنسوية من بابها رموها بالنار واضرموها في جوانبها ثم تظاهروا بكونهم عازمين على ان يفعلوا في وكالتنا مثل ما فعلوا فيها ولكن الامر كان صعبًا عليهم لاننا كنا قائمين خفراء عليها لانا أخذنا رهبة ولا تضعف عزائمنا رعبة

وكان احدهم قد اتى في الصباح ساحة المطبخ مسلحًا وسأل الرجال الذين كانوا مجتمعين فيها عن سبب بقاء الوكالة ناجيةً من النار سالمةً من العطب فاجابوه انهم لم يتمكنوا من احراقها ولن يتمكنوا بالنظر الى كونها مملوَّةً من الحرَّاس والخفراء

ولا بد لي من القول ان نجاتنا من القتل والنهب والحريق ليست ناشئةً عن متانة جدراننا ومناعة ابوابنا وزيادة التيقظ والانتباه فقط بل عن احكام الظروف والتقادير الخارقة ايضًا فان احد البوابين الذي اتضح من مسلكهِ انهُ كان متفقًا مع رجال الحريق كان قد اخبرهم بما لدينا من القوة وجعلهم على يقين من انهم لا يقوون على مهاجمتنا وانفاذ مقاصدهم فينا وانهم لا يقضون من الوكالة وطرًا الا اذا خرجنا منها

وفي الواقع ان البواب المذكور طلب في صباح الاربعاء ان يخرج الى الاسواق بحجة الوقوف على ما صارت اليهِ حال المدينة فلما اقفلت باب الوكالة واخذت مفاتيحها اوضحت لهُ اننا اذا احترقنا يحترق معنـــا ومنذ ذلك الوقت كنت اراه لا يستقر في مكان بل كان يتنقل من النوافذ الى الابواب ليرى هل حل الوقت الذي يجب عليهِ ان يضرم فيهِ النار. وفي الليل اغتنم الفرصة وفتح الباب الذي كنا نستقبل منهُ اللاجئين الينا وتوارى عن العيان

وعندما شاهدنا في صباح الخميس ما حل بالوكالة الفرنسوية من الخراب اخذنا نتفكر فيما اذا كان محلنا يبقى لنا زمنًا طويلاً حصنًا نتقي بهِ شر الثائرة وفيما اذا كان من الضرورة ان نتركهُ ونلجأ الى محلٍ آخر فبينما نحن كذلك

اذ رأينا دارعتين من الدوارع الانكليزية تقتربان من طابية «العجمي» وتنزلان قواربهما الى البحر رغمًا عن هياجه وازباده في ذلك اليوم

وتناقلت الافواه هذا الخبر فشجع القلوب واحيا العزائم ولكن لم يمض وقتٌ يسير حتى عادت القوارب الى الدارعتين اللتين قفلتا بعد ذلك راجعتين الى مكانهما الاول فقلنا اذ ذاك انهُ لا يجب ان نتوقع من تلك الجهة اسعافًا

وكانت المؤن القليلة التي اذخرناها قد نفدت وصار الماء على وشك النضوب. وفوق هذا وذاك تجدد فينا الخوف من رجوع الوطنيين الى الهجوم علينا اعتقادًا منهم ان العساكر الانكليزية لا تستطيع الخروج الى البر فلا يقتصرون اذ ذاك على النهب فقط بل يعودون الى القتل فيفتكون بكل مَن يصادفونهُ في الازقة والطرقات — وكان الباعث على امكان ذلك الاعتقاد مرور زمنٍ طويلٍ من غير ان نرى للانكليز اثرًا في المدينة

وفي اثناء هذه الحال طلب اليَّ بالحاح ان اخرج من الوكالة والتجئ مع القوم الى غيرها فابيت الاجابة وطفقت اسكن خواطر الجماعة وأُجهد النفس في حملهم على الاستقرار رغبةً في عدم الانفصال عنهم لما بدا منهم من الشجاعة والاقدام

وعندما رأينا بعد منتصف النهار ان النار اشتعلت بقوة في جهة الجمرك استحال عليَّ اقناعهم بالبقاء. فانهم طلبوا ان يخرجوا من الوكالة قبل ان يصل لهيبها الى جهتنا فيلتهمها ويمنعنا من الخروج الى جهة البحر ثم قالوا لي (ان وجودنا محاطين بالنار من كل جانب محتاجين الى كسرة من الخبز تسد الرمق ونقطة ماء تروي الظماء معرَّضين لوثوب الثائرين علينا مرة اخرى كل ذلك يجعلك مسئولاً عن حياتنا ويلقي عليك تبعة الخطر الذي يتوعدنا بالاقتناص اذا لم تساعدنا على النجاة ما دامت الظروف ميسرة لها سبيل الحصول)

فاجابةً لطلبهم وتخلصًا من تلك التبعة تركتهم يعقدون مجلسًا ويقررون فيهِ ما يريدون من غير معارض او منازع وبعد مداولات طويلة ارتأى احدهم ان نذهب الى الجمرك ونلجاء الى مركز البريد الفرنسوي ثم الحوا عليَّ بقبول هذا الرأي فوافقتهم عليهِ ايثارًا للخروج من الوكالة على البقاء فيها عرضة للاهوال ولكن من جهة اخرى وجدت الاقامة فيها اسلم عاقبة منها في المستشفى اليوناني او المستشفى الاوربي او غيرهما من اماكن الاوربيين الكائنة من داخل المدينة وفي النهاية اذعنت لرأي المشاورين وسلمت بضرورة الذهاب الى الجمرك غير اني سألت القوم صبرًا قليلاً لاستعلم من الخارج عن الحالة التي باتت المدينة فيها ولكن لسوء الحظ القيت منهم صبرًا نافدًا.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر طلبوا جميعًا ان يخرجوا من الوكالة ثم اخذوا يتأهبون للمسير راغبين اليَّ والى القومندان مارك ان نسير في مقدمتهم فاضطررت بالرغم عني الى اجابة طلبهم وخرجنا قاصدين الجمرك فسلكنا الطريق المؤدية اليهِ وفي اثناء المسير كنا نرى جدران المنازل المحترقة تتساقط على الارض

ولما وصلنا الى رصيف الجمرك لقينا قومًا من العساكر الانكليزية الذين كانوا قد خرجوا

الى البر يرمون رجال الحريق بالرصاص فتوهمونا في بادئ الامر اعداء. ولكنهم عندما علموا بما كان من امرنا رحبوا بنا واعتنوا بحالتنا الى ان تيسر لنا الذهاب اولاً الى رأس التين ثم الى الباخرة المعروفة باسم «الشرقية» حيث استطعنا ان نصرف تلك الليلة بلا قلق وخوف

وفي نهار الجمعة نزل البحرية الامركان الى البر واخذوا يتأثرون الجانين الذين اضرموا النار في المدينة ونهبوا مساكنها وقد اخبر احدهم ممن كانوا مستقرين في شارع الكنيسة الانكليزية انهُ قتل سبعة او ثمانية من الوطنيين

وعندما نزلت العساكر الى المدينة كانت الشوارع والطرقات لا تزال مغطاةً بجثث القتلى والاتربة والحجارة متساقطة من المساكن المتهدمة وقد خرج في ذلك اليوم الموسيو اغوست جيني رغمًا عما كان باقيًا من الخطر الى ساحة المنشية وما كان يجاورها فوجد جثث القتلى مطروحة في تلك الارض منها جثة صاحب الحانة المعروفة بحانة رومة ووجد في شارع شريف باشا جثث كثيرة من جثث الاوربيين وبعض المستحفظين وكانت علامات الرض والضرب الشديد ظاهرةً في اجسام الاوربيين

وفي يوم السبت رأيت طائفة من الملاحين والعساكر الانكليزية تطوف ازقة المدينة واحياءها ولكنهم لم يتبوَّؤا مواقعها تبوءًا تامًا ولم يقبضوا على مفاتيح ابوابها الا بعد ايام عديدة

ولا يجب ان انسى ذكر المكرمة التي لقيتها من ضابطين من الضباط الانكليز ممن كانوا قد استقروا في دار الضبطية بمساعدتهما لي وانجادهما اياي بعددٍ من رجالهما يطفئون معي النار التي كانت لم تزل الى ذلك الوقت متأججة في الوكالة الفرنسوية وتعيينهما حرسًا من ذويهما يخفرون المحلة التي كنا فيها ويبعدون عنها رجال الحريق الذين استمروا اياما كثيرة مضرمين النار في جوانب المدينة واذا صدقت حافظتي بكون ذانك الضابطان «القبطان جريج واللبوتنان لبويل» وارى من واجباتي ان اثني على الماجور غوردون والقبطان سان كلير الذين بذلا جهدهما في قضاء ما كنت اطلب اجراءه ولو نزل هولاء الضباط الى المدينة بعد اطلاق المدافع عليها ما حصل فيها ما حصل واصيبت بتلك النازلة الهائلة فان رميها بالنار كان قد اضعف عزائم العرابيين وبعثهم على الإخلال بالنظام العسكرى فكانوا ينهبون ويقتلون ثم يتفرقون في جوانب المدينة مشتتي الشمل لا تجمعهم جامعة ولا تقيدهم رابطة ومن المؤكد انهُ لو نزلت عساكر العمارة الانكليزية المؤلفة اذ ذاك من ١٧٠٠ او ١٨٠٠ رجل بعد اطلاق المدافع بيوم واحد لتبدد جيش عرابي تمامًا وخضع على اثر التبدد

وفي اثناء اقامتي بالاسكندرية في مدى الايام الهائلة صرفت كل ما في وسعي لوقاية املاكي فامكنني بالانتباه والجهد ان اقي جزءًا منه وجرأني على ذلك ما خطر في بالي من امكان وقاية البعض اذا سنحت لي فرصة وقايتهم وقد اظهر كثيرون منهم بعد ذلك امتنانهم الفائق اما انا فكان سروري بذلك ناشئًا عن نجاحي في القيام بواجب الانسانية . اه .

(الامضاء)

دومربكر

تقرير الموسيو جوسبو

(ملاحظة) اقام الموسيو جوسبو في الاسكندرية اثناء حوادثها السيئة ولزم الاقامة في بنك الانكلو اجبسيان محافظاً عليهِ الى الساعة الاخيرة من الحوادث وكان قد التجأ الى البنك الموسيو موج مراقب صندوق الدين وغيره عدد كثير ممن بقي في المدينة

قال: في صباح ١١ يوليو حصل في المدينة هيجان عظيم وكانت الطرق في الساعة الثالثة من الصباح غاصةً بالعساكر الذين كانوا يردون اليها من الباب الشرقي ويتوجهون الى رأس التين فكانوا يأتون ويسيرون بسكينةٍ ونظام وفي الساعة الرابعة مرَّ بشارع باشا خلقٌ كثير منهم وفي الساعة الخامسة قدمت فرق اخر كثيرة العدد.

وفي الليل اخذ الوطنيون في اخلاء المدينة متوجهين الى داخلية البلاد وفي الساعة السابعة اطلقت احدى الدوارع الانكليزية بعض مدافع فاتخذ الوطنيون اطلاقها علامةً مشيرة الى وجوب الجلاء عن المدينة قبل حين

وفي الساعة الثامنة ركب عرابي باشا وطلبه باشا عربة واخذوا يطوفون بها المدينة وفي الساعة التاسعة أرسل نفرٌ من العساكر الى مساكن الاوربيين ليتجسسوها ويعلموا اذا كان بينهم وبين اللورد سيمور مخابرات بالتلغراف او بالتليفون

وكان بعض العساكر وامامهم احد الضباط يصعدون على سطوح البيوت ويقطعون اسلاك التليفون وقد امكننا ان نثبت برأي العين وجود فأسٍ ملطخة بالدم في يدي احدهم فعرفة خادمي وقال لي انهُ ذبح انكليزيًا وجده في حالة المخابرة مع الاميرال فلما سمعت ذلك تيقنت ان ذاك الانكليزي ليس هو الاَّ الفتى الفرنسوي الموظف في ادارة التلغراف الذي قتل بينما كان يحاول الالتجاء الى مكتب (الايسترن تلغراف كومباني)

واستمر اطلاق المدافع النهار بطوله — ولم تسقط في المدينة الا كرات قليلة من كرات المدافع الانكليزية — وكنا من وقتٍ الى آخر نسمع تارةً صفير القنبلة وطورًا صوت قصفها من فوق رؤوسنا وقد هدمت احداها جدارًا في شارع الرمل وراء بيت انطونيادس ونفذت الى ما داخل البناية

ولم تنقطع في خلال النهار مهاجرة الاهالي من المدينة وكان الخوف مستحوذًا عليهم بشدة والرعبة آخذةٌ من قلوبهم كل مأخذ

وفي نحو الساعة الخامسة حدث تغييرٌ مهم فان الهاربين امسكوا فجاةً عن الجلاء وعادوا الى المدينة فرحين يتبادلون التهانئ بالتعانق وعقد الايدي . ثم سمعنا النساء ينشدنَ الاغاني المعروفة بالزلاغيط او الزراغيط ويبدينَ كل ما هو مألوف عندهنَّ من علامات الجذل والمسرة

وما عرفنا لذلك سببًا في بادئ الامر فحرنا فيهِ وقتًا غير يسير ثم علمنا ان ذلك الانقلاب ناشئ عن وفود كثيرين من ضباط البحرية آتين من جهة البحر واعلانهم ان نار الانكليز قد انقطعت اثر إغراق الحصون المصرية دارعتين من دوارعهم والجائها البقية الى الابتعاد عن النقط التي كانت تطلق النار منها فلما وقفنا على حقيقة ذلك السبب اخذنا نضحك من

سخافة عقول المصدقين وكان الخبر في الواقع مقلوبًا معكوسًا فاننا علمنا بعد ذلك ان رجال الحصون هم الذين لزموا السكون منقطعين اليهِ عن اطلاق المدافع وهو خبر كان لدينا ذريعةً للامل والنجاة ولتوقع نزول الانكليز الى البر انقاذًا لنا من الشدة والضيق ولكنا عبثًا كنا ننتظر خروجهم . وبعد وقتٍ يسير انقلبت افراح الوطنيين وآمالهم الى كدرٍ ويأس وعلم كثيرون منهم ان ذلك الخبر لم يكن الا اختلاق محض

ثم تجدد فيَّ امل النجاة بعود الاهالي الى المهاجرة التي اتسع في اليوم الثاني نطاقها وهو اليوم الذي انتظم فيهِ بساحة المنشية نحو الف جندي من الجنود المصرية انتظامًا حربيًا كأنهم يتوقعون ان يحمل عليهم من جهة البورصة

وحاول ضباط هولاء الجنود مرتين الدخول عنوةً وقسرًا الى بنك الانكلو اجسيان وبنك الكريدي ليونيه حيث اودعت اموال الصندوق فلم ينجحوا ثم قالوا للموسيو موج مدير ادارة الصندوق انهم تلقوا من مصادرهم السامية امرًا بذبح جميع الاوربيين ولكن اذا دفع اليهم ما لديهم من الامتعة والاموال عفوا عنهُ وابقوه سالمًا .

وبعد الظهيرة خرج من المدينة من كان قد بقي فيها من الوطنيين . وفي الساعة الثالثة رأيت احد امراء الالايات متأبطًا حذاءً جديدًا وآخر قابضًا على ساعةٍ كبيرة من الساعات الثقيلة فلما رأى انهُ لا يستطيع حملها قذفها من يدهِ فصدمت جدارًا من جدران الابنية ردها الى حيث سقطت قطعًا لا عداد لها . وفي الواقع ان الامتعة التي أُتلفت تفوق عدد الامتعة التي نهبت

وكان الثائرون يجمعون اوراق البالات والصناديق بعد النهب ويشعلونها فتضطرم نارًا تحرق المخازن المنهوبة في لحظة عين

وفي الساعة الخامسة انقطع عمل الناهبين فانهم بعد ان اتموا اعمالهم الفظيعة تشتتوا فرقًا وجماعات وقبل ذلك بثلاث ساعات اي في الساعة الثانية بعد الظهر كان قد صدر الامر للبوابين بترك حراسة البيوت المودعة لهم. وفي نحو الساعة السادسة تحوّلت شوارع الاوربيين الى شعلة نارٍ هائلة وامسى الناظر يرى المدينة من خارجها جذوةً متقدة . وكنا نرى قومًا من الوطنيين يقدمون على النار فيتخللونها وينفذون الى ما داخل الحوانيت المحترقة فيأخذون منها ما تركه الجند غير منهوب

ولزيادة المحافظة على البنك الذي كانت النار محدقةً بهِ من كل جانب اضطررت ان ابعث وقتًا بعد اخر بطائفة من رجالي ليتتبعوا اثر الاشقياء ويطاردونهم من جوار البنك بنار البنادق وبهذه الوسيلة وقيتهُ من الحريق وصنتهُ من كل اعتداء

وفي الليل اقبلت علينا شراذم من العائلات الاوربية واخذت تطرق الابواب طالبةً ملجأ تأوي اليهِ

ولما رأيت في صباح الخميس ان الجنود الانكليزية ابطأت في الخروج الى المدينة لانقاذها من اهوال الحريق وانقاذنا من الاخطار عوّلت على الخروج من البنك والذهاب للاقائهم والوقوف على خبرهم فسرت مستصحبًا جميع رفقائي وعددهم نحو سبعين شخصًا اما النساء والاطفال

فجعلناهم يسيرون في وسط جيشنا الصغير الذي كان يحميه من جميع اطرافهِ بعضٌ من اليونانيين ورجال الجبل الاسود . وفي الطريق لقينا قوماً من الاوربيين في مثل الحالة التي كنا فيها وكان عددهم خمسة وثلثين شخصاً فانضووا الينا وسرنا سويةً الى المينا بين المنازل المتهدمة والبيوت المشتعلة

ولما وصلنا الى الباب المؤدي الى رصيف المرفأ وجدناه مقفلاً فاخذنا نكسره بالفأس حتى جعلنا فيهِ مدخلاً فنفذنا منهُ الى الرصيف وهناك وجدنا بعض قوارب صغيرة مهجورة فركبناها وسرنا وبعد ان قضينا نحو ربع ساعةٍ في المسير وصلنا الى السفينة . هليكون . حيث استقبلنا اللورد سيمور بمزيد التأهيل والاكرام

الامضاء (جوسبو)

تقرير الاب غليوم احد الاباء الفرنسيسكانيين

بعد ان قص خبر احدى النساء الاوربيات التي اتت الدير ملتجئةً اليهِ وابان ان الدير لم يكن في امكانهِ اذ ذاك قبول احدٍ من الملتجئين بالنظر الى فقد الوسائل الواقية فيهِ واثبت انها التجأت بعد ذلك مع زوجها الى احد المستشفيات واوضح ان خدمة الدير لم يتمكنوا في خلال تلك الايام الهائلة من سماع صراخ المنكوبين اخذ في سرد تفاصيل الحوادث العمومية فقال

يوم ٩ لوليو (تموز)

عند ما رأى القنصل الفرنسوي ما كان من الحوادث السيئة المنذرة بالخطر اراد التخلص من كل تبعة تلقي عليهِ اذا لحق بنا الاذى فانذرنا بالامر واشار الينا بالذهاب الى السفن التي ارسلتها حكومته الى مياه الاسكندرية لتكون فيها معدَّة لاوامره فأبى الرئيس الخروج من المدينة وصمم على الاقامة فيها تاركاً لبقية الاباء حرية الارادة في البقاء او الجلاء ولما جمعنا اثر انذار القنصل حدَّثنا بهذا اللسان فحذا حذوهُ احد عشر راهباً وصرَّحوا برغبتهم في اتباع رأيه ومشاركتهِ فيما عزم عليهِ

يوم ١٠ منه

وملئَ الدير في هذا اليوم بالامتعة والمنقولات وباشخاصٍ كثيرين نساء واطفالاً وشيوخاً وفتياناً من كل جنسيةٍ ومذهب وفي الليلة التي تقدمت يوم اطلاق المدافع بلغ عدد اهل الدير اربعاً وثمانين نسمة منهم ١١ من الاباء و ٢٢ من اللاجئين الطليان و ٤ من اليونان و ٥ من الفرنسويين و ٦ من الانكليز و ١٨ من النمسويين و ١٠ من المصريين و ٨ من العثمانيين غير المصريين

وفي الايام التالية ازداد عددهم حتى بلغ المائة ومنذ ذلك الوقت انقطعنا عن تعداد الملتجئين فان اضطراب البال لم يكن ليسمح بالتفرغ الى مثل هذا الاحصاء

ولما عاد الى المدينة بعض الراحة تركنا نحو ثلثي ذلك العدد وبقي الثلث الاخر لائذاً بنا نحو شهرٍ واحد قضاه على نفقة الدير

يوم ١١ منه

واتخذ القوم كنيسة الدير مجتمعاً يأوون اليهِ فاقام هذا تحت قبة وذاك تحت عمود من اعمدة القناطر وكان كل منهم يرى المحل الذي اختاره للربوض فيهِ آمن من سواه وعندما أُطلق المدفع الاول استولت الرعدة على قلوبهم ولكنهم كانوا مطمئنين بما كان في يقينهم من ان

اطلاق المدافع على المدينة لا يستمر اكثر من ساعتين او ثلاث وهو ما كان مشجعاً لهم مقوياً املهم بقرب النجاة

اما انا فلزمت غرفتي والقرأة فيها وبينما كنت في هذه الحالة من العزلة والانفراد اذ سمعت صوتاً هائلاً بعثني على الظن بانهدام ركنٍ من اركان الدير فنهضت لساعتي وفتحت باب الغرفة واذا بغبارٍ يثير في الفضاء فانَّ قنبلةً من قنابل المدافع سقطت في جواري من غير ان تصعق وهدمت قسماً من مخدعٍ مجاور لغرفتي . فتسارع في الحال الى مكان الحادث جميع سكان الدير وكانت اذ ذاك الساعة العاشرة من الصباح

وانقضت الساعتان او الثلاث من غير ان ينفك الخطر عن الإحداق بنا فتعاظم اضطراب الجمهور وزاد القلق فكانت النساء والاطفال والاحداث يبكون ويتذمرون من طول مدة اطلاق المدافع وكثرة تساقط القنابل وانصعاقها ويتنقلون في اطراف الدير ضعيفي العزائم واهني القوى تعلو وجوههم صفرة الخوف وترتعد فرائصهم برعشة الاضطراب

وسقطت قنبلتان من تلك الكرات الهائلة بالقرب منا وكان هبوط احداها على مسافة عشرة امتار من الكنيسة حيث ردمت مجتمع رهبان المدارس المسيحية ونزول الاخرى في حديقة الدير

واقبلت الظهيرة ونحن في هذه الحالة من القلق والارتباك وحلَّ ميعاد تناول الطعام فلم يلقَ بين الجمهور نفساً جائعة وقابليةً للغذاء ولكن البعض اكرهوا انفسهم على تناول شيء منه فكانوا يقضمون كسرات الخبز ضائعي الرشد والبعض الاخر ينظرون اليهم غير مزاحمين

وفي نحو الساعة الاولى بعد الظهر توجهت الى المستشفى فوجدت فيهِ الراهبات يعتنينَ بمرضاهم المدنفين على الموت ولقيت كاهنين من غير رهبنتي فانضميت اليهما واخذنا جميعاً في القيام بواجباتنا الدينية نحو اولئك المحتضرين . وبينما كنت بجانب احدى النساء المريضات قائماً نحوها بذلك الفرض وهي في حالة النزع اذا بقنبلةٍ سقطت فوق الطابق العلوي من المستشفى وفعلت فعلها الذريع هدماً وردماً وعند ما صرخ اولئك المساكين مرتجفين من هول ذلك الخطب انقطعت عن تقديم تلك الفروض وخرجت مستعلماً عما اذا كان سقوط القنبلة الحق ضرراً باحد الذين كانوا يتوقعون منا عنايةً بامرهم واسعافاً فلدى الاستخبار والاستفهام علمت انهُ لم يصب لحسن الحظ احدٌ باذاها وان الضرر لم يلحق الاَّ بالبناء فحولهُ الى تراب

ثم رجعت الى الدير فالفيت رهباننا مهتمين باعداد محلات فيهِ لاناسٍ اخرين من انوا الدير ملتجئين واذ كان ايجاد ما يقتضي لهم من لوازم الايواء بعيدًا من جانب الامكان اضطررنا الى الاكتفاء من معدات المبيت بالفرش المحشوة تبناً واعطائهم الفرش المتقنة

وفي مساء ذلك النهار عاد الهدء الى الافكار والراحة الى الاجسام بانقطاع نار المدافع فرقد القوم رقوداً مستجلباً بما ذهبوا اليهِ من ان الانكليز دمروا الحصون واطفأوا نارها وانهم سينزلون الى البر ساعة بزوغ الفجر فيتمكن كلٌّ منهم من الرجوع الى منزلهِ

يوم ١٢ منه

ولكن لم تقبل الساعات الاولى من النهار حتى تبدل نور ذلك الامل بظلام اليأس وانفسح المقام مرةً ثانية لحلول حوادث جديدة بان عادت اصوات المدافع الى الضجيج فتجدد قلق النفوس ولكنهُ لم يستمر وقتًا طويلاً فان حركة المدافع هدأت بعد قليل

ولما كانت الخواطر سريعة التغير في مثل هذه الاحوال ذهب القوم الى ان طلقات تلك المدافع ليست الا عبارة عن دلالةٍ مشيرة الى النجاة من اهوال ذلك اليوم فكانوا يقولون (ان الانكليز لم يطلقوها الاَّ وقاية للجنود التي ارسلوها الى البر بدفع الوطنيين عنهم فالحصون تردمت ومباني المصريين الحربية تهدمت ولم يعد وسيلة للمقاومة) ورأيت كثيرين اثناء ذلك يهرعون الى النوافذ ويستشرفون منها الطرق والشوارع متوقعين ان يروا الفرقة الاولى المقبلة عليها فتطيب نفوسهم ويطمئنون على حياتهم وما كان ذلك منهم الا توهمًا واتخداعًا فانهم بدلاً من ان يروا وجوه الانكليز رأوا عصابةً من رعاع الوطنيين والعربان المسلحين يقتحمون البيوت ويكسرون ابوابها ويدخلونها ناهبين ما فيها فزاد هذا المشهد خوفهم وضاعف بأسهم فاخذوا يصرخون ويستجيرون حائرين فيما يفعلون تخلصًا من الميتة المرة التي كانوا يرونها قريبةً من ان تدركهم بهولها العظيم وكان مركزنا في الواقع معرضًا لذلك الخطر فان انهدام الجدران وتحطم الابواب ونفوذ الثائرين الى مــا داخل الابنية كل ذلك كان متوعدًا ايانا بلقاء المكاره . وكان البعض من المتجئين مسلحين بالغدارات المسدسة فاقسموا الايمان المعظمة على مسمع من الاخرين انهم لا يموتون رخيصين في سوق المنايا ولكن هذه الحماسة لم تكن لتزيل مخاوف الجمهور . وخلاصة القول اننا بعد ان قضينا عدة ساعات في هذه الحالة المحزنة بدون ان نرزأ بنكبة او تدهم ببلية اخذنا في الرجوع ثانية الى الطأنينة والامل بالنجاة فاغتنمناها فرصةً لاعداد وسائل الوقاية والدفاع الى حين الحاجة

ثم رأيت ان اختلس هذه الفرصة لاذهب الى المستشفى واخابر نزلاءه فيما يجب ان نفعل واستعلم منهم عن بعض الامور واستشيرهم فيما يقتضي ان نتخذه من الوسائط الواقية لملتجئي الدير . وكان ما يدفعنا الى حب الاستعلام والاستطلاع حيرتنا في السبب المانع للانكليز من الخروج الى المدينة لانقاذ الباقين فيها من سكانها . وبوصولي الى المستشفى اذا براهبةٍ اقبلت عليَّ وقالت لي (ان طفلاً صغيرًا مات بالامس ولم يكن من واسطةٍ لنقله الى المدفن فاطلب اليك ان تدفنهُ في الحديقة) فاجبت هذا الطلب وبينما انا افكر في الطريقة التي يجب اتخاذها لدفنه اذا بالخادم مقبل عليَّ وعلى يديه جثة الطفل فطلبت صندوقًا صغيرًا لاودعه الجثة فلم اجد ثم طلبت معولاً او آلةً ما لحفر قبر لها في ارض الحديقة فلم احصل على شيء من ذلك لعدم وجود ما يماثله في الدير وبعد ان صرفت وقتًا غير يسير في التماس تلك الحاجة على غير طائل ابصرنا بالقرب من الباب كومة من تراب فالقى الخادم اذ ذاك الجثة من يديه وانطلق الى جهة الباب فجعل في الكومة

حفرة بيديه ليدفن فيها الجثة ولكنه لم يتم عمله حتى طرق الباب بشدة كادت تسقطهُ الى الارض فارتعدت فرائص الخادم واستولى عليهِ الخوف فترك عمله وهرب ولما رأيت انه لم يبق غيري قادرًا على اتمام العمل عمدت الى الحفرة فانممت رفع التراب منها ودفنت فيها الجثة ثم رجعت الى ما داخل المستشفى والضوضاء مرتفعة فيما خارجه ارتفاع ضجيج الاشخاص الذين لم يقووا على كسر الباب

وبعد الظهيرة دفن احد زملائي الاباء في حديقة الدير رجلاً كان قد توفي في صباح ذلك اليوم

وفي نحو الساعة الرابعة (على الاصطلاح الافرنجي) من مساء ذلك النهار اخبرنا احد الملتجئين ان رجال الفظائع اخذوا في الجلاء عن المدينة وان في قلبها واطرافها نارًا تظهر للناظر من خلال نوافذ الطبقة الاولى من الدير فاسرعنا اثر ذلك لنتحقق الخبر واذا بالنار متقدة تبتلع المنازل والابنية الكبيرة ولم يمضِ على ذلك وقت يسير حتى احترقت بعض البيوت القريبة منا فكان في جملتها مخازن الخواجات كاموان

وظهر لنا بعد تدقيق النظر ان النار اضرمت في خمس او ست جهات مختلفة من المدينة ثم ظهرت لنا المدينة بعد وقت قليل شعلةً من نار اخذة في الامتداد

وازداد لهيبها باقبال الليل ازديادًا مخيفًا وفي منتصفهِ اتيت احدى نوافذ الطبقة الثانية فوجدت نفسي امام مشهدٍ هائلٍ لا تمحوه من ذهني تغيرات الايام فاني ابصرت على نور اللهيب عصابات من الاشقياء تسكب زيت الغاز في الطرق وعلى ابواب البيوت ونوافذها ثم يشعلونه فتلتهب ويمتد بها الحريق وكان اثنان من رهبان الدير واقفين في موضع آخر منهُ يعاينان بارتجافٍ ما كنت اعاينه بخوف من وصول النار الينا

واخبر الراهبان ان اثنين من رجال الحريق اقتربا من باب الدير حاملين براميل صغيرة ملأى بزيت البترول واخذا يتبادلان الرأي فيما اذا كان يجب ان يفعلا بالدير ما فعلاه بغيرهِ وافادا ان احدهما كان مائلاً الى احراقه والآخر غير موافق عليهِ لعدة اسباب حلت لدى الراهبين محل الاستحسان في البيان فلما رأى صاحب الميل السيء ما كان من خاطر رفيقه انقاد لرأيه وانقلب معهُ عن باب الدير بما كان حاملاً من مواد الإتلاف فتنفس الراهبان حينئذٍ الصعداء وشكرا الله على نجاة الدير وسكانه من ذلك البلاء

وفي تلك الليلة اتانا كثيرون طالبين الالتجاء فرارًا من النار التي أُضرمت في بيوتهم او ستضرم فقبلناهم بسرور وفتحنا لهم ابواب الدير فدخلوه آمنين

يوم ١٢ منهُ

ولما كانت النار لا تزال مستمرة الى ذلك اليوم على التهام المدينة قضينا النهار بخوفٍ واضطرابٍ لا حاجة بنا الى وصفها في هذا المقام وكان جوف الفضاء قد احمرَّ واحاط بنا الدخان من كل جانب حتى غشى على اعيننا ومنعنا من النظر والوقوف على حوادث ذلك اليوم

يوم ١٤ منه

هو يوم النجاة ويوم الفرج فما كان اشد الناس ترحيبًا به واكثرهم قولاً له اهلاً . اقبل علينا فسمعنا فيه ان الانكليز عزموا على الخروج الى المدينة وانهم قادمون اليها ولكن النار كانت لا تزال مضطرمة بشدةٍ ومزيد انتشار وكانت قد ابتلعت مساكن وابنية كثيرة في جملتها المدرسة الايطاليانية وغيرها من المحلات التي نعرفها ومع ذلك فلعلمنا باختفاء اثر الوطنيين من المدينة فتحنا ابواب الدير واخذنا نجتهد باطفاء النار المضطرمة في المنازل المجاورة لنا وذلك باستخدام مياه الصهاريج في اخمادها ثم اغتنمت هذه الفرصة وخرجت بصحبة الاب ميخايل احد الاباء العازاريين لناتي على قدر استطاعتنا امرًا حسنًا فما سرنا بضع خطوات حتى ظهرت لنا المدينة في هيأة محزنة فان البيوت والحوانيت كانت أتنًا (جمع أتون) ومواقد ينبعث منها لهيب لافح والطرق مغطاة بالاتربة والانقاض وبالاجتهاد والثبات تمكنا من التجول والوقوف على ما صارت اليه ابنية المدينة غير ملاقين في وجهنا اعداء لنا الا النار فان الوطنيين كانوا قد اركنوا الى الفرار اثر سماعهم ان الانكليز خرجوا الى المدينة

ولما بلغنا ساحة محمد (المنشية) لقينا احد محرري جريدة التيمس فابان لنا سروره من اجتماعه بمن يخاطبه بعد مرور تلك الايام الهائلة ثم تقدمنا في المسير الى ان بلغنا موقع كنيس الاسرائيليين المقابل لكنيسة الاقباط فرأينا ابواب هذين الملجأين تنفتح قليلاً وتجعل فرجات صغيرة لرؤوسٍ خائفة تستشرف الطرق لتتعهد الحال التي صارت اليها فلما رأونا احرارًا ناجين من الخطر سائرين في الشوارع والطرقات من غير معارض فتحوا الابواب على سعتها وخرجوا الى الطريق فتلقونا بسرورٍ لا مزيد عليهِ متخذين ايانا منقذين في حالة كوننا لم نكن الا في مقام الدلالة على حلول زمن النجاة ثم اخذوا يسألوننا عن امورٍ جمة فلم نجبهم الا بما افهمناهم بهِ ان وجودنا في تلك الجهة على تلك الحال ناطق وحده بما كان

وعندما عدنا الى الدير التماس الراحة رأينا احد البيوت الملاصقة لدار القنصلية اليونانية مشتعلاً فتعين علينا ان نوقف سير اللهيب ونبذل في منعه من الامتداد ما بذلنا من الوسائط في اطفاء النار التي كانت مبتلعةً في الصباح المدرسة الايطاليانية ثم عمدنا الى انفاذ العمل ورمينا النار من الدير بالماء فكان يصيب قسمًا من المنزل المحترق ويفعل فيهِ فعلهُ وفي النهاية تمكنا من اخماد النار اخمادًا غير تام فان ما كان لدينا من وسائل الاطفاء لم يكن كافيًا للتغلب عليها رغمًا عن نشاط القوم المتجبين ومع ذلك لم نتقاعد عن القيام بواجب مداركتها ومتابعة الاعمال الآيلة الى ابادة شرها فاننا كنا نحيي الليل والنهار بعد ذلك متناوبين السهر مفرغين الطاقة في اطفائها وبينما نحن كذلك اقبل الملاحون اليونان واخذوا في اخمادها وبعد زمنٍ يسير تمكنوا بواسطة مطافئهم من إفنائها

ولما عاد حضرة قنصلي ايطاليا واليونان ارسلا الى رئيس ديرنا كتابات التشكر والامتنان من الخدمة التي قمنا بها في الاحوال التي تقدم ذكرها

هذه جملة تفاصيل الحوادث التي كنت ادونها في اوقات وقوعها وهي فيما ارى يسيرة ومختصرة فاني لم اسرد في تدوينها الاّ ما سمعت ورأيت مما يتعلق بالاباء الفرنسيسكانيين الذين قاسوا في محلة الرمل ما لم نقاسهِ نحن في الاسكندرية وكانوا قد اقاموا فيها بحكم الواجب الذي حملهم على الاقامة فيها للمحافظة على المسيحيين الذين لم يهاجروا منها وكان من بقي فيها من ذوي طغمتنا الاب يوسف والاخ ياسنت اللذان عند ما ابتدأ حصول الضيق لزما الاقامة في دارهم مع عشرين شخصاً محافظةً على الكنيسة

اما الضيق الذي قاسوا شدته وهوله فقد حدث بهجوم عصابات من السجناء الاشقياء على مكانهم قصد اغتيالهم ونهب ما لديهم فلما رأوا ما كان من الخطر المحدق بهم وضعوا الامتعة في وجوههم وصعدوا الى السطوح على الحبال تاركين الهاجمين ينهبون ما يجدونهُ امامهم ولكنهم واأسفاه لم يقدروا جميعاً ان يلتجئوا الى السطوح فان الاب يوسف عند ما عمد الى الحبل لم يجده فان رفقاءه ظنوا انهُ صعد قبلهم فقطعوه لكي لا يجعلوا للاشقياء سبيلاً للوصول اليهم فبقي لذلك معرَّضاً للخطر ولم ينجُ منهُ الاّ بمعجزةٍ من معجزات الحكمة الصمدانية

ولما قدم الى المدينة بعض الذين اقاموا في الرمل مختبئين في ذلك المأوى اخبرونا بما كان من امره ذاهبين الى انهُ قد مات فتبعناهم نحن فيما ذهبوا اليهِ وللحال توجه اثنان منا الى محلة الرمل غير مباليين بالاخطار قصد البحث عن جثته ودفنها فوجداه حيّاً يندب سوء حظهِ ويذرف الدمع السخين على كنيستهِ المنهوبة وكان قد رأى الموت بعينهِ فان احد الوطنيين كان قد هجم عليهِ واساء معاملته ولو لم يتوسط في شأنهِ وطني اخر وينقذه من العذاب لما نجا من الموت . اه‍ .

الى هنا انتهى كلام الاب غلبوم فلنشفعهُ بما رواه احد شهود العيان على نحو ما جاء في جريدة الفار دالكسندري . قال

المستشفى الاوربي

عندما اخذت العمارة الانكليزية في التأهب لرمي الحصون بنار المدافع كان المستشفى الاوربي محتضناً سبعين مريضاً وكان اكثرهم في حالةٍ منذرة بامتناع شفائهم وذلك ما عدا راهبات المحبة والمرضين والخدام الذين كانوا فيهِ وراهبات الايتام وعدد كثير من مخدوميهنَّ يبلغ نحو ٧٥ يتيماً

ففي الليلة التي تقدمت يوم اطلاق المدافع اتى المستشفى الدكتور اردوين بك على قصد الاقامة فيهِ ليعتني باحوال المرضى والجرحى الذين ربما أُتي بهم الى المستشفى وانضم اليهِ الدكتور دوتريو بك للاشتراك معهُ في القيام بهذه الخدمة وكل من الموسيو جاكين معتمد النزلاء الفرنسيس والموسيو دي لابوميراي والاب كاليار رئيس الاباء العازاريين والاب ميافيل العازاري والموسيو كاسترافيلي والموسيو ابران كاتم اسرار الموسيو جاكين السابق الذكر

ومنذ ذلك اليوم (وهو عاشر لوليو) اخذ الوطنيون يتظاهرون بالاعمال العدوانية ضد الاوربيين . ومما يذكر ان بعض الاشخاص المومأ اليهم بينما كانوا واقفين بعد مغيب الشمس عند باب المستشفى اذ مر بهم بعض الوطنيين فشتموهم

وتوعدوهم بالقتل وعلى السنتهم قولهم (غداً ينطفئ نور حياتكم فاننا سنضرب رقابكم ورقاب سائر المسيحيين) وكانوا يفوهون بهذا القول ويشفعونه باشارات التهديد . فلما سمعوا ذلك ورأوا ما رأوا من استعداد المتوعدين للوقوع بهم دخلوا الى المستشفى واقفلوا الباب

وفي يوم ١١ لوليو ومدى الاربعة الايام التالية له لم ينقطع اهل خدمة المستشفى عن الاعتناء بمرضاهم حق الاعتناء رغماً عن تساقط القنابل من حولهم وتوعد الناهبين لهم بالسوء وخوفهم من وصول نار الحريق اليهم

وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الثلثاء (يوم اطلاق المدافع) اقبل على المستشفى احد ضباط العساكر المصرية مصحوباً بعددٍ من العساكر وطلب ان تفتح له ابواب المستشفى فابينا ذلك فامرنا باسم الباشا الكبير ان ننزل الرايتين اللتين كانتا تخفقان في جانبي المستشفى فكان منا ان ابدينا له بعض الملاحظات على ذلك فاصرَّ على وجوب انفاذ امره فلم نمتثل فقال لنا اذ ذاك انا اذا ابينا الامتثال لامره يأمر جنوده بان يرموا المستشفى بالنار بل باحراقه اذا مست الحاجة فعند ذلك اضطررنا الى انزال الرايتين خوفاً من سوء العاقبة ورأينا من الصواب ان نختفي عن ابصارهم ونزايل سطوح المستشفى فان العساكر اخذوا يتوعدوننا باطلاق البنادق علينا اذا لم نحتجب عن اعينهم وقد اتخذوا ذلك حجةً للوقوع بنا والهجوم على المستشفى

وبعد ان انتزعنا رايتينا من جانبي المستشفى لاحت منا التفاتة نحو دير الاباء الفرنسيسكانيين فرأينا رايتهم لا تزال مرفوعة فوق الدير وهو فيما نظن ما حمل رجال طابية كوم الدكة على توجيه قنبلةٍ اليها فاطلقوها على الدير ولكنها لم تصب الراية بل سقطت على مسافة منها بعد ان اجتازت السطوح وهدمت غرفةً من غرف الطبقة الاولى

وكانت من جهةٍ اخرى قنابل الانكليز التي كانوا يرمون بها حصن كوم الدكة تمرُّ من فوق المستشفى على علوٍّ قليل وقد سقط منها ثنتان في حديقة دير الاباء الفرنسيسكانيين واخرى في ساحة رهبان المدارس المسيحية وثنتان بالقرب من دير الايتام وثنتان ايضاً في الحدائق التي تكتنف ابنية المدرسة الايطاليانية الجديدة وواحدة في بناية الخواجات اوتوفاج اخوان .

وفي الساعة الثانية من بعد الظهر رمينا بقنبلة خرقت المقدم الجنوبي الغربي من المستشفى وهدمت مبيت الراهبات في الطبقة الثانية ولحسن الحظ لم تنفجر في المكان الذي استقرت فيهِ ولو انفجرت لقتل جميع من في المستشفى ولحسن البخت ايضاً ان هدمها لقاعة الراهبات لم يكن في الليل ولولا ذلك لقتلن جميعهن بلا استثناء

وفي خلال الليل التالي ليوم اطلاق المدافع لم يقع في المدينة حادثٌ ما بل كان السكون متوليًا عليها كأن شوارعها وطرقاتها بريةٌ قفراء فاستنتجنا من ذلك ان الحصون لم يعد في طاقتها الاستمرار على المدافعة ومقابلة نار الانكليز بمثلها ولكنا حرنا في سبب تأخر الجنود الانكليزية عن الخروج الى البر

وفي صباح ١٢ الشهر استؤنف اطلاق المدافع على المدينة ولكنهُ لم يستمر الا وقتاً يسيراً فتجدد

بانقطاعه انتظار القوم لخروج العساكر الانكليزية الى المدينة وكان المرسى مستشرَفًا من سطوح المستشفى فرأى بعض منا سفن الانكليز تبتعد عن المينا بدلاً من ان تقترب منها . وفي الساعة الثانية من بعد منتصف ذلك اليوم (الاربعاء ١٢ الوليو) حدث ضجيج عظيم في المدينة وضوضاء هائلة وما كانت الا ضوضاء اهل النهب وبعد بضع ساعات اي عندما خيم الظلام ظهرت النار في شوارع كثيرة من شوارع الاوربيين وكانت العساكر تمرُّ بالغنائم الثقيلة الحمل ويتبعهم الوطنيون دراكًا ومنذ ذلك الوقت انضمت في المستشفى خدمة دفاعية واخذ اهله يتناوبون السهر والمحافظة عليهِ بان تألف من الاشخاص الصحيحي المزاج الشديدي البنية فرقٌ وجماعات وتولى رئاستها الموسيو جاكين واردوان بك فكانت تتناوب المحافظة وقتًا بعد آخر وفي مقدمنهم خفراء وحراس مخصوصون حالون في مواقع مختلفة من المستشفى وجعل منهم طوافة يطوفون داخلية البناية وقايةً لها من النار واخرون يطوفون من خارجها لدفع رجال النهب عنها واهل الحريق

واستصوبنا ان ننقل الايتام الصغار الى الطبقة السفلى من المستشفى ففعلنا وكان بينهم عدد كثير من المرضى اضطروا بذلك الانتقال الى المبيت في الدهاليز والمعابر في ليلتي ١٢ و١٣ لوليو وما قصدنا بنقلهم الى الطبقة السفلى الأ حفظهم من الاحتراق بما عساه ان يُضرم من النار في مبانيهم

وتوقيًا من خطر الاحتراق اعددنا للنار وسائل الاطفاء نملأنا كل ما كان لدينا من الادوات المجوفة ماء وجعلناها تحت اليد استخدامًا لها بالسرعة الممكنة اذا مست الحاجة اليها

وفي منتصف ليل الثاني عشر من الشهر حاول بعض الجنود الباقين في المدينة (فان سوادهم الاعظم كان قد فرَّ منها سالكًا طريق المحمودية بما كان معهُ من الاموال المنهوبة) مفاجأتنا باقتحام المستشفى عنوةً فطلب احدهم الينا ان نفتح لهُ الباب ونمهد لهُ سبيل الدخول بقوله ان رفيقًا لهُ مصابًا بالرمد يطلب ان يعالج عينيهِ بالكحل اما نحن فلم نعر حجته جانب التصديق بل اخذنا في استطلاع امره فثبت لنا انهُ مصحوب بعددٍ كثير من الجنود المسلحة

والخلاصة اننا قضينا تلك الليلة بما لامزيد عليهِ من التحفظ والتوقي

وكان كثيرون من منكودي الحظ الفارين من وجوه الفتكة يأتون المستشفى ويطلبون فيهِ ملجاء ومأوى فكنا نفتح لهم الباب قليلاً وندخلهم فنعتني بمعالجة الجرحى منهم وعلى هذا النحو آوينا في تلك الليلة مائة وخمسين شخصًا سالمين من الاذى وثلثين جريحًا منهم الموسيو .... (لم يصرح صاحب هذا التفصيل باسمه) الذي اتى بهِ الى المستشفى حضرة يوسف بك وكيل دائرة البرنس ابرهيم باشا

وهذا بيان الجرحى الذين دخلوا المستشفى من ١١ الى ١٦ لوليو

١٠ ايطاليان
٧ مالطيون
٥ يونان
٣ فرنسويون
٣ نمسويون

٢ سوربون
٣ ازميربون
٣ وطنيون (عساكر)

وجملتهم ٢٥ جريحًا منهم ٢٠ رجلاً وخمس نساء . اما الوطنيون الثلثة فلم يكونوا من ابناء الحياة لانهم توفوا بعد مضي ثلثة ايام من يوم دخولهم وكانوا مصابين بعدة رصاصات في البطن والصدر واما الاخرون فكان ١١ منهم مصابين برضات وكدوم في اجزاء مختلفة من الجسم والرأس واربعة مصابين بشجات متعددة في الرأس و ١١ بجراح كثيرة دامية متقيحة مسبوقة برضات مؤثرة وثلثة بجراح فعلت بالاتٍ حادة جارحة و ١ بجرح ناري وآخر بكسرٍ في مقدمة الذراع الايسر ورضات كثيرة وآخر بانفكاك في عظم الكتف الايسر مشفوع برضات عديدة

وفي يوم الاربعاء (رابع عشر الشهر) دهمنا بليةٍ اخرى فان النار بعد ان أُضرمت في محل الموسيو تورين اخذت تتوعدنا بالوصول الينا وكان الهواء يدفع لهيبها نحو مركزنا فعند ذلك خرجنا من المستشفى مسلحين وبمساعدة الاباء الفرنسيكانيين تمكنا من دفع خطر الحريق بالادوات والوسائل التي اعددناها للاطفاء بعد ان كاد يبتلع المحل المذكور والمدرسة الايطاليانية . وبالاجتهاد حصرنا النار في مكانها حصرًا تيقن الدكتور اردوان بك على اثره باندفاع الخطر وبعد ان تفقد الاماكن المجاورة لنا تطوف منزل الموسيو تورين طبقةً بعد اخرى فوجد على درجات السلم آنية ملأى بالقطران وكانت قد وضعت هناك لتدهن الابواب والاخشاب بالقطران وتحرق به وقد جلبت احدى تلك الآنية الى المستشفى لزيادة الاقتناع

ولقد امتاز بهذه الخدمة النافعة كلٌّ من الموسيو مافيل والموسيو دوفين اللذين كانا قد تخلصا بتعبٍ وعناء من فتك الثائرين وكذلك الموسيو بوربون وفي الليل اضرمت النار مرة اخرى في حديقة الموسيو تورين ولكننا لم ندعها تمتد بل عالجناها بسرعة الاطفاء

وتوجه ايضًا قسم منا برئاسة الموسيو جاكين لاطفاء النار التي كانت متقدةً في اماكن الجمعية اليونانية الواقعة بالقرب من قنصلية اليونان ورافقنا اليها الاباء الفرنسيسكانيون ايضًا

وفي ١٥ الشهر التمسنا الراحة التي كنا في شدة الاحتياج اليها

وكان ثلثة منا قد احيوا ثلاث ليالٍ في المحافظة العمومية على جوانب المستشفى واطرافه ومع ذلك لم تجئ خدمتهم بعد ذلك التعب مستوفاة فان الموسيو جاكين اخذ يهتم بعد ذلك بامر الرعايا الفرنسويين الذين اخذوا في العود الى المدينة وهم في حالةٍ سيئة من الافتقار الى القوت والمأوى

اما الدكتوران اردوان بك ودوتريوبك فعكفا على الاهتمام برفع الاتربة وتنظيف الشوارع والطرقات ورفع جثث القتلى منها والحيوانات المائتة .

وكنا نوزع الاقوات على الجياع بلا حساب وكان الموسيو بونز بللي من المحتاجين اليها فسررنا باقتسامه ما كان لدينا من القوت

ولا اجد بدًا من اختتام هذا القول بتدوين عبارات الشكر والامتنان من سعادة عثمان باشا عرفي فانه كثيرًا ما كان يتردد الينا

ويتفقد حالتنا وعندما قبض على زمام السلطة وصار في امكانه ان يستخدم الرجال في المحافظة والوقاية ارسل الينا خفراء يحرسوننا ويدفعون عنا المعاطب والاخطار

ولا ننسى ما رأيناه من الخواجا اسكندر ترجمان الموسيو دي لابومبراي فانهُ اجتهد كثيرًا باسعافنا ومساعدتنا في الخروج من دائرة ذلك الضيق

فصل

شذور من تقرير الموسيو بونزيللي

قال

في نحو الساعة الثانية من بعد ظهر الثلثا سمعنا صوت النفير يدعو الجند الى الاجتماع فاجتمعوا في ساحة المنشية بغير انتظام ثم تفرقوا وانتشروا على طول خط المخازن واخذوا في كسر ابوابها بقنادق البنادق وفي لحظة عين ملئت ساحة المنشية برجال السلب والنهب فكانوا جميعهم مسلحين بالسيوف والمراوي وغيرها من آلات القتل والكسر ويساعدون العساكر في تحطيم الابواب وخرق الاناف والنوافذ ولم يمضِ وقت يسير حتى تغطت الارض باصناف البضائع وانواع الملابس كالساعات الكبيرة والقطيفة وزجاجات الروائح والاعطار والبنطلونات وقطع القماش . وكان الجنود والاهالي يتنكبون الاحمال ويسيرون بغنائمهم متجهين نحو شارع شريف باشا . ولا استطيع حصرًا وتعدادًا للاسلحة التي نهبت فاننا ما رأينا من المارّة احدًا الا كان حاملاً بندقيتين او ثلاثًا . وكثيرون منهم كانوا يأتون بعربات النقل ويملأونها بالغنائم غير راضين بما كان يتيسر لهم نقلهُ على الاكتاف وكان ناهبو البضائع السريعة العطب كالمرآئي وانواع الاثاث هم الاكثر ارتباكًا من غيرهم وكان بعضهم عند ما يصلون الى مخازن غاستو وبريي يطرحون احمالهم على الارض فتسقط تلك البضائع قطعًا ويستبدلونها بما يكون اخف منها ثقلاً واغلى قيمة . ومما رأينا منهم ما يدل على ذوقٍ حسن في تخيُّر البضاعة فكان هذا يذهب بعلبةٍ من علب الموسيقى وذاك يرتضي بجرس ساعةٍ كبيرة فيضعهُ في جيبهِ ويسير ومما يُذكر ان هذه المشاهد كانت تتم بدون ان يتخللها ضوضاء ما عدا ان بعض الشيوخ كانوا يصرخون باصواتٍ محزنة ناهين رادعين ويرفعون ايديهم نحو السماء قائلين . يا الله . يا الله . وكانوا يكررون هذا النداء من غير انقطاع

ولم يبدُ للناهبين مشقة وتعب ومزيد عناء الا في فتح مخزن شيكولاني فانهم قضوا اكثر من ساعتين في ضرب القضبان الحديدية الواقية لآناف الابواب بجميع انواع الالات والادوات ولم يتيسر لهم فتحها الا في نحو الساعة الخامسة ونصف مساء فدخلوا المخزن واخذ بعضهم يقذفون بالبضائع الى رفقائهم فيتناولونها ويرتبونها رُزمًا واحمالاً وكانت المنسوجات مطمح انظارهم في الغالب وبينما هم كذلك اذا بضابطٍ كبير (عرفناه فيما بعد انهُ طلبه باشا) مرَّ بعربتهِ من امام المخزن فلما وجد الناهبين على تلك الحال اوقف عربته ونزل منها ثم دنا من اولئك الاشقياء واخذ يضربهم بحد السيف فتبددوا شذر مذر وبعد ذلك دخل الى المخزن وطرد من كان فيهِ ثم آمر احد الجنود بما استدللنا منهُ انهُ اشار اليهِ بمنعهم من الدخول الى المخزن فلاح لنا انهُ اجابهُ سلبًا لاننا رأينا

طلبه باشا شهر السيف عليهِ وقصد ان يضربهُ بهِ فكان من الجندي ان فرَّ من امامهِ منهزمًا فتبعهُ الباشا حتى ادركهُ فانتزع منهُ بندقيتهُ ووضعها في عربتهِ وسار سالكًا جهة رأس التين ولم يصل الى طرف المنشية حتى عادت زمرة الاخلاط الى المخزن وكانوا مختبئين فيما وراء الاشجار وبعد مضي ربع ساعةٍ من الزمان اصبح المخزن بتمامهِ فارغًا من الالبسة والمنسوجات

ووقع اثناء ذلك حادثٌ يذكر وهو ان احد السودانيين لما خرج من المخزن حاملاً قطعةً من المخمل التقى بهِ احد العربان فانقض عليهِ ليسلبهُ ما سلب فتخاص فانبسط الثوب ما بينهما فامسك كل منهما بطرفٍ من طرفيهِ واخذ يجذب اليهِ الطرف الاخر فلما رأى البدوي نفسهُ متعبًا استلَّ مديةً وطعن بها السوداني فجندلهُ صريعًا يخبط بدمهِ فتدحرج حتى وصل الى قاعدة تمثال محمد علي وهناك حاول النهوض فاطلق عليهِ بدويان اخران الرصاص وتركاه قتيلاً في ارضهِ

وبقدر ما استطعنا ان نشاهد من خلال مفتصات النوافذ التي كنا نحاذر فتحها ظهر لنا ان غرف بيوت المنشية لم تنهب وان الناهبين لم يصعدوا الى المنازل الكائنة في الوكالة الجديدة ولا الى القنصلية الفرنسوية ووكالة ابرو والوكالة التي كنا فيها فانهم اقتصروا على نهب الطابقات السفلى من البيوت والدكاكين والمخازن

وفي نحو الساعة الخامسة انقبضت صدورنا من نظرنا الى اثنين من الرهبان العازاريين يركضان ووراءهما بعض الشبان الرعاع يتبعونهما واحدهما معصب الرأس وكانا يتلفتان اثناء ركضهما ويتعرجان اتقاء الحجارة التي كانوا يرجمونهما بها وعندما وصلا الى القنصلية الفرنسوية هجم عليهما احد رجال النهب السارحين في الطرقات والشوارع بهراوةٍ مرفوعة في يدهِ ولحسن حظهما تقدم احد الجند واوقف الهاجم عن فعلهِ وامر بقية الاوباش بالابتعاد عنهما فشكرا وانطلقا سالكين الطريق المؤدية الى ديرهما وعلمنا بعد ذلك انهما لم يتمكنا من الوصول الى الدير بل اختبأا في دار البوسطة المصرية يومين كاملين من غير طعام وبعد ان نهب مخزن شيكولاني اصبحت ساحة المنشية قفرًا بلقعًا وقاعًا صفصفًا وامسينا لا نرى فيها الأبعض من كان قد حملهم الجبن والخوف على عدم الاشتراك مع الاشقياء في النهب والسلب فكانوا يسيرون الهوينا ويتلقطون الامتعة والثياب الساقطة من ايدي الناهبين ثم يسلكون شارع شريف باشا وشارع البوسطة الايطاليانية ويتركون الساحة قفراء

وكان منظر الساحة بعد وقوع تلك الحوادث محزنًا فان الظلام الحالك كان مخيمًا عليها من جميع جوانبها واطرافها ومصابيح الغاز غير منوَّرة كما في الليلة السابقة

وفي نحو الساعة السابعة ونصف مساء اخذنا ان نرى في الجهة الكائنة ازاءنا ضوءًا ساطعًا مخيفًا فظننا ان بناية الن والدرسن قد احترقت وحينئذٍ صعدنا الى السطوح لنتحقق اذا كانت النار قد شبت في غير تلك البناية ولم نطلق النظر نحو الجهات الاربع حتى اندعرنا من المنظر الذي بدا لدينا فان النار كانت مضطرمة في شارع شريف باشا وشارع البوسطة الايطاليانية وشارع

السبع بنات وسكة المنشية الصغيرة وشارع العطارين فتصورنا ان الابنية المحترقة ان هي الا ابنية الانكليز احرقها الوطنيون انتقاماً فسكن روعنا بهذا التصور وبوجودنا مقيمين في دار مختصة بادارة الدومين (اي من الاملاك الاميرية) اعتقدنا اننا لا نصاب باذى واننا سنعفى من كل رزيئة او بلية فكنا بناء على هذا الاعتقاد نشاهد عن بعد الاماكن المشتعلة بصفة متفرجين غير خائفين من ضرٍ او خطر على ان وهمنا لم يكن الى وقتٍ طويل فاننا عندما صعدنا الى سطوح المغسل الذي كان قائماً في وجه قسم عظيم من المدينة ارتعدت فرائصنا خوفاً من وصول النار الينا ووقوعنا في الخطر فاننا رابنا النار متقدة في فندق اوربا (اوتيل دو روب) وهي من الابنية الاميرية المختصة بادارة الدومين فحينئذٍ صمم كثيرون منا على الفرار فابيت ذلك واصرّيت على وجوب البقاء في الوكالة الى ان يصير الحادث اشد دفعاً لنا الى الفرار وقد جعلت ذلك حجةً لاختيار مكانٍ نلجأ اليه ثم قلت للحضور اننا ما دمنا ناجين من النار بعيدين من خطر اتصالها بنا لا نخرج من مستقرنا ومع ذلك فلنقرر منذ الان ما يجب ان نقرره لنلزم حالةً واحدة فاستحسن الجميع رأيي واستصوبوه . وبعد ذلك نزلنا الى فسحة البيت قصد الاجتهاد بفتح باب صغير والخروج منه الى السكة الواقعة على خط دير الراهبات فان في الخروج الى ساحة المنشية من الباب الشرعي تعرضاً للموت وبمعاناة الصعوبة الشديدة والاتعاب الجسيمة تمكنا من فتح ذلك الباب الصغير وقد كان محوره وزلاجه مصدئين صعبي الانفتاح

ثم صعدنا ثانيةً الى السطوح للوقوف على ما صارت اليه حالة النار في الاماكن المشتعلة فرأينا وكالة ابرو الكائنة تجاه وكالتنا ملتهبة من اربعة اطرافها بل رابنا نصفها محترقاً وكان ينبعث منها رائحة قتالة تصل الينا ممزوجةً بالحرارة الشديدة التي كانت منتشرة في ساحة المنشيـة .

ورابنا على ضوء النار الساطع زمرةً من رجال الحريق يضرمون النار في مخزن شيوكولاني وكانت هذه الزمرة مؤلفة من رجلين متعممين وثلثة او اربعة من الرعاع يبلغ عمر كل منهم من ١٢ الى ١٤ سنة وكان في ايديهم قربة من الغاز ومصباح موقد فجمع الاولاد ما كان منثوراً في الارض من بقايا الامتعة والاخشاب المنهوبة وجعلوها فوق بعضها ثم سكبوا عليها زيت الغاز ودنا احد الرجلين منها فاشعل الزيت بشمعة فاضطرمت النار وبعد ذلك اتجهت الزمرة سالكة الطريق المؤدية الى مخزن شتين

وبينما نحن ازاء هذا المشهد اذا بالموسيو اشيل كاتب الموسيو ربدباديس صرخ فجاةً وقال ان النار في محل ناتانسون فنظرنا واذا هي في محل كلٍ من ناتانسون وغاستون وبريجي تشتعل وترسل شرارها الى الطبقة العليا فترتب على ذلك تصميمنا على الفرار وكانت الساعة اذ ذاك ١٢ من الليل

وقصارى القول ان النار كانت قد لعبت في ثلث جهات من الوكالة الجديدة وسرت من مخازن شيوكولاني الى دار القنصلية الفرنسوية التي كان قد اعرض عنها الناهبون ومضرمو النيران واتصلت في وكالة ابرو بالطبقة الثانية

منها وفي الجملة ان ابنية ساحة المشية كانت برمتها قبسًا متقدًا ينبعث منها دخان خانق قتّال كاف لمن كان مركزنا في حمله على الفرار وان كان لا يزال ناجيًا من هول الحريق

واتفق ان هبت في تلك الليلة ريح شديدة غير اعتيادية ساعدت المحرقين على انفاذ مقاصدهم فلما عظم الخطب واشتد المصاب لم يبقَ لنا الا المسارعة الى النجاة فنزلنا من حيث كنا وخرجنا من الباب الصغير وبينما كنا سائرين في طريق جامع العطارين اذ رأت السيدة ب . . . ثلثة عساكر مقبلين نحونا فدنت منا وقالت لنا بصوت هامس خفي «اهربوا اهربوا هاهم مقبلون». وكانت تلك الطريق لحسن الحظ لم تزل مظلمة فانسللنا منها بسرعة من غير ان ينظرونا ولكنهم كانوا قد ادركونا فقبضوا على الجارية وامسكوا بها من ذراعها ثم قالوا لها بخشونة (الى اين ذاهبة) فاجابتهم انها فرت من بيتها لاضطرام النار فيه فسألوها (هل انتِ مسلمة ام مسيحية) فاجابتهم (اني مسلمة) فقالوا لها اذ ذاك اتبعينا فنجيك فابت وقالت لهم اني متوجهة مع صديقتي التي هي مسلمة ايضًا فانها دعتني للذهاب معها الى مقر والدتها المقيمة في احدى الحدائق خنيرةً مأجورة فقالوا لها حينئذٍ اذهبي واسرعي في المسير فان النار سارية وستخترق المدينة بجملتها فانسلت ولحقت بنا ولولا ذكاء هذه الجارية ما نجونا من ذلك الخطر . ثم سرنا حتى انتهينا الى طريقٍ كان قد شرع في تصليحها رجال مصلحة الطرق ولما كنا على غير علمٍ بما كان جاريًا فيها من الاصلاح شعرنا بوجود خندقٍ عميق محتفر لانشاء قناةٍ فيه فقضينا وقتًا غير يسير في الخروج من تلك الطريق وكنا مع ذلك شاكرين حامدين لعدم التقائنا باحد فيها

وكان في نيتنا أن نلجأ الى المستشفى الاوربي ولكنا عدلنا عن هذه النية اثناء الطريق مخافة ان يضرم القوم نارهم فيه فنكون قد وقعنا في بلاء اعظم ثم تقرر بيننا ان نلجاء الى حديقةٍ ما فارتأت السيدة ب . . ان نذهب الى حديقة الجمعية الارمنية فاتبعنا رأيها وسرنا وعندما وصلنا الى باب كنيسة القديسة كاترين لقينا زمرةً من رجال الحريق مؤلفة من مثل الرجال والاولاد الذين اشرنا اليهم سابقًا فصاح احدهم بنا وقال « أانتم مسلمون » فاجابت الجارية « نعم نحن مسلمون » فقالوا « طيب » واخذوا في اتمام مسيرهم

ولوصولنا الى مشبكات الحديقة الحديدية رأينا اثنين من الروم الارثوذكس مقبلين عليها التماس الالتجاء وكان في الجانب الاخر من الحديقة نفر كثيرون من الارمن فسألناهم ان يقبلونا عندهم فاجابونا انهم يتمنون ذلك ولكن البواب تركهم وتوجه بمفتاح الباب فعند ذلك خطر لي ان اقدم لهم شيئًا من قبيل الاطماع في المال لعلهم يفتحون فدفعت اليهم جنيهًا فكان منهم ان صرخوا متأسفين لعدم وقوع عذرهم موقع القبول او حلول كلامهم محل الصدق ثم قالوا لنا ان كنتم لا تصدقون ادخلوا الحديقة من فوق المشبكات الحديدية اذا استطعتم فنقبلكم . اما الجنيه فقبلوه واما نحن فانتظرنا قليلاً لازمين الجمود الى ان تمر الزمرة الجديدة التي كانت قادمةً نحونا وبينما نحن نتوقع مرورهم من غير ان ينظرونا اذا بهم وصلوا الينا وسألونا كاولئك

«أأنتم مسلمون» فاجابهم الجارية بما اجابت بهِ الزمرة السابقة فساروا بدون ان يقفوا وكنا نحن ثمانية اشخاص اي اكثر منهم عدداً وهو امرٌ بعثنا على الارتياب في اقتناعهم بجواب الجارية اذ ربما كانوا قد تظاهروا بالاقتناع خشية ان يلقوا منا بأساً لا يقوون عليهِ . ولا خفاء ان قتل كثيرين من الاوربيين كان ميسراً مسهلاً في ايام تلك النكبات بانفرادهم وعدم اجتماعهم فكان الفتكة يبطشون بهم واحداً بعد آخر

وبعد ارتحالهم عنا تسلقنا مشبكات الحديقة ولكن بصعوبة تامة وقد صعد الرجال قبل النساء اعتقاد انهُ لا خطر عليهنَّ كالرجال اذا بقين متأخرات

اما تسلق الرجال ونفوذهم الى ما داخل الحديقة فكان سريعاً ولكن بعناء تمزقت بهِ جلودهم وتخدشت اجسادهم وهكذا كان صعود الجارية واما السيدة ب . . فقاست شديداً بالنظر الى اكتناز جسمها حتى انها لم تصل الى دار الجمعية الارمنية بعد نزولها الى الحديقة الأ وهي على حد الرمق الاخير فانها انطرحت في الارض هناك مغشياً عليها فبادرت النساء اللواتي كنَّ ملتجئات اذ ذاك واعتنين بامرها الى ان عاد اليها صوابها

ولقد لقينا من اهل ذلك المقام ترحيباً واكراماً وكان قد التجأ اليهِ نحو ستين نسمةً من كل جنسية ومذهب فيجدر بي لذلك ان اذكر ما شاهدت من العناية التي كان يبذلها كلٌّ من كاهني الجمعية (وهما الاب غريغوربوس والاب كابوسس افثيان) تخفيفاً لمصائب الملتجئين وتلطيفاً ومن اثار عنايتهما انهما تخليا عما كان لديهما من الفرش وانواع الاغطية والبسط والطنافس واعطياها لهم ففرشت بها قاعتان كبيرتان احتضنتا القوم ومما يذكر ايضاً ان احدهما الاب افثيان تخلى عن فراشهِ الخصوصي للجارية المسلمة عايدة . اما دخولنا الى دار الجمعية فكان في نحو الساعة الثانية بعد نصف الليل

وقد كان من اهتمام هذين الكاهنين انهما انشآ خدمة وقاية حقيقية بكلِ ثناء فانهما عينا في الحديقة رجالاً مسلحين بالسكاكين والغدارات المسدسة والمراوي للمحافظة على دار الجمعية ووقايتها من غدر الرعاع فكانوا يجولون في الحديقة ويخطرون فيها بغير انقطاع ومع ذلك فكنا جميعاً من داخل المكان رجالاً ونساء مستعدين لان نرسل الى عالم الارواح ارواحاً قبل ان تدركنا ايدي القاتكين

وبالرغم عن سهر اصحاب المكان وحرصهم على راحتنا ومحافظتهم على حياتنا لم يرقد منا الاَّ النزر اليسير وكثيرون من الملتجئين صرفوا بقية الليل من حول قبر يعقوب بك وتحت طُنُف المعبد الصغير (كابلاً) متأملين الحال التي كنا فيها بمزاجٍ سوداوي . وكان يطرق اذاننا تارةً صوت سقوط البيوت وطوراً اصدى اطلاق البنادق وفيما روى لنا الخفراء الذين كانوا يأتوننا بالاخبار من حينٍ الى آخر ان ذلك الصدى هو ضوضاء مذبحة المسيحيين الذين التجأوا الى كنيسة القديسة كاتربنا او الى المستشفى واخبر آخرون ان الانكليز خرجوا الى البر واخذوا يقتلون الثائرين برصاص بنادقهم

وكنا بين ذلك الخوف وهذا الرجاء نفشط تارةً وننتعش حيناً ولكن جانب الخوف كان

راجعًا على الجانب الاخر فان ظهور حرائق اخر في شارع العطارين وشارع السبع بنات جعلنا على يقين ان المدينة كانت لم تزل الى ذلك الوقت ميدانًا للفظائع

وما اقبل صباح الخميس الاّ والنفوس منا بالغة حدّ الزهوق فتيقنّا ان الانكليز لابد ان يخرجوا في ذلك اليوم الى البر وكنا من قبل معتقدين انهم لم يرموا المدينة بنيران مدافعهم قصد ردمها وتعريض التعساء الباقين فيها للاخطار والاهوال . فاخذنا من ثمّ ننتظر خروجهم وقدومهم على غير طائل

وفي صباح الجمعة أُخبرنا ان الامان أُلقي في المدينة وان الامن عاد اليها والراحة انتشرت في جوانبها ومع ذلك لم نتمكن من مشاهدة العساكر الانكليزية الا في نحو الساعة السادسة مساء . وكان الذين رأيناهم قومًا مستصحبين ثلثة مدافع ومنطلقين بها الى جهة باب سدري وكانوا نحو مائة رجل من الشبان المترعرعين يبلغ كل منهم من ١٨ الى ٢٠ سنة . وقد رأيناهم في حالة الحر الذي كانوا يعانون من شدته تحت ثيابهم الضخمة ولم تكن لهم هيأة القوم الثائرين الداخلين الى مدينةٍ دكوا حصونها ودخلوها بالقوة

وعند ما مرّوا من امام منزل الموسيو بوربون السفرنوي قدم لهم اشربةً مرطبة فتبسموا لها ولكنهم لم يتناولوا منها شيئًا فانهم كانوا بعيدين عنها ساعة قُدّمت لهم ممنوعين من الدنو منها

ولا يوصف ما بذلهُ الاباء الارمن من الغيرة والعناية اللتين دلتا على سمو مكارمهم فانهم خصصوا كل ما كان في حوزتهم لخدمة المنتجئين ولسوء الحظ كانت مؤنتهم قليلة ومع ذلك لم يخلوا بتقديمها لهم مكتفين منها بالقدر اليسير ولما نفد الزاد تنكر اثنان او ثلثة من الخفراء بالزي الوطني وخرجوا الى السوق فابتاعوا من الخبز بثلثة فرنكات ماتساوي قيمتهُ خمسة فرنكات ولا حاجة للقول باي دقيقٍ كان ذلك الخبز معجونًا

وعند ما وصلت بنا الحال الى هذه الدرجة انبرت النساء الارمنيات وتجردت لاصطناع ارغفةٍ من الخبز بدون خمير فكنّ يشوينها على اغطية الحلل ويدفعونها الى الجياع وهكذا استعضنا بالارز المغلي مع قليل من البقدونس عن مرق اللحم وقضينا على هذه الحال يومين كاملين وهما الخميس والجمعة

وكان الكاهنان المومأ اليهما يقومان باعداد المائدة وتقديم الطعام وما لا يجب ان يفوتني ذكره في هذا التقرير ان سعادة تاغور باشا اغوبيان عدما عاد الى المدينة من كرموس ارسل الينا لحمًا وخبزًا اما عودته اليها فكانت في يوم السبت الواقع في ١٥ لوليو

وفي الخميس التالي اتى سعادته مع قرينة دار الجمعية وكان كلاهما مترديين بالاثواب العربية وفي اليوم الثاني وصل الينا لطيف افندي آتيًا من دمنهور فاخبرنا انهُ رأى ضفاف الترعة مغطاة بجثث القتلى وكانت جثث رجال النهب الذين قتلهم العرب اثناء الطريق واستولوا على غنائمهم . واخبرنا ايضًا انهُ رأى في شارع الباب الشرقي عددًا كثيرًا من القتلى وكان اكثرهم من السوريين سكان محلة كوم الدكة وانهُ رأى امام مخزن شيرفوليا قتيلين من الاوربيين كان الثائرون قد فتكوا بهما باقتحامهم مخزن

سيدها حيث تركها خفيرين وقص علينا اموراً كثيرة منها انه ابى ان يشتري فرساً من جياد الخيل بخمسة فرنكات

وفي صباح السبت خرجنا من المضيف الارمني قصد الوقوف على ما صارت اليهِ حال منازلنا بعد شبوب تلك النيران الهائلة فدخلنا المستشفى الاوربي وهناك سررنا كثيراً بلقاء عدد غفير من الفرنسويين الذين كانوا قد التجأوا اليهِ منهم اردوين بك والموسيو لابومراي والموسيو جاكين ودوتربو بك وغيرهم ثم دنت مني رئيسة المستشفى وقدمت لي رغيفين من الخبز فقبلتهما بشكرٍ فائق

ورأينا النار اثناء مسيرنا مستمرة على الإفناء والإتلاف ولاح لنا انها كانت في ذلك الوقت حديثة الاتقاد وفي الواقع ان الرئيسة اكدت لي ان القوم لم يتمكنوا من اضرام النار في منزل الخواجا غوغو الكائن قبالة ملعب البوليتياما الاَّ في صباح السبت

ورأينا ايضاً بعض القتلى يخبطون بدمائهم في عدة شوارع وطرقات منهم ثلثة من العساكر المصرية كانوا منطرحين في رصيف مخفرة العطارين ووجوههم لاصقة بالارض ومنهم بواب كان في حالة النزع امام باب وكالة طوسون باشا وفي الجملة ان المناظر التي مررنا بها كانت محزنة موثرة تنقطع لها الاحشاء

وكنا بين الدقيقة والاخرى نرى جدران البيوت تتساقط وهو ما ينطق بما كان من الخطاء بالتجول في الشوارع والطرقات في ذلك الوقت

وبعد ان تفقدت منزلي وتأكدت انه لم يصب الاَّ بمصاب النهب فقط رجعت الى دار الاباء الارمن متأثراً من الفظائع التي كانت قد وقعت تحت نظري واقمت ضيف اولئك الكرام الى تاسع عشر لوليو وهو اليوم الذي سافرت فيهِ الى اوربا

وهنا لا بدَّ لي من القول اني بذلت الجهد في حمل اصحاب تلك المبرَّة على قبول شيء مني جزاء لاتعابهم فلم يقبلوا اثابهم الله . اه .

فصلٌ

الاميرة توفيده هانم

تقدم لنا ذكر المصاعب التي كان الخديو محفوفاً بها في سراي الرمل وما كان من الخطر عليهِ بما اثار عرابي باجرائه من اضرام النار فيها واطلاق الرصاص على كل من يحاول الفرار منها ولنأتِ الان في هذه السطور على استيفاء بقية ما يتعلق بتلك الاحوال المقيدة بسلاسل الاهوال فنقول

لما وصلت حال اهل السراي الى تلك الدرجة من الخطر عم الخوف فيها واستولى على نفوس اهلها بحيث كادوا يقنطون من النجاة وكانت الاميرة توفيده هانم حاملاً اذ ذاك فلما حاق بها من الخوف والرعب ما تخلع على اثره قلوب الرجال الاشداء اسقطت سقطاً فنقلت الى رأس التين ولم يمضِ على انتقالها الى مقرها الجديد يومان او ثلثة حتى توفاها الله فراحت شهيدة بغي العرابيين وعدوانهم وقد دُفنت في مسجد النبي دانيال بما وصل اليهِ الامكان من القيام بالرسوم اللائقة بمقامها الجليل وبعد شهور قليلة نُقلت بالاجلال والتعظيم الى مصر ودفنت

في مدفن العائلة الخديوية في القلعة

فصلٌ

سراي الحقانية

بعد وقوع حادثة ١١ يونيو السيئة الذكر رأى كل من رئيس مجلس الاستئناف المختلط الموسيو جاكوني والقاضي الموسيو بروير والنائب العمومي الموسيو فاشه ان يتخذوا الاحتياطات المقتضاة لحفظ قلوب موظفي المجلس من الخوف وحملهم على البقاء في مراكزهم بالرغم عن كل حادثٍ يحدث وذلك مراعاةً للقوانين وحرصًا على حقوق الخلق ولكنهم لما لم يروا للوسائل التي اعتمدوها تأثيرًا ونجوعًا ورأوا ان اشتداد الخوف في نفوس الموظفين سيفضي الى سوء العاقبة رخصوا لاكثرهم في الجلاء عن ارض الفتنة فهاجروا الى حيث قضوا مدة المخاوف في مأمنٍ من الخطر ولم يبقَ من اهل المجلس الا العدد اللازم للنظر فيما يستجد من الاشغال ثم انهُ لم يبقَ من القضاة الا الموسيو جاكوني والموسيو بروير والموسيو فاشه رغبةً منهم في حمل بقية الموظفين على الاقتداء بهم وعلى ذلك استمرت اقلام المجلس مفتوحةً الى مساء يوم السبت الواقع في ٨ يوليو وكان القناصل قد اعلنوا لابناء تابعيتهم الذين كانوا باقين في المدينة ان يلجأوا بما يمكنهم من السرعة الى السفن الراسية في مينا الثغر لما ان اطلاق المدافع على حصون المدينة كان قد تقرر وبلغ قراره اليهم فلم يعد اذ ذاك في وسع رئيس المجلس والقاضي والموسيو فاشه الا الامتثال فسافروا بعد ان اتخذوا ما في الطاقة من الوسائط الواقية لاوراق المجلس وسجلاته بحيث تبقى مصونةً من العطب اذا هجم الثائرون على المجلس ونهبوه او اضرموا فيه النار

ولما وصل الموسيو جاكوني الى السفينة التي قصدها كتب الى الاميرال سيمور يرجوه ان يرقب موقع المجلس ويعنى بجعل قنابله بعيدةً عنه لئلا تضر بهِ وان ينزل الى البر عددًا من ملاحيهِ للمحافظة عليهِ لما انهُ يحتوي على اوراقٍ مهمة تتعلق بمصالح جميع الاوربيين على اختلافهم جنسيةً ومذهبًا وكان قبل خروجه من المدينة اعلن للحكومة المحلية عزمه على السفر وطلب منها وقاية المجلس والدفاع عنه

اما السفن التي لجأ اليها الرئيس والقاضي والنائب العمومي المومأ اليهم ومن بقي بصحبتهم من موظفي المجلس فلم تخرج من البوغاز اثناء انقذاف نيران السفن على حصون المدينة في اليوم الاول من ابتداء العدوان ولكنها لما رأت في اليوم الثاني ان الانكليز لم يرسلوا احدًا من الملاحين الى البر وان الدخول الى المينا الداخلية والخروج الى المدينة لم يزل امرًا محظورًا وانها اذا استمرت مستقرةً في مكانها ربما طالت عليها تلك الحال ولحق بها الضرر سافر بعضها الى بورسعيد وكان شرار اللهيب اذ ذاك قد اخذ يتطاير في فضاء المدينة بما دلَّ على ان العرابيين قد اضرموا النار في جوانبها

وفي ١٥ يوليو دخلت مينا بورسعيد سفينة من سفن الانكليز الطرادة واعلنت ان قومًا من ملاحي الامركان واليونان والانكليز خرجوا الى البر وان القسم الاكبر من شارع الاوربيين اصبح مضغةً في فم النار وان قد قتل عددٌ كبير من المسيحيين فلما اتصل هذا الخبر برجال السفن

التي كانت راسية اذ ذاك في مينا بورسعيد اخذتهم الغيرة فاتوا بسفنهم مياه الاسكندرية وكان موظفو المجلس قد تملكهم القلق وتولاهم الاسف من جراء وقوع تلك الفظائع وذلك خوفاً على السراي من ان تمسها يد اللهيب ولكنهم لم يلبثوا ان عادوا الى صفاء البال بما رأوا يوم رجوعهم الى الاسكندرية من بقاء السراي سالمةً من العطب ناجيةً من الخطر وكان استقرار الملاحين الانكليز فيها واتخاذهم اياها مقرًّا من داعيات سرورهم بنجاتها اما الانكليز فكانوا قد تحصنوا فيها للذود عن انفسهم اذا عاود الثائرون اقتحام المدينة . وكان احد قادتهم قد اتخذ الفسحة الكائنة امام باب السراي مكاناً يحاكم فيهِ الجانين المشتركين في وقائع السلب والقتل فكان يقضي على من يتحقق جنايتهُ بالاعدام فيُعدم ويُدفن في ساحة المنشية

وفي اليوم السابع عشر من شهر لوليو أُعيد موقع المجلس المختلط الى ادارة رئيس مجلس الاستئناف والنائب العمومي اثر مخابرة حصلت بينهما وبين كبار القادة الانكليز ولكنهما تخليا عن قسمٍ واسع منه للفرقة التي حلت فيهِ بعد خروج الانكليز الى المدينة

وفي ١٨ منه عُقدت الجلسة الاولى برئاسة الموسيو بروير وحضور الموسيو بروكرونك وارمفلد القاضيين واكثر الموظفين فجرت فيهِ مشارعات مهمة واصدر المجلس عدة احكام مختلفة وهكذا عادت القضايا واحوال المرافعات والتداعي لدى المجلس المختلط الى سيرهـا الاول فكان ذلك من اعظم بواعث عود الامن الى نفوس الاوربيين القليلين الذين كانوا الى ذلك الوقت باقين في المدينة

وقد اخذ الناس يتساءلون بعد ذلك كيف ان سراي الحقانية سلمت من الحريق في حالة كونها ليست من مواقع الادارات الحاصلة على رضى العرابيين ثم ثبت لديهم ان الاوربيين الذين التجأوا الى بنك الانكلو اجسيان ووكالة « الايمبو بيلير » كثيرًا مـا دافعوا عنها بحيث امكنهم وقايتها من النار وقد كان في عدادهم كل من الخواجات جوسيو وروكاسرًا وموج وفيتاني وكبرارا وكثيرون من وجهاء اليونان

فصلٌ

حالة الاسكندرية بعد المصاب

بعد انتقال العائلة الخديوية الى قصر رأس التين استدعى الخديو بزهراب بك الذي كان يحسن التكلم باللغة الفرنسوية وعينهُ ترجماناً بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهِ ان يمنع ايًّا كان من الدخول الى القصر والخروج منهُ خيفة الغيلة وكان العرابيون في الواقع قد عينوا نفرًا منهم لتجسس الاخبار واستطلاع الحالة في السراي وارسال كتاباتٍ بها الى روساء الحزب العسكري الذين امسوا بعد دخول الانكليز ضاربين في كفر الدوار .

وقد عينت طغمة من الحراس لمنع الناس من التجول ليلاً في جوانب القصر ولكن لما كان الاعتياد على صرامة القانون صعب المراس في بادئ الامر كان الخفراء يضطرون الى استخدام السلاح حتى انهم رموا بالرصاص خادماً ورجلين من ساسة الخيل بينما كانوا يحاولون الخروج من القصر فتشكى الخدام على اثر ذلك من هذه المعاملة ورغب كثيرون منهم في المهاجرة الى

داخلية البلاد وقد كثر ايضاً تشكي الذين كان يظن بهم انهم جواسيس وبالرغم عن كل ذلك ابعد من السراي كل من كان محلاً للريب ولكن المخابرات بين جواسيس السراي والعصاة استمرت جاريةً من غير انقطاع ولذلك قرر قنصل انكلتره الجنرال والاميرال سيمور والمستر كولفن تعيين المستر اورنستين ترجماناً بينهم وبين الخديو وكان من واجباته ان لا يفارق السراي وان يرقب كل ما يجري فيها ويقدم به بياناً وكان يتناول الطعام على مائدة الخديو في الصباح والمساء.

اما المدينة فكان قد تبدل بهاؤها بمنظرٍ يفتت الاكباد ويدفع من القلوب موثرات الاسف فترتسم على الوجوه وكان الزاد قد اخذ في التناقص وعلى الخصوص الخبز بالنظر الى عدم وجود الخبازين ثم ان العصاة كانوا قد غيروا مجرى ترعة المحمودية فكان الخوف من انقطاع الماء ضغثاً على إبالة

ولم يتجرأ الاوربيون على العودة الى المدينة بعد انتهاء القتال وكان السكان القليلين الذين اتوها بعد انقضاء المصاب من ملاحي السفن الراسية في المرفاء كاليونان والامركان والالمان والانكليز على ما مر بنا في غير هذا الموضع

وكانت ادارات المصالح معطلة فان مجلس الصحة انفض على اثر العدوان وكان اكثر الاطباء قد هاجروا من المدينة فتركت المستشفيات ومن فيها من الجرحى والاعلاء تحت رحمة الاقدار لا مجد لهم ولا معين

اما الحصون فكانت ملأى بجثث القتلى وكان الهواء يحمل رائحتها فتضر باهل الاماكن المجاورة حتى ان سكان قصر رأس التين كثيراً ما آثروا الخروج منه الى حيث لا يشتمون رائحة مضرة بالصحة فأمر الخديو لذلك ان تؤلف لجنة صحية تبحث فيما يجب التعويل عليهِ من الوسائل الواقية فتألفت هذه اللجنة باهتمام السير كولفن وانتظم فيها الدكاترة الاوربيون الموظفون في ادارات الحكومة الصحية وهم اردوين ودوتريو ولوندنسكي ثم اضيف اليهم الدكتور ماكي طبيب قنصلية انكلتره الجنرال

وكان في جملة الذين تقدموا لمعاونة هذه اللجنة الموسيو دوفين رئيس المدارس الذي بقي مقيماً في الاسكندرية اثناء الحوادث

ولقد كانت المهمة التي عُهد بها الى هذه اللجنة محفوفة بالمصاعب في بادئ الامر فمنها ان اللجنة لم تجد وسيلة سهلة الاستخدام لنقل جثث الادميين والحيوانات التي كانت مطروحةً في الشوارع او مدفونةً تحت الردم وقد اوقعهم فقدان هذه الوسيلة في بعض الارتباك فان الروائح التي كانت تنبعث منها لم تكن الاَّ لتزيد الخطر على السكان وتتوعد بالعلل والامراض من نجا من السيف والرصاص

وفي ١٥ يوليو مرَّ الدكتوران اردوين ودتريو بشارع السبع بنات فرأيا كلاباً مجتمعة على جثث من جثث الادميين فرمياها بالرصاص واتفق في ذلك الوقت ان مرّت بهما عربة فاوقفاها ونقلا اليها الجثث بايديهما

ولم يكن لدى اللجنة موظفون او ادوات تستعين بها على دفع تلك المصاعب الاَّ ان ثبات اعضائها وانقاد غيرتهم مكناهم من التغلب على بعضها

وكانت اللجنة تلتئم في محل الخواجات عائدة الواقع عند زاويةٍ في شارع شريف باشا وتقرر ما تراهُ ملائمًا للتنفيذ وكان الاطباء ماكي واردوين ودوتريو ولوندونسكي يتفقدون في كل يوم عددًا كثيرًا من الاماكن التي حدثت فيها الفظائع ويلاحظون بانفسهم امر النقل والدفن وقد تعهدوا الحصون وجرى امامهم دفن ما كان فيها من الاجساد المنتنة ومما يستحق الذكر ان الدكتور ماكي سهل سبل المخابرة بين اللجنة ورجال القوة الانكليزية فعدَّ عملهُ من الاعمال الاثيرة . اما الجرحى فقد تم نقلهم يومئذٍ من الازقة وغيرها الى المستشفيات

هذا ما كان من شأن اللجنة الصحية وغيرها بعد مصاب الاسكندرية واما ما كان من اجراآت الانكليز بعد ذلك مما لم نستوفهِ في محلهِ مراعاةً لمقتضى الحال فهو ان الملاحين الانكليز بعد ان خرجوا الى المدينة قبضوا على مفاتيح ابوابها وحلوا في جهاتٍ مختلفة منها وكانوا قبل ذلك قد اتخذوا سراي الحقانية مركزًا لهم .

وبعد ان استقروا في المدينة كتب روساؤهم الى روساء الملاحين اليونان والامركان والروس والالمان ان يسترجعوا رجالهم من البر ليكونوا وحدهم مستقلين في العمل فعاد كل من هذه الاقوام الى سفنهم اجابةً لطلب الانكليز

ولما تم للانكليز الانفراد في المدينة طفقت جماعات منهم تطوف جوانبها وتسوق الى المجلس الاعلى كل من وجدت فيهِ موضعًا للشبهة فكان المجلس يحاكمه (على ما مر بنا قبيل هذه السطور) ويقضي عليهِ بالجزاء وتنفيذه

وفي ١٧ لوليو علق في شوارع المدينة الاعلان الاتي تعريبهُ :

(اعلان من رئيس القوة البحرية)
(الانكليزية)

ان اميرال القوة البحرية الانكليزية في البحر المتوسط قد كلف من قبل الجناب الخديوي بالمحافظة على الراحة موقتًا فهو لذلك يعلن للجمهور ما هو آتٍ

قد فوض رئيس كل فرقةٍ من العساكر التي تطوف المدينة ان يأمر باطلاق الرصاص على كل من وجده بحرق بيتًا او مغلقًا او غير ذلك

وتقرر ان يساق الى السجن كل شخص وجد في حالة النهب او كل من وقعت عليهِ شبهة هذه الجناية او اتى عملاً مغايرًا للقانون

يرمى بالرصاص كل من قبض عليهِ مرتين لمغايرة بدت منهُ في الاحوال التي تقدم ذكرها

كان من كان لديه ما يشكو منهُ عليهِ ان يرفع شكواه الى مقام الضبطية حيث ينظر فيها من غير اهمال

وختم هذا الاعلان بما يأتي :

وان الاميرال يرجو كلاًّ من سكان المدينة اوربيين كانوا او وطنيين أن يعاونوه على تأييد النظام وهو يأمل ان يعود كلٌّ الى اشغالهِ وتجارتهِ كما في العهد السابق . اه

وعملاً باحكام هذا الاعلان أُلقي القبض في ١٧ لوليو على سبعة اشخاصٍ كانوا يحرقون وينهبون ثم رُموا بالرصاص ودفنوا في ساحة المنشية

وفي ١٩ لوليو عاد احمد باشا رأفت الى وظيفتهِ بصفة محافظ للاسكندرية بدلاً من

ذو الفقار باشا الذي عُين بعد ذلك رئيس قلم التشريفات الخديوية . وعين الموسيو مارك رئيسًا للبوليس خاضعًا لرئاسة اللورد شارلس برسفور

ومن ذلك الحين بدئ باعادة النظام والراحة الى المدينة وكان الاهتمام منصرفًا بداءة ذي بدء الى تنظيف الشوارع والازقة من الردم الذي كانت مغطاةً بهِ ثم فتحت اكثر الادارات وعاد اليها موظفوها

وفي ١٧ يوليو فتحت مكاتب البريد المصري وعلى الجملة ان الهمة كانت مبذولة في احياء مائت الامن ورد فائت الراحة على ان العامل الاكبر في وقوع تلك المكاره كان لم يزل عاصيًا على الخديو ففي ١٧ يوليو كتب راغب باشا الى الاميرال سيمور بما يأتي

(كتاب راغب باشا الى الاميرال سيمور)

حضرة الاميرال

لي حظ الشرف ان اعلن لحضرتكم ان عرابي باشا يشتغل الان باعداد وسائل للدفاع وذلك مخالفةً لاوامر الجناب الخديوي وقد صدر لهُ الامر بالكف عن هذه التجهيزات فكونوا اذن على علمٍ بان الجناب الخديوي عزم على عزله من وظيفته فهو لذلك وحده المسئول عما يحدث فارجوكم ان تعانوا مآل هذه الرسالة الى حكومة جلالة الملكة

الامضاء   راغب

صدر بسراي رأس التين في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢

اما الامر الذي اصدره الخديو لعرابي بالامساك عن جمع العساكر واعداد التجهيزات فهذا نصه :

(نص كتاب الخديو الى عرابي)

اعلموا ان ما حصل من ضرب المدافع من الدونمة الانكليزية على طوابي اسكندرية وتخريبها انما كان السبب فيهِ استمرار الاعمال التي كانت جارية بالطوابي وتركيب المدافع التي كلما كان يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها والان قد حصلت المكالمة مع الاميرال فافاد بانهُ ليس للدولة الانكليزية مع الحكومة الخديوية ادنى خصومة ولا عداوة وان ما حصل انما في مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدونمة وانهُ اذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممتثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة اسكندرية اليها ولذلك اذا حضرت عساكر شاهانيـة فالحكومة الانكليزية تحترمهم وتسلم اليهم المدينة فقد تحقق من هذا ان الدولة الانكليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وانهُ تقرر من جميع الدول المعظمة في المؤتمر بانهُ لا يصير مس امتيازات الحكومة ولا حريتها ولا مس حقوق الدولة العلية بل هي تبقى ثابتةً لها كما كانت وان يصير ارسال عساكر شاهانية لاجل استتباب الراحة بمصر فلذلك يلزم ان تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التي تجرونها بوصول امرنا هذا وتحضروا حالاً الى سراي رأس التين لاجل اعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب امرنا هذا ومـا استقرَّ عليهِ رأي مجلس النظار

فكتب اليهِ عرابي بما يأتي

(كتاب عرابي الى الخديو)

(بحرفيتهِ)

مولايـ

في شريف علم مولاي المعظم ان المحاربة التي وقعت بيننا وبين الانكليز انما تسببت عن طلبات من الاميرال الانكليزي وبلغت مسامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقـد تحت رئاسة سموكم بحضور كثيرٍ من ذوات البلاد المنتخبين ودولتلو درويش باشا نائب الحضرة السلطانية ولما تحقق عند جميعهم ان هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد قرَّ رأيهم على معارضة طلب الاميرال ولو ادى ذلك الى الحرب وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور لزوم زيادة خمسة وعشرين الف عسكري وصدرت الاوامر الى المديريات بطالبهم وقرر المجلس ايضًا انهُ لا تطلق المدافع من جهتنا الاّ بعد اطلاق خمسة مدافع من السفن الانكليزية ولما ابتدأت السفن باطلاق النيران على مدينة اسكندرية لم نقابلها الاّ بعد عشرين طلقة ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب ادنى استعداد لاستمرار الاوامر بعدم الاستعداد ثم بعد ذلك اعلن حضرة رئيس مجلس النظار وناظر خارجية حكومتكم الى جميع جهات الادارة بان تجعل البلاد حربًا مع الانكليز وانها صارت تحت الاحكام العسكرية كما هو حكم القانون زمن الحرب فبهذه الاسباب يا مولاي تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانكليز بوجه الحق والشرع ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها ادنى تحقير ولا ازدراء بالدونغة كما هو معلوم لدى عظمتكم وانما كان الحرب عدوانًا من الانكليز على الحكومة التي لم يبدُ منها ادنى شيء يستوجب الحرب فان كان الاميرال في مخابرتهِ مع سموكم اظهر انهُ عدل عن المحاربة الى المسالمة فذلك بعد وقوع الحرب يعد طلبًا للصلح وسعيًا في تجديد العلاقات ولا يجوز ان يكون انكارًا للحرب بالمرة وتبرؤًا من العدوان بعد وقوعها ولا شك في اني اوافق على افكار سموكم في الميل الى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة وان كان الاميرال بريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد ان تخربت بمدافع السفن الانكليزية هدمًا وحرقًا فها هو جيشها المنظم الذي لم يقع منه ادنى امر يخل بنظامهِ مستعد لان يستلمهـا بعد براح المراكب عن مياه اسكندرية وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري كما وافق ذلك رأي سموكم اولاً حتى تفارق المراكب السواحل المصرية خوفًا مما عسى ان يحدث من قبيل ما سبق فقد صارت الحادثة الماضية برهانًا جليًا على ان الوعد بالمسالمة من الانكليز لا يمكن كمال الثقة بهِ وانمـا هو لاجل شغلنا عن الاستعداد واقتراح مطاليب مضرة بمصالح البـلاد وانني كنت اتمنى ان اتمثل بين يدي عظمتكم لابداء هذه الملحوظات لكن من الاسف انهُ تحقق عندي من الاكتشافات الحقيقية ان مدينة اسكندرية مشغولة الان بعساكر الانكليز فمن المعلوم عند مولاي انهُ لا يمكنني الحضور لتلك المدينة لهذا السبب فاذا حسن لدى مولايـ فليصدر امرهُ السامي بحضور حضرات النظار او سعادة رئيس مجلس النظار الى مركز الجيش

للمداولة في هذا الامر لنكون على بينةٍ من الحقيقة حتى يمكننا بعد ذلك صرف العساكر وترك التجهيزات الحربية والحضور الى المدينة والامر لمن لهُ الامر افندم

وبعد ان ارسل هذا الجواب الى الخديو كتب الى يعقوب سامي وكيل الجهادية بما يأتي نصهُ : قال

(كتاب عرابي الى يعقوب سامي)

لا يخفى على سعادتكم ما حل بالديار المصرية الشاهانية من البلاء الذي كان نتيجة الدسائس التي كانت عاقبتها جلب المراكب من بلاد الانكليز قصد العدوان على بلادنا الاسلامية وعند حضورهم واقامتهم بثغر اسكندرية اخذوا في اسباب اقتراح التكليفات الباهظة علينا مثل امرهم لنا بتنزيل المدافع وتقليل القوة المدافعة عن الدين والوطن وكل ذلك ونحن بل وكل افراد الامة المصرية لا تدري من اين تساق الينا هذه البلايا وتسطو علينا هذه الرزايا حتى اجتمع بامر الحضرة الخديوية مجلس فوق العادة مؤلف من حضرات النظار وعدد غفير من حضرات الذوات الجربين تحت الرئاسة الخديوية ولدى وضع اقتراحات الانكليز في المذاكرة قرر هذا المجلس المشار اليهِ عدم خذلان هذا الدين والمدافعة عن الدين والعرض والوطن وكان ذلك بحضور حضرة المشير المفخم درويش باشا المندوب من طرف الحضرة الملوكية وبعد ان تمت هذه المذاكرة فاجأتنا مراكب الانكليز بضرب المدافع على مدينة الاسكندرية ولما تم عدد المطلوقات عشرين كلة وكانت المدافعة واجبة شرعاً قابلناهم ايضاً بالضرب وانتشب الحرب بين الفريقين نحو الاحدى عشر ساعة (١) حتى دمروا اغلب طوابي الثغر المذكور واحرقوا مساكنهُ ولما تلفت محلات اقامة العساكر من رمي الكلل وحصلت المدنة انسحبت عساكرنا من بعد ان فرّت جميع الاهالي من مساكنهم حافين حاسرين رؤوسهم وتوعدنا الانكليز المذكورون بانهم بعد ساعةٍ ونصف ان لم نعطهم باقي الطوابي والاَّ احرقوا البلد عن آخرها وبعد ان بارحنا المدينة وخلفنا البلد خاوية على عروشها وبعد انسحابنا ما نشعر الاَّ وحضرة الخديو اخذ حرمه واثاث منزله وتوجه صوب العدو جهة راس التين واخذ النظار وعساكر الحرس الذين كنا عيناهم لحفظهِ وعند وصولهم الى رأس التين استقبله عساكر الانكليز بالترحاب وفي الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرساً عليهِ من الاسلحة واستنزلوهم بامره حتى شوهد ان عسكرياً انكليزياً راكباً حصاناً وصاحبهُ المصري رجلاً جارياً بصفة السائس فمن كل هذه العلامات ظهر ان الذي ساق هذا البلاء علينا هو حضرة الخديو لا محالة (كذا في نص الكتاب) والدليل على ذلك انهُ انتهز فرصة كوننا في ترتيب الجيش للمدافعة اذا حصل الهجوم براً وامر سعادة رئيس النظار المحجور عليهِ هو واخوانه بامر حضرته من طرف العدو ان يكتب منشوراً لكافة ارجاء الحكومة مضمونهُ ان الحالة تحسنت فامر اهل الاسكندرية بالعودة الى مواطنهم واردفهُ بامر غيره يأمر الناس بهِ ان لا يساعدوا طلبات الجهادية ولا يرسلوا

---

(١) وفي التقارير الحربية الافرنجية ٨ ساعات

لم تجهيزاتهم الحربية بدعوى حصول الصلح بينه وبين الانكليز ومن طرفٍ آخر نرى عساكر الانكليز مستخدمة عساكر حرسه بصفة مرشدين في انحاء مدينة اسكندرية التي اخربوها يقتلون كل من يقابلهم من المسلمين ويدمرون سكك الحديد وينهبون مخازن الميري ويسلبون الحريم والاطفال وما كفاه ذلك حتى آمر ناظر مخبز اسكندرية بارسال الخبز الى عساكر الانكليز وقطعه عن عساكر المصريين فمن كل ذلك علم للجميع ان مقصوده فناء اهل هذه المدينة بيد الانكليز انتقامًا لما من الرعية السيئة البخت ولما شهدنا هذه الاجراآت ارسلنا لسعادتكم صورة التلغراف الذي ارسله لنا وردّه الذي أُرسل منا اليهِ لكي تعقدوا مجلسًا من الذوات والعلماء والاعيان وتوضع هذه الاحوال في المذاكرة وتقروا رايكم وتحرروا قرارًا بما ترونهُ في صالح الامة وصلاحية تولية مثل هذا الوالي عليها وهل يجوز شرعًا ما هو حاصل منهُ ام لا وبعد تخييمهِ من حضراتهم يرسل لطرفنا وداوموا على اهتمامكم بالتجهيزات العسكرية لانهُ تحرر من طرفنا بذلك لجميع حكام البلاد افندم

فصلٌ

(فيما كان بعد تبادل هذه الرسائل)

وبناء على الكتاب الذي ارسله عرابي الى يعقوب سامي وكيل الجهادية دعي كثيرٌ من الذوات والاعيان فكان عدد الذين لبوا الدعوة نحوًا من سبعين شخصًا فاجتمعوا وقام فيهم عدة خطباء اتهموا الخديو ببيع الوطن (وما صدقوا) وما لأنه للانكليز وكان في جملة الحضور رجل من ذوي النفوس العادلة فنهض ودافع عن الخديو فقبض عليهِ وتوعد بالموت

وقد حصل هذا الاجتماع في ديوان الداخلية يوم الاثنين الواقع في غرة رمضان سنة ١٢٩٩ فبعد المداولة فيهِ استقر رأي المجتمعين على لزوم الاستمرار على اعداد التجهيزات الحربية وعلى استدعاء النظار من الاسكندرية للاستفهام منهم عن حقيقة الامر وهذا نص القرار الذي وقعوا عليهِ :

(نص القرار)

في بداية الحرب بيننا وبين الانكليز كتب حضرة عطوفتلو رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية الى جميع جهات الادارة بان الحرب انتشبت بيننا وبين الانكليز وصارت البلاد تحت الاحكام العسكرية ومن اللازم الاستعداد للمقاومة ثم وردت منهُ افادة تلغرافية بعد ذلك بايام مقتضاها حصول الصلح والتنبيه على المصالح بان تسير سيرًا مدنيًا وانها خرجت من الاحكام العسكرية وبعد ذلك صدرت افادة من ناظر الجهادية الى جهات الحكومة يصرّح ببقاء البلاد تحت الاحكام العسكرية وبان الحرب لم تزل قائمة بيننا وبين الانكليز وبوجوب الاستمرار على التجهيزات والاستعدادات ما دامت عساكر الانكليز في مدينة اسكندرية ومراكبهم في مياهها وصدرت ارادة سنية من الجناب الخديوي لناظر الجهادية مقتضاها ان لاحرب بيننا وبين الانكليز وان السبب في الحرب هو المداومة على الاستعداد في الطوابي الذي يعد تحقيرًا للمراكب الانكليز فضرب المراكب لاستحكاماتنا ولمدينة

الاسكندرية ليس حربًا للحكومة وانما هو من قبيل رد الشرف وليس هناك حرب حقيقية الخ ما ذكر بالارادة فاجاب ناظر الجهادية بان الحرب مع الحكومة والانكليز كانت بقرار من مجلس عام منعقد تحت رئاسة الحضرة الخديوية وايد ذلك اعلان رئيس مجلس النظار الخ ما ذكر في الجواب ثم قدم عرضحال من مخزنجي مخبز القباري باسكندرية لسعادة ناظر الجهادية يشكو من بعض امور تضاد الصلح وورد للناظر الموما اليه معلومات عن اعمال عساكر الانكليز في اسكندرية تدل على معاداتهم لرعية الحكومة الخديوية وانهم محاربون لما كان يعلم من افاداته ثم ان ناظر الجهادية المشار اليه طلب في احدى افاداته لوكيل الجهادية ان يشكل مجلس من علماء البلاد وامرائها واعيانها للنظر في هذه الامور المهمة فبناء على ذلك انعقد في نظارة الجهادية ليلة غرة رمضان سنة ٩٩ مجلس مؤلف من سعادة وكيل الداخلية وسعادات كل من وكيل الجهادية وعلي باشا فهمي ووكيل الحقانية وناظر الدائرة السنية ودانش باشا ومحمود سامي باشا ورضا باشا لواسواري وحضرات باشكاتب المالية واحمد بك رفعت مدبر المطبوعات ومأمور ضبطية مصر وعلي بك يوسف واحمد بك فرج وحسن بك جاد وبعد المداولة قرر المجلس لزوم انعقاد مجلس عام يشكل من مشاهير العلماء والرؤساء الروحانيين من الطوائف المختلفة ومأموري الحكومة الحائزين للرتبة الثانية فما فوق واكابر الذوات المتقاعدين واعيان التجار وان يكون انعقاده في نظارة الداخلية يوم الاثنين غرة رمضان سنة ١٢٩٩ وفي الميعاد المذكور انعقد المجلس تحت رئاسة سعادة وكيل الداخلية من عدد كثير من كل طبقة من الطبقات المذكورة وتليت على مسامع الحاضرين جميعًا الاوراق المتعلقة بهذه الوسائل المتقدمة وطلب منهم النظر فيها من جهة كونهم اعيان البلاد واصحاب الصالح المهم فيها فانحط رأي الجميع بعد المداولة

اولاً على لزوم الاستمرار في الاستعدادات الحربية ما دامت عساكر الانكليز في مدينة اسكندرية ومراكبهم في مياهها

ثانيًا على انه يلزم طلب حضرات النظار الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل قبل الحرب وبعده ليتمكن المجلس من اعطاء قراره فيما بعد

ثالثًا على ان تعين لجنة مركبة من ستة مندوبين من طرف المجلس ليتوجهوا الى اسكندرية ويبلغوا حضرات النظار قرار المجلس ثم يدعونهم للحضور الى العاصمة للسبب المتقدم

وقد انتخب المجلس اعضاء لهذه اللجنة سعادة علي باشا مبارك وسعادة رؤوف باشا من الذوات وحضرة احمد بك السيوفي والشيخ سعيد بك الشماخي من اعيان التجار والشيخ علي نايل والشيخ احمد كبوه من العلماء

وبعد ذلك انفضت الجلسة في الساعة الحادية عشرة من النهار المذكور

(انتهى نص القرار)

فصلٌ

(وفد العاصمة في الاسكندرية)

وبناء على قرار ذلك المجلس خرج الوفد المعين من الاشخاص السابق ذكرهم في ذيل

هذا القرار فاتى اولاً معسكر كفر الدوار حيث جرت بينه وبين عرابي ورؤساء الجند مباحثات طويلة ثم انتخب منهُ علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للذهاب الى الاسكندرية وانفاذ ما استقرَّ عليهِ رأي المندوبين فبالرغم عما كان يحول دون مجيئهما الى الاسكندرية خرجا من كفر الدوار وقدما الثغر مساء الاحد الواقع في ٢٣ لوليو وفي صباح الاثنين اجتمعا بالخديو والنظار وبسطا لهم الحالة التي وصلت اليها البلاد فاصدر الخديو على اثر ذلك الاعلان الاتي تعريبهُ :

(صورة اعلان الخديو الى عرابي)

(بعزلهِ من نظارة الجهادية)

الى احمد باشا عرابي في ٤ رمضان سنة ١٢٩٩ و ٢٠ لوليو سنة ٨٢

ان سفرك الى كفر الدوار مصحوبًا بالجند وخروجك من الاسكندرية بعد القتال البحري بدون ان تؤمر بالخروج منها وتعطيلك للخطوط الحديدية والبرد واسلاك التلغراف ومنعك لمهاجري الاسكندرية من العودة الى اوطانهم واستمرارك على إعداد التجهيزات الحربية وعدم قدومك الى الاسكندرية يوم استقدمتك اليها كل ذلك الجأني الى عزلك من وظيفتك فانت بمقتضى هذا الامر المرسل اليك معزول منذ الان من نظارة الجهادية والبحرية

ثم شفع هذا الاعلان بمنشورٍ علق في شوارع المدينة وفيهِ ابان الاسباب التي دعت الى عزل عرابي واوضح ان نزول العساكر الانكليزية الى المدينة لم يكن بقصد التبوُّء والاستيلاء فان المؤتمر القسطنطيني لا يوافق على ذلك ثم اعلن (اي الخديو) انهُ بعث برسالةٍ برقية الى الباب العالي ينبئهُ بما كان وان عرابي لم يمتثل لما امره بهِ من توزيع العساكر في المواقع التي يجب ان تقيم فيها حفظًا للشأن العسكري ولم يعمل بمقتضى اوامره ونواهيه بحيث ان تبعة العار الذي لحق بالجنود المصرية امست ملقاةً عليهِ

فصلٌ

واستمرت الاستعدادات قائمةً على قدم وساق فكتب عبد العال الى عرابي يطلب اليهِ ان يمده بالف ومائة رجل واربع بطاريات ترسل منها ثنتان الى رشيد وثنتان الى دمياط للدفاع عنهما ثم اقام العرابيون سدًّا في ترعة المحمودية بجهة كفر الدوار ولكنهم لم يفلحوا سعيًا فان محتقن الماء الذي كان في اسفل الترعة لم ينقص اكثر من خمسة سنتيمترات

وكانوا يشيعون في داخلية البلاد اخبارًا لا صحة لها متهمين الخديو باشتراكه مع الانكليز وخيانتهِ للوطن وانهُ يقدم لعساكرهم ما يلزمهم من المؤنة والزاد وانهُ امر بسجن النظار جزاء لهم على ميلهم الى عرابي وتصويبهم لاعماله وانهُ يبعث بالاوامر مذيلةً بتواقيعهم على غير ارادتهم بل من غير ان يكون لهم علم بها الى غير ذلك من الاشاعات والاقاويل التي كانوا يستميلون بها النفوس اليهم

فصلٌ

(المخابرات التلغرافية ولجنة اخرى)

واصبح التلغراف في ايدي العرابيين فتعذرت بسبب ذلك المخابرات مع الداخلية فجعل الاميرال سيمور سلكًا فيما بين الاسكندرية وبورسعيد وكانت المخابرات قبل ذلك تتم من

طريق مالطا والاستانة والعريش والاسمعيلية

وفي ١٢ رمضان سنة ١٢١٩ (٢٨ لوليو) ارسل علي باشا مبارك احد المندوبين اللذين قدما الى الاسكندرية لمقابلة الخديو رسالة قال فيها ما نصهُ:

بحمد الله تعالى وصلنا الى الاسكندرية واخذنا نسعى في الاشتغال بالمأمورية المحولة على عهدتنا من قبل المجلس المنعقد بالقاهرة كما ان ذلك في علم سعادتكم وانتظرنا حضور باقي الاعضاء ولغاية يوم تاريخه لم يحضروا فالمرجو مساعدتهم حتى يتمكنوا من الحضور ثم في علم سعادتكم اهمية مأموريتنا وما تحتاجه من المذاكرات فلاجل الوصول الى الغاية المقصودة في الزمن القليل يلزم ان المخابرات بيننا وبين سعادتكم تكون بواسطة التلغراف فان تحسن تأمروا باعادة خط التلغراف وبهذه الكيفية تسهل المخاطبات التي ربما ينتج منها فائدة الوطن وحفظه من الغائلات وغير ذلك اعرض على سعادتكم انهُ تقرر تشكيل قومسيون يكون مركبًا منا ومن بعض الذوات يجتمع مع قومسيون مركب ممن تعينونه وتعدونهُ من امراء العسكرية ليجتمعوا في محل يصير تعيينه بالاتفاق للمذاكرة في الاحوال الحاضرة بامل الحصول على نتيجة توافق الجميع وتزيل هذه النازلة عن وطننا العزيز فان تحسن فلتعينوا سعادتكم المحل والذوات العسكرية وتفيدونا بما ترونه افندم

فاجابهُ عرابي بما حرفيتهُ

نحمد الله على وصول سعادتكم بالسلامة وبعد فاني تشرفت بورود افادة سعادتكم التي تطلبون مني تعيين قومسيون من العسكرية لانضمامه مع قومسيون يتشكل من سعادتكم ومن بعض الذوات للمذاكرة في الاحوال الحاضرة وحيث ان المعلوم لنا هو انهُ صار عقد مجلس حافل عمومي بمصر من ذوات العسكرية والملكية والعلماء والتجار والاعيان والرؤساء الروحانيين وكنتم سعادتكم من ضمن الموجودين بهِ وما كان عقد هذا المجلس الا للنظر في الاحوال الحاضرة واتخاذ التدابير اللازمة في وقاية البلاد وقد قرر كما تعلمون سعادتكم باستمرار التجهيزات الحربية وبارسال سعادتكم مع من تعين معكم لمأمورية مخصوصة ومحدودة ومن هذا يرى لسعادتكم انهُ لا يوجد لي ادنى صفة او حق لتعيين قومسيون من طرفي لا ادري الغرض منه بعد قرار المجلس الذي صار عقده بمصر على اني لست مستقلاً بعمل امرٍ ما بل اني مطيع ومنقاد في اي حالٍ لما تأمر بهِ الامة ولهذا فاني متأسف لعدم امكاني اجابة طلب سعادتكم وباقي الوفد حضر حسب سابقة طلبكم وها هو مرسل لكم افندم

فصل

(عرابي ومنصبه)

وبعد ان اعلن الخديو عزله لعرابي من نظارة الجهادية عقد المندوبون الآنفو الذكر جلسة في ديوان الداخلية قرروا فيها لزوم بقاء عرابي في منصبه لدفع الانكليز عن مصر والمدافعة عن البلاد وهذه صورة القرار الذي اصدروه في هذا الشأن

بعد تلاوة الاوامر الصادرة من الخديو اولاً واخرًا وفيها الامر الصادر بعزل احمد باشا عرابي وتلاوة منشورات عرابي باشا وبعد

سامعنا ما عرضهُ وكيل الجهادية بصفة هذه الوظيفة وكونه رئيس المجلس المشكل لادارة اشغال الحكومة على المجلس وهو هل وجود الخديو في اسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الانكليز يقتضي عدم تنفيذ اوامره ام لا واذا صدرت لهُ اوامر من الخديو هل يعمل بها ام لا رأينا ان وجود العساكر في اسكندرية والمراكب الانكليزية في السواحل المصرية ووقوف عرابي باشا بمدافعة العدو يقتضي وجوب بقاء الباشا المشار اليهِ في نظارة الجهادية والبحرية مداومًا على قيادة العساكر ومتبعًا في اوامرهِ المتعلقة بالعسكرية وعدم انفصالهِ من تلك الوظيفة ورأينا وجوب توقيف اوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه في اسكندرية كائنة ما كانت لاي جهةٍ من الجهات وعدم تنفيذها حيث ان الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف (وما كانوا بمصيبين) ويلزم عرض قرارنا هذا على الاعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات . اه .

فصلٌ

ولم يستحسن بعض النظار في بادئ الامر معاملة عرابي للخديو بالعزل ولكنهم لما رأوا من اصرار عرابي على المقاومة ما ينذر بالخراب وافقوا على تلك المعاملة فاصدر الخديو منشورًا ثانيًا يعلن فيهِ عصيان عرابي

وكان عرابي على ما مرّ بنا ينادي في القوم . ان الانكليز يرومون مس امتيازاتنا والاستيلاء على بلادنا فاتحدوا على قهرهم ودفعهم عن بلاد لا تعتمد الا عليكم في النجاة من مطامع الغرباء . الى غير ذلك من الكلام المهيج فاوضح درويش باشا على اثر ذلك بين يدي الخديو وبحضور النظار ان الاميرال سيمور ابان لهُ بجلي العبارة وحرية الضمير ان الحكومة الانكليزية لا تقصد مس حقوق الباب العالي ولا تروم مناوأته او مناوأة الحكومة المصرية وان اطلاق المدافع على الاسكندرية وتخريب حصونها لم يتم حدوثها الاَّ مقابلةً لتهديدات العرابيين بعدم انقطاعهم عن التجهيز والقيام باعمال الدفاع في حصون الاسكندرية الى غير ذلك مما جاء مبينًا في الكتاب الذي ارسله الخديو الى عرابي

فمن كل ذلك يظهر ان الخديو لم يكن في نيتهِ تسليم للاسكندرية للانكليز وان انكلترة لم تقصد في ذلك الوقت الاستيلاء على مصر فلو امتثل عرابي لاوامر الخديو واجاب مطالب العمارة الانكليزية بالانقطاع عن الترميم واعداد وسائل الدفاع مما كان تظاهرًا بالعدوان لما اطلق الانكليز مدفعًا واحدًا على الحصون المصرية

فصلٌ

(الراحة العمومية)

ولم تنقطع وقائع السلب تمامًا بعد دخول الانكليز الى الاسكندرية فان عصابات كثيرة من الرعاع كانت تسطو ليلاً على الحوانيت والمنازل وتنهب ما فيها وقد تعددت مثل هذه الوقائع في مينا البصل التي امست ملجاءً لاهل الفظائع ومما يُذكر ان كثيرين ممن عادوا الى مساكنهم بعد انقضاء القتال الجري وسروا بنجاتها من اخطار الحريق والنهب كانوا اذا خرجوا لقضاء بعض الحاجات ثم عادوا اليها رأوها منهوبةً

ليس فيها ما يستخدم في قضاء اقل الامور

على ان السير شارلس برسفور رئيس البوليس العام والمستر مارك وسائر رجال المحافظة اهتموا على اثر ذلك بتطهير المدينة من بقية السقاط الاجلاف فبثوا الخفراء والحراس في جوانب المدينة وفوضوهم بالتزام جانب القسوة في معاملة السلبة واهل الاعتداء ولم يمضِ على ذلك ايام قلائل حتى عاد الى المدينة بعض راحتها العمومية وفي ١٩ يوليو اصدر السير شارلس المومأ اليهِ الاعلان الآتية ترجمته :

(الى سكان الاسكندرية)

لا مانع لسكان الاسكندرية من فتح مغالقهم ومخازنهم اثناء شهر رمضان ليلاً ولكن الاشخاص الذين يخرجون في الليل الى طرق المدينة يجب ان يسيروا على نور مصباح يحملونهُ بايديهم وإلاَّ فيقبض عليهم ويسجنون . اه

فكان في هذا الاعلان موضع للثقة ومحل لعدم الاستسلام للخوف

وقد اعقب ذلك ان عادت شركة التنوير بالغاز الى اعمالها وفي مدة عشرة ايام تيسر لها ان تنير بغازها جميع شوارع المدينة وطرقاتها

وقبل انقضاء شهر يوليو ارتفعت رايات الدول فوق المراكز القنصلية

ثم فتحت بعض المخازن الكبيرة التي نجت من اهوال الحريق فراجت الحركة بما تيسر لها من الرواج

وبذل الجهد في تطهير الازقة من الادران والارجاس التي تخلفت عن جثث القتلى وغيرها وفي رفع الردم من جوانب الطرق وردم الاماكن المتداعية الى السقوط

وكنت ترى المباني الخشبية تقوم على جانبي ساحة محمد علي (المنشية) فمنها ما كان البعض يتخذونهُ في بادئ الامر مبيتاً ومنها ما كان دكاكين للتكسب ومطابخ لتقديم الطعام لمن اخذ يفد غريباً بعد ان كان اهليًا

فصل

(عرابي واهل البلاد)

ولم تنجع منشورات الخديو في اهل البلاد بل لم يكن لها اقل تأثير والسبب في ذلك ظاهر واضح بما هو معلوم من ان القوة العسكرية باتت في قبضة عرابي منقادة لاوامره يستخدمها فيما يريد الحصول عليهِ واكراه النفوس على الميل اليهِ وكان لا يمر يوم من غير ان يصدر فيهِ المنشورات العديدة والاوامر الكثيرة محرضاً فيها اهل البلاد على خلع طاعة الخديو ومقاومة الانكليز ومساعدة الجيش وتقديم احتياجاته فكان العمد ووجوه البلاد يقدمون لهُ ما تيسر من المال والخيل والزاد وكان يساعده على ذلك تحريضات مريديه للقوم على تجريد السلاح والسير لمحاربة الانكليز فمن ذلك قصيدة نظمها احد علماء الجامع الازهر اذ ذاك نذكرها هنا من باب الاستشهاد على ما نقول

قال في مطلعها

لعمرك ليس ذا وقت التصابي
ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوي
ولا وقت التغافل والتغابي
ولا وقت التشبب في سليمى
ولا وقت التشاغل بالرباب

الى ان قال

ولكن ذا زمان الجدِّ وافى
وذا وقت الفتوة والشبابِ
ووقتٌ ليس فيهِ يليق الا ا

اقامـة بالقلاعِ وبالطوابي
ووقتٌ فيه الاستعداد فرضٌ

لتنفيذ الاوامر من عرابي

ومن قوله فيها

وفي مصر لقد طمعوا ومصر
بكم والله امنع من عقابِ

وقولهُ

وقوموا بالثبات على الاعادي
وقولوا فيهم فصل الخطابِ
وان سألوكم من بعد هذا
فما غير المدافع من جوابِ

وقولهُ

وقولوا يا عرابي مر بامرٍ
تراه فانت ذو الامر المجابِ
ودم لوزارةٍ لسواك تأبى
وان وصلت اليك بلا طلابِ
وقولوا يا عرابي دم رئيسًا
لحزب النصر محفوظ الجنابِ

ونظم اخر قصيدة قال في مطلعها

نوال المعالي من طعان الكتائبِ
ونيل الاماني من ثمار المتاعبِ
وقهر الاعادي بالتدبر اولاً
وبعد باشهار السيوف القواضبِ

الى ان قال

ولسنا كقومٍ عن طريق المدى عموا
الى اليوم من اضلالهم في غياهبِ

وقال

ومن كعرابي في البرايا وحزبهِ
اولي العزم اصحاب القنا والقواضبِ

ومن مثل هذه الاقوال المنظومة والمنثورة شيءٌ كثير لا نرى لزومًا لذكره وهي كلها مع منشورات عرابي ومساعي ذويه كانت باعثًا عظيمًا على تهييج الخواطر وابعادها عن طاعة امير البلاد

فصل

(عرابي فيما خارج الاسكندرية)

وبعد ان استقر عرابي في كفر الدوار اخذ الناس يتحدثون في شأنهِ ثم شاع انهُ يروم الحمل على الاسكندرية فاوجس الناس خيفة من ذلك واخذوا يستعدون لركوب البحر مهاجرةً الى حيث يأمنون شرَّ الهجوم والفتك وكان بعض الخبازين من اهالي محلة «كرموس» قد اعتقد بصحة تلك الاشاعة فنصح لاصحابهِ ان يذخروا من الخبز ما يكفيهم زمنًا طويلاً وكان ذلك من موجبات الاخلال بنظام الراحة العمومية فأُلقي القبض على الخباز وسجن

ومع ذلك استعد الانكليز لدفع كل قوةٍ تقتحم ابواب الاسكندرية من خارجها فحصنوا في جميع الحصون والاستحكامات وامر الضباط والجند منهم بالاستعداد للمقاومة اذا بدا من عرابي وقومه ما يدعو اليها

واخذت تلك الاشاعات تندرج في مدارج

الاستمرار حتى خيل للناس انهُ لا بدَّ من وقوع ذلك المكروه

وكان العرابيون قد جمعوا قوتهم قبل ذلك في محلة الرمل يتوقعون يوماً بعد آخر الاشتباك بقتال الانكليز

وقد تم ذلك بان اقتتل الفريقان في ٥ اغسطس (آب) وبيان الامر ان العرابيين انبروا لفرقتين من العساكر الانكليزية خرجتا لاجراء التمرينات الحربية المعتادة فوقعوا بهم وكانوا بعددٍ كثير فرجع الانكليز الى الوراء من غير ان يتكبدوا خسارةً ما

فلما اتصل هذا الخبر بالاسكندرية جمع القادة الانكليز ثلثمائة رجل من رجال المدافع وستمائة من المشاة وارسلوهم الى محطة القباري حيث ركبوا قطاراً سار بهم الى موقعٍ يبعد مسافة ٨٠٠ متر من المحلة وكان هذا العدد من الجند قسمين احدهما بقيادة الكولونل توسون والاخر بقيادة الماجور سترونغ والقبودان ادج

فلما بلغ هذا الجيش ذلك الموقع استلم قيادته الجنرال اليزون ثم جعلهُ على الترتيب الآتي

عينت الفرقتان ٣٨ و ٤٦ ميسرةً للجيش ومشاة البحرية ميمنةً والفرقة ٦٠ قلباً له ثم اشتبك الفريقان بالقتال وكان العرابيون المبتدئين بهِ فانهم اطلقوا قنبلتهم الاولى علامةً على الشروع في القتال فسقطت في وسط الجيش الانكليزي فلم تنفجر

اما الانكليز فلم يجيبوهم حتى تقدموا نحو ٥٠٠ متر منهم وعند ذلك اطلقوا النار عليهم فاخرجوهم من عند خطيها الدفاعيين

واستمرت هذه المهاوشة ثلث ساعات تمكن الانكليز في خلالها من الاستكشاف على مواقع الاعداء والوقوف على حقيقة قوتهم ثم عادوا الى مراكزهم وكانت خسارة العرابيين في تلك الواقعة جسيمة في جملتها ثلثون اسيراً دخلوا في قبضة الانكليز ومن هولاء الاسرى ضابطان اما الانكليز فكانت خسارتهم تستحق الذكر في جانب خسارة العرابيين فقد وقع منهم عدة قتلى وجرح منهم كثيرون ومن قتلاهم في هذه الواقعة اللبوتنان ٠ ويز ٠

وفي الجملة ان الفوز كان للانكليز فاعاد الى نفوس الاسكندريين بعد ما كانت قد فقدتهُ من الطأنينة

وبالرغم عن هذا الفوز لم تضعف عزائم العرابيين بل عمدوا بعد ذلك القتال الى انشاء الاستحكامات بين « ابو قير » وخطوط الرملة .

وفي سابع الشهر انطلق الى المحلة الكبرى قوم منهم ليعطلوا خطوط السكة الحديدية فانبرى لهم الانكليز وقاتلوهم فنكصوا على الاعقاب

(مقابلة)

ولننشر هنا ذكر العرابيين لواقعة الرمل مقابلةً لها مع ما تقدم مما ذكرناهُ من البيان الوجيز اخذاً عن اصدق الروايات . قالوا

ظهر العدو من جهة الرمل باورطتين بياده واورطتين سواري ومعهُ مدفعان يحاول وضعهما على ربوة على بعد الف وخمسمائة متر من المستحكم الطبيعي الموجود امام عساكرنا فقابله كل من احمد افندي اليار البكباشي ومصطفى افندي حسان البكباشي باورطتين من البيادة واورطتين من السواري وارسل خبراً لسعادة

خورشيد باشا طاهر فقام بثلاثة بلوكات من السواري ووصل ميدان القتال فوجد البكباشيين قد اظهرا من البسالة ما ايض بهِ تاريخهما (كذا) ثم وجد الميدان كثير الرمال والمنخفضات فابطل ضرب البياده وفتح السواري في هيئة (چرنجيه) وهجم على العدو واوقع بهِ حتى الجأهُ الى التقهقر خلف الربوة التي كان يحاول وضع المدفعين عليها وهناك اختفى العدو في النخيل وولى منهزمًا وقد أُصيب حصان من خيلنا ولم يستشهد احد من عساكرنا ولا اصيب بجراح وكان ابتداء المحاربة في الساعة الاولى من النهار وانتهاؤها في اخر الساعة الرابعة فمدة القتال ثلاث ساعات ونصف ولم تعلم خسارة العدو لرفعها اولاً فاولاً من الميدان

وهذا قولهم في كلامهم على الموقعة الثانية قالوا :

حضر العدو الى مقدمتنا في هيئة « قولات » فقول الميسرة حضر من جهة الرمل على جسر المحمودية الجري مركبًا من ثلاث اورط بياده واورطتين سواري واربعة مدافع وقول الميمنة حضر بطريق السكة الحديدية من جهة القباري مركبًا من ثلاث اورط بياده وبطارية مدافع وقول القلب حضر من كبري المحمودية مركبًا من اورطة سواري ليس الأ فقابل الميسرة محروس افندي البكباشي باورطة واحدة فجرح وقابل الميمنة والقلب محمد افندي فوده البكباشي باورطة واحدة وتكاثرت النيران من جميع الاطراف فتحرك لامداد هاتين الفيئتين احمد بك عفت قائمقام وحكمدار المقدمة (اي مقدمة كفر الدوار) وتلاحق المدد باورطة سليمان افدي تعيلب البكباشي ورزق افندي حجازي البكباشي ثم قام في الحال طلبه باشا عصمت قومندان الفرقة ومعهُ احمد بك عبد الغفار برنجي سواري وحرك الاورط جهة المقدمة المنصورة وتقارب المتقاتلون حتى صارت العين في العين فاظهر الضباط مهارة عظيمة وكان ابتداء القتال في الساعة التاسعة نهارًا وانتهاؤهُ في منتصف الساعة الثانية ليلاً فمدة القتال اربع ساعات ونصف وعندما ضعفت قوة العدو تقهقر فهجمت عليهِ عساكرنا الاسود وتبعته تضربه حتى حجبه الظلام عنهم وبتنقد عساكرنا تحقق ان المستشهدين من الانفار والصف ضباط تسعة وواحد من الضباط والجرحى اثنان من الضباط واثنى عشر من الانفار والصف ضباط وخسائر العدو كثيرة جدًا فقد شوهد الكثير من عساكره ينقلون القتلى والجرحى وبعد ان طردوا رؤيت الارض مغطاة بالدماء وآثار جر الموتى في الارض عديدة والنصر من الله يؤيد من يشاء من عباده المؤمنين . اه .

فصلٌ

(منشور من الخديو)

وعلى اثر الواقعة الثانية عدَّ الخديو عمل العرابيين الاخير استئنافًا لمس حقوق سلطتهِ فاصدر في ٧ اغسطس الموافق ٢٣ رمضان سنة ١٢٩٩ المنشور الاتي تعريبه

الى جميع المصريين

نحن خديو مصر نعلن لجميع المصريين ان عرابي باشا قد ارتكب آثامًا فظيعة جلبت على مصر واهلها خسارة لا وصف لها وجعلت الدول

الاوربية نافقة عليها فانها باتت الان تعتبر المصريين امة غير متمدنة

فهذه الاثام والجرائم منحصرة في عصيان عرابي المذكور وتحريضهِ للقوم على السير تحت لواء هذا العصيان وفي الدسائس التي نشأت عنها مذبحة طنطا (سنأتي على ذكرها بعد هذا الفصل) وغير حوادث سيئة في مدن اخر من مدن البلاد فاوقفت فيها حركة التجارة وعطلت اعمال الزراعة . ثم في عصيانهِ لاوامر جلالة السلطان المعظم وهي الاوامر التي صدرت له بالانقطاع عن التظاهر بالعدوان في الاستحكامات والحصون مما بات معلوم النتيجة من هلاك نفوسٍ وتدمر قلاع وخراب ابنية

وبعد ان بدد عرابي في اقل من ساعةٍ شمل سكان الاسكندرية التي نهبها من كبار رجاله اضرم فيها النار وخرج منها بجيشه ذاهباً الى كفر الدوار حيث عسكر بقومه من غير علمنا وبغير ارادتنا فبعث ذلك على نزول الانكليز الى المدينة لاطفاء النار المضرمة فيها ومنع النهب والمحافظة على الراحة

وفوق ذلك منع المهاجرين من العود الى اوطانهم وقطع ما بين اهلهم وبينهم وسائل الصلة والعلاقة وقطع الماء عن الاسكندرية واعلن جهراً عصيانه باكاذيبه الظاهرة فلذلك عدّ عاصياً ومستحقاً لاشد العقابات بمقتضى احكام الشرع الشريف

ولا يزال مع ذلك عاملاً على تعميم الخراب بمساعدة جنده والاهالي المتحدين معهُ المنقادين لارائه الوخيمة وقد تجاوز الحدود بما يفوق الوصف فاستولى على اموال الضرائب وعزل كثيرين من موظفي الحكومة واستبدلهم بغيرهم في حالة كونه معزولاً من وظيفتهِ معداً للعقاب الصارم الشديد

ولقد رأينا ان قلوب كثيرين من رعيتنا لا تزال قاسية مائلة الى عرابي بالرغم عن اوامرنا السابقة فلذلك اصدرنا هذا المنشور الآخر معلنين فيهِ ان كل شخصٍ يعرف ذا ضلعٍ مع عرابي ومبلٍ اليهِ عددناه عاصياً مستحقاً لجزاء العصيان

فرحمةً بمصر واهلها نستأنف الان اعلاننا للمصريين عموماً والجند خصوصاً ان كل من اصرَّ على عصيانهِ وانقياده لعرابي كان مذنباً امام الله وغير مقبول العذر لدينا فنجرده مع ولده وذريته من جميع الرتب والرواتب ومعينات التقاعد وسائر الامتيازات التي كان متمتعاً بها

وليعلم المصريون اننا نحن اميرهم ومولاهم وان لا يرتكبوا عصياناً علينا وليعلم كل منهم ايضاً انهُ اذا ادى للعاصي عرابي او لاتباعه اموال الضرائب كانت تأديته للمال غير محسوبة لدينا بل اننا نطالبهُ بها يوم تنقشع عن سماء مصر غيوم النكبات العرابية

انتهى

وبعد ان اصدر الخديو هذا المنشور بعث الى اركان حرب الانكليز بكتابةٍ يهنئهم بها على نجاحهم في الوقائع الاخيرة

فصلٌ

(في مذابح ١٢ لوليو سنة ٨١ في طنطا)
(والمحلة الكبرى وسمنود وبعض)
(جهات البحيرة)

نقف في هذا المقام لنجعل مكاناً لذكر تفاصيل

المذابح التي حدثت في هذه الاماكن مما انبأنا بحقيقته احد الرواة فرويناه عنه بهذا اللسان:

قال.

لما ابتدأت السفن باطلاق مدافعها على حصون الاسكندرية في صبيحة ١١ لوليو سنة ٨١ خرجت من بيتي فرارًا من الموت مستصحبًا عائلتي قصد الالتجاء الى بعض الانحاء الريفية حيث نكون آمنين على ارواحنا فركبنا عربةً من عربات الفحم في احد قطارات السكة الحديدية بعد شق الانفس وبلوغ الارواح التراقي واندفع بنا القطار يطوي الارض ويسابق الظل والشمس في خلال ذلك ترسل علينا سهامها وتصب على رؤوسنا من حر سمومها ما يذهل البصائر ويبهر الابصار

ولم يهدأ روعنا ويسكن جاشنا الأحينما انقطعت اصوات المدافع بعد خروجنا من محطة دمنهور فعند ذلك استشرنا بعضنا الى اية جهة نذهب وفي اي مكانٍ نقيم فاستقرّ الرأي على نزولنا في محطة طنطا لأخذ الراحة مدة يوم او يومين ثم نذهب منها الى بعض البراري حيث نقيم الى ان يقضي الله امرًا كان مفعولاً

وقد كان وصولنا الى طنطا بعد ظهر ذلك اليوم (الثلاثاء) فاسكنا النساء والاطفال في بيت احد معارفنا واقمنا الليل ويوم الاربعاء وليله وفي يوم الخميس (١٣ لوليو) عزمنا على السفر فخرجت صباحًا لاستعلم عن ميعاد قيام القطار ولم اتجاوز البيت حتى رأيت البلدة تضج بالغوغاء وصراخ النساء وتجمع الناس في الازقة والشوارع يدفع بعضهم بعضًا ولما سألت عن السبب اخبرني بعضهم ان الحرب صارت قريبة من طنطا فلذلك ثار المسلمون على النصارى يذبحونهم اينما وجدوهم وينهبون محلاتهم فعلمت انها فتنة تماثل فتنة ١١ يونيو سنة ٨٢

ولم اكتفِ بهذا الفكر دون الوقوف على الحقيقة فتوجهت الى ديوان المديرية وقد اخذ مني الانذهال كل مأخذ وشملت الرعدة جميع اعضائي بوقوع نظري على المناظر الدموية ومشاهدة بني الانسان يُقتلون ويجرون على الحضيض من ارجلهم كالبهائم المأخوذة للسلخ بعد الذبح

قال. وكان المتجرئون على هذه الفظائع وارتكاب هذه القبائح خفراء المديرية وبعض رعاع اهل طنطا فقد رأيتهم رأي العين رافعين المراوي على اكتافهم وواقفين للفارّين بالمرصاد لا ينجو منهم هارب ولا يرحمون ملتجئًا فسألت عن المدير (١) اين هو وماذا يفعل في مثل هذه الحالة فقيل لي انهُ مريض او متمارض وقد لزم الفراش فسألت عن وكيلهِ (٢) فقيل لي انهُ موجود في المحطة فانطلقت اليها مسرعًا لاقف على الاحتياطات التي اتخذها لمنع هذه الثورة فوجدتهُ جالسًا على كرسيٍ ومن حولهِ جم غفير من خفراء المديرية (الطوافه) ذوي النبابيت. وكان من يأتيه من الاروام وغيرهم من المسيحيين مستجيرًا يدفعهُ الى بعضٍ من هولاء الخفراء ليوصلوه الى حيث يأمن السوء فيأخذونهُ ويسيرون بهِ اصفر اللون خافق القلب وبعد ان يبتعدوا بهِ بعض خطوات يقتلون ويوقعون

---

(١) ابرهيم باشا ادهم

(٢) محرز بك

بوضرب المراوي ولكم الايدي ولا راحم له ولا مجير ثم انهم لا يرفعون ايديهم عنه حتى يُقضى عليهِ وبعد موته تستلمهُ طائفة ثانية فمنهم من يجره من رجليهِ ومنهم من يعمد الى رأسهِ فيضربهُ بالمراوة حتى تتناثر اجزاؤه ويصير القتيل جسماً بلا رأس . وكل ذلك شاهدتهُ عياناً وما راءٍ كمن سمع

وقد اشتد عندي الخوف وازداد فيَّ الرعب فسألت عن ميعاد قيام القطار فأُخبرت انهُ سيقوم بعد وقتٍ يسير فعند ذلك اسرعت بالرجوع الى البيت فاخذت النساء والاولاد وسرت بهم الى المحطة وكان القطار مهيئاً للسفر فمنعنا الوكيل (وكيل المديرية) من الدخول وقال انهُ اصدر امره بمنع السفر في هذا اليوم خوفاً من اشتداد الهياج فاخذنا نلتمس منهُ بحرارةٍ ان يرخص لنا في الدخول قبل سفر القطار فلم يجدِ التماسنا نفعاً فرجعنا على اعقابنا معتصمين بالصبر الجميل

وقد وردت الاخبار تترى منبئة بحصول مثل هذه المذبحة في نفس ذلك اليوم بالمحلة الكبرى وسمنود (من اعمال الغربية) وبعض اصقاع مديرية البحيرة ومنهـا مركز المديريـة (دمنهور) فلما وصلت اخبار تلك المذابح الى عرابي ارسل فرقة عسكرية بقيادة محمد عبيد القائمقام لاعادة الامن والراحة ولكن بعد وقوع المكروه ثم اصدر امره بالقاء القبض على ابرهيم باشا ادهم مدير الغربية اذ ذاك وارساله الى القاهرة وباعداد قطارات مخصوصة لكل من يروم المهاجرة من المسيحيين الى الاسمعيلية ثم اوعز الى المديرين بالتيقظ والانتباه

ولما استقرت الحال وزال الخوف ركبنـا القطار وسرنا فاقمنا في الارياف الى ان خمدت نار الحرب فعدنا الى بلدنا آمنين

هذا ما رواه الناقل وما نعلمهُ نحن من سير تحقيق هذه الحادثة ان عثمان المرميل كان من المشتركين فيها او الباعثين عليها وقد مر زمن طويل على البحث في التهمة التي وجهت عليهِ حتى كان من امره في الختام ان برّئ منها

وما نذكر ذلك وغيره بالاسماء والمسميات الا من قبيل وجوب الاستيفاء للمقتضيات التاريخية سواء كان المتهمون ممن رفعت عنهم اثقال التهمة بحكم التبرئة او ممن حكم عليهم بالجزاء .

ومما يذكر في هذه الحادثة ان يوسف ابا ديه اليوزباشي المعروف من ياوران عبد العال حلمي بدمياط كان قد ارسلهُ عبد العال ا بعد انتشاب الحرب بين عرابي والانكليز) الى كفر الدوار بمهمةٍ مخصوصة ولما كان فرع دمياط الحديدي ينتهي الى طنطا اضطر ان ينزل الى محطة هذه المدينة منتظراً قطار مصر المتوجه الى كفر الدوار فاتفق وقت نزوله ان المذبحة كانت في ابان اشتدادها فسار الى المدير فوجده في البيت مريضاً فلامهُ على اهمالهِ لحفظ الراحة ولما وصل الى كفر الدوار حمل عرابي على الاعتقاد بان اهمال المدير هو السبب في وقوع ذلك الحادث المريع فكان من عرابي ان امر بالقاء القبض عليهِ كما مرَّ في السطور السابقة

ولما انتهت الحرب وسلَّم عبد العال حلمي سيفهُ قبض على يوسف ابي ديه بتهمة كونهِ مشتركاً في حادثة طنطا وانهُ كان يحرض المسلمين

(الذين كانوا موجودين في المحطة يوم نزوله اليها) على قتل النصارى فجرت محاكمتهُ وصدر حكم المجلس العسكري في الاسكندرية باعدامه شنقاً فأُعدم

وقبل حلول الميعاد المعين لتنفيذ الحكم ببضع دقائق ورد تلغراف ينبئ ان الخديو اصدر امرهُ بالعفو عنهُ ولكن القضاء كان قد نفذ ولم يبقَ للعفو من سبيل

وكاد ان يقع في الفيوم مثل ما وقع في طنطا بان اتاها رجلٌ متنكر بزي طلبة العلم قصد احداث هيجان فيها فلما شعر بهِ المدير امر بالقبض عليهِ فلم يسعه الا الهرب قبل ان يتمكن من بلوغ الارب

اما حادثة المحلة الكبرى فقد قال في بيانها احد شهود العيان ما يأتي

بينما كنا جالسين في سوق السلطان بالمحلة الكبرى يوم الخميس الواقع ٢٧ شعبان سنة ٩٩و١٢ ولوليو سنة ٨٢ وكان الوقت بالغًا اذ ذاك من النهار حد الساعة السابعة (على الاصطلاح العربي) اذ اقبل من ناحية القنطره جم غفير من المكارين وغيرهم وكلهم من السفلة الرعاع وفي ايديهم العصي والمراوي وغيرها من الاسلحة الجارحة والنارية وكان يجلبون ويصخبون وكلما مروا بحارة او زقاق انضم اليهم غيرهم من امثالهم حتى وصلوا الينا فسمعناهم ينادون (يا تجار اغلقوا حوانيتكم لان النصارى اخذوا يقتلون المسلمين على القنطرة) فسارعنا الى النهوض وقصدنا منازلنا وكان في جملتنا حسين افندي سامي نائب المديرية في اشغال التاريع اذ ذاك (ومفتش بوليس قسم شربين الان) فأبى ان يذهب الى منزلهِ قبل ان يقف على امر الموسيو كمبروس مفتش التاريع بالمحلة الكبرى ويعلم هل اصابهُ شيءٌ او لا فذهبنا معهُ الى بيت المفتش وقبل ان نصل اليهِ سمعنا الهائجين يقولون (يا مسلمين اقتلوا النصارى وانهبوا محلاتهم فقد آمر بذلك ضابط البلد) وقد رأينا بين هؤلاء الثائرين احد عساكر الضبطية فاستوقفناه وسألناه عن حقيقة ما يقولهُ الناس من ان الضابط آمر بما يقولون فاجاب بانهُ لا يعلم شيئًا من ذلك ثم وصلنا الى بيت المفتش فوجدناه مغلقًا وعلى بابهِ جماهير الثائرة يريدون كسره واقتحام البيت لنهبهِ وقتل من فيهِ فصاح فيهم حسين افندي سامي وفرّق جموعهم ثم اوقف عند باب المنزل رجالاً من خدمة المساحة وفي ايديهم المقاييس يردعون بها من يقصد المنزل بسوء ثم دخل واغلق الباب واجتمع بالمفتش ومن معهُ فهدأ روعهم وسكن خواطرهم واقام بجانبهم الى ان سكنت الحركة واما ما كان من الاهالي فانهم ثاروا رجالاً ونساءً واطفالاً يصيحون (الله اكبر) ويهجمون على الحانات ودكاكين الملابس وغيرها ويكسرون ابوابها وينهبون ما يجدونهُ فيها وكان ضابط المدينة حسن افندي فؤاد جالسًا في جوار القنطرة المعروفة بقنطرة نيروز ولم يكن معهُ احد من العساكر

واستمرت هذه الحادثة ما بين نهب وقتل الى ما قبل الغرب بنحو نصف ساعة فبلغ عدد القتلى تسعة رجال منهم ستة من الاروام وثلاثة من مهندسي التاريع الاوربيين وقد كانوا مقيمين في «الشون» الكبير وكان لاحدهم

زوجة ولآخر ثلاث بنات ابكار وغلام وحماة
التجأوا كلهم الى حسين افندي مجد مأمور
مركز سمنود اذ ذاك فحماهم وحفظ ارواحهم

وقد أُحرق بعض القتلى بالغاز وأُلقي
البعض الاخر في البحر ومنهم من دفن في تل
« الواقعة »

وبعد وقوع هذا الحادث حضرت اورطة
من العساكر بقيادة راشد باشا لحفظ الامن
والراحة فاقامت مدةً جمعت في خلالها نقودًا
من الاهالي للاعانة الحربية وانصرفت

واما اسباب هذه الحادثة فهي ان رجلين من
اهالي المحلة كانا موجودين في طنطا يوم وقوع
المذبحة فيها فشهدا ما كان ثم عادا الى المحلة
واخبرا بما رأيا فهاج الرعاع وكان احد ذينك
الرجلين مصطفى منا الذي حكم عليهِ بعد الحرب
بالاشغال الشاقة لمدة معينة . وقد قيل بعد
الحادث ان احمد بك شكيب حفظ ارواح
كثيرين من المسيحيين وحقن دماءهم

وبعد وقوع هذه الحادثة باربعة ايام ورد
امر على المحلة بجمع من فيها من الاوربيين
وسوقهم الى المحطة بالمحافظة عليهم ليركبوا منها
قطارًا مخصوصًا (كان قد اعد لهم) يحملهم الى
الاسمعيلية ومنها يذهبون الى بورسعيد فجمع من
في المدينة منهم وسير بهم الى المحطة حيث لبثوا
مدةً في انتظار وصول القطار فاذ لم يحضر في
ذلك اليوم استحسن ان يبيتوا في منزل شكيب
بك السالف الذكر خيفة ان يقع عليهم اعتداء
اخر وكان كذلك ففي الصباح حضر القطار
ونقلهم الى الاسمعيلية

فصل

قوة عرابي وتوارد المهاجرين

وبعد حدوث الواقعتين اللتين سبق لنا
ذكرهما قبيل هذا الفصل اخذ الانكليز يتواردون
من بلادهم ضباطًا وجنودًا فكانوا يأتون السويس
ومنها يتفرقون بمقتضى اوامر روسائهم وكان يرد
في كل يوم اخبار من لندره تنبئ بقرب قدوم
نجدات جديدة

اما عرابي فكان حاصلاً اذ ذاك في كفر
الدوار على قوة مؤلفة من اربعة الايات من
المشاة والاي من الخيالة والاي من « الطوبجية »
رجال المدافع وبطارية من مدافع الرش وكان
في حوزته ايضًا عدد كثير من العربان يولفون
جمعهم جيشًا غير منظم

وفي تلك الاثناء اخذ قوم المهاجرين
الاوربيين في العودة الى الاسكندرية وكان
عددهم يزداد على مر الاوقات فكتب المستر
كارترايت متولي اعمال القنصلية الانكليزية الى
قناصل الدول الجنرالية ووكلائهم ما يأتي

الاسكندرية في ٩ اغسطس (آب) سنة ١٨٨٢

يا حضرة القنصل

ان الضابط الانكليزي الذي عهد اليهِ
المحافظة على راحة المدينة استلفت في هذه الاثناء
نظري الى كثرة عدد الاوربيين الواردين الى
مينا الاسكندرية

وقد علمت منهُ انهُ يجب في مثل الحالة
الحاضرة منع حصول مثل هذه الزيادة في السكان
وسبب ذلك ظاهر في معاناة الصعوبة في
الاستحصال على الماء وشدة الافتقار اليهِ مما هو

من الاهمية في نظر الحكومتين المصرية والانكليزية بمكان عظيم وفي غير ذلك من الاحتياج الى اسباب الرزق فارجوكم ان تعيرونا جانب المساعدة والعناية بان تتخذوا الوسائل الملائمة لمنع ورود المهاجرين الى الاسكندرية في هذا الوقت الذي تكتنف القطر المصري فيه انواع الشدائد والضيقات

وقد اتخذت الاحتياطات اللازمة ايضاً لمنع الاشخاص السيئي السيرة من العود الى الاسكندرية فالامل ان تشتركوا مع ضباط البوليس في فحص تذاكر المرور حباً في المحافظة على الامن العمومي . اه

فصل

(في قوة الانكليز البرية)

عُدِلت في ٩ اغسطس قوة الانكليز البرية التي خرجت لمحاربة العرابيين بما يأتي

المشاة

كان المشاة مؤلفين من كتيبة من الحرس مؤلفة من فرق الاي « رويال لجيير » و « غوردون » و « كامبرون » ومن عشر فرق مأخوذة من الالايات الاتية اسماؤها

. رويال ايريش .
. يورك و . لانكاستر .
. لوثيان .
. لجير دوق دي كورنوايل .
. سوسكس .
. بركشير .
. شروشير .
. سوشا .
. ستافوردشير .
. كنك رويال ريفل .

ومجموع عدد رجال هذه الفرق والالايات اربعة عشر الفاً

الخيالة

وكان قوم الخيالة مؤلفين من الفرقتين الرابعة والسابعة من . دراغون غواردس . والفرقة التاسعة عشرة من الموسار . ومن الاي تؤلفه فرقةٌ من كل الاي من الايات الحرس الخيالــة

رجال المدافع

اما رجال المدافع فكان عددهم ٩٤٠ يتولى قيادتهم ٣٢ ضابطاً ومعهم ٣٦ مدفعاً

المهندسون

وكان لهذه القوة ست فرق من المهندسين مؤلفة من ٥٤٠ مهندساً وكثيرون غيرهم من رجال خدمة الجسور والتلغراف والسكك الحديديــة

وانضم بعد زمنٍ قليل الى هذا الجيش فرقة من الجيوش الهندية مؤلفة من ٩٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال ماكفرسون

وفي الجملة ان غالبية هذا الجيش كانت مؤلفةً من حاميات البحر المتوسط الانكليزية فوردت من مالطا وقبرص وجبل طارق الأ خمس فرق منها وردت من ارلندا واربع من ادنبرج وواحدة من الدبرشوت

وبالرغم عن كل هذه القوة المنظمة لم ينثنِ العرابيون عن التهيؤ للدفاع حتى انهم قرروا ان يزحفوا على الاسمعيلية

وكانوا قد انشأوا في التل الكبير معسكرًا

محصنًا وجعلوه مركز قوتهم العظمى بان جمعوا فيهِ نحو عشرين الف رجل من العربان . اما في كفر الدوار فانهم انشأوا عدة حصونٍ وعززوها بقطعٍ من مدافع كروب

وكان الشقاق مع ذلك ضاربًا في معسكر العرابيين وعض الانامل شديد التأثير بما كانوا يلقونهُ من المكاره على اثر استطلاعات الانكليز واستكشافاتهم

فصلٌ

(في مياه الاسكندرية)

وكانت الاسكندرية اثناء ذلك تشكو من قلة الماء وسكانها يتوقعون من جراء ذلك ما هو اعظم من خطر النار فرأى القناصل ان يزيلوا من انفسهم الخوف ويحملوهم على الاعتقاد بقرب زوال الضيق فكتب الموسيو جاغو وكيل القنصلية الانكليزية الى قناصل الاسكندرية بما تعريبه

يرى امير البحر الانكليزي انهُ ينبغي تقرير طريقةٍ توزع بمقتضاها على سكان الاسكندرية مياهها المدخرة في الصهاريج فرجائي لذلك ان انقدم اليكم في وضع هذا الرأي موضع النظر والتنفيذ وان اخبركم ان الماء سيجري توزيعه على معدل عشرين ليترًا لكل شخصٍ يكون مصحوبًا بتذكرة الاجازة

وسيرسل اليكم في الوقت الملائم علم بالصهاريج التي يمكن استخدام مياهها وعدد كافٍ من التذاكر لتوزعوها على ابناء تابعيتكم وبيان مطول للطريقة والقواعد التي يجب الاعتاد عليها في تقديم تلك التذاكر وسائر ما يتعلق بهذه الخدمة

واني ارجوكم ان ترسلوا اليَّ علمًا بعدد ابناء جنسيتكم الذي يجب ان تدفع اليهم تذاكر الاجازة

وقد تقرر ان لايكون فرق او تمييز بين الطفل والفتى في توزيع الماء

واغتنم هذه الفرصة لاوكد لكم انهُ لاخوف من الافتقار الى الماء فكونوا مشتركين معي في تاكيد ذلك للخائفين من خطر نفادهِ او من خطر الموت ظماء . اه

وبعد بضعة ايام من تاريخ ورود نسخ هذا الكتاب على قناصل الدول علّق في شوارع المدينة اعلانٌ يحتوِ على النظام الاتي تعريبه

(نظام توزيع ماء الصهاريج)

اولاً . عندما ينقطع الماء الاعتيادي عن المدينة تدفع الى سعادة محافظ المدينة والقناصل تذاكر مخصوصة يسلمونها لابناء جنسيتهم في كل يوم ليوزع عليهم بمقتضاها ماء الصهاريج

ثانيًا . ستفتح الصهاريج من الساعة السادسة من صباح كل يوم الى الساعة الثامنة منهُ ومن الساعة التاسعة الى الظهر ومن الساعة الثالثة مساء الى الساعة السادسة

ثالثًا ستعين الاربعة الصهاريج الموجودة واحدًا بعد اخر لتوزيع مياهها على السكان

رابعًا على طالبي الماء ان يقدموا اوراق الاجازة للمأمور المعين لهذه الخدمة

خامسًا في ظهر ومساء كل يوم يتوجه مندوب مخصوص الى الصهاريج لجمع تذاكر الطلب

سادسًا سيجمع القناصل في الساعة السابعة او الساعة الثامنة من مساء كل يوم تذاكر

الطلب ليعيدوا توزيعهم على الطالبين في اليوم الثاني

سابعاً اتخذ في سراي الحقانية مكتب لتوزيع الاوراق وسيكون مفتوحاً من الساعة العاشرة صباحاً الى الظهر ومن الساعة الخامسة الى الساعة الثامنة مساء

ثامناً سيقوم عند كل صهريج بعضٌ من رجال الشرطة للمحافظة وسبعين لتوزيع الماء مأمور مخصوص

تاسعاً كل ورقة من اوراق الطلب يجب ان تكون مدموغة بدمغة الادارة الرسمية . اه .

فصلٌ

(لجنة وقاية مصالح الاوربيين)

وقد اقترح الموسيو شوبنفرث السائح الالماني تشكيل لجنة لوقاية مصالح الاوربيين وتسهيل كل ما تحتاج اليهِ الحكومة الانكليزية من الوسائط اللازمة لتأييد الراحة فتشكلت وقررت ما يأتي :

ان هذه اللجنة انما هي لسان حال الاوربيين القاطنين في الاسكندرية

فمن عزمها :

ان تساعد السلطة المستقرة في اعادة الراحة والصفاء الى البلاد المصرية

وان تساعد المقاصد المنصرفة الى ازالة اسباب الضيق وتبلغ الحكومة الاجرائية ما يعنُّ لها اجراؤه

وان تهتم قبل كل شيء بتنفيذ ما يجمع عليهِ الرأي العام من تنظيم جيش متطوع من الاوربيين للمحافظة على سلامتهم وراحتهم

وان تبحث فيما يجب اقتراحه على الحكومة او الهيأة القنصلية لوقاية الاوربيين من الاخطار .

وان تجعل الخواطر العمومية في اوربا على علمٍ بسير الحوادث التي تمس مصالح الاوربيين وتبسط لها حقيقة الحالة الجارية في مصر

وان تشترك مع جمعيات الاعانة التي ستنشا في اوربا فيما يكون مسهلاً للاوربيين المهاجرين سبل العودة الى القطر المصري وتعاطي اشغالهم السابقة

وان تضع كل قرارٍ موضع الاجراء ليتيسر لها تأييد الوفاق بين الاوربيين المختلفي الجنسية وتبذل معظم الجهد في تنشيط الاعمال واعادتها الى عهدها السالف

وقد جاءت هذه اللائحة مذيلة بعددٍ كثير من تواقيع الاوربيين القاطنين في الاسكندرية ومشفوعة برأي وجوب الالتئام للنظر فيما يقتضي تداركه من الامور المنذرة بالافتقار الى بعض الحاجات فالتأمت هذه الجمعية عاشر اغسطس في المتدى المالي (البورصة) برئاسة الموسيو شوينفورث فقررت ان يُنشر حيناً بعد حين خلاصة شارحة للحالة التي يكون الاوربيون قد وصلوا اليها في خلال الفترة الكائنة بين النشرتين وقد أُلقيت فيها مقالات تضمنت قولهم ان كلاً من الاوربيين اصبح واسع العلم بحقيقة الاحوال وانهُ بالرغم عن التاكيدات التي اعلنت القنصلية الانكليزية بها زوال المخاطر وانتفاء المصاعب لا تزال الحالة قاضيةً باتخاذ اسباب الوقاية ووسائل الصيانة

وقال بعض من خطب في تلك الجلسة

ان الخديو نفسه قد رأى بعين التبصر ما أُشير اليهِ في تلك الاقوال فكتب في سابع اغسطس الى رئيس نظاره بما يأتي

ان الحالة الصعبة التي صار اليها اكثر الناس الذين رزئوا بنكبات المذابح والنهب والحريق قد اثرت فيَّ تأثيرًا شديدًا وامست موضوع عنايتي واهتمامي

فارى لذلك ان من الواجب على حكومتي ان تعتني بتسكين روع المصابين وازالة الخوف من قلوبهم وجعلهم على يقين انهم لا يرون في المستقبل امرًا مكروهًا بما اتخذناه من اسباب الحفظ والوقاية

واني ارغب ان تعزم حكومتي منذ الان على تعويض الخسائر والاضرار على اولئك المرزوئين في الوقت الملائم لذلك وان لا تستثني من المتضررين احدًا على اختلاف جنسيتهم وان تراعي في ذلك جانب القسط بالنظر الى دخل البلاد .

وارجوكم ان تبلغوا هذه الشعائر والتعليمات لمجلس النظار وان تبلغوني ما يستقر عليهِ رأيكم جميعًا من الوسائل العادلة المتعلقة بهذا الشأن

التوقيع : محمد توفيق

فصل

(نص منشور من عرابي الى المديريات)

وكانت الاحوال تجري في الاسكندرية على هذا المنوال وعرابي يهتم بزيادة جيشه وتعزيز استحكاماته في كفر الدوار وكان كلما اتى امرًا يكتب في شأنه الى روساء الجيش المتفرقين والى المديرين وغيرهم فمن ذلك ونحوه ما كتب بهِ الى المديريات في ١٢ اغسطس قال

قد اوجب الله علينا من اعداد ما نستطيعه من القوة لقتال الامة الانكليزية التي اعتدت على البلاد شرهًا وطمعًا وبادأتنا بالحرب بغيًا وعتوًا ما قام بهِ احسن قيام على قدر شأنه كل حر مخلص شهم عالي الهمة شريف الذمة من رجال البلاد عمومًا ونظراء سعادتكم من حضرات المديرين خصوصًا حتى بعناية الله واتحاد هم الجميع الذي هو اثر الغيرة الوطنية والحمية الانسانية قد ادركت البلاد في زمنٍ يسير من عظيم القوة وجليل الاستعداد ما لم يخطر بالبال قبل الان الحصول عليهِ الا في زمنٍ مديد ولا يخفى انهُ من اجل ما يجب حسن القيام بهِ هو مزيد الحرص على اللحظة الواحدة من زمن المحاربة فلا تفوت الأ وقد صرفت في حسن التدبير واصالة الرأي في النكاية بالعدو ورده على عقبيه خاسئًا خاسرًا وانه مما وجب اعداده لذلك هو زيادة الجند خمسة وعشرين الف عسكري فبناء على ذلك وما نرآى ان هذا العدد اذا شرع في جمعهِ بحسب القرعة العسكرية قد يجتمع من شبان يلزمهم للتدريب والتمرين على حمل السلاح وقت لا يحسن تفويته الأ باعظم ما يمكن من الفائدة والنجاح لما مر وجيث ان خفراء البلاد المرتبين من الاهالي هم بالطبع اكثر من غيرهم تعودًا وتمرنًا على حمل السلاح وحركات الدفاع واشد قوةً وبأسًا واثبت جاشًا لدى المقاومات العدوانية وقد تيسر جدًّا جمع هذا العدد من هولاء الخفراء وحشده مع الجيش في زمن وبحالة اقرب واسهل مما لو جمع من غيرهم بالقرعة العسكرية فعليهِ قد وافق ان يخصص هذا العدد على المديريات ويسرع

بجمعهِ من الخفراء المذكورين كل بلد وما خصها منهُ وقد خص مديرية سعادتكم من العدد المذكور (كذا) نفر من ذلك فالقصد مزيد الاعتناء والاسراع بجمعهِ بعد تخصيصهِ على بلاد المديرية من نفس الخفراء المذكورين ثم يجري تفهيم كل واحدٍ منهم بانهُ في نظير تلبيتهِ لدعوة هذه الخدمة الوطنية الشريفة مع المسرّة والبشر شأن الحريص على شرف قومه وبلاده فانهُ بعد انتهاء الحرب بنصرنا وظفرنا بفضل الله يكون معافًا في المستقبل من الخدامات العسكرية ثم يجري ارسال الانفار المذكورة بالافادات المقتضية كالجاري اما الخفراء الذين يلزم ترتيبهم بدل المذكورين فيجري انتخابهم وتعيينهم في محلات ودركات اسلافهم في الحال حسب ما يلزم واقتضى تحريره ونشره لجميع المديريات بذلك وهذا بالجملة لسعادتكم للاجراء على مقتضاه . اه

وهذا بيان ما لحق كل مديرية من العدد المذكور .

١١٧٣	مديرية البحيرة
١٠٢٨	« القليوبية
٢٠٧٧	« الشرقية
٢٤٢٨	« المنوفية
٢٤٢٥	« الغربية
٢٦٦٥	« الدقهلية
١٢٥٠	« الجيزة
٠٦٩٥	« بني سويف
٠٨٦٢	« الفيوم
١٧٢٨	« المنيا
٢٢٤٥	« اسيوط
٢١٦٢	« جرجا
١٦١٠	« قنا
١٤٣٤	« اسنا
٢٥٠٠٠	الجملة

فصل

(مغارم)

ولقد فرض عرابي على المديرين اموالاً يستوردونها من الاهالي ويبعثون بها اليهِ اعانة الجيش واشار اليهم ان يعتبروها من اموال الضرائب فتخصم منها عند الحساب فكان المديرون اذا جمعوا شيئًا منها ومن الجمال والبغال كتبوا الى هيأة الحكومة العرابية في العاصمة يقولون ان اهالي المديرية تبرعوا لاخوانهم الجهاديين بكذا وكذا محاماةً عن الوطن وحرصًا عليهِ على ان كثيرين في الواقع كانوا يتبرعون بالمال والغلال والخيل والجمال من تلقاء انفسهم اعتقاد ان ذلك يزيدهم رفعةً وقدرًا في عين عرابي وكانوا يحملون المشايخ والاهالي على الاعتقاد بانهُ لولا عرابي لفتك الانكليز بهم وباولادهم وهتكوا نساءهم ودمروا بلادهم تدميرًا وكانوا يقولون للرجل المطلوب للعسكرية «انك ستحامي عن وطنك وعرضك وتدفع عنهما من اتوا يقصدونهما بشر وضر» وكانوا يقولون لمن يتأخر عن دفع الاعانة المالية «ان المال المطلوب منك فرضٌ للجهادية عليك الا تعلم انهم يبذلون ارواحهم في سبيل المدافعة عنك لتكون انت متمتعًا بالراحة ورغد العيش»

وكانوا يفرضون الاعانة المطلوبة على معدل قيمة الفدان وقد عهد بذلك الى المشايخ فكانوا يظلمون اصحاب « الابعديات » من الاتراك

والشراكسة ومن ينتمي اليهم ويأخذون في بعض البلاد اثنى عشر غرشاً عن كل فدان وفي بعض اخر ١١ وفي غيرها ١٠ وكانوا يأتون صاحب الارض ويطلبون منه ما يريدون بلحجةٍ وسماجة لا مزيد عليها فاذا طلب اليهم ان يمهلوه ساعة او نصف ساعة اوسعوه شتماً وسباباً ثم اتوه بعد حين بواحدٍ او اثنين من الجند فيسوقونهُ جميعاً الى المدير او الضابط او وكيل المديرية فينهاه عن التماهل في اداء المطلوب فاذا اعتذر اودعهُ السجن فلا يخرج منهُ ما لم يؤدِ مال الضريبة اما برهن ما لديه واما باستدانة القيمة ممن تأخذه الشفقة عليهِ والاَّ اخرجه الحاكم من السجن واصحبهُ باثنين من الجند فيرافقانه الى حيث يحصل على القيمة فيدفعها اليهم وينصرف نافضاً عنهُ غبار الموت

وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر او طالب المهلة « هل اتيت من بلادك باطيان فما هذه الاَّ اطيان القطر ونحن ابناء الوطن لا يحق لغيرنا ان ينتفع بها . اتيتمونا فقراء لا تملكون ارضاً ولا فلساً فصرتم الان اصحاب اراضٍ واملاك تحرموننا من خيرها ما يجب ان يستخدم في دفع الاذى عن البلاد »

وكان بعضهم لا يكتفون بمثل هذا الكلام بل كانوا يعمدون الى الارض ويقتسمونها بالقول فيقول بعضهم للآخر « هذه القطعة لك وهذه لي » ثم يلتفتون الى صاحب الارض ويقولون له « اخرج من البلاد كما جئتها »

فكان اصحاب الاراضي يزدادون خوفاً وحسباناً لبلاء اعظم فانقطع كثيرون منهم عن التردد الى اراضيهم ولزموا منازلهم

واستمرت هذه الحال جاريةً من ابتداء شهر رمضان الى انتهائهِ وهي مدة قضاها بعض اصحاب الاراضي في معاناة الاتعاب وتحمل الذل والهوان

فصل

(خطبة الشيخ علي المليجي)

وكانت الخطب تتلى اثناء ذلك في المجتمعات والمساجد مبينةً ما يجب الاهتمام بهِ (اذ ذاك) من التجهيزات الحربية فمنها خطبة للشيخ علي المليجي في اسيوط القاها على خلقٍ كثير من اهالي بندر تلك المديرية وهي :

الحمد لله الذي جعل امة محمد صلى الله عليهِ وسلم خير الامم وعودها العناية والنصر اذا العدو بها ألم لا اله الاَّ هو لا عزَّ لنا الاَّ بهِ الى يوم الدين فهو المختص باعانة من هاجر في سبيلهِ وكلف عزمه وسمعه لقولهِ تعالى ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيتهِ مهاجراً الى الله ورسولهِ ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله ان الله لا يضيع اجر المحسنين نحمده سبحانهُ وتعالى على ما اولانا من النعم ونتوب اليهِ من جميع الاثام اذا انجرَّ بها القلم ونسألهُ اللطف والعناية والنصر على الكافرين

واشهد ان لا اله الاَّ الله وحده لا شريك لهُ المتعالي عن المشاركة والمشاكلة وعن ان يحتاج لمشارك لهُ في اعانة من خرجوا من بلادهم متطوعين واشهد ان سيدنا محمداً عبده ورسوله وذروة سنام المجد وتاجه واكليله رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين اللهمَّ صلِّ وسلم على هذا النبي العظيم والرسول السيد السند الكريم

سيدنا محمد وعلى آله واصحابه كلما برق برق النصر للمؤمنين وبان اثر الذل على الخائنين وسلم تسليمًا كثيرًا

اما بعد فيا عباد الله لا خفاء انهُ قد مرت بنا في الزمن السالف ايام غير صافية العيش للمسلم وما ذلك الّا لعدم الحمية الاسلامية في حكامه الذين كانوا كالليل المظلم اذ كانوا منهمكين في ميدان حظهم الدنيوي وعن الدين غافلين والان قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم اذ قد اعتدل حكام الوقت ايدهم الله بالاخذ في اسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم وصاروا باذلين الهمة في التوصل لما يبعد الامة عن التشويش ولما يكونون بهِ آمنين اذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه في مدافعة من كانوا في تشويش الامة اول سبب وباع نفسه هو وجيشه للجهاد في سبيل الله ولم يبالِ بمشقةٍ ولا تعب كل ذلك لحفظ الوطن واعلاء كلمة الدين فطوبى لقومٍ باعوا الحياة الدنيا وشروا الاخرة لما انهم هاجروا تاركين الاهل والملابس الفاخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين واعلموا عباد الله بان الله تعالى امرنا في كتابه المجيد بالقتال واوضح لنا امره فنعم السيد الآمر ونعم من امتثل امره وتأمل في قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يأ تونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين) فالمسلم العاقل من اكتفى بامر مولاه واشترى اخرته وباع دنياه بالجهاد في سبيل الله وتباشر بقوله تعالى (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين) فافيقوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله قبل اقتراب الاجل وزودوا انفسكم التقوى واعرضوا عن المتقاعدين فمن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة في الانفاق على من تبرع بنفسهِ لدفع الاعادي وصارت شهامة الاسلام على وجهه وجميع اعضائهِ تنادي وجعل قوته قوله تعالى (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقًا علينا ننجي المؤمنين) فمن لم يقنع الان وبعد الان بما سمعهُ فهو منافق ومن دين الحق مارق وغافل عن قولهِ تعالى (فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين) قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ان الله تعالى قال (من انتدب خارجًا في سبيلي غازيًا ابتغاء وجهي وتصديق وعدي وايمانًا برسلي فهو ضامن على الله عز وجل اما ان يتوفاه في الجيش باب حتفٍ شاء فيدخلهُ الجنة واما ان يسيح في ضمان الله وان طالت غيبتهُ حتى يرده الله الى اهلهِ مع ما نال من اجرٍ وغنيمةٍ وعلى الله قصد السبيل)

ومنها مقالة للشيخ محمد ابرهيم في اسيوط ايضًا وهي :

(مقالة الشيخ محمود ابرهيم)

حمدًا لمن جعل اعلام الملة المحمدية على كواهل اعلام الامة العربية وحرسها بشهب ثاقبات لصخر شياطين اهل البغي والغواية وصلاةً وسلامًا على من كان اذا اراد غزوًا ورّى به ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصدق خالص آرائهِ وعلى آلهِ الذين اقاموا انفسهم اسوارًا لحرمة الدين ومن تبعهم في المحاماة من كل حرّ لعرضهِ يصون

اما بعد فان الانكليز قد طاشت عقولهم وعميت بصائرهم فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق اموالنا وديارنا نفيسها وساقوا الينا من زيف المعارضات خسيسها وقابلوا تحيتنا بخداع وفتلوا اكنافنا لغدر اضمروه ليوم النزاع ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان وفينا لهم بعقد الذمة والامان فعاملناهم بالحسنى وجبرنا ما كان منهم ضعفًا ووهنًا فلما صحت ابدانهم وعمرت اوطانهم لم يقنعوا بذلك بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب فخربوا بيوتهم بايديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب وهكذا خاتمة اهل السوء والفحشاء والله يؤيد بنصره من يشاء حيث اقام ناظرًا بعين الشرع ناظر لم يخشى في الله لومة لائم او زجر زاجر فقابل كتائب الضلال واذاقهم كأس النكال وقام خطيبنا يدعو الى دعوة الحق اذ كان من ام الكتاب بها في عصرنا هو الاحق فلباه اناس باعوا ارواحهم للجهاد في قطع جيش الضلالة والعناد فاقبلوا اليه من كل فج عميق افواجًا بالمال والنفس فرادى وازواجًا فعند ذلك دهى الانكليز ما دهاها حيث لم يكن في حسابها مـا عراها فنسأل الله ان يكون سعادة احمد عرابي باشا هو المشار اليه . يبعث الله على رأس كل مائة سنة فان البشائر دلت عليه حتى يمزق الباغون كل ممزق ويحيي المندوب والمفروض بهذا الموفق وتموت البدع التي اسود القطر بظلامها ويختفي شارق الظلم بارجائها فحاشا ان يجعل الله ديار اهل بيت نبيه في ذمة كافرين جعل الله سعادة احمد عرابي باشا وجنده الظافرين باعدائنا في المبدء والآخر آمين

فصل

(ترعة السويس)

ولما كان قد استمر توارد الانكليز ونزولهم في السويس احتج الموسيو دلسبس على ذلك فاصدر الخديو امرًا مفاده ان امير البحر وقائد القوة الانكليزية العام بما انهما اتيا مصر مأمورين باعادة الراحة والنظام اليها فهما لذلك منوطان بالحلول في جميع النقط التي يرون لزومًا للحلول فيها على قصد قمع العصاة وقد توعد في هذا الامر من يخالف احكامه بالقصاص الصارم

وكان الموسيو دي لسبس قد سلك في الامر ازاء عرابي مسلكًا كان حميد العاقبة فانه وقى به الترعة من شر العرابيين بان تظاهر بالانحياز اليهم وشدة المقت للانكليز ولولا ذلك لامر عرابي بردم الترعة تشفيًا وانتقامًا

وقد وقفنا على صورة كتاب بعث به عرابي الى الاستانة وفيه خاطب من كتب اليه فقال

كنت قد بسطت لعطوفتكم في ٢ اغسطس وما بعده امر اعتداء الانكليز وتسلطهم في جهتي السويس والاسمعيلية على الترعة ومخالفتهم للعهود بما جاء مخلاً بنظام الترعة وبسطت ايضًا ما كان من الهمة التي بذلناها في جعل الترعة على الحيادة لانها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الامم وممر تجارة العالم اجمع . وحيث قد قرب الان توجه المحمل الشريف والحجاج المسلمين الى جهة الحجاز كتب الى الموسيو دي لسبس الموجود الان في الاسمعيلية بالاستفهام عما اذا كانت انكلترة تمانع في مرور عساكر

المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف ام لا فاجاب وكالة الجهادية بالتلغراف انهُ بالنظر الى الاحوال الحاضرة لا يمكنهُ ان يأخذ على نفسه تبعة ارسال المحمل الشريف

وبعد ورود هذا الجواب منع الانكليز جميع سفن الدول الحربية من المرور بالقنال وقطعوا الاسلاك البرقية الكائنة بين السويس والاسمعيلية كما عرضنا ذلك بالتلغراف

ثم ادخلوا سفنهم الحربية مع العساكر باسرهم وقد ابنا الاحتياطات التي اتخذت لمقاومة العدو اذا تقدم الى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقي ووكيل محافظة الاسمعيلية ويوزباشي العساكر المستحفظة هناك قد افادوا ان من عزم الانكليز ان يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فيما داخل البلاد ففي هذا الصباح (١) علم من الاخبار الواردة ان الانكليز شرعوا في الساعة التاسعة من ليل امس في اطلاق القنابل من جهة الاسمعيلية على نفيشه

اما نحن فبالنظر الى احترامنا لعهود الترعة بان نكون على الحيادة والى عدم تقويتنا لتلك النقط وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط (فيما عدا العساكر المستحفظة) وموالاة التحريض الشديد على عدم مس حقوق الترعة كل ذلك جعلنا في مأمن تام من تحمل اية تبعة كانت

ولما بدا من الانكليز هذا الاعتداء على ضفاف الترعة اقام الموسيو دي لسبس الحجة على الاميرال الانكليزي وارسل صورة الحجة بالتلغراف الى الحكومة الفرنسوية

فاتصل خبرها بوكلاء الدول في عاصمة الحكومة المشار اليها فاعلموا بها دولهم بصفةٍ رسمية اما الانكليز فسيرًا منهم على حكم المثل السائر (البادىء اظلم) لم يلتفتوا الى اقامة هذه الحجة بل اصرّوا على الإخلال بنظام الترعة وفي هذا الشان أُرسل تلغراف الى الموسيو دي لسبس بما يأتي :

(بما ان الانكليز خرقوا نظام حيادة الترعة فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها منعًا لاعتدائهم فاذا لم يرد الينا جواب شافٍ في مدى اربع وعشرين ساعة اضطررنا الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة)

فمن التفاصيل التي تقدم سردها تعلمون ان الدولة الانكليزية التي كانت متخذةً لها مقامًا خطيرًا لدى الخلافة الكبرى وفي دار السلطنة العثمانية وكانت تزعم انها اشد الدول محافظةً على السلام وانها لا تحارب مصر ولا تقصد بها شرًا قد اوقعت المسلمين في اشكالٍ عظيم

ومن التعدي الذي قامت به امس ظهر في الواقع انها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقًا وتحقق ايضًا انها مقاومة لجميع المصريين الامة الخاضعة للدولة العثمانية وانها داست بارجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخشَ احدًا ورمت بنار الحرب والقتال اقليمًا عظيمًا

فبما ان اعمال الانكليز وصلت الى هذه الدرجة فلم يعد في الامكان ان نتراخى في اتخاذ الوسائط المقتضاة لدفع كيدهم واما النتائج الوخيمة

(١) لم نعلم تاريخ هذا الكتاب

التي ستترتب على ذلك فستكون عائدةً على المعتدي الظالم

وقد بسطت فيما مضى شرح الاحوال التي كانت جاريةً يوم تدوينها وارسالها فلكي يكون ما اعقبها غير خافٍ على شريف علم ظل الله بادرنا الى كتابتها وتقديمها لنادي عطوفتكم

وهنا سبيل لان نثبت تقرير الموسيو فيكتور دي لسبس الذي قدمه لابيه الموسيو فردينان دي لسبس بتاريخ ٢٠ اغسطس سنة ٨٢ على اثر تلك الاحوال وهذا معربهُ

(تقرير الموسيو فيكتور دي لسبس)

يا حضرة الرئيس

في تقاريري السابقة انبأتكم باصرار الحكومة الانكليزية على عدم الاكتراث بنظاماتنا وقوانيننا وبحلول الانكليز في مياه ترعة السويس بناء على امر الاميرال هيويت

وفي ١٢ اغسطس ارسلت اليكم تلغرافًا مشتملاً على بيان مسألة الانكليز في الترعة ثم توجهت الى السويس

ففي صباح ١٤ منهُ حصلت مقابلة بيني وبين الاميرال هيويت فبسطت له فيها ان رئيس ومدبر ادارة الترعة لم يجب على رسالتهِ لاسبابٍ اجلها انهُ اعتبر الجواب عليها من موجبات وقوع سوء الفهم او الوحشة بينهما ولذلك كلفني ان اجتمع بهِ واشرح لهُ مشافهةً ما لا يشك بعده ان الانكليز يخرجون من الترعة مراعاةً للعهود والمواثيق

ولقد شافهتهُ بهذا الكلام ولم القَ عناء في اقناعه بانهُ تجاوز الحدود المقررة للدول المحاربة فان الاعمال التي قاموا بها لم تكن الا لتحمل المصريين على العبث بحقوق الدول في الترعة بعد ان رأيناهم الى الان يحترمونها بالرغم عن تظاهرات الانكليز وقد قلت لهُ انهُ اذا علم المصريون ان الانكليز حلوا على ضفاف الترعة بغية ادخار المؤن فيها ترتب على ذلك خوفنا من سدها وقطع الماء عنها

ثم سألني الاميرال ان أُلقي اليهِ شروحًا وتفاصيل كافية عن حيادة الترعة وحقوق كلٍ من الشركة والحكومة المصرية وواجباتها فقلت لهُ بل اخطرت على ذهنهِ كيف ان الصفة التي لزمها الموسيو فردينان دي لسبس في انكلترة فيما يتعلق بشأن الترعة كانت تلقى من مصاعب المقاومة ما تحمل لاجلهِ امورًا كثيرة حبًا في جعل الترعة على الحيادة وكيف انهُ بمحاماتهِ عن مبداء هذه الحيادة كانت الشركة تظهر نفسها حريصةً على منافع انكلترة ومصالحها وذلك بمنعها من الاتيان باعمال تضر بالتجارة العمومية وتجارتها خصوصًا وقد اعلنت لهُ ان الاحتجاج على الاعمال العديدة التي خرقت بهِ انكلترة حرمة النظامات الموضوعة للترعة والمرعية الاجراء لا يجب ان يؤخذ منهُ ان الشركة تقصد الامة الانكليزية بعدوان ولكنها تقصد بهِ المعارضة والممانعة فيما يوجب اقامة الحجة عليهِ سواء كانت الدولة الجانحة اليهِ انكلترة او غيرها

وقد افهمتهُ ان الخديو ليس في رغبته ان يخل بنظام الترعة وان شأن السفن المصرية في الترعة شأن السفن الاخر الغريبة وفي الجملة ان الحربية الانكليزية لا تستطيع ان تأتي عملاً مخلاً بالحقوق المحترمة باسم الخديو وحكومته

فشكر لي الاميرال ما ابديتهُ لهُ وقال لي

انهُ سيكتب الى حكومته بما القيته على مسمعه مما يختص بحيادة الترعة وشأن الشركة فيها

وبعد زيارتي لهُ بنحو ساعةٍ من الزمان لم يبقَ في مياه الترعة جنديٌّ واحد قط من الجنود الانكليزية

ثم عدت الى الاسمعيلية خامس عشر الشهر ففي ١٦ ورد للموسيو دي روفيل رسالة من القبودان فيتس روي ماكلها ان الاميرال هوسكس ليس على علمٍ صحيح بشأن الحكومة المصرية والشركة في ترعة السويس فدعاني المدير على اثر ذلك الى بورسعيد وكلفني ان اجتمع بالاميرال واجعله على ما يروم من العلم اليقين بحقوق الحكومة المصرية والشركة في خليج السويس

وفي ١٨ اجتمعت بالاميرال هوسكس فلقيت منهُ غير ما لقيت من الاميرال هيويت فانهُ جعل في اذنيه صمًّا وامالها عما كان في كلامي من الصواب وقد صرفت بجانبه اكثر من ساعةٍ على هذه الحال محاولاً اقناعه بان مياه بحيرة التمساح وبورسعيد خاضعة كالترعة لحقوق الشركة وان جميع السفن الاجنبية بلا استثناء تُعامل في بورسعيد والبحيرة المذكورة بمقتضى نظام الشركة المقرر

فلم يُصغِ الاميرال الى هذا المقال وفوق ذلك انهُ كان يقطع عليَّ الحديث بين الدقيقة والاخرى ويقتصر على القول ان الموسيو دي لسبس عدو انكلترة وان في بور سعيد راية مصرية

ولقد بذلت الجهد في اقناعه باننا لسنا اعداء انكلترة وان وجود الراية المصرية في مياه بورسعيد ليس من شأنهِ ان يجعل للبحرية الانكليزية او بحرية اية دولة كانت حق خرق النظام وتجاوز الحدود فكانت مساعيَّ واجتهاداتي تذهب سدى

فمن ذلك يتضح ان الاميرال كان قد تقرَّر في ذهنه اننا اعداء الانكليز وان مياه بور سعيد وبحيرة التمساح ان هي الا مياه مصرية يفعل فيها ما يشاء من غير معارض

وبعد ان انتهت هذه المخابرة بيننا رجعت الى الاسمعيلية وفي ليل ١٨ الشهر انقطع تلغرافنا بالقرب من السويس فاستدللنا من الالات التي وجدناها في الصباح ان الايدي التي اشتغلت بقطع تلك الاسلاك انما هي ايدٍ اوربية فعمد الموسيو دي روفيل في الحال الى اصلاحها واعادة المخابرات بواسطتها

وبعد عود الصلات التلغرافية الى مجراها السابق ورد الينا تلغراف من الموسيو شارتري مشتمل على نص رسالةٍ بعث بها اليهِ الاميرال هيويت ومفادها انهُ وفقًا لتعليمات الحكومة الانكليزية اصبح مأمورًا بمنع جميع السفن من الدخول الى الترعة وفي جملتها زوارق الشركة وباستخدام القوة عند الاقتضاء في انفاذ هذه التعليمات

فلما وقف المدير على نص هذه الرسالة بعث الموسيو شارتري بلائحة يقيم بها الحجة على رسالة الاميرال

وفي نحو الساعة التاسعة من صباح ١٩ الشهر دخل الترعة زورق مسلح من زوارق السفن الحربية الانكليزية وتصدى لما فيها من الزوارق التجارية تصديًا مبنيًا على ما جاءه في نص رسالة

الاميرال اما من جهة بورسعيد فلم يبدُ شيء من مثل ذلك

وكانت التعليمات التي اعتمد عليها الاميرال منذرة بوقوع حوادث هائلة ففي ليل ١٩ طرأت على الاسمعيلية تلك الحوادث وجعلتها مشهدًا للمخاوف

وذلك انهُ بينما كان قوم الاوربيين مجتمعين في منزل الموسيو بوالبري على اثر دعوة الى ليلة رقص فيهِ وكان الوقت اذ ذاك بالغًا حد الساعة الثانية بعد منتصف الليل اذا بحركةٍ في طرق المدينة تصم الاذان فمن اطلاق بنادق وسوق عساكر وجر مدافع الى غير ذلك مما كان حدوثه غير منتظر وكان اصحاب تلك الحركة قوم الانكليز الذين اخذوا يخرجون الى المدينة غير مستدركين امرًا شأنه ان يلقي الرعب في قلوب السكان ويطرح المارة منهم قتلى في الطرق بنار البنادق

وقد حرنا فيما بعثهم على تلك الحركة الحربية اذ لم يكن امامهم من عدوٍ يطلقون عليهِ تلك النار فان معسكر المصريين كان في النفيشه التي تبعد عن الاسمعيلية مسافة ثلثة كيلو مترات اما المدينة فلم يكن فيها الاَّ نفر قليلون من البوليس وهم قومٌ من اشد الناس ميلاً الى السكينة فانهم قضوا الى الآن في الاسمعيلية سنين كثيرة لم يكن همهم فيها الا تأييد الراحة والمحافظة على النظام

وبعد خروج الانكليز بقليل دوت اصوات المدافع وذلك بان اخذت السفينة «اوريون» والسفينة «كارليفور» في اطلاق مدافعها على النفيشه ثم استمر اطلاق البنادق متتاليًا متتابعًا في شوارع المدينة

وعند بزوغ الفجر انقطع اندفاع رصاص البنادق في حارة الاوربيين وقد أُصيب بهِ رجل من الاوربيين وهو هولاندي الاصل يدعى الموسيو برونيس

وبعد شروق الشمس انطلق الملاحون الانكليز الى قرية العرب التي يقطنها فعلتنا الوطنيون واخذوا يطلقون النار على النساء والاطفال فكانوا يفرون من وجوههم الى الصحراء ويملأُون بصراخهم الفضاء

وقد اسروا بعضًا من رجال البوليس من غير ان يبدي احد منهم مقاومةً ما ولكن احدهم قتل اثناء محاولته الفرار مع عائلته

وعندما نزل الانكليز الى البر قطعوا اسلاك التلغرافية المتصلة بالسويس وبورسعيد وحلَّ القبودان فيتس روي في مكتب المينا وحجر على زوارقنا وقد اصبحت الاسمعيلية الان من ضمن حصار منيف وامسينا لا ندرى ما هو جارٍ في بقية الخط

وقد اخذنا ان نهيئ مكانًا لعائلات مستخدمي الشركة حيث تكون آمنةً شرَّ الخوف والرعب فان في المدينة ثلثمائة جندي فقط من ملاحي الانكليز وفي الظن ان عساكر النفيشه يستطيعون في الليل ان يهجموا على المدينة ويطردوهم منها ونرى من الحزم ان نرسل النساء والاطفال الى بحيرة التمساح ليقضوا فيها الليل . اما نحن فقد عزمنا على البقاء في المدينة

وقد منع القبودان فيتس روي النساء من السفر فكتبت اليه مستفهمًا فبعث اليَّ يقول انهُ يبيح للنساء السفر ولكن رجال الموسيو دي لسبس يجب ان يقيموا في المدينة فانهُ يتوقع

ان يحمل عليهِ في الليل وان يحدث قتال في الاسمعيلية فلذلك يروم ان تبقى في المدينة

فلما ورد هذا الجواب آثر قسم عظيم من العائلات البقاء في المدينة على الجلاء عنها اما القسم الاخر فالتجأ الى السفينتين الاسبانيتين (كارمين والباتروس) وكان قائداها الدون كارلوس رويز والموسيو بونفيلد قد ارسلا الينا زوارق مخصوصة فتوجه عليها الى السفن من رام الالتجاء اليها

وانقضى الليل من غير ان يحدث شيءٌ مزعج فيهِ وفي الصباح نهضنا من الرقاد وقصدنا الخروج الى شوارع المدينة فاذا بها غاصة بالعساكر الانكليزية البرية والبحيرة ملأى بسفن النقل الحربية وفي ٢١ الشهر نصب الانكليز انفسهم سلكا البرقي الكائن على خط بورسعيد

وبلغنا ان كثيرين من الجنود الانكليزية نزلوا الى بورسعيد وان الاميرال هوسكنس استولى على مكاتب الشركة فيها وطرد منها الموسيو ديزافاري وان سفنًا كثيرة من السفن الحربية دخلت الترعة بدون ان تؤدي الرسوم اللازمة وان الانكليز حلوا في القنطرة بالقوة

وفي صباح ٢١ اتى الاسمعيلية الاميرال بوشان سيمور والجنرال ولسلي والاميرال هوسكنس

وفيهِ حصلت بيني وبين الاميرال سيمور مقابلة اظهر لي فيها رغبته في عود الشركة الى شأنها المسلوب في الترعة فقلت له اننا لا نقدر ان نستلم زمام عملنا السابق في الخليج الا اذا كنا قادرين على ادارتهِ بمقتضى حق الخدمة المقرر لنا في نظام الترعة وبعبارةٍ اخرى اذا

رفع الحظر عن زوارقنا في الاسمعيلية وأُعيدت المخابرات التلغرافية بيننا وبين السويس وفي الجملة اذا أُعيد للشركة حق ادارة اعمالها كما في السابق من غير ان يكون للغير دخل فيها والاَّ فالتبعة عائدة على الاميرال واتباعه فقبل الاميرال والجنرال ولسلي ان يحملا هذه التبعة

وفي ٢١ و ٢٢ الشهر رفعت الاسلاك التلغرافية بين الاسمعيلية والسويس ثم بلغنا ان المصريين اشتبكوا في ٢٠ الشهر بقتالٍ عنيف مع الانكليز فقتل من المصريين مائتان

اما عدد الانكليز الذين خرجوا الى الاسمعيلية فقد بلغ من ٢١ الى ٢٥ الشهر عشرين الف مقاتل.

وفي ٢٢ انخفضت مياه الاسمعيلية ٥ سنتيمترًا واستمرَّ هذا الانخفاض في الايام التالية بمعدل اربعة سنتيمترات في اليوم وهو ما دعا الى الظن بان العرابيين قطعوا مياه الترعة

وفي ٢٣ سلك الانكليز طريق القاهرة سائرين على خط الترعة الحلوة وخط الطريق الحديدية وبعد ان حدث بينهم وبين المصريين بعض مناوشات بلغوا المحسمة وهناك تحققوا ان مياه الترعة لم تصب باذىً وعلى فرض انها قطعت من فوق المحسمة فان في مختنقات القصاصين والاسمعيلية ما يكفي الترعة شهرين

وفي ٢٤ عاد سير الاحوال المتجرية في الترعة الى عهده السابق

ومن اللازم ان اذكر ان الانكليز كثيرًا ما احتاجوا الى دبادبتنا ادلاء السفن فطلبوا منهم بعض الخدمة فابوا ما لم تسمح لهم الشركة باجابة الطلب

وحاصل القول في الختام انهُ لم يلحق باحد من رجال الشركة سوء واذى في مدة هذه الازمة
التوقيع (فيكتوردي لسبس)

فصلٌ

اراء واقوال

في شأن الانكليز ومصر

وقبل ان نأتي على ذكر الوقائع الحربية التي جرت بين الانكليز والعرابيين ونستوفي ما يتعلق بها نثبت في هذا الفصل المخصوص اهم اراء واقوال صحف القوم المتعلقة اذ ذاك بشأن الانكليز ومصر والعرابيين فقالت صحيفة الناسيونال الفرنسوية :

من المعلوم ان من الصعب على انكلترة فتح حرب بدون ان يكون لها معين فانها بدون ذلك لابدّ ان تعلق باشراك الاخطار وما نعلم من قوتها يرشدنا الى حقيقة مقصدها ويهدينا الى معرفة كنه اهمية الخدمة التي تلتمسها من غيرها حينما نطلب تأليف جيش مختلط

وقالت ليبوبل ان انكلترة ليس في وسعها ان تحشد من الجنود اكثر من ٢١ الف عسكري و٥٦٠ عسكريًا اذا حاولت تأييد لائحتها الاخيرة المشتملة على البلاغ الاخير هذا وانا لنعجب من دعواها ان لديها من العساكر النظامية مائة وتسعة وثمانين الفًا ومائة وثلاثة وعشرين عسكريًا ومن العساكر الملية مائة الف وخمسة وثمانين الفًا ومائة واربعة وثلاثين عسكريًا ومن خيالة البومانرى عشرة الاف ومائة وسبعة وستين ومن المتطوعين مائتي الف وثمانية ومن العساكر الاحتياطية وارباب المعاشات المتجلة اساؤهم بسجلات العسكرية اربعة وثلاثين الفًا وستمائة وتسعة واربعين جنديًا ثم نراها الان عاجزة حتى عن حشد ذلك القدر الذي قيل عنهُ ان ليس في وسعها الا حشده فقط ومن هذا يتبين ان ما تسطره في الجرائد العسكرية ليس الاَّ امرًا خياليًا قصدت بهِ التمويه على حقيقة امرها واظهار عظمتها وقوتها وما درت انها طالما لبست وموهت على الناس ثم لم تلبث ان يظهر امرها وانها ان خدعت وغرت وهي خارجة عن ميدان النزال كذبتها شهود الامتحان

ثم ان مقدار ما تحتاج اليهِ البلاد الهندية والمستعمرات من العساكر النظامية ثلاثة وتسعون الفًا وثلاثمائة وسبعون جنديًا فلم يبقَ من العساكر النظامية سوى خمسة وتسعين الفًا وسبعماية وسبعة وستين جنديًا وهو ما تحتاجه العاصمة للمحافظة ولا يتيسر لارلنده في هذا الوقت بل ولا في كثير من السنين المستقبلة ان تجهز من الجنود زيادة عن المعتاد سوى عشرة الاف فقط اعني سبعة وعشرين الايًا من المشاة وثمانية الايات من الخيالة واربع بطاريات من مدافع الخيالة واربع عشرة بطارية مؤلفة من بلوكات طوبجية ومهندسين حربيين ومع ذلك فجانب العجز من هذا القدر ارجح من جانب القدرة ولصعوبة تجييش هذا القدر لا تجمعه الحكومة الاَّ في وقت الاضطرار وذلك عندما تحدث الطوارئ في البلاد المشرقية

ولو فرضنا صحة ما تدعيه الجرائد العسكرية من وجود تلك المقادير التي بيناها فالواجب ان نطرح منها الخيالة والمشاة المحافظين على مدينة لوندره ثم عشرة الاف وخمسمائة قدر

العساكر الجدد الاخذين في التمرين العسكري والتدريب الحربي ثم ثمانية الاف موزعة على المستشفيات والسجون والاقلام الديوانية ثم اربعة الاف من رجال المدافع موزعة على الحصون والقلاع واذا اضفنا الى ذلك عشرين الفًا لا اقل للضبط والربط في انكلترة واكوسه فلا يبقى الا ستة عشر الفًا وخمسمائة وستين جنديًا تستخدمهم الحكومة الانكليزية في تعضيد سياستها في الخارج

وقد قيل ان الحكومة الانكليزية قد قررت في ميزانيتها السنوية عدد العساكر الاحتياطية باربعة وعشرين الفًا ولكن الضابط العسكري الذي ابان ما نشرناه حقق انهُ يصعب على انكلترة حشد هذا المقدار

قالت الجريدة (ليوبل) وقد بيّن هذا الضابط على سبيل التذكير ما المَّ من المصائب بنساء عساكر الرديف وعائلاتهم عندما طلبوا اول مرة الدخول في الخدمة العسرية الانكليزية وهو امر رسخ في عقول هولاء العساكر ولم يبرح من اذهانهم لان ما قاساه نساؤهم من نغص العيش وما نالهنَّ من الذل والهوان والاستخفاف بهنَّ بعد اجابة ازواجهنَّ لما امرتهم به الحكومة جعل قلوبهم نافرةً منها فهم لا يزالون يتذكرون هذه المصائب التي عادت على عائلاتهم في حال غيبتهم بالخزي والعار فان كثيرين منهم اصبحوا متسولين في ذلك الوقت فلا ريب اذن ان الحكومة اذا دعتهم ثانيةً لا يجيب دعوتها الاَّ الثلثان فقط واذا فرضنا ان ثلاثة ارباع جند الاحتياط وهم عبارة عن ثمانية عشر الفًا يجيبون النداء كان مجموع ما يمكن حشده ٣٤٥٦٠ جنديًا فقط من ذوي الاهلية للخدمة العسكرية وليس هناك بعد هذا من يعضد هذا القدر ويساعده في الاعمال

اما عساكر البومارى فيمكن ان يقوموا بما يعهد اليهم من الاعمال اذا كانت محبة الوطن راسخة في قلوبهم ولكن اعتماد انكلترة على العساكر الغير النظامية في الاعمال العسكرية الخارجة عن بلادها خطاء مبين

هذه هي حال الحكومة الانكليزية في الوقت الذي يتيسر فيهِ لاية دولة حشد مئات من الالوف وكل ما قيل عنها بعد ذلك فهو من الاباطيل

وعلى كل حال فان رامت دولة الانكليز فتح حرب مع دولة اسلامية فمن المستحيل استخدام عساكر اسلامية ومعظم العساكر الجديدة الوطنية موءلف من المسلمين

اما جنود السيك والغوركاس فهم وان كانوا لا يمتنعون عن الدخول في مثل هذا القتال الا انهم لا يتحملون الاتعاب والمشاق التي لا بد منها في القتال وهم اشد الناس كلالاً وكسلاً ومع ذلك فاخراجهم من الهند فتح لباب الاخطار والخطوب الهائلة وحينئذٍ لا يرى لحفظ الهند في بلاد يبلغ اهلها مائتي مليون الا جيوش المستعمرات دون غيرها وقت حلول المصائب والاخطار فيها واي انسان يتأمل ويمعن النظر فيما قامت بهِ انكلترة من الحروب يعلم علم اليقين ان نظامها العسكري آخذ في التناقص والهبوط الى دركات الضعف ولا يخفى ان الوقائع التي وقعت بينها وبين البوبرس عادت عليها بالخسارة حتى حكم الناس بضعفها وتلاشي نفوذها في افريقية الجنوبية لان الادارة لم تكن كما

يرام من حسن الحال والعساكر شبان صغار غير ماهرين في الفنون العسكرية وغير متدربين في الاعمال الحربية او قادرين على فعل ما يستغرب منهُ وما نراه من سوء المعاملة في حشد العساكر في انكلترة يثبت لنا ان الاضمحلال في بلادها لم يقف عند حد ولم ينتهِ الى الان ومن المعلوم انهُ لم يسبق لانكلترة ارسال مقدار عظيم من عساكرها الى اية جهة ارادت التداخل فيها لاعتمادها في مثل هذا العمل على استمالة روساء البلاد بالاموال الجمة اما اهل اكوسه فيعاندون الحكومة في تكليفهم بالخدمة الصعبة ويرفضون ذلك كل الرفض والارلنديون الذين هم قوة الجيش الانكليزي ليس فيهم الاَّ من ينتظر الثورة والخروج عن الطاعة

ولم نحكم بضعف القوى العسكرية الانكليزية ناظرين في ذلك الى قوة الالمانيين بل لان الانكليز ضعفاء منحطون في حد ذاتهم وقد بينا ذلك لئلا ينقاد اهل باريس للاراء القديمة التي شاخت ولاسيما ان جارنا قد وسع دائرة التقدم في التجارة والصناعة والسياسة واستجمع اسباب الرفاهية ولاشك ان من كان هذا شأنهُ يضعف عن احتمال اتعاب الحرب ولاخفاء ان الملابس الرسمية التي يتزيا بها عساكر الموسّار الانكليزية لم تكن الّامبادئ الانحطاط والضعف

وانا لا ننكر ان انكلترة تقدمت تقدمًا عظيمًا من بضع سنين ولكنها اخذت تتقهقر في القوة العسكرية فلا ننسَ انتهاز الفرص وما يتأتى منها

(ملاحظة) وكان العرابيون يتلقون هذه الاقوال والمنشورات ويزدادون بها ثباتًا على عزمهم وتيقنًا بان فوز انكلترة في محاربتهم رابع المستحيلات وان انتصارها في القتال البحري لا يعد في كل وقتٍ وحالٍ دليلاً على عظم قوتها وانها ان فازت في البحر لا تفوز في البر بالنظر الى قلة جنديتها البرية والى كونها دولة بحرية محضة وكان روسأوهم ومن كان يطلع منهم على مقالات الفرنسويين في مجالسهم يوقنون ان النصر لا يكون لغيرهم فمن ذلك ما رسخ في عقولهم اثر مقال القاه الموسيو كليانسو الفرنسوي في باريس وهو .

يجب على الدولة الفرنسوية ان لا تنشر بين الامم (التي لم تبلغ من التمدن غايته) الافكار الاستبدادية التي يعقبها العصيان على الاستمرار بل يجب عليها ان تبث في هذه الامم افكار الحرية والعدل وان الامة المصرية قابلة للتمدن ومستعدة للتهذب وليست كما يقول بعض الناس انها فاقدة لتلك القابلية وذلك الاستعداد وانها ممن يساق بالعصا وعلى فرض ان هذه الامة غير عارفة بالقواعد الاصولية للتمدن والعدل المدني فمن الواجب ان تجعل على علمٍ بذلك فبث الافكار الحرة المعتدلة هو مطمح انظار السياسة الفرنسوية في مصر

ثم قال ومع انني اجل اتفاق فرنسا وانكلترة واميل اليهِ اراني مائلاً في الوقت ذاته الى نبذه ظهريًا اذ انهُ قد ترتب عليهِ تبدل شأنهما بما فيهِ الخسارة لفرنسا والمنفعة لانكلترة

ثم انتقل الى البحث في اشتراك المصالح الفرنسوية والانكليزية بمصر فقال ان بعضها وان كان متحدًا كترعة السويس الاَّ ان كثيرًا منها مختلف عنها

ثم فصّل سوء معاملة الاوربيين للمصريين

من يوم دخولهم مصر الى الان وقال ارى خطاء واضحًا في مزاعم الذين يقولون ان تمكين النفوذ الفرنسوي في مصر انما كان باستخدام الفرنسويين في ادارة حكومتهِ فان استدامة هذا النفوذ لا يكون الا بفتح ابواب التجارة للفرنسويين في هذا القطر وتسهيل سبلها عليهم ولم يكن انتشار هذا النفوذ في مدة (محمد علي باشا) الا على هذا السبيل ولم يلم بهِ الضعف الا من يوم اردنا التداخل في امور مصر الادارية حتى ان اغلب الفرنسويين الذين ثبتنا في مصر اقدامهم صاروا من اعداء هذا النفوذ ولما روئي في الميزانية المصرية ثلاثمائة وثمانون الفًا من الجنيهات الانكليزية مخصصةً للاوربيين الموظفين رأى المصريون ان هولاء الموظفين متغلبون لامعلمون لهم ومهذبون لافكارهم ثم ابان اختلال الامور المالية وفساد نظامها قبل تأسيس قلم المراقبة قال وكانت مصر منهوبة مسلوبة ومملوكة للاوربيين الذين يبيعون النقود (الربويين) وكان في التصور ان تأسيس قلم المراقبة يمنع من هذه الامور ولكنهُ لم يفد الفائدة المقصودة بعد انشائه بل لم يترتب عليهِ سوى تكثير الاوراق وزيادة اعدادها وجر المشاكل للحكومة المصرية وبذلك اوجبنا سخط المصريين علينا

ثم قال ان الامة المصرية موجودة حقيقةً وان الحزب الوطني ليس حزبًا موهومًا حتى ان سقوط شريف باشا المعدود من رجال الحزب الوطني لم يكن الا بناء على ورود اللائحة التي ارسلتها فرنسا وانكلترة في شهر يناير

وبعد ذلك هنأ هيئة الوزارة الفرنسوية على عدم اشتراك الحكومة الفرنسوية مع انكلترة في رمي الاسكندرية بنار المدافع

ونطقت جريدة غازت دي كولون بالقول الاتي .

من حسن حظ المانيا انها قليلة المصالح في الامور المصرية بالنسبة الى سائر الدول عمومًا وفرنسا خصوصًا

ومن الواجب عليها ان لا تخرج بدون فائدة من دائرة الحذر الذي يعتبر علامةً على ما لها من الوثوق بقوتها وبذلك تكون قادرةً عند حلول الساعة على حل المسألة

اما علائقنا مع السلطان فحسنة فاننا لم نقر على عملٍ يجحف بحقوق سيادة حليفنا وانا وان كنا كذلك الا انهُ لا ينبغي لنا شد عضده بالقوة في سياسته التي يصير بها معارضًا لاوربا باجمعها فان ذلك يلقي بنا في مصاعب جسيمة

ومن جهةٍ اخرى ليس من شأننا ان نشير على دولة ذات علاقةٍ معنا مثل انكلتره بنصائح لم تطلبها منا ولا ان نبدي اراء ربما وقعت موقع الكراهة لدى الانكليز

ثم ان الحكومة الانكليزية مسئولة عن سلوكها في مصر امام امة الانكليز ويجب عليها استرضاء فرنسا اما نحن فاننا عالمون بان ما يلائم المصالح الفرنسوية ملائم لمصالحنا وغاية القول انهُ اذا اتفقت الدول الغربية على تحكيم اوربا في المسألة المصرية لتقرير اتفاق مكين بين جميع الدول تيسر حينئذٍ لالمانيا حل المسألة ونحن نرى انكلترة مهتمة بالتوفيق بينها وبين الدول وخصوصًا بينها وبين فرنسا وحيث ان اوربا شديدة الميل الى السلم العام فعلى انكلترة ان تتيقن انها ستكون معضدة من جميع الدول اذا

زمت ما اعلنتهُ مرارًا عديدة من رغبتها في عدم الخروج عما تبيحه لها حقوقها الشرعية وفي عدم التعدي على حقوق السلطان

وعقدت في لندرة جلسة في سادس عشر يوليو حضرها وكلاء عن جمعيات الفعلة الانكليز للنظر في سير الحكومة في المسائل المصرية اذ ذاك وحضرها ايضًا بعض اعضاء البرلمان فاستقر الرأي على انهم يعرضون على رئيس الوزارة كدرهم من اطلاق المدافع على حصون الاسكندرية ومعارضتهم لكل تداخل حربي في داخلية مصر حيث لا سبب يوجب هذا التداخل شرعًا وعلى ان يطلبوا من الحكومة استدعاء الاسطول سريعًا وايقاف القتال الذي عدوهُ متجاوزًا الحدود المساواة بل قالوا انهُ ما من شيءٍ دعا اليهِ الاَّ مصلحة ارباب البنوكة التي لا توازي ما يترتب عليهِ من الاخلال بشرف الانكليز وابادة آمال الشعب المصري الحديثة . وقد تكلم السيرلوزن اثناء هذه الجلسة بما يلائم مشرب المجلس فقال ان من رأي الفعلة تقديم شرف الانكليز على مصالحهم ثم بعد ان استقر رأي المجلس على هذه الامور قرر ايضًا تعيين لجنة لابلاغ ذلك الى رئيس الوزارة واقامة احتفالات لدعوة القوم الى تعضيد هذا القرار

وكانت الجرائد الالمانية في ذلك العهد من اشد صحف اوربا انحيازًا الى المصريين وتنديدًا باعمال انكلترة فقالت جريدة التاجبلاط ان الفوز الحربي لا اعتداد بهِ الا اذا ترتب عليهِ انخلاع قلب العدو وانحلال عزيمته وهذا الذي يعتبرهُ السياسيون نصرًا وقد ظن اكثر الناس ان فوز الانكليز القى الرعب في قلب المغلوب مع انهم هم ذوو القلوب الخافقة وقد كان نابوليون الاول على شعورٍ بمثل هذا الاحساس عندما رأى حريق موسكو وهو في مدينة كرملين وهذا ما يشعر بهِ اميرال الانكليز اليوم مع جميع رجال الاسطول اما نتيجة انتصار الانكليز فهي الذهاب الى بورسعيد للمحافظة على ترعة السويس

وقالت جريدة الديريتو الايطاليانية ليس في ظننا ان في وسع انكلترة حمل الدول الاوربية على الرضى عنها ولئن تكن هذه الدول ولا سيما الاربع منها سالكة طريقًا واحدًا وهو انتظار ما يأتي بهِ المستقبل وراغبة في اجتناب كل مشاغبة الا انهُ لا يصح تفسير سكونها وسكوتها برضاها عن كل ما استحسنت انكلترة عمله

وفي تلك الاثناء قال المستر غلادستون في مجلس العموم ان انكلترة لا تنفصل عن الاجتماع الاورباوي فقابلت جريدة البوبولورومانو الايطاليانية هذه الكلمات بقولها وانا وان كنا نحترم المستر غلادستون ونجلهُ الا اننا ننكر عليهِ هذا القول فانهُ شتان بين اعمال انكلترة وهذا الاجتماع وفي الواقع ان كلامه منطبق عليهِ ولكن الاعمال مخالفة لهُ . أجل ان انكلترة حرة ان تسير في العمل كما تقول ولكن لا يتيسر لها تطبيق قولها على احكام ذلك الاجتماع الا اذا اوقفت سياستها الخصوصية وامرت عساكرها بانتظار قرار المؤتمر . واذا صح ما قيل من ان حكومتنا كلفت الموسيو مينا بيرا بان يظهر لانكلترة معظم كدرها مما فعلتهُ في الاسكندرية علمنا علم اليقين ان الدول الاربع ستلقي تبعة هذه الاعمال على انكلترة وفيما نرى في دوائرنا السياسية ان الموسيو فريسينه

عازم على ان يسير سير الدول الاربع (١)

وعنفت جريدة الاوبنيون جريدة التيمس على ما سعت اليهِ من استمالة ايطاليا الى الاتحاد مع انكلترة فقالت ان هذا الامر قد فات وقته وما امال الانكليز الى ذلك الا اخفاقهم في الاتحاد الفرنسوي وقالت ليس النفوذ الايطالياني دنيًا حتى يرجع اليهِ بعد الذهاب عنه وعند الاحساس بالعجز لم تعترف التيمس الا بعد حين بان ايطاليا اقل غايات من سائر الدول في الامور المصرية وانها الافضل لبث التمدن في الامم

قالت وانا لنتعجب من جريدة التيمس كيف تسعى في استمالة ايطاليا ولا تتذكر يوم كانت تسعى جهدها في ازالة النفوذ الايطالياني من افريقية وقد كان من الواجب عليها اذا ارادت استمالة ايطاليا ان لا تجاهر بشراء المصريين باوراق ديونهم وان لا تهيج التعصب العربي باجراء المذابح في تونس (كذا) ثم اكدت ان السبب في مذابح الاسكندرية هم الانكليز وانهم هم الذين حركوا الشر ولم يتداركوا حسمه وكان عليهم ـ لو ارادوا حسمه ـ ان يستعينوا بايطاليا

واحتدت جريدة لاراسينيا على الانكليز اثر اطلاقهم المدافع على الاسكندرية وقالت نحن واثقون بتشاحن الانكليز والفرنسويين في مصر ومتيقنون ان لايطاليا من ذلك فوائد جمة وان اعادة الحكومة السابقة من الامور الوهمية واكدت ان فرنسا صارت وحيدة منفردة وانها ستوافق على اخلاء افريقية

وقالت جريدة كوسبنورغ في ٢٧ لوليو سنة ٨٢ قد تبين ان شجاعة المصريين وثباتهم امام الانكليز في المناوشتين الاوليين عكسا الفكر على من يزعم من الامة الانكليزية ان المصريين يفرون ويتركون مراكزهم لاول نظرةٍ يرون بها جيش الانكليز وان عرابي باشا يترك المملكة لمجرد توجههم الى مصر فقد حقق للناس اجمع ان هذا الزعم خطأ فاضح ووهم واضح . واردفت ذلك بقولها ان اسهل شيء لاستتباب الراحة العمومية وحل المسألة المصرية هو عزل توفيق باشا وارسال خديو آخر من الاستانة بفرمانٍ جديد اذ يكون من الممكن حين ذاك وقوع الوفاق بين هذا الخديو الجديد وعرابي باشا فان القوة الان في يدهِ ولا يصح اهراق دماء رجال عديدة واتلاف بلادٍ خصبة واسعة لاجل الخديو الحالي مهما كانت طيبته ولا يليق ايضًا ان تكون الممالك الاوربية في اضطراب مستديم من اجل ذلك

وقالت التيمس في ٢٧ منهُ ايضًا . قد فقدنا الزمن النفيس واضعنا الفرص الممكنة في استقلال مصر اولاً ثم ادخالها في حماية العلم الانكليزي ولكن قد اقبل الزمن الان وصار في اليقين انهُ عندما تضعف قوة عرابي باشا وتلج عساكرنا ابواب القاهرة تنادي باستقلال مصر ثم نشكل مجلسًا مؤلفًا من اعيان البلاد بالقوة القهرية ونكرهه على الاعتراف بالحماية الانكليزية ونبذ حماية السلطان فردت عليها جريدة كوسبنورغ الالمانية بقولها انهُ اذا تعرضت انكلترة لهذا العمل فانها توقع نفسها في اشد الخطر فان هذا الزمن ليس بالزمن السابق الذي كانت فيهِ دول اوربا تخشى دولة الانكليز

---

(١) المانيا والنمسا وروسيا وايطاليا

وحكت جريدة التان الفرنسوية في ١٢ اغسطس وكانت من الجرائد المتشيعة للانكليز فقالت ان اطلاق المدافع على الاسكندرية لم يكن الا من الاعمال القانونية وبعبارة اخرى لم يكن الا لاشغال بال عرابي باشا وتفريق قواه الحربية خصوصاً وان الاستكشافات التي قام بها الانكليز في جهة الرمل وكانوا غير ناجحين فيها اثبتت ان رغبتهم قاصرة على اجراء الحركات الدفاعية وانهُ لم يكن معهم من القوة ما يلزم للقيام بحركاتٍ مؤثرة وفي الحقيقة ان في الذهاب من اسكندرية الى مصر من طريق الوجه البحري مصاعب جمة فان فيهِ ترعاً وجداول اذا قطعت جسورها غرّقت البلاد فحركات الانكليز لذلك في تلك الجهة ستكون قاصرة على حيازة المدن والاستيلاء على المراكز الحربية الشهيرة في السواحل واما الهجوم الحقيقي فيظهر انهم سيقدمون عليهِ من جهة الترعة التي يشتبك طرفاها بسفن انكليزية ولذلك فالعساكر الاوربية ترد على بور سعيد والآتية من الهند ترد على السويس ثم تجتمع القوتان في وسط الترعة من جهة الاسمعيلية القريبة من بحيرة التمساح عند انفصال فرعي الترعة الحلوة فوق رأس الخط المنحني الذي هو عبارة عن سكة السويس الحديدية فالجنرال ولسلي يكون سيره الى مصر من جهة الاسمعيلية موازياً لخط السكة الحديدية والترعة الحلوة وحينئذٍ يكون عرابي باشا مضطرّاً الى مقاومة العساكر الانكليزية من الجهتين اي الاسكندرية والترعة فاما مقاومته من الجهة الاولى فالمعروف من شأنها انهُ تحصن في كفر الدوار واعتمد على ترعة المحمودية من جهة وعلى السكة الحديدية الممتدة من الاسكندرية الى مصر من الجهة الثانية . وقد جمع بحيرة مريوط وبحيرة ابي قير التين هما جناحا موقع حربي بخطوط استحكامات فهذا الموقع الذي يصعب الهجوم عليهِ من جهة الامام لا يمكن المجيء اليهِ من الوراء الا من بحيرة ابي قير التي يجف بعضها في مثل هذا الوقت وعلى كل حال فهذا الموقع يحفظ خط رجعة عرابي باشا من دمنهور الى مصر ثم انهُ يجب ان يخشى من هجوم الانكليز من جهة الاسمعيلية فانهم اذا نجحوا فيهِ قطعوا خط الرجعة الى الصعيد والجأوا عرابي باشا الى ان يختار احد امرين اما ان يلقي سلاحه ويستسلم في الوجه البحري واما ان يلوذ بصحراء الغرب وقد لاحظ عرابي باشا هذا الامر ووجه قوة عظيمة الى جهة التل الكبير فهذه الجهة التي ليست صالحة لاجراء الحركات الحربية بالنظر الى كونها محاطة باراضٍ سهلة قد اختارها رئيس الجيش المصري لكونها مهمة بالنظر الى ترتيب الجيوش فهي بعيدة عن الاسمعيلية بخمسين الف متر غير بعيدة عن نقطة انفصال الترعة الحلوة وخط السكة الحديدية وهي منصبة على جهة الزقازيق التي تجتمع فيها خطوط السكك الحديدية الممتدة من دمياط والسويس الى القاهرة وتحد بها مجاري المياه المتجهة الى الترعة وفضلاً عن هذا فقد انشأ عرابي استحكامات بجهة الصالحية فوق بحيرة عظيمة في منتصف الطريق بين التل الكبير والاسمعيلية وانشأ خطاً امامياً بجهة نفيشه بعيداً عن البلد بثلاثة الاف متر فلذلك يضطر الانكليز الى ضبط مواقع نفيشه والصالحية والتل الكبير قبل ان يصلوا الى الزقازيق التي يمكنهم

ان يسيروا منها الى القاهرة

وجاء في الناسيونال — لا بدّ ان يأتي يومٌ تفهم فيهِ فرنسا ان انكلترة لم تعمل على احداث مهاجرة رعايا الدول جميعها ومحو اثرهم من القطر المصري الاّ لتضع فيهِ تنظيمات وترتيبات تلائم اغراضها من غير نظر الى مصالح اولئك الرعايا وربما تدرك ذلك بقية الدول فيفقن من غفلتهنَّ جميعًا ثم قالت ان الدولة الانكليزية مضطرة الى الاتفاق مع الدولة العثمانية واذا لم يعمل المستر غلادستون على هذا الاتفاق وقعت انكلتره في سياسة طيش وتهور مستعقبة للاخطار — وان سقوط وزارة فريسينه قد اضرَّ بسياسة غلادستون ضررًا عظيمًا

وقالت جريدة غازت دي لاكروا في ٥ اغسطس سنة ٨٣ ان انكلترة ليس لها حق في الاستيلاء على ترعة السويس بناء على رضاء الخديو لان هذا الرضاء ليس في محلهِ بالنظر الى حقوق الامم وليس للخديو الحق في ذلك وانما هو راجع للسلطان وحده وفضلاً عن ذلك فان المعاهدة المختصة بالملاحة في ترعة السويس تجيز للخديو ان يساعد مساعدة جزوئية ولا تبيح لهُ ان يطلب مساعدة خارجية

وقالت في ٧ منهُ ان الاعمال الحربية التي ابتدئَ بها في كفر الدوار اذا استمرت جاريةً على ما هي عليهِ اضطر المؤتمر الى توقيف جلساته لانهُ لا فائدة في استمرار انعقاده منتظرًا نهاية اعمال لا تمكنه مراقبتها ولا يؤخذ من هذا انحلال الاتفاق بين اعضاء المؤتمر او السكوت عن التوسل لاستبقائهِ ومن توهم ذلك فقد اخطأَ خطاء مبينًا فان نهاية المسألة المصرية ستكون كبدايتها مسألة اوربية

ومما ورد في الناسيونال ايضًا ان الترعة ليست نافعةً لانكلترة وحدها وانما هي مجتمع لمنافع الدول جميعًا وان سلامة مصر ورفاهيتها موقوفتان على دخول التمدن الاوربي فيها لا على جعلها تحت حكم الانكليز

وجاء في البوست احدى الجرائد المسوئة لسياسة انكلترة في ذلك العهد ان الحكومة الانكليزية ستسوق نفسها الى اخطار هائلة اذا استمرت مصرة على سياستها في مصر خصوصًا ما يتعلق منها بترعة السويس

وقالت الغازت ناسيونال التي تطبع في برلين ان خبر تبوءِ الانكليز لمدينة السويس لا بدَّ وان يكون مر المذاق عند الفرنسويين وفي الحقيقة ان جميع الناس مجبورون على الاعتراف بان صنع فرنسا محفوف بخطر بدخل الترعة ضمن املاك الانكليز ومن رأي الموسيو دي لسبس وهو عاقد النية على الانفراد في مقاومة الانكليز الذين ينفذون اجرا آتهم بلا مبالاة يتأثر من هذا المنظر المحرك للقلوب ثم ان مجلس النواب ولئن يكن قد اقترع على معارضة اي عمل فرنسوي شديد في مصر الا ان رئيس الجمهورية لا يمكنهُ ان يتخلص مما هو واجب عليهِ من حفظ مقام فرنسا في الخارج فان الامور لو تركت ومجراها الطبيعي لكان ذلك ملائمًا لمآرب الانكليز

واخذت جرائد فينا تحض الدولة العلية على المقاومة منها جريدة النوفل بريس ليبر فانها حرضت الباب العالي على رفض مقترحات انكلترة بقولها انهُ لو قبلهـا لنفرت منهُ قلوب الدول المعضدة لهُ في المؤتمر وقد حذت جريدة لاغازت

المائد حذوها في تحيض الدولة العلية النصح واظهرت لها ان انكلترة هي الدولة الوحيدة في مضادتها اما بقية الدول فهي مع العثمانية

وزادت جريدة الفرمد نبلاط في التصريح اذ طلبت من انكلترة ان تتبع في اجراءاتها سير السلطان — لانه صاحب السيادة — في تسيير الاجراآت المصرية

وما انفكت الجرائد الايطاليانية تؤيد في ذلك الوقت سياسة الدولة العلية ضد انكلترة كجرائد النمسا فقالت جريدة الدبريتو انها لا تستطيع ان تتصور كيف ان انكلتره تعارض في تداخل الباب العالي في مصر مع كونها اول من طلبه

وابانت البوبولو رومانو ان لها املاً في انكلترة الا تلقي بنفسها في حربٍ تكون الدول فيها على ضدها معنىً ان لم يكن لها ذلك فعلاً

واقامت الدبريتو الحجة على انكلترة في استيلائها على الترعة وقالت ان هذا الاستيلاء مما يزيد في الخراب والدمار حيث يضطر المصريون الى المحافظة على استقلالهم

وفي ٢٠ لوليو سنة ٨٢ اقيم في قاعة ريفولي بباريس احتفال شائق عقده قوم النعلة وتليت فيه مقالات مهمة بشأن المسألة المصرية فاجمع الخطباء على مقاومة اي تداخل كان على ضفتي ترعة السويس وهجوا اشهار انكلترة للحرب وذهب احدهم كلوفيس هوجس وهو من النواب الى انه عند ظهور المشاكل التونسية استحسن جميع الاحزاب ومنهم الجمهوريون المقاصد الحربية ما عدا حزبٍ واحد وهو حزب النعلة فانه قاوم تلك السياسة وبعد ان صفقت الحفلة للقرار الموجب للسلم انتقلت في الحال من هيئتها السلمية الى هيئةٍ حربية اذ انها اطالت التصفيق عندما اعلن الموسيو المان انه يجب على البعثة الجمهورية مناصبة العهد الانكليزي ثم اقترعت بعد الاستحسان على القرار الاتي

ان الحفلة قد اقترعت على التنديد بالحكومة والمجلسين النيابي والسناتو (مجلس الاعيان او الشيوخ) وتعلن انه من الواجب على حزب النعلة ليس مغالبة كل تداخل حربي فقط بل معارضة كل حيادةٍ من شأنها ان تبيح للانكليز البطش بامةٍ نرى من فرائضنا المحاماة عنهـا وارشادها الى طريق حريتها . اه .

واعلنت جريدة الغازت ناسيونال البرلينية للانكليز ان اوربا يمكنها معاقبتهم ان لم يراعوا حقوقها وحقوق الدولة العثمانية

وقالت جريدة الدوفوبي فريميا الروسية في عددها الصادر بتاريخ اول اغسطس سنة ١٨٨٢ ان المخابرات دائرة بين انكلترة والباب العالي في المسألة المصرية ولا بد ان تضطر انكلترة في اخر الحال الى ان تنكر كل ما صدر عنها من الاقوال التي جاء فيها ان صدرها ينبسط لمساعدة اي دولةٍ لها على اعادة النظام الى القطر المصري اذ لا يمكنها ان تقبل مساعدة الترك وقد اوقعتها الدولة العلية في موقع مشوه لوجهها واخذت تستهيج افكار الدول عليها باظهار اعمالها الوحشية في الاسكندرية

وقالت في عددها الصادر بتاريخ ٢ اغسطس ان اوربا لم تبدِ جراءةً ولا اقداماً في حماية مصر فهل تضرب يا ترى صفحاً عن حفظ نفسها وحماية طريقها البحري حيث لها منافع غزيرة

ومصالح كثيرة ولكن ما لنا الان وللدول فالذي نعلم ان دولتنا اظهرت سياستها في هذه المسألة بما جاء على لسان نائبها في المؤتمر من اننا نعتبر المسألة ذات قسمين فالقسم الذي يجب ان نتداخل فيه هو خليج السويس . ومما يسرنا امتناعنا من التداخل في الاضحوكة التي وسمها الانكليز بوسم اعادة النظام في مصر اخذاً على عيون الدول واستخفافاً بالامة المصرية اما الاعلان الذي قدمهُ نائب دولتنا الى المؤتمر فقد تضمن الاعتراض على الدولة الانكليزية في امر الاعمال التي اتخذتها في مصر ومن شأنها تخريب البلاد واعدام حكومتها لاعادة النظام اليها وقد آن للدول ان تتفق على حماية ترعة السويس بالوسائط الفعالة لا بالوسائل السياسية

وقالت جريدة النوفوستي ان من مقتضيات مصالح اوربا معارضة انكلترة في تنفيذ مقاصدها ثم قالت ان حركة الانكليز الاخيرة هي المرة الثانية التي اطلقوا فيها قنابلهم بغير حق اذ ان الامور التي حدثت لم تكن لتستوجب هذه الفعلة فانهم رموا فيما سبق مدينة كوبنهاغ بنار المدافع لحق الذي اطلقوا من اجلهِ الكرات المهلكة على الاسكندرية وقالت بعد ذلك متهكمةً ولئن تكن مدافع الانكليز قد نجحت في تخريب مدينتي كوبنهاغ والاسكندرية الّا انها كانت في عجزٍ يوم صوبوها على حصون سباستبول ايام حرب القريم

ومن مقال النوفوي فريميا ان الحوادث تعدو في سيرها عدوًا سريعًا ونحن لا نثق بما اعلنهُ المستر غلادستون من ان انكلترة تجهد نفسها في منع ما عساه ان يطرأ من المشاكل الاوربية او الحرب ولهذه المشاكل وجود من قبل وهي كل يوم في ازدياد وجل مرادنا هو ان يقطع عن حركة الافكار التي ظهرت في اوربا والشرق الاسلامي اي امرٍ شأنهُ تقويتها حتى لا ينجم عنها ملاطات ومصادمات في قلب اوربا ولا ينشأ عنهُ اضطراب عظيم يلحق بالسلم العام

وفاهت التيمس بالقول الاتي بعد ان طلبت ايتاليا حيادة القنال : ان انكلترة لا يمكنها ان ترى غير خائفة مبادرة عدة دول ممن لم يحركوا اصبعًا في مسألة مصر المالية الى قبول مسألة فرعية مثل حماية ترعة السويس ولا يمكننا ان ننكر التناقض البين بين سكون الدول وتراخيها عن مساعدة المستر غلادستون في الامر الاصلي وهبوبها بسرعةٍ غريبة الى تقرير الامر الفرعي الذي هو عبارة عن حماية ترعة السويس

والقى اللورد سالسبوري زعيم حزب المحافظين في مأدبة اعدتها جمعية الفعلة الاحرار خطابًا ندد فيهِ بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية ومما جاء في هذا الخطاب متعلقًا بالحقوق الكائنة بين انكلترة والدولة العلية قولهُ :

جرت عادتنا في السياسة من قديم الزمان بموالاة الدولة العلية والمحافظة على روابطها بيننا وقد نقضت سياسة الحكومة الحاضرة هذه العادة رغبةً في استمالة فرنسا اليها والاستحصال على مأمورية من قبل الدول ولكننا لم نحصل على واحدٍ من الامرين وغاية ما استندناه من هذه السياسة هو معاداتنا لدولةٍ حرصنا على محالفتها ومصادقتها زمانًا مديدًا

وجاء في جريدة الستاندرد لوكان السلطان وحده هو الذي يعارض طلباتنا لكنا غضضنا

النظر عن معارضتهِ واعتبرناها ملغاةً لا عمل لها ولكن لدينا براهين كافية تحملنا على الاعتقاد ان للسلطان عنه مشيرين في هذه المسألة وبعضهم ليسوا من الاتراك وليس لهم من فائدة في فصل امور المملكة العثمانية ومشكلاتها يدلنا على ذلك منظر جو السياسة المعكر بغيوم الشك والارتياب والخيانة والغدر

ونشرت جريدة السوليل في ٩ اغسطس نص كتاب بعث بهِ الموسيو اميه دي لسبس نائب مجلس ادارة شركة الخليج الى وكلاء الدول المقيمين في باريس وهذا معربهُ :

سيدي

اطلعكم الموسيو فردينان دي لسبس في ٨ لوليو على التعليمات التي كان قد اصدرها بالتلغراف لوكيل شركتنا العمومي بمصر في شأن حيادة الترعة وكشف لكم ايضًا عما اختلج بصدره من انكم لا شك ترون من الاوفق اعلان حكومتكم بما لكل دولةٍ بحرية حاصلة على حق حرية المرور بالترعة من ضرورة ارسال سفنٍ حربية للملاحظة في بورسعيد ثم ارسل هذا الموسيو في ٤ اغسطس خبرًا لمجلس ادارة الشركة يذكر لها فيهِ ان الاميرال الانكليزي اعلنهُ بما استقرَّ الرأي عليه رغمًا عن الحجة التي اقامها الموسيو المذكور من اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتبوء الترعة مستندًا في ذلك على كتابٍ من الخديو يسوّغ لهُ حرية العمل ولاجل ذلك التأم المجلس التئامًا غير اعتيادي واصدر قرارًا التشرف بايصال نسخةٍ منهُ اليكم اتباعًا للتلغراف الوارد من الموسيو دي لسبس عن طريق الاسمعيلية وفي هذا التلغراف اعلمنا الموسيو الموما اليهِ بان

تظاهر قواد الانكليز الحربي في بحيرة التمساح مما يهيج اهل البلاد وربما ينشأ عنهُ اعمال حربية في خط الترعة الحر وقال ان اتحاد الدول على ارسال سفن حربية لحماية الترعة بدون انزال عساكر هو اعظم حلٍ يرام اجراؤه ويكون من نتيجتهِ منع وقوع التعدي المتوقع على حيادة ترعةٍ تكفل بها السلطان لسفن الدول العمومية

كتب بباريس في ١٧ اغسطس سنة ١٨٨٢

نائب مجلس الادارة

(الامضاء)

(اميه دي لسبس)

واكدت بعض الجرائد في ذلك الوقت ان قد اتفقت دولة الروس مع الباب العالي فيما يتعلق بالمسألة المصرية

وارتأى غيرها انهُ من الضروري لحفظ النظام الاوربي اعادة سلطة الباب العالي في مصر فان المصالح الانكليزية مغايرة بالكلية للمصالح الاوربية وان غاية اوربا هي ارجاع السلم في مصر وجعلها حرة لا تحت حماية انكليزية

وقالت صحف النمسا ان الرأي العمومي غير راضٍ عن بطء الحركات العسكرية بالقطر المصري

وورد في جريدة له بي الفرنسوية بتاريخ ٥ اغسطس ان اغلب الجرائد الالمانية ما زالت مستمرة على اظهار عدوانها للانكليز والمترائي انها تود لو اصاب الانكليز مصيبة في القطر المصري وقالت من ضمن نبذةٍ سياسية ان ارتباك المسائل السياسية على ازدياد فمن جهة نرى الدولة العلية قابلة للتداخل في القطر المصري لكنها تشترط

على انكلترة اخلاء الديار المصرية ومن الجهة الثانية ان دولة بريطانيا تريد ان تقيم بالقطر استنادًا الى ما بذلته من المصاريف لتتمادى في اعمالها ولكن من المعلوم ان هذه الدولة تميل الى الربح اكثر من المشقة ولذلك رغبت ان يكون لها رفيق بل آلة تستخدمها في مصر فعرضت هذا الامر على دولة ايطاليا فرفضته والشائع من جهةٍ اخرى ان دولة المانيا عرضت هذا التداخل بمقتضى اذنٍ يصدر من جميع دول اوربا . تلك هي المسائل التي ينبغي البحث في كيفية حلها اما من جهتنا فانا لا نبحث فيها في هذا الوقت والشيء الوحيد الذي لا يختلف فيهِ اثنان هو ان دولة بروسيا هي الاخذة في تسيير اوربا في طريق المسألة المصرية وان برلين هي لا شك مفتاح بابها

واخذت جريدة الغولوا عن مكاتبها في لوندرة القول الاتي

ان تنديد حزب المحافظين وحزب الاحرار معًا بالموسيو غلادستون على ازدياد يومي فانهم يعدون سياسته سياسة مهلكة بعيدة عن الصواب ويتساءلون هل هذا هو الرجل الحر الذي تحول عن مشربهِ الماضي بوضعه للقانون القهري ومحاربته لمصر . هل فاته العلم بسياسة انكلترة الم تكن دولة الانكليز في سنة ١٨٤١ على وشك اشهار الحرب على فرنسا بخصوص مصر والتحدث لذلك مع اربع دول كانت هي الرئيسة عليهنّ ولكن نقول الان واأسفاه قد تبدلت الازمنة وتغيرت الاحوال

وقالت جريدة لبون في شأن نفوذ عرابي ما يأتي

ان عدد اعوان الخديو كل يوم في نقصان وقد انضم المصريون جميعًا الى عرابي منذ ان قلده مجلس الاعيان الذي التأم بالقاهرة رئاسة الجيش المصري اما معدات الزاد فهي متقاطرة لمركز الجيش من جميع الانواع والامدادات متواردة مع ذوي النفوذ من العربان وان تقدم الجيش الانكليزي المطعان كان من الخاسرين وان مكث في مراكزه بلا عمل كان ذلك مبرهنًا على عجزه المطلق

ومن اقوال الناسيونال في شأن انفراد انكلترة قولها

لقد تحقق من مداولات مجلس وزراء الانكليز انهم عرفوا معارضة السياسة الاوربية لهم وقدروها حق قدرها وان المستر غلادستون بعد ان نهج في سياسته الخارجية منهجًا يناقض سياسته التي كان بني عليها معارضاته للحزب المحافظ مناقضة كلية نراه يكشف كل يوم عما في نفسهِ من الحزن والانقباض وقد ارتاح اخصامه لمخالفة اقواله لافعاله اما رفقاؤه الذين هم من الحزب الحر فهم في دهشةٍ وحيرة من هذا الامر وهو لم يستفد شيئًا من هذه السياسة سوى استخفاف حزب المحافظة بشأنه وقد لخصت تنديدات هذا الحزب وجمعت في خلاصة اثبتتها جريدة الغلوب وهي

من يوم تولى الموسيو غلادستون رئاسة الوزراء بدلت انكلترة محبة النمسا والمانيا بمحبة روسيا وفرنسا ويمكن للموسيو غلادستون ان يفتخر بمخالفته لسياسة سلفه في هذا الامر كما خالفها في غيره من الامور ولكن اين اولئك الاصدقاء الجديدون (اي روسيا وفرنسا)

في هذا الزمن الذي اشتدت فيهِ الارتباكات اما الذين جرحنا خواطرهم (النمسا والمانيا) فقد اخذوا الجانب عنا فاين الذين اخترنا محبتهم بدلاً من موالاة اصدقائنا الاقدمين فالغالب على الظن انهم ليسوا في كدر شديد من كون انكلتره صارت في حال صعبة الاحتمال بل لا ريب ان فيهم اطماعًا تمتد لاجتناء ثمرة ما اذا سمحت لهم الفرصة باجتنائه وهم في الحقيقة ليسوا معنا بل على عكس ذلك اذ نرى الفرنسويين والروس يتباعدون عنا كل التباعد ونرى ان الامة الاخيرة من هاتين الامتين مستعدة لان تلعب امامنا ملعبًا شديد العدوان كما ان فرنسا لما اضطرت لان توجه نظرها الى منفعتها الذاتية هجرت صديقتها وجارتها لتتخلص بالحسنى من المسألة المصرية على قدر استطاعتها فانكلتره اليوم منفردة من كل الجهات وهذا هو الذي دعاها للاسراع في العمل بجراءة وجسارة فان الرجل صاحب القوة الذي يتأتى لهُ استعمال قوته ويبرهن عليها لا بدّ ان يجد لهُ اولياء عند الاستمرار اما الرجل الشديد الذي يسير سير الضعيف فان امره يؤول الى ان يفقد ما كان في قلوب محبي الخير لهُ من التعظيم والاحترام

هذا كلام جريدة الغلوب فقفّت جريدة الناسيونال على اثره بما قالت فيهِ من انهُ طالما تكرر على الاسماع ان مخاصمات الاحزاب في بلاد الانكليز تستتر عندما يظهر ان منافع الامة العمومية لا تتم الا في الاتحاد غير ان النظرة الانسانية تكاد ان تكون واحدة في ساكني ضفتي نهر المانش (انكلتره وفرنسا) اي ان المخاصمات بين الاحزاب في فرنسا وانكلتره في درجة واحدة لا تنتهي حتى عند لزوم الاتحاد فان ما وعد بهِ حزب المحافظة من ترك المعارضة لم يأت بالاثر المنتظر من حمية رجال ذلك الحزب وغيرتهم الوطنية فقد غير مجلس النبلاء قانون الايجارات المتأخرة تغييرًا كليًا والسبب في ذلك هو اللورد سالسبوري الذي خلف اللورد بيكونسفيلد وان هذا التغيير الذي جعل القانون تحت تصرف ارباب الاراضي الزراعية وشروطه الحرة موقوفة على رضائهم يحبط مساعي الوزارة ويطل عمل مجلس النواب فانهُ قبل في مجلس النبلاء بموافقة ١٦١ رأيًا يخالفها ٩٨ وصدرت قراراته مخالفةً لآراء الوزارة في امور ثانوية اخرى واذ ذاك تجددت المجادلات وقد اصاب سياسة الحكومة ضرر من سير حزب المحافظة في حال تأثر النفوس من المسألة المصرية وهول التهديدات التي ابداها المجتمع الاوربي ولم يكن يود الموسيو غلادستون ان تبدو مشاكل ارلنده في هذا الوقت الذي وجه فيهِ جميع انظاره الى الشرق

وقالت . ان جيش الجنرال الزون المعسكر في الاسكندرية وضواحيها لا يمكنه ان يخطو خطوةً واحدة فان المدد لا يأتيهم الا بالبطء الشديد وهذا ما يدل على ضعف قوة انكلتره العسكرية اما الحكومة العثمانية فلا تزال حافظة لمزاياها ومصرة على تنفيذ سيادتها وقد خاب اللورد دفرين في طلبهِ منها ان تعلن في الحال عصيان عرابي باشا فان السلطان الذي يريد ان يكون لهُ علائق وروابط مع جميع الاحزاب لا يقدم على امر مثل هذا الاّ بعد التبصر وهو ينظر الى هذا الطلب بعين الاستغراب

ويرى من الواجب تدقيق النظر فيه خصوصاً وان مأمورية درويش باشا لم تظهر الحقيقة ولذلك فان من رأي الباب العالي ان ينظر في الامر بعد الحلول بمصر وان تردده ورفضه ذلك الطلب قد اغضبا دولة انكلتره وهي تتهافت الان على الدول لاجل ان تكلفهم بتحمل القسم الاعظم من مسئولية الاجراآت الحربية في مصر الا ان فرنسا شكرتها على حسن هذا الالتفات رافضةً لذلك التكليف وايتاليا غضبت اذ رأت نفسها تعامل بالاحتقار ومالت الى الدولة الالمانية لتوقيف سير الفلع الانكليزي واما الروسية فقد تحول ما كان بينها وبين انكلتره من الاتفاق الذي ثبت من منذ تولى الموسيو غلادستون رئاسة الوزارة الى منافرة تكاد ان تكون مضاربة ولم تنل انكلتره رضاء اوربا العمومي لان المعلومات التي وصلت الى السير شارل ديلك لم تكن مطابقة لواقع الحال

وعقدت في تلك الاثناء جلسات في مجلس العموم دار فيها البحث على الاعمال الجارية في مصر وحالة المسألة المصرية فعرض المستر غلادستون في احداها على المجلس طلبًا مؤداه الاقرار على سلفة تبلغ ٢٣٠٠٠٠٠ جنيه انكليزي يصرف منها ١٤٠٠٠٠ للاسطول و ٩٠٠٠٠٠ للجيش ثم قال وفي الحقيقة ان الجانب الاعظم هو للجيش فان الاسطول يتناول نفقات سفر المشاة وبواسطة هذا المبلغ يمكننا ان نرسل الى مصر ١٢٤٠٠ جندي من المشاة و ٢٤٠٠ من الخيالة و ١٧٠٠ من رجال المدافع فيكون مجموعهم ١٧٥٠٠ جندي ونزيد عليهم فرقة خصوصية مؤلفة من ٢١٠٠ رجل وفرقة احتياطية مؤلفة من ٢١٠٠ رجل ترسل فيما بعد

ولاجل تدارك العجز الذي يترتب على هذه السلفة اعرض عليكم ضم ثلاثة بنسات في كل جنيه انكليزي على الرسوم وهذه الزيادة لا يبدأ بها الا في الستة الشهور الاخيرة وبذلك تبلغ الزيادة بنساً واحداً ونصف بنس في كل الايرادات عن السنة بتمامها

ثم تنقل في خطابه الى ان قال . نحن الذين رفعنا توفيق باشا الخديو الحالي الى عرش الخديوية وآلينا على انفسنا ان نرشده في طريق اعمال حكومته وقد كنا مع ذلك معترفين دائمًا بسيادة السلطان على مصر وهو الذي قصدناه في اول الامر وحثثناه على التداخل لبث الراحة وليس لي ان ابدي رأيي في سياسته ولكننا اليوم في حال وجود المشاكل والقلاقل المصرية لا ينبغي لنا ان نأمل او ننتظر من القوة الحربية السلطانية دواء شافيًا للحالة الراهنة وقد عرض التداخل على الباب العالي من منذ شهور فلا حاجة اليوم تبعثه على قبول امرٍ طالما رفضه رغمًا عن الجهد الجهيد الذي بذله رجال السياسة ولما ان رأينا الدولة العثمانية غير راضية ان تكلف نفسها باعادة النظام عرضنا المسألة على جميع الدول الاوربية اولاً لاجتناب التظاهر بالانفراد في الاعمال ثانيًا لان اوربا لو تكلمت لكان لكلامها وقع عظيم ولكن اعلم ان من الصعوبة حضها على التكلم (تصفيق من حزب المعارضة) والى الان لم نحصل منها الا على نتيجة غير مرضية معناها ان الدول ليس من نيتها ان تشترك في عملٍ حربي بمصر ومع ذلك اظن ان سياستنا الحالية وقعت لديها موقع

الاستحسان

فوقف السير ستافورد نورثكوت واقام الحجة على رئيس الوزارة في بعض كلامهِ فقال اتجاسرون ان تقولوا ان المراقبين هما اللذان اوصلا مصر الى حالتها الفوضوية ان هذا يعد تنديدًا بسياسة الوزارة السالفة وسادافع عنها عند الاقتضاء وقد كان من الواجب عليكم ان لا تلجئونا الى الجدال في هذا الامر الان فانهُ من الامور التي تبدل هيئة المسألة التي نحن بصددها . ثم قال :

ولقد انكرت الحكومة كونها ارادت ان تعاكس الباب العالي نعم انها «كما قالت» دعتهُ للتداخل ولكنها في هذه الاثناء حيرتهُ بارسال اسطولها الى الاسكندرية وبتجهيزاتها الحربية اما من جهة اتفاق فرنسا وانكلترة فلم يكن لهُ اثر في الوجود فان كانت فرنسا وانكلترة اتفقتا اتفاقًا قلبيًا كما تزعم الحكومة اقول ان هذا الاتفاق حصل على طريقة الموسيو برايت وغلادستون حيث انهُ كلما لزم الشروع في العمل رأينا الدولتين منفصلتين وبرهان ذلك ما نشاهدهُ اليوم عيانًا وكل الخطاء عائدٌ على الوزارة المترددة التي ترأست على الحكومة الانكليزية

واني ارى ان انكلترة مضطرة الى الانفراد في الحمل على مصر وهذا ما يورثني البلبال فهل لدى غلادستون برهان على وثوقهِ بمساعدة الدول لهُ مساعدة ادبية . ان المسألة ذات اهمية كبرى ولذلك ارجو ان يجاب عنها قبل اقفال باب الجدال

وبعد ذلك نهض اللورد ايلكو وقال ان المجلس مستعد للاقرار على السلفة للمحاماة عن الخديو وترعة السويس ولكن بما ان لانكلترة ممالك اسلامية فالمجلس لا يصادق على حرب في مصر الا مع اشتراك الجيش السلطاني فيها ثم ان العساكر الانكليزية قائمة على اهبة السفر الى مصر بدون اذن من اوربا فلو فرضنا ونجحنا في اعمالنا افليس من نتيجة ذلك النجاح ان تثير علينا رعيتنا الهندية الاسلامية فضلاً عن اننا لا نحصل على ادنى فائدة من اعمال التجريدة وذلك لان جيوشنا اذا انتصرت بعد بذل دمائنا واموالنا فالدول الاوربية هي التي تكرهنا على الحل الذي تختاره وبما انهُ استقر رأينا على الذهاب الى مصر فلا اقل من اننا نستعين بالباب العالي ثم ان محاربة عرابي باشا لا يراها رعايانا الهنود ولا العرب جميعًا حربًا دينية

ثم قام الكولونيل ستانلي وقال . لست من المنددين الان بتجهيزات الحكومة الحربية فان الذي ينشئ مصاعب الحكومة الان يكون خارجًا عن دائرة الوطنية ولكني انتقد على سياسة الوزارة في اطلاق المدافع على الاسكندرية وانذرها بالخطر الذي يحدث من اقتحام حربٍ تتعلق بها مصالح مختلفة لاوربا حالة كوننا لا حليف لنا هذا واني اخشى ان تكون السلفة المطلوبة غير كافية فنقع فيما وقعنا فيهِ ايام حرب القريم اذ قلت الذخيرة والمؤنة غير مرةٍ وكان السبب في ذلك عدم وجود نقود كافية

الى ان قال

وذهبت الحكومة الى ان التجريدة لا تمكث سوى ثلثة شهور وقد قيل كذلك ايام حرب القريم ولا تخفى عليكم المدة التي استمرت فيها

تلك الحرب

واخال ان الحكومة ستتردد في الامر على امل ان يحدث اثناء الشهور الثلاثة ما يوجب اشتراك دولة اخرى في التداخل ولكن هذه السياسة تعد سياسة يومية فان كان لكم حقيقةً مقصد مقرر كما تزعمون فاسلكوا في طريقه ولا تعتمدوا في الوصول اليهِ الا على انفسكم وابذلوا كل ما ترونهُ لازماً لنواله اي اطلبوا منا من الان معظم ما يلزم للتجريدة من الاموال واني التمس من الحكومة ان تتخذ الطرق التي يمكنها بها ان تبرهن للعالم الاسلامي على ان محاربة انكلترة لمصر ليست محاربة دينية

وقال السير ويلفرد لوزن المعروف من حزب الاحرار ان الحكومة قد خالفت قواعد الحرية واقتدت بسياسة بيكونسفيلد فان السعي في بث الراحة واعادة النظام لا يتأتى باطلاق القنابل واشهار الحرب وسفك الدماء لمنع امةٍ ما من تدبير احكامها بنفسها ولقد اظهرت لنا روساء المصريين في صورة خائنين وهكذا نظر الرجال المدافعون عن الحرية فيما سلف ولبس يخاف ان كل ما اتى بهِ التاريخ من الاعمال الجسيمة كان الباعث عليها احسن الرجال واوفرهم ذكاء

وقال الموسيو ريشارد اني أُلقي كل تبعة الازمة على عواتق المرابين فان المصريين قد نفروا من توظيف الاوربيين في مصر فمن الغريب ان نسمع السير شارل دبلك يقول ان انكلترة اليوم تحارب لانقاذ مصر من يد الموظفين الاوربيين

وقال السير كروس . نحن منفردون في اوربا وهذا هو اهم نتيجة سياسة الوزارة فلو كانت هذه هي العقبى لكان من الصواب التداخل من مدة ستة شهور بدون اكتراث بالاتحاد الاوربي

وقال السير لوزن . ان رئيس الوزارة اعلن من مدة خمسة عشر يوماً اننا لسنا في حالةٍ حربية فهلا تدل الاحتياطات المتخذة اليوم على الحرب المطلقة

وقال المستر غلادستون . لسنا الان في حال حرب فان الحرب لا تشهر على حكومة اجنبية الا اذا كان لهذه الحكومة وجود او انها تكون في حالة تمكنها من المخابرة معنا كنظيرتنا وفي الحقيقة ان اعمالنا الحربية ليست الا عبارة عن تداخل لمساعدة حاكم على رعاياه

وقال البارون ورمس . ان تبعة المسألة المصرية عائدة على الحكومة الانكليزية فانها صرفت زمنها في التظاهرات الباطلة كلائحة الدولتين والبلاغ الاخير واعلان تنزهها عن الاغراض كل هذه الامور جعلتنا في مقام سخر بهِ المصريون وبعثهم على مقاومتنا ثم نفرت منا قلوب الدول الاوربية

وقال الموسيو بورك . ان الحكومة قد ارتكبت خطاء كبيرًا عند احتقارها لسلطة الباب العالي وبهذه الكيفية هاجت عليها خواطر المسلمين . ثم قال

لِمَ بالغتم في مدح التداخل العثماني في اول الامر ان كنتم عازمين من قبل على الانفصال عنه والتهيوء للانفراد بالتداخل في مصر ان هذا لسوء تبصر وتناقض بين ثم ابن اعلان تنزهكم عن الاغراض

وقال السير ستافورد نورثكوت . . اما من جهة السلفة فانا نقر عليها لضرورة ارسال التجريدة انما هذا لا يمنعنا من التنديد بسير الحكومة

ولقد افرط المستر غلادستون في اعلان تنزهه عن الاغراض ومن المستحيل ان نقول للمصريين ان محاربتنا لكم هي بقصد ارجاع السلم فانهم لا يصدقون ذلك حيث ان محاربتنا لهم هي في الواقع دفاع عن مصالح انكلترة فمن اللازم حينئذٍ ان نعلن ذلك خوفًا من ان اوربا تناقضنا فيما بعد في مصالحنا عند ساعة الحل النهائي ونحن مستعدون للاقرار على كل ما تطلبونه بشرط ان يكون مسببًا عن انفرادكم في العمل الا انه اذا كانت نتيجة اتعابنا ونفقاتنا غير مفيدة فالوزارة تسقط وعليها غضب الامة باسرها

قال . وقد ذكر غلادستون في كلامه على المراقبين ان الطريقة التي تشكل بمقتضاها قلم المراقبة كانت على هيئةٍ لا بد ان تحدث مصيبة ما فقد كانت عبارة عن تداخل مستمر في امور المصريين مهين لهم

ومرَّ بناظرنا في جريدة الكوريه دي فرانس قولها ان وزارة برلين كانت قد لزمت الحيادة التامة فيما يتعلق بالازمة المصرية ولكنها الان عدلت عن هذه الحيادة فان جميع الجرائد الالمانية التي يوثق باخبارها تذكر ان نصائح بسمرك هي التي بعثت الباب العالي اولاً على الاشتراك في المؤتمر ثم على قبول الشروط التي قررتها الدول بشأن التداخل العثماني ولكي تثمر هذه النصائح اخذ الموسيو دي هيرشفليت مأمور المانيا بالاستانة ورسول بسمرك في ان يؤكد للسلطان بالنيابة عن دولته انه اذا تمادى الانكليز في مقترحاتهم فالمانيا وحلفاؤها يشددون بعد حسم المسألة في طلب وقاية الحقوق السلطانية انما بشرط ان السلطان يبرهن من قبل ذلك على قبوله لنصائح اوربا وقد تراءى لجريدة الغازت دي كولون الالمانية فتور متزايد في العلاقات الجارية بين اغلب الدول وبين انكلترة حتى انها قالت لو نظرنا الى مصالح المانيا في المسألة المصرية لرأيناها اقل بكثير من مصالح ايطاليا والنمسا وروسيا واسبانيا ولكن من حقوق حلفائها عليها ان تدافع عن مصالحهم الى حد معين ولذلك انذرت الحكومة الانكليزية انذارًا اولاً عندما اكرهت السير شارل دبلك على تكذيب ما كان قد اشاعه من ان وزارة برلين استحسنت اطلاق المدافع على الاسكندرية ومما يجوز اعتباره انذارًا ثانيًا اشتراك الموسيو هيرشفليت في قرار السلطان الاخير الذي اظهر ان الخرق متسع وان الانكليز لو استمروا على الازدراء باوربا فالمصاعب لا تزداد الا اشكالاً

وقالت جريدة الاندبندنس بلج ان الموسيو شيلدرس ناظر جهادية انكلترة قد اعلن رسميًا لجميع الجرائد الشروط التي بحكم بها ان يستنيبوا عنهم احدًا في ميدان الحرب المصرية وهذه هي اعظم الشروط المذكورة

كل مكاتب جريدة مكلف بان يستحصل على اجازة تعطى له من رئيس قادة الجيش الانكليزي وهو الدوق دي كمبريدج ولا يمكنه ان يرسل مكاتبةً او تلغرافًا الا الى الجريدة المسماة في الاجازة

لا يسوغ لمكاتبي الصحف ان يصحبوا مقدمات

الجيش الا باذن خصوصي من رئيس التجريدة ونكون معاملتهم بمقتضى الاحكام العسكرية ما داموا ملازمين للجيش ·

التلغرافات بالارقام ممنوعة

التلغرافات لا تحرر الا باللغة الانكليزية او الفرنسوية او الالمانية

على كل صحيفة لها وكيل في ميدان الحرب ان ترسل يوميًا نسخة الى ضابط اركان الحرب الذي يتعين واسطةً بين قومندان التجريدة واعضاء المطبوعات

ولهذا الضابط عند اللزوم ان يطلب ارسال التلغرافات والمكاتبات اليهِ ليبعث بها الى الذين أُرسلت اليهم ويباح لهُ ايضًا ان يبطل او يعدل هذه التلغرافات والمكاتبات اذا رأى موضوعها عائبًا بمصلحة الجيش وهو يقابل كل يوم مكاتبي الجرائد ليبلغهم الاخبار التي يمكن اطلاعهم عليها بلا خوف

وجاء في جريدة الناسيونال الفرنسوية من فصل سياسي فيها معنون ببسمرك وغلادستون ما ترجمتهُ :

اليوم على شاطئ ترعة السويس سياستان متباغضتان تباغضًا اصليًّا والقابض على زمامهما رجلان متضادان من امدٍ مديد وهما وزير المانيا ورئيس وزارة انكلترة فالاول وهو بسمرك ينوب عن حزب المحافظين الممتزج بحزب الاشتراكيين الملكيين والثاني وهو المستر غلادستون ينوب عن الحزب الحر فرجل السياسة الواسع الفطن الذي رفع دولة بروسيا الى مملكة متسعة الارجاء وخفض قدر فرنسا ثم جدع اقليمين من فرنسا قد تصادم مع سياسي انكلترة بعد وفاة بكنسفيلد التي ترتب عليها تعديل عظيم في الاتفاق الاوربي وخروج الانكليز من دائرة هذا الاتفاق الذي كان مركزه ببرلين وفينا ومن ذلك الحين اخذ صاحب السطوة الحالية في المبارزة في ميدان السياسة سواء قُصدت تلك المبارزة او لم تقصد

ومن التناقض الغريب ان نرى الرجل السياسي المتغالي في العسكرية آخذًا في وقاية الراحة مما يهددها وجادًّا في اجتناب ما من شأنهِ احداث الحروب فهذه الاعمال ترجح سياسة بسمرك اذ انهُ لم يزل متمتعًا بكامل حواسه وانتصاراته السابقة لم تبعده قط عن التبصر وحسن الادراك كما انهُ لا يرجع للقوة الاَّ عند الشدة لا كغلادستون فانهُ لا يقدر ان يتغلب على سير التهوري ولذلك فهو يميل في مبدأ كل امرٍ الى حلهِ بالقوة وقد رُوِي في مسألة دولسينو هائجًا يكاد ان يمر من بوغاز الدردنيل لمحو الدولة العثمانية . وتداخله هذه المرة في مصر ولن حمل على ما لانكلترة من المصالح فيها الاَّ انهُ قد انفرد في الحملة على ذلك القطر غير مبالٍ بالباب العالي ولا باوربا

ومن التهور الذي كانت عاقبتهُ خراب مدينة الاسكندرية يرى ان الرجل الذي بث الاصلاح في انكلترة او دافع عن ارلندة وعادى بيكونسفيلد لاجل اعماله الخطرة قد غفل عن سياستهِ الخصوصية ولحق باخصامهِ السابقين وصار هو ايضًا حامي حمى الدولة البريطانية نعم اننا لا نثق بكونهِ تمذهب بمذهب بالمرستون بل نحن مؤكدون بانهُ يأمل ان يوفق بين طريقتهِ الاصلية وهذه الحركة الحربية التي لم تخطر لاحدٍ على

بال ولكنا نسأله لو ان انسانًا سلك في منهجهِ سياسة طالما ندد بها فضلاً عن كونهِ ليس ذا قابلية لالتزامها فهلا يعد ذلك مخالفة للتجارب التاريخية

ان الاعمال التي اقتحمتها وزارة لوندرة جسيمة جدًا ولاشك في ان غلادستون لم يتبصر فيما جلبهُ اطلاق المدافع على الاسكندرية من الصعوبات الجالبة للاخطار ومن هذا يتضح جليًا تساهله في الاقتداء بسياسة غيره

وقد كانت مساعدة فرنسا الفائتة للانكليز في اعمالهم غير خافية على ذي عينين وربما كان تعوُّد الانكليز على فقدان الادراك فيما يتعلق بسياسة فرنسا حاملاً لهم على وثوقهم برجوع غمبتا للوزارة مرةً ثانية ثم انهم وجدوا ان الدولة العلية احذر من ان تتداخل للمساعدة وشارل دبلك قد ظن ان سكوت بسمرك المخيف هو استحسان لاعمال انكلترة ولكن غابت عنه الحقيقة ولم يعرفها الا فيما بعد واذ ذاك تركت نظارة خارجية لوندرة المحال المريع الذي كان يزينهُ لها الغرور حيث لا حليف لها الان ولا معين فرنسا كانت قد اشتركت مع انكلترة بلاعوض ولكنها رأت ان تتدارك السلامة في بلادها واعتبرت بعداوة الدول الباقية الواضحة من شهر ينابر والروسية تخلت بالكلية عن الاتفاق الانكليزي وعند ما رأت الباب العالي في احتياج الى ثلثمائة الف جنيه ينفق منها على التجريدة المصرية سهلت له الامر وذلك بان اعفتهُ هذه السنة من دفع القسط الاول من الغرامة الحربية التي لها عليهِ من عهد حرب سنة ١٨٧٦

وانا نحاذر ان تثبت ان سيصيب انكلترة في سيرها مصيبة ، حيث اننا لا نزال محافظين على حبنا لاستقامة غلادستون الشخصية بل من الواجب على فرنسا اجتناب اي عملٍ من شأنه ان يظهر لجارتها البحرية حقدًا او سوء قصدٍ بها غير اننا نرى بعين الانزعاج استفحال الهول الذي نشأَ عن مجازفة الانكليز من منذ شهر فلا بد ان تحل بهم مصائبه الآن وفيما بعد وسكوتنا الاختياري يبيح لنا ان نرى كل ذلك بغاية السكينة على تقلبات المبارزة التي بدئَ بها فاننا محققون ان اعوان بسمرك حاملون طعنات قوية للانكليز وتفنن بسمرك الغريب في استمرار القاء الموانع وعقد الاتفاقات واحداث الارتباك في المداخلات يجعل له فضلاً عظيمًا خصوصًا وانهُ ليس من الضروري عنده ان يخرج من محله الذي يسوس فيهِ المسألة الشرقية ثم ان انكلتره ولئن تكن تعد الهجوم عليها في قلعتها المحاطة بالبحور من المستحيلات وانها اذا تمادت في مجازفتها وسبقت العوارض والموانع بانزال عساكر في جميع الجهات وبانتصارات سريعة بلغت المبلغ الذي تريد ان تجز الامور فيهِ بنفسها الا ان حسم الشقاق ولو بالنصر لا بدَّ وان يبقي اموراً كثيرة قابلة للمجادلات والاعتراضات هذا ويستحيل علينا حتى الان ان نعلم اي الخصمين يغنم من محاربة المصريين . اه

وقالت جريدة التمس ان الباب العالي استدان من البنك العثماني ٣٠٠٠٠٠ جنيه لينفق منهُ على التجريدة المصرية وبالنظر الى احتياجه الشديد الى ضمانة يقدمها للبنك رأت حكومة الروسية ان تسهل له الامر فتركت له هذه السنة القسط الاول من الغرامة الحربية التي لها عليهِ

ولا شك في ان هذا الخبر يوضح ايضاحًا جليًا سياسة الروسية التي انتهجتها في المسألة المصرية

وقالت جريدة المموريال ديلوماتيك ·

قرر المؤتمر ان صيانة مرور السفن في ترعة السويس متعلقة بمنافع اوربا وظهر مما دلت عليه قرائن الاحوال انهُ سيحل المسألة المصرية باجمعها متبعًا في حلها القواعد والاصول التي تأسس عليها الاتفاق الاوربي · ولا يمكن ان تؤثر اجراآت انكلتره الحربية بالاسكندرية وان كان يظهر لنا بمزيد الاسف انهُ في امل هذه الدولة ان تصدق بهذه الاجراآت العبارة المنسوبة الى الموسيو بسمرك وهي الغلبة تعلو على الحق ·

وانا نقاوم اشد المقاومة ما القاه المستر غلادستون من الدسائس اعتبارًا من تاريخ انعقاد المؤتمر ولا نخشى في ذلك ان يقال اننا من ذوي الغايات فاننا كثيرًا ما برهنا في هذه الجريدة على كوننا نحترم الامة الانكليزية احترامًا فائقًا لا سيما واننا لسنا مستقلين في هذه المعارضة بافكارنا ولكننا مترجمون فيها لافكار الجميع في اوربا

ثم ان الانكليز الذين تأثروا تاثرًا شديدًا قبل هذا الوقت بخمس سنين (من وقت حرب الروسية) من اجراءات الموسيو غورتشاكوف لا يمكنهم ان ينكروا الان ما في اجراآت الحزب الحر من عدم احترام الهيئة الاوربية فان الروسية (مع كون مؤتمر برلين لم ينعقد بالتماسها وعساكرها حول الاستانة) دخلت فيهِ (اي في المؤتمر) ولم يخطر ببالها اثناء مداولاته ان تعمل اعمالاً حربية ينشأ عنها من الامور الواقعية ما تستند عليهِ في معارضة اراء الدول اما اطلاق المدافع على الاسكندرية فانهُ من حيث كونه عملاً حربيًا ليس لهُ من الاسباب ما يوجب كونه موافقًا للحق في واقع الامر · والدول وان كانت لم تمانع انكلترة احترامًا لهذه الامة الا انها لم تصدق على هذا العمل المخالف للاصول الدولية فان انكلترة كانت اثناء انقذاف نارها مسالمةً للسلطان المعروف حاكمًا على مصر ولم ينتج عن ذلك العمل الحربي سوى تخريب مدينة غير حصينة وهي اعظم مدن سواحل افريقية الشمالية ثروةً وغنىً وجلب العناء على اهاليها الذين لم يجنوا ذنبًا ثم جعل قسم عظيم من الاوربيين الذين كانوا يتمتعون بها في شدة الافتقار والاعسار · وما حدث في الاسكندرية بعد ذلك من الذبح والحريق فهو ان كان مقصودًا او مترتبًا على اختلاف في التدبير منسوب الى السياسة التي اوجبت اطلاق المدافع على الاسكندرية واما بالنظر الى القواعد الدولية فليس هناك من الموجبات ما يجعل الاجراآت الانكليزية موافقة للحق اما منافع انكلترة الناشئة عن كون ترعة السويس طريقًا الى البلاد الهندية فلا يصح ان تكون سببًا حقًا موجبًا لتلك الاجراآت لان هذه المنافع مهما كانت واجبة الاحترام لا تكون اكثر من منافع الباب العالي ومن منافع اوربا بجملتها فاذا كانت انكلترة تقول ان من حقوقها المحاماة عن الهند فللباب العالي الحق الصريح في المحاماة عن بلاد هي اقليم من اقاليم مملكته ولكلٍ من الدول الاوربية الحق البين في حفظ العهود والمواثيق التي بينها وبين الدولة العلية وعدم المساعدة على نقضها ولذلك نقول ان المدفع الانكليزي لا يخل بحقوق اوربا كما ان

ذلك لم يكن للمدفع الروسي والذي يمكن ان يقال في هذا الوقت هو انهُ لا يوجد الآن بمصر حكومتها الاصلية والخديو ليس حائزًا لقوة الحاكمية على البلاد فانهُ تحت تصرف الاميرال الانكليزي ولا يمكن اعتبار هذا الاميرال حاكمًا قانونيًا لمصر فقد اقامت انكلترة نفسها مقام ثلاث قوى: قوة السلطان الذي هو سيد البلاد وقوة الخديو الذي كان الحاكم القانوني وقوة الدول الاوربية الموقعة على المعاهدات المتعلقة بالدولة العثمانية. وانا لا نشك في ان هذه الدولة يمكن ان تكون في زمنٍ ما خارجة عن دائرة حكم اوربا بالنظر الى موقع جزيرتها وقوتها البحرية ولكنهُ لا يوجد رجل من رجال الحكومة الانكليزية يتصور ان القوة يمكن ان تكون قانونًا لاوربا وانهُ لا يمكن لاحدٍ ان ينكر الوقت الذي يجب فيهِ ان تلتزم انكلترة باحترام حقوق الدول ومنافعها الواجبة الاحترام ولنختم هذا الفصل كما بدأناه فنقول انهُ بالرغم عن انكلترة قد قرر المؤتمر ان مسألة ترعة السويس تتعلق بمصالح اوربا باجمعها فمجموع المسألة المصرية اذن لن يترك زيادةً عما سلف لدولة الانكليز تحكم فيهِ كما تشاء

وقالت لقد اثرت الشروط التي صرح بها اللورد دفرين لمؤتمر الاستانة المتعلقة بتداخل الدولة العثمانية في مصر تأثيرًا شديدًا عند الوزارات الاوربية وقد ابت تلك الوزارات ان تقبل ما اشتملت عليهِ هذه التصريحات فانها لا تعترف بما احتجت عليهِ وزارة انكلترة من انها لم تكن الا مضطرة في اطلاقها المدافع على اسكندرية فانهُ عمل اجرتهُ بانفرادها حال كون ذلك كان محظورًا عليها مساواة للدول الاخر مدة انعقاد المؤتمر اما ترعة السويس فلم يهدد المرور فيها بما يمنع منهُ وقد زادت شهادة الموسيو دي لسبس على ذلك وزراء اوربا تثبتًا فيما كانوا بهِ موقنين

وقد ندد اللورد دفرين نيابةً عن حكومته على الباب العالي في المهلة التي تأخر فيها عن قبول لائحة المؤتمر وليس لهُ وجه في هذا التنديد فان المؤتمر عقد جلسته الاولى في ٢٣ يونيو ومكث ثلاثة اسابيع يتداول في اللائحة التي يقدمها الباب العالي وبعد ان وقع عليها قدمها لهُ في ١٥ لوليو ثم بعد مضي اربعة ايام اي في ١٩ لوليو اظهر الباب العالي انهُ يريد الاشتراك في اعمال المؤتمر فليس بين هذا البلاغ الاخير وقبول الباب العالي سوى عشرة ايام فقط وحيث ان المؤتمر لم يحدد للباب العالي مهلةً فليس للوزارة الانكليزية ان تعده مهملاً وتريد بذلك توقيف مشروعه في الزمن الذي وافق فيهِ على ما رغبهُ المؤتمر

فبهذه الاسباب كلها يمكن اعتبار هذه الافكار غير موافقة كل الموافقة لسياسة الوزارة الغلادستونية وهي سياسة ربما جرت وراءها مشاكل معضلة. اه.

وقد اعلنت الحكومة الانكليزية في ذلك الوقت للعلماء في الهند انها تقتفي اثر من يبث دسائس يكون الغرض منها احداث تحزب بين مسلمي الهند

ونشرت النوفيل ريفو احدى الجرائد الدورية السياسية في فرنسا فصلاً مطولاً قالت فيهِ ما ملخصه

قد كان من مذهبنا عدم التداخل في الامور المصرية ولم نزل محافظين على هذا المذهب والاقوال الجليلة التي فاه بها الموسيو دي فريسنيه تكفل لنا عدم الشروع في اي عمل قبل تصريح المجلسين واقرارهما عليهِ ثم ان هذين المجلسين (مجلس النواب ومجلس الشيوخ) يعلمان حق العلم ما توده البلاد وما تمجه اذواقها ولا يتسنى لهما ان يخالفاها في شيء ما

اما التداخل باي وجهٍ من الوجوه اي سواء كان بالانفراد او بالاشتراك مع انكلترة او غيرها من الدول فلا يعد للوزارة حسن تبصر ولا اصابة في السياسة ولا عملاً يحمدها عليهِ الوطن وقد ظهر لنا فضل وزارتنا في انفاذها سياسة فرنسا الخارجية وتحولها عن طريق التهور وفطنتها من اول نظرة سياسية لمآرب انكلترة اذ تحقق لها ان هذه الدولة لا تعمل الاَّ لمصالحها الخصوصية ولا ينبغي لنا ان نسعى لها فيها ثم عرفت حق المعرفة ان البعثة الوطنية المصرية ليست من الامور المختلقة وان الامة المصرية قد استيقظت من نومها وما ايقظها الاَّ بغضها للمراقبين وتذمرها من تسلط الاجانب وان الجمهورية الفرنسوية ترى حطة في قدرها ان تشترك في اطفاء نور هذه النشأة الحديثة ولو اعدنا النظر في تردد الدول الاوربية وارتباكاتها لايقنا ان فرنسا وحدها هي التي سلكت طريقًا مستقيمًا وانها هي صاحبة الافكار المتبصرة في العواقب

ومن اقوال الغازت ناسيونال الالمانية ان سياسة الدولتين الغربيتين المبنية على العدوان وحب الذات في وادي النيل هي المسببة لحالة مصر اذ ذاك ثم قالت ولكن ربما عثرت اوربا على طريقة موافقة يتيسر لها ان ترضي بها مقتضيات التمدن ومطالب الامة المصرية . اه

تريد بذلك ان تلقي المانيا تبعة المراقبة على عواتق الدولتين الغربيتين (فرنسا وانكلترة) من غير استثناء

وكان من رأيها ان الشقاق لا بد ان يبدو بين هاتين الدولتين ومن قولها ان من سوء حظ انكلترة ان سياستها مشتركة ما بين المستر غلادستون ورغبته في الحيادة وحزب المحافظين وشنشنتهم مع بعض من حزب المعارضة الذين غرست في اذهانهم اوهام بلمرستون اما الاميرال سيمور الذي رمى مدينة الاسكندرية بنار المدافع فهو نائب عن السياسة القديمة ويخاف ان يعجز المستر غلادستون نائب السياسة الجديدة عن ايقاف حركة الاعمال الوحشية الحاضرة عند اطلاق اول قنبلة وصيرورة اركان الحرب والمجلس البحري جميعًا قضاة يتفاوضون فيما يتعلق بالشرف الوطني الانكليزي فيلزم ان نتوقع منهم هفوات غير محصورة

وبعد هدم حصون الاسكندرية لا بد من التوغل في البلاد

وبما ان الحزب الوطني لم يتلاشَ حتى الان فستسعى نظارة خارجية لوندره في ارسال جيش الى القاهرة وهذا عدم تبصر ومجلبة للمصائب وفي الحقيقة ان انكلترة اثخنت بالمصريين اولاً وبالاسلام ثانيًا وبسرك ثالثًا

وفي كل حال فليس لفرنسا ان تشترك مع مجلس الحربيين الذين يظنون ان المسألة تنتهي باطلاق القنابل على مدينة الاسكندرية

والسياسة الجلية التي صرح بهـا الموسيو دي رنغ وكيلنا السياسي السابق في مصر لم تزل باقيةً على ما كانت عليهِ في افكاره وهي سياسة من طبعها ان تحمي رجالها ولا تحرك الخواطر ومن شأنها وقاية قواعد التمدن المهددة والمدافعة عن حقوق الانسانية وذلك بايقافها على قدر الامكان اراقة الدماء فنحن نسأل اليوم لِمَ بدلت بغيرها ما هو اعظم منها في الفخر كما يزعم عباد السياسة السالفة ولكنها على ما تراه مغايرة لامانينا ومصالحنا وشرفنا

وان رايتنا لا تزداد فخرًا باعدام امةٍ قامت مطالبةً بحريتهـا كما اننا نعد سفر الاسطول الفرنسوي الى بورسعيد (حين اطلق الانكليز مدافعهم على الاسكندرية) حسن تبصر وشهامة فان الاعمال غير المفيدة هي دائمًا ممنوعة ولو أعنّا سيمور على اعمالهِ لكنا لا بد ان نؤدي غرامةً عن طيشنا

ومن منشورات النوفيل ريفو السابقة الذكر قولها في ١ اغسطس سنة ٨٣ :

ما زالت السياستان الفرنسوية والانكليزية مترافقتين في مصر غير متشابهتين فيها والاتحاد وان كان باقيًا الاّ انهُ لا ينبغي ان تنسب الى نفسنا ادنى تبعة عن الاعمال الحربية التي صمم على اجرائها وهي ناتجة عن اطلاق المدافع على الاسكندرية فاننا نحافظ على مقامنا السليم من كل لوم ولا نعبث بالمعاهدات بل نصون العهود الدولية ونحترم اصول الامم ونؤيدها في مظاهرها المفيدة . وحرية ترعة السويس هي علم يلزمنا المدافعة عنهُ لا لكون الترعة صنعًا فرنسويًا ومن اموالنا بل لاجل المنافع العمومية التي تترتب على وقايته ثم يجب علينا ان نصرح بان وجود سفننا في الترعة هو اقوى لسلامتها من جميع تهديدات انكلترة وقنابل شركة ارمسترونغ ولسنا ممن يغتر بالاقوال لعلنا حق العلم بمعنى النفوذ الفرنسوي في مصر فان ثقة المصريين بشرفنا وصداقتنا هي في درجةٍ يتيسر لنا بها ايقاف او منع وقوع مـا تأمرهم بفعلهِ ثورتهم الغضبية اما شره وكلاء انكلترة واشمئزاز العالم مما يجرونهُ من انواع العذاب فهما بهيجان التعصب بدلاً من تسكينهِ

وقالت ان الانكليز لما يئسوا من الوصول الى اغراضهم بالوسائل السلمية المعتادة استعملوا الشدة والعنف وعقدوا نيتهم على اعادة الراحة والنظام بواسطة الاحراق والتدمير ولو استعدنا حافظتنا لرأينا امامنا الخطاب الذي القاه حديثًا رئيس وزراء الانكليز واعترف فيهِ بان ارسال السفن الحربية من شأنهِ ان يحدث الخطر لا ان يزيلهُ الاّ ان النيات والافكار تبدلت بغيرها من ذلك الحين

وحيث ان القوة الوحشية قد قطعت سلاسلها فلا اقل من ان نلقي التبعة عن أعناقنا وان صح ما يقال من ان الاعمال الحميدة احق بالاتباع من النصائح فاعمالنا الحسنة كانت جديرة بان يقتدي بها جيراننا الانكليز اذ كانت واضحة لديهم كالشمس في رابعة النهار لان سفر اسطولنا من مياه الاسكندرية كان يعتبر تنبيهًا للاسطول الانكليزي على شدة التعدي الذي طالما اجتهدوا في اخفاء اسبابه الحقيقية ولم يكن في الامكان ان نوضح للانكليز اكثر مما اوضحنا من انهم انفردوا بالعمل وانهم خاطروا بشرفهم المعنونة به

كل دولةٍ متمدنة الاّ اذا سلكنا في توضيحنا طريق الغيظ والحنق ولكن تصميم حكومة الانكليز على اجراء هذه الاعمال كان شديدًا بمقدار ما كانت تتوقاها وتحاذر من فعلها حسب عادتها واصولها فمن يوم ان تحصل تجار الاقطان بطلباتهم على قرار الوزارة الحرة علم ان الانكليز في لوندره ضربت على ابصارهم غشاوة وصمت آذانهم ولا راد لهذا القرار خصوصًا وانهُ صدر من حكومةٍ ذات مشرب وافكار مضادة للاعمال المكدرة المدونة في ذلك القرار وقد يحصل غالبًا ان يكون السلميون في الحرب اقسى من الحربيين انفسهم فان اعمالهم تكون محبوكةً باطراف العجلة والسرعة بالنظر الى عدم تعودهم وعدم اهليتهم وذلك يظهر حتى في عنادهم عندما يتادون بالاسراع في اخذ الثار ليتم لهم الامر

ومن الجلي ان سيمور كان عازمًا على اطلاق المدافع قبل وقوع اي حادثة رغمًا عما اباته انكلترة من ان اعماله مسببة عن المذابح والنهب الذي حصل قبل انتشاب الحرب ثم ان التعاظم الذي لزمه في مخاطبة حكومة الاسكندرية وعناده في ادعائهِ انهُ ما زال يشاهد اعمالاً تحصينية مصوبة نحو سفنه وتظاهره بالرعب من مدافع الحصون حالة كونها لا تستحق ان يلتفت اليها. كل هذه الاعمال تبيح لنا ان نقول انهُ كان مصممًا على المجاهرة بالعدوان مهما كانت الحوادث وان انكلتره لما لم تجد لذلك سببًا حقيقيًا اجتهدت في ايجاد سبب طفيف تتخذه حجةً لالقاء الرعب في قلوب المسلمين ويحتمل ان القصد من قذف القنابل التي كانت تمر من فوق الحصون لتصيب حارات الافرنج مبني على تخويف الممالك الهندية اي اتباع الانكليز الذين يرتاب الى الان في صحة تابعيتهم وعلى هذا التفسير المبني على حب الذات كانت مدينة الاسكندرية المحتوية على مائتي الف نسمة والتي هي من احسن الثغور التجارية الموجودة في البحر المتوسط خارجة عن نظر الانكليز بل كان القصد الوحيد اجراء تظاهر شديد تصل اخباره الى اطراف بومباي بلا مبالاة بالاوربيين وتدمير املاكهم وتنغيص عيشهم اذ ان انكلترة قدمت كل ذلك ضحية لازالة انشغال بالها على الهند ولو لم تكن المسألة مسألة محزنة لضحكنا من مقابلة اطلاق المدافع على الاسكندرية بالاسباب الرسمية الحاملة على هذا العمل الحربي فقد ارادت نظارة خارجية لوندره ان تظهر قوتها في ايقاف المذابح والنهب الا ان الطرق التي اتخذتهـا لتنفيذ مقاصدها جاءت مخالفةً لهُ لان الخسارة التي نجمت عنهُ تبلغ قيمتها ٣٠٠ مليون (فرنك) وهذا فضلاً عن ان الاوربيين الذين لم يذبحوا اسرعوا بالفرار الى البحر

ومن قولها : نظن اننا لو اظهرنا استغرابنا من الانقلاب العجيب في سياسة المستر غلادستون الخارجية لعد ذلك ثناء عليهِ فانهُ لو تردد عند تبوئهِ لرئاسة الوزارة في الانفصال عن سياسة بيكونسفيلد لكان تردده بعيدًا عن ان يكون محلاً للعجب اذ من المعلوم ان كل وزارة لا بد وان تلزم سياسة خليفتها باتباع سيرها في بعض الاعمال مهما كانت المبادئ متغايرة والسير متناقضًا وفي الحقيقة ان اخلاء افغانستان كان من الصعب ومن اعظم الشجاعة لان بعض اعضاء الامة كانوا فرحين مدة اعوام عديدة بالاستيلاء على

تلك الحدود الوهمية وكان من الصعب ايضًا ما فعلته هذه الوزارة انتصارًا للعدل وذلك بايقاف محاربة البوبرس المشؤومة لان الشرف العسكري ليس بالامر الوهمي وفي بعض الحالات تجبر مصالح الوطن العليا على استمرار العدوان منعًا لتوهم تقهقر هذا الوطن فرغمًا عن هذه البواعث التي كانت تحمله على مجاراة سلفه قد وضع حسن طويته وارادته في الميزان فرجحت من جهة السلم واذ ذاك قبلت دولة الانكليز القرار الصادر من رجلها العظيم القابض على زمامها فمن الغريب ان هذه المبادئ لم تكن لتنبيه الافكار الى السير بمثلها في المسألة المصرية

وقد كان الاليق بشرف المستر غلادستون ان يعترف بان تعدي المراقبين المالي والاداري اوصل الفلاح الى درجة التمييز وان التعليمات الاوربية كونت من الجموع المصرية شعبًا صار امةً واننا نسلم بما احدثته حالة الترعة للانكليز من القلق حيث ان الترعة عرق تتغذى منهُ المملكة الهندية ولا يمكن مسها بشيء الاَّ وتهيج انكلتره لاجله ولكن من الخطاء ان يجمع ما بين المسألة المصرية وبين مسألة ترعة السويس ومن افكار الاغبياء الاجانب انهُ لا تتيسر وقاية الترعة ما لم يظلم وادي النيل وهي افكار قوم تحصلوا بغنائم على منزلة الحاكم الآمر الناهي واثروا من تجارة السلب ثروة عظيمة ثم ربطوا المسألتين بحيلةٍ ليس لها مثيل ولو ميز المستر غلادستون بين هذه الامور المشتبكة عمدًا لخدم مذهبه خدمةً كبيرة وزاد في منافع مواطنيه

وليس يخاف ان المستر غلادستون ما سلم نفسهُ للمخاطر الاَّ لما توهمه من رجوع مصر الى ايدي الدولة العثمانية فبدلاً مما اتخذه من الوسائل التي كانت نتيجتها شد عروة الوثاق بين مصر والسلطان وبدلاً من الادعاء بالانتصار لحربتها كان من السياسة الحسنة ان يسعى في انماء غروس التقدم اليانعة التي نبتت منذ خمس سنين في مصر ولا نقدر ان نقوم بحق التأسف على التغيرات الخفية التي بدات تبديلاً سريعًا منظر تلك البلاد وحولتها الى ديار خربة واملاك معدومة وترع مدمرة . والكراهة التي كادت ان تكون جنونًا كانت جديرة بان تبعث الذين عجلوا بالحرب على الاعتراف بالذنب الذي اقترفوه ولكن من شؤون سياسة التدمير ان لا توقف اعمالها عند حد الندم والاستغفار وبعد وقوع الخطاء لا يزداد الانكليز الا تمسكًا بقرارهم فتسير عليهِ احكام القانون الذي سنوه الا وهو ان تبتدئ اعمالهم باطلاق المدافع وتنتهي باعدام امةٍ ساعية في وطنيتها

قالت وسياسة انكلترة الخارجية المتوارثة هي في الواقع حصن منيع لا يقوى عليهِ بسهولة لانهُ مهما حسن القصد نرى العادات المزمنة مؤثرة في امة الانكليز وممتزجة بدمها فهي لا تخرج منها ولا تقلع عنها ابدًا ولذلك نقول ان المستر غلادستون لم يكن غافلاً عما طرأ على مقاصده الاصلاحية من المصاعب ولكنهُ انجذب بتيار الاغراض التجارية التي ثارت بالمجلسين عند ورود الخبر المنبئ بافعال سيمور اما الموسيو برايت (رفيق غلادستون في الوزارة) فقد التزم منهجًا حميدًا وفضل البعد على التسليم فانفصل بشرفه عن منازعيه لكن رئيس الوزارة لم يرَ ان يقتدي بهِ لانهُ يأمل من غير شك

ان يستعبد شرفهٔ في مسائل اخر وان لا يترك الامور الارلندية في ارتباك وقد ترك مسلكه تركًا يثق عليهِ . وهو الرجل الذي طالما نقاتل في سبيل مرضاة التليانيين والبلغار

وانا تسأل هلا يكون من نتيجة صبر المستر غلادستون على المشاكل المحيطة بهِ المساعدة في تقوية ما يلزم ابادته (اي الحزب المضاد لحزبه) فانهٔ لا اهمية لاسمه في الحرب المصرية التي هي صنع وكلاء بالمرستون القديم الرسميين والشبيهين بالرسميين ونرى انهٔ من الان ستصير بين رجال العهد القديم ورجال العهد الذي سيخلف عهد غلادستون وصلة يصعب ان تلطف عاقبتها فستكون لذلك آلةً تدير يد القابض عليهـا وليست هذهِ بالنصرة التي كنا نود ان نكتبها للانكليز

ولم تغتر فرنسا بما قدمتهٔ لها انكلترة مما يعود عليها بالفائدة لعلمها بان الاحوال في بلاد الانكليز لم تتغير مـا دام مذهب حب الذات المستحكم في التعديات الجونية يجعل اتفاقنا في مقام هزوءٍ لا يمكن معهٔ الاتحاد وحصول الوفاق الحقيقي

وفي مجلس العموم نسمع الموسيو غلادستون ومعاونيه يتكلمون بعبارات مفعمة من التفخيم والاعظام لجارتهم فرنسا فهل يا ترى يحظرون على المؤامرة الكبيرة ان تستمر مكتنفةً جهات الارض ممتصة دماءها لمصالح الانكليز دون غيرهم

وانا لا ننكر ان اعلامنا في كل جهة مترافقة وحقوقنا مقدمة على اية دولة من الدول ولكن هذا الاتحاد في الاعمال لا ينتفع بهِ الاَّ الانكليز وان كان لنا فوائد تأتينا من جهةٍ استقرت اقدامنا فيها من الازل فذلك لا يمنع من الهجوم علينا وتهديدنا

ثم ان المراقبة الظاهرة في مصر قد تحولت الى استيلاء حقيقي وما حوَّلها الا مراقب الانكليز وقنصلهم وجريدة التيمس قد عرَّفتنا باسم عمال اخر النهار . فبينما نحن نسعى في ثروة البلاد نرى شركاءنا الانكليز عاملين على اتلافها لان الخراب سببٌ يدعوهم الى الاقامة في البلاد بدون شريكٍ لهم فيها . ففي السنغال والهند نرانـا معرضين لحقد وكلاء نظارة بحرية لوندره ونظارة خارجيتها . وفي مداغسكر لنا شؤون حيوية من حكمها ان تمنع المداخلات الاجنبية ولكننا نرى في كل لحظة اثر دسائس الانكليز التي يبثونها في ارواح اعدائنا الوطنيين والرسل الانكليز مهتمون باضعاف نفوذنا في تلك البلاد فهم يحثون ملكة الهوفاس على رفع لوائها في كل الثغور وقد نشرت جريدة التيمس التي تطبع في مدغسكر ما اعلنت بهِ هذهِ الملكة من ان البحر هو حد ممالكها وهذا اشهار عدوان على فرنسا دسته انكلترة لتقوم مقامها

وقد ذهب اخيرًا اميرالنا الى مدينة تاناريف ثم عاد الى جزيرة موريس مصرحًا بان التفاحة لم تنضج حتى يجوز قطفها ولكننا نعتقد ان جيراننا الانكليز لا تفوتهم فرصة يجعلون فيها الثمر ناضجًا قبل اوانه ولربما استيقظنا يومًا مـا ووجدنا الامور منجزة بسبب سذاجتنا الاعتيادية وخوفنا الكلي في بعض الاحيان من اظهار الالوان الفرنسوية للامم المتوحشة فاذ ذاك لا تنفعنا معاهداتنا المهزوء بها ولا تعيدُ الينا ما سلب من ايدينا وبالرغم عن اهمية هذهِ المعارك البعيدة

نرانا لا نذكرها الا لكونها دالةً على سير الانكليز العمومي ومنهجهم النافذ في اقسام الارض الخمسة

ولنا اعتقاد بوجود التباغض بين الدولتين ولذلك نرى الامة الفرنسوية كارهةً لعقد اتفاق مع انكلتره لما تخشاه منها

اما من جهتنا فنحن اول من كان يسعى في ازالة ما تعتقده امتنا في الانكليز من منذ حرب نابوليون الاول ولكنا نشترط قبل كل شيء ان تفوز افكار غلادستون الحرة وافكار اصحابه بالنجاح

اما وقد نبذت الان هذه الافكار والمقاصد ظهريًا فانا نستمر على عدم ثقتنا بالانكليز فانهم سينفردون في محاربة جيش عرابي باشا وانا نحاذر من ان نتغالى في مدح رئيس القوات المصرية ولكنا نقول ان ما يجذب ميلنا اليهِ هي النشأة التي هو نائب عنها ونرى وراءه او بجانبهِ قوة الامة التي قد اقسم الانكليز باضعافها ولذلك لا نصحبها بدعواتنا ولا بهتافاتنا بل نقول انهُ بالرغم عن قوة انكلترة المالية وموقعها البحري نرى اعمالها محفوفةً بالخطر العظيم

ملاحظة

هذا اهم ما رأينا وجوبًا لاثباتهِ في فصل مخصوص من اقوال الجرائد الاوربية على اختلافها صبغةً فمن مجملها يتضح للقارئ الكريم ان الاميال العمومية كانت في المانيا والروسية وفرنسا وايتاليا منحازةً الى العرابيين فكانت تزيدهم على ما سبق لنا بيانهُ اصرارًا على المقاومة واملاً بانتصار الدول لهم فتساعدهم على اخراج الانكليز من مصر وتمكنهم من الفوز بالقصد والوصول الى الغاية ولكنهم لو علموا ان دون التجمع على الانكليز بالقوة خرط القتاد اكراهًا لهم على الخروج من ارضٍ اراقوا فيها دماء ابنائهم وبذلوا الاموال الوافرة في سبيل الدفاع عن سلطة الخديو وعلموا ان وراء تلك الاقوال ما وراءها لباتوا على اعتقاد انهم لا يفلحون وان الغلبة لا شك للانكليز سواء كانت ببذل المال كما وهموا او بحشد الرجال

ومن الغرابة انهم اصرُّوا على عنادهم وكانوا قد رأوا من الدولة العلية غير ما كانوا يتوقعون منها فكيف بعد ذلك تُقدم الدول على مساعدتهم وهي ترى ان في اعتراف جلالة السلطان بعصيان عرابي اهمالاً لشأنهِ وفي ارتضائهِ بتداخل الانكليز في مصر منفعةً وخيرًا

فصل

(تحصين)

وظلَّ عرابي يزيد في التحصين واتخاذ اسباب الدفاع غير منفكٍ عن عزمه المنصرف الى مقاومة الانكليز وكانَ يتظاهر في كل يومٍ باعمال حربية وتمرينات عسكرية على قصد القاء الرعب والخوف في قلوب اعدائهِ وقد استخدم نحوًا من ثمانية الاف رجل من اهل الصعيد في انشاء الاستحكامات وتعزيز مواقعهِ الحربية الممتدة ما فوق الرملة بمسافة اربعة كيلو مترات الى كفر الدوار وكان يكره كثيرين منهم على العمل بقوة العصا والسوط وقد انشأ في كفر الدوار سدًا بعرض ٣٠ مترًا وخندقًا عرضه اربعة امتار وعرضه ستة وجعله فاصلاً بين السد وبين

ارض اكثر فيها من مواقع الاستحكام

وكان الخط الدفاعي الاول ممتدًا ما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى « البيضه » وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فكانت كلها نحو ٥٠٠ موقع وقد تم اجراء مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى « ابو حمص »

ويوجد بين « ابو حمص » ودمنهور تل يفضل سائر التلال مساحة وارتفاعًا فاختاره عرابي موقعًا يقيه من الانكليز اذا قضت عليهِ الحال بالتقهقر الى دمنهور

اما دمنهور فانها عززت بالمدافع واعدت موقعًا يدفع وثبات الانكليز وغاراتهم ولكن تلك التحصينات والاعمال السريعة لم تكن لتجعل تلك المواقع ثابتةً امام نار الانكليز الى امدٍ طويل

وجعل عرابي مقدمات مراكزه في الزاوية بقصد المحافظة على الطريق الكائنة بين العطف ودمنهور وعزز تل البارود بقوةٍ وافرة واتخذ الزاوية معسكرًا جعل فيهِ للجند نحو الفي مضرب وكان يستولي بالقوة على الماشية ويدفعها غذاء ارجاله فكان اصحابها يضطرون الى الانتظام في جنديته او الالتجاء اليها

وهكذا كان يعد العُدد والعدد لمصادمة الانكليز غير مبالٍ بمنشورات الخديو وبما اصدرت هيئة النظار على اثرها مما كان معضدًا لها وهو منشور مطول نثبته في هذا المقام بنصه استيفاء لاهم المحررات الرسمية التي نشرت اثناء تلك الاحوال

(نص منشور هيئة النظار)

انهُ بناء على مخالفات احمد عرابي باشا استصوب بمجلس النظار تبيين بعض وقوعاته وما يتأتى من الاستمرار على ما هو عليهِ مع اعطاء النصائح اللازمة لجميع اخواننا بالاعلانات المقتضية فنقول انهُ غير خافٍ على علم العموم جميع مخالفات احمد عرابي باشا وما حصل من تلطيفهِ تارةً وتوبيخهِ اخرى من طرف الجناب الخديو الافخم لاجتنابهِ ذلك حتى لازالة خوفهِ قد استحصل عطوفتلو راغب باشا على العفو العمومي من لدن الجناب العالي عن كل من عليهِ مسئولية او لهُ اشتراك في الحوادث الصادرة لغاية تاريخ التقرير المتقدم منهُ للحضرة الخديوية ولم يثمر كل ذلك ولكون حصل منهُ بعد هذا التاريخ حوادث كمثل ذهابه الى كفر الدوار مستصحبًا العساكر واخلاء ثغر اسكندرية وطوابيها من غير امر يصدر اليهِ وتوقيف حركة السكة الحديدية وقطع جميع المخابرات التلغرافية ومنع ورود البوستة وحجز مياه المحمودية عن سكندرية بقصد حصول الضرر لجناب الخديو الاعظم وهيئة النظار وسائر سكانها وكذلك منع جميع المهاجرين وغيرهم من الحضور الى اسكندرية وعدم اجابته الى الامر العالي الصادر بطلبه الى اسكندرية وتشبثه بالاعلان افتراء على الجناب الخديو بانهُ سلم اسكندرية للانكليز وحبس هيئة النظار فضلاً عن تجاسره على عزل ونصب المديرين وغيرهم وجميع ذلك يعد عصيانًا للخديو الاعظم النائب عن امير المومنين ولذلك صدر امر عالٍ بعزلهِ . وحيث ان دولتلو درويش باشا اخبر بحضور الجناب الخديو وهيئة النظار ان الاميرال سيمور قد اخبره بان

ليس للدولة الانكليزية عداوة لا مع الدولة العلية ولا مع الحكومة المصرية بل ان ما حصل من ضرب المدافع والتخريب انما هو مقابلة التهديد والتحقير الذي حصل باجراء عمليات الطوابي بامر احمد عرابي باشا بعد صدور الامر السلطاني بمنع ذلك وقد اكتفى بما وقع . وانه اذا كان للحكومة الخديوية عساكر مطيعون ومؤتمنون فهو مستعد لتسليم الاسكندرية وطوابيها وبالفعل سلم بعض جهات منها لمن حضروا طائعين من العساكر كما وانه عما قريب ستحضر عساكر من سائر جهات السلطنة السنية وتجري استلام اسكندرية جميعها موقتاً . وعلى الخصوص فانه بتاريخ ٢٦ لوليو سنة ١٨٨٢ عرض الاميرال المومأ اليه للجناب الخديو الافخم بمضمون ان الحكومة الانكليزية لم يكن من مقصدها التغلب على القطر المصري لنفسها ولا المداخلة في حرية المصريين ولا في ديانتهم . وفقط مقصدها حماية الجناب الخديوي مع اهالي القطر المصري من العصاة وازالة العصيان ورجوع النظام في القطر المصري فيعلم للعموم من هذا التوضيح ان جناب الخديو الاعظم ما سلم الاسكندرية للانكليز ولم يخطر ببال سموه اصالة ولا في نياته الجليلة ابدا ولا من غرض الدولة المشار اليها الاستيلاء عليها ولا على قطعة منها . وكذلك لم يصدر امر الخديو الجليل بحبسنا معاذ الله ولا نوى ذلك بل ان نياته الجليلة مصروفة ابدًا الى راحة ورفاهية العباد مع عمارية البلاد وان تشبثات احمد عرابي باشا في تجهيز اللوازم الحربية في النقط التي صمم اتخاذها مركزًا للحرب تعتبر تهديدًا لجميع الدول وهذا التهديد ينتج منه مضرات جسيمة ومثلها واقعة اسكندرية لانه بناء على ما علم من الحوادث انه استقر الرأي بالمؤتمر ابقاء حقوق الدولة العلية مع سائر الامتيازات المصرية على اصلها ولزوم ازالة العصيان الواقع بالقطر المصري قد قبلت الدولة العلية ارسال عساكر لذلك علاوة على عساكر انكلترة وفرنسا وايتاليا كما قبل فتشبث احمد عرابي باشا مع المساعدين له على تدارك تجهيزات حربية لمقاومة جميع دول عظام هو لاغراضه الشخصية وغاياته النفسانية الموجبة لخراب البلاد وسفك دماء العباد وحيث ان كل من عصا الله ورسوله واولي الامر وسعى في الارض فسادًا اعني كل من اراد او يريد الفساد او يساعد لذلك مالاً وبدنًا سيدخل تحت حكم الايات الشريفة والحديث المبين باعلى هذا المنشور . فنتضح ان كل من يكون في قلبه ذرة من الايمان من اخواننا فليتق الله في الوطن وفي نفسه والله المستعان

فصل

وكان يتصل بعرابي مؤدى هذه المنشورات ولا يكترث بها بل كان اذا علم بخبرها بعض افراد الجيش من ضباط وجنود جمعهم وجعل حسناتها في اعينهم سيآت

ولما دارت رحى الحرب واستلم الجنرال ولسلي قيادة الجيش الانكليزي شخصت ابصار المصريين اليها وكان عقلاء القوم منهم على اعتقاد ان جيش عرابي لا يقوى على دفع الانكليز فكانوا اذا غصت منازلهم باقدام الزائرين حملوهم على ذلك الاعتقاد ودعوهم الى الثبات على طاعة الخديو وقد نشرت في ذلك ونحوه اقوال مبينة

كون تلك الحرب ليست بحرب دينية دفعاً لاوهام الناس فمن ذلك بعض مقالات نشرتها جريدة الاعتدال التي انشئت اذ ذاك بقلم الشيخ حمزه افندي فتح الله نؤثر منها المقالتين الآتيتين تذكرة تاريخية وتبصرةً للمتأملين

المقالة الاولى

ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا . عباد الله لستم تجهلون انني طالما ناديت في البرهان بان لا سبيل لنجاح الامة الاسلامية سوى اقامة الدين المبني على مكارم الاخلاق والذي من مقتضاه حسن المعاملة والرفق بالذميين والمستأمنين والمعاهدين والصلحيين وهم الاقسام الاربعة التي قدمنا ان جميع الاجانب في البلاد الاسلامية لم تخرج عنها

ومن مقتضاه ايضاً اعداد ما يستطاع من القوة ورباط الخيل وانه لا ريب في انه يدخل في القوة المدافع ونحوها من انواع العدد الحربية الجديدة المناسبة لكل زمان ومكان وكذا جميع ما يتصور العقل ان فيه نكاية للخصم

غير انه لسوء الحظ كأن تلك الآية الكريمة الآمرة باعداد ما ذكر انما نزلت على خصوص الاجانب فعملوا بها دوننا ورفضناها نحن كغيرها من شعائر ديننا وحدود ربنا تبارك وتعالى حتى بلغ من تضلع البغاة الجهال من الفنون الحربية وخبرتهم بطرق النكاية للعدو ان يقابلوا الآلات الانكليزية الحربية الحديثة العهد المصنوعة منذ شهور او اسابيع بآلات عتيقة مضى عليها من الاجيال ما اكلها به الصداء فاواه ثم اواه ولكن هو الجهل حتى ينبح الكلب مولاه

ويرمي بالحصبا الشهاب اذا انقضَّا

فلو اننا فرضنا المستحيل من كون هذه الحرب دينية والحالة هذه وانها بامر الخليفة الاعظم او نائبه الخديو الاكرم لوجب شرعاً مخالفة امرهما بها لانها حينئذٍ عبارة عن المخاطرة بالبلاد والعباد

وقد نهانا الله تعالى عن ان نلقي بايدينا الى التهلكة فكيف وهذه الحرب كما قدمنا شيطانية ناشئة عن حب الذات والمصلحة الشخصية كما سيأتي بيانه وعن الجنون الذي تظاهر به الآن عرابي تخلصاً من سوء العاقبة وان كانت افعالها كلها جنوناً محضاً من البداية للنهاية على ان الحروب الدينية المرضية في الحقيقة لله ورسوله لا يحتم نصر اربابها اذ لا يجب على الله تعالى شيء وتلك سنته عز وجل في المرسلين والانبياء ان تكون الحرب بينهم وبين اعدائهم سجالاً اي تارة لهم وتارة عليهم وان كانت العاقبة لهم بلا ريب وما ذلك الا لتقتدي الامم باعمالهم فيبنون المسببات على الاسباب لان للشرائع السماوية خصوصاً الشريعة المحمدية المطهرة تشوقاً زائداً لذلك اي لابتناء المسببات على اسبابها حرصاً على الامة ان تغلق باب الاسباب فيختل نظام هذا الوجود ويبطل العمران وان كان الكل من الله واليه وهو خلقكم وما تعلمون

فاما الآن فقد سد باب الخوارق والمعجزات اذ قد ختمت النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام

واما الكرامة فلم ينصر بها الحسين عليه السلام ولا غيره من البضعة المقدسة مع الاجماع على كونهم على الحق ولعل عرابي يزعم انه اكرم على الله من الحسين واحرا به ويا عجباً لهذا

الجاهل كيف خاطر بدماء المسلمين واعراضهم وبلادهم استنادًا على خرافات المنام واضغاث الاحلام فاستمال بذلك عقول الجهال وفتح باب الحرب مع الاجانب بعد شدة نهي الخليفة الاعظم ونائبه الخديو الاكرم عنها ومع انهُ ليس لديه من القوة سوى ما ينشره من الاكاذيب . انك يا عرابي لما وقعت في يدك وبد جهالك الآلات الحربية وصرتم نفس القوة التي من شأنها ان تكون عونًا للحكام على تثبيت النظام وردع الاشرار وليس للحكومة اذ ذاك قوة اخرى تكسر لها شوكتكم امتلأت نفسك الخبيثة بالشرور فطمعت في المستحيل وما ليس اليهِ سبيل واستعملت انت واحزابك للحصول على ذلك جميع الوسائل ولكنهم صاروا بعناية التوفيق كلما اوقدوا نارًا لهذه الحرب اطفأها الله حتى اذا اغلقت في وجوههم المطالب عمدوا الى وسيلة اخرى الا وهي اتهام الجراكسة الكرام ظلمًا وعدوانًا بالمؤامرة على الفتك بعرابي فصار هو الخصم والحكم واكرههم بانواع العذاب على الاقرار بما نسب اليهم وبانَّ لهم فيهِ شركاءهم فلان وفلان الجملة من الاعيان والعائلة الكريمة الخديوية بحيث ان سير الجهادية في تحقيق هذه القضية كان يشبه سير الوحوش في البرية لان تلك المؤامرة لو ثبتت على الجراكسة ولم تكن بقصد الفتك بعرابي بل كانت بقصد الفتك بامبراطورٍ مثلاً بالنسبة للامور الدنيوية او بنبي مرسل بالنسبة للامور الدينية لكان تحقيقها اخف من ذاك التحقيق واراك يا عرابي لو اصبت يوم حرب الاسكندرية زورقًا للانكليز فضلاً عن سفينة مما زعمته احزابك لكبرت نفسك عن دعوى النبوة فكنت تدعي الالوهية ولا تعدم من يؤمن بك من الجهال نعم انك قد اكتسبت الشهرة الفاسدة باعمالك غير ان لك في ذلك امثالاً كثيرين منهم ابليس اللعين وعاقر الناقة الذي هو اشقى الاولين وابن ملجم اشقى الاخرين فان كان في شهرة هؤلاء شرف لهم فانت ايضًا كذلك

واعلموا ايها المصريون ان زيادة نفوذ الاجنبي في بلادكم تكون بقدر ما يخسرهُ في شأنها من الدماء والاموال بمعنى انهُ لو انفق عليها من المال درهمين او أراق فيها من الدم قطرتين كان نفوذه عليها اكثر مما لو انفق درهمًا واحدًا او قطرة واحدة وهكذا كلما زاد في الخسارة زاد في النفوذ

فان كان لكم ما تخافون عليهِ من دين وعرض ومال ووطن فقللوا تلك الخسائر ما استطعتم لتامنوا على ذلك . وها هو تقليلها في ايديكم ولا وسيلة لذلك سوى ان تحد كلمتكم على ارجاع البغاة عن اعمالهم او القبض عليهم او التخلي عنهم ليستسلموا او يفرّوا فتستريح منهم العباد والبلاد

ويا علماء المصريين قد نطق القرآن الكريم باخذ الميثاق على العلماء ان يبينوا للناس الكتاب ولا يكتمونهُ وبان الفتنة لا تصيب الظالمين خاصة بل تعم الجميع والحديث الصحيح بان الخطيئة اذا خفيت لا تضر غير صاحبها واذا ظهرت ولم تغير اضرت العامة واي خطيئة اعظم من اعمال الجهادية التي يترتب عليها خراب البلاد واتلاف العباد في سبيل الشيطان الرجيم

فيرحمكم الله لماذا كتمتم النصيحة للبغاة

الجهال ولماذا لم تغيروا الخطيئة كي لا تضر العامة وتضركم في الجملة ام هل تنتظرون ان يصيبكم مثل ما اصاب اهل اسكندرية عافاكم الله من ذلك فلو شاهدتم ما شاهدناه حال المهاجرة وكانت قلوبكم اقسى من الصخور ودموعكم اكثر من البحور لذابت قلوبكم ونضبت دموعكم وماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم حاملاً ادركها المخاض في الطريق فعمدت الى حفرة في الارض فدفنت جنينها بالحيوة لتكفى مؤنته وتنجو بنفسها وتتمكن من سرعة السير ثم لم تجاوز تلك الحفرة بقليل حتى دهمها الجندي العرابي فكشف عورتها وجردها من الحلى والحلل ثم لم يكتفِ بذلك حتى راودها عن نفسها فان ابت اطلق عليها الرصاص من البنادق المنهوبة وتركها مضرجة بالدماء مكشوفة العورة فريسة للهوام موطئا للاقدام وهي في اثناء ذلك تصرخ بالشهادتين وتنادي بكلمة الاسلام وتسمي نفسها وتقول هل انتم تحاربون الانكليز او المسلمين والمسلمات فلا يرحمها الجندي ولا يرثي لحالها

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم المسلمات السيدات المصونات اللائي لا يعرفن غير القصور مثوى ولا سوى الخدور ماوى وقد طاشت عقولهنّ وزهقت نفوسهنّ وفاضت عيونهنّ وذهلن عن الرضيع والمريض والمقعد والخف والقناع والازار والخمار فهتكن الاستار وبرزن من الديار مكشوفات الوجوه حافيات الاقدام بلا شراب ولا طعام حتى اذا اعياهن المسير وقل النصير وكثر الازدحام وتورمت لهن الاقدام واشتد بهن الشقاء من شدة حر الرمضاء قضى عليهنّ في الطريق

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم مائتي الف من المسلمين والمسلمات افزعهم عرابي واكرههم على المهاجرة في زمن لا يتجاوز الساعتين حينما اضرم النيران في البلدة بقصد سريان الحريق الى جميعها من جهاتها الاربع

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم امرأة تحمل طفلين وتجر اربعة وتقود فقيها اعمى حتى اذا اعياها المسير والاطفال يصرخون جوعًا ويلهثون عطشًا تركت من يعجز منهم عن المشي او تعجز هي عن حمله فيموت تحت الاقدام في ذلك الزحام

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم مخدرة من المسلمات تنادي على بنتها العذراء من يستر هذه الفتاة لوجه الله الكريم خشية ان تزيل العرابيون بكارتها كما فعلته في الوف من المسلمات ثم تختم هذه المرأة كلامها قائلةً اما انا فاني استطيع المدافعة عن عرضي حتى افارق الحيوة

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم امرأة وزوجها وقد ادركهما الليل في جهة الرمل فجلسا للاستراحة فقالت المرأة لزوجها هات الغلام لارضعه فقال اي غلام قالت ولدنا فلان قال الم تحمليه معك ثم تبين انهما تركاه بمنزلها

ماذا كنتم تصنعون لو شاهدتم رجال الضبطية الان وهم يستدلون بما يتصعد في بعض الاماكن الاسلامية على من فيها من الموتى فيفتحوا ابوابها فيجدوا فيها ما لا يحصى من الاطفال والرجال والنساء الذين تركوا يوم المهاجرة لضعفهم او للذهول عنهم فماتوا وانتنوا

وجملة القول انكم لو شاهدتم بعض ما شاهدناه من مصيبة المسلمين ورزية المهاجرين لهجرتم الرقاد ولازمتم السهاد وانما ذكرت لكم من

ذلك قطرة من بحر

يرحمكم الله كيف ساغ لكم ان تقروا البغاة الجهال على المجاهرة بعصيان الخليفة ونائبه والمخاطرة بالمسلمين وبلادهم في نظير شهوة عرابي النفسانية واغراضه الشخصية اعني عدم قبوله النفي مع حفظ رتبه ونياشينه ومرتبه الذي لم يكن يحلم بمثله في المنام ثم لما اطلقت الكلة الاولى من مراكب الانكليز امتلأ قلبه رعباً وفر من حينه الى ابعد مكان عن المرمى في زعمه ثم لم يلبث هو وجنوده ان انهزموا شر هزيمة الى كفر الدوار فمنعوا الماء عن المسلمين وحجروا عليهم الرجوع الى اوطانهم وعاثت عساكره فيهم قتلاً ونهباً وفسوقاً وفجوراً كما سبق ذكره

فيرحمكم الله ما هذا التواني عن ردع ذلك الباغي ولستم تؤملون منهُ سوى ان يفرّ البكم منهزماً ويسوق امامهُ مهاجريكم بعد ان يحرق الديار ويهتك عرض الاحرار والعذارى الابكار ويستعمل رجالكم في استحكاماته الوهمية ونسائكم في فسوق جنوده الجاهلية فاقلعوا عن هذا التوان ولا تستبدلوا الخبر بالعيان ولا تغتروا بما يذيعه فهو افك وبهتان

ولا ازل اقول لكم ان الانكليز لا قصد لها سوى اعادة الراحة واخضاع الجند للحاكم الشرعي نائب امير المؤمنين وان الجناب الخديوي هو على الجانب العظيم من التقوى والدين

ولستم تجهلون ان ديننا المحمدي قد يكون تأييده على يد غير ذويه ولا تجهلون ايضاً ان الجناب الخديوي ليس اول من نصر بغير ذوي دينه بل ان لذلك سوابق كثيرة وقعت لبعض خيار الامة الاسلامية ولو لم يكن من ذلك سوى ما وقع للاستاذ القطب سيدنا ابي الحسن الشاذلي استاذ ابي العباس المرسي رضي الله عنهما لكفى في الدليل

وحاصل هذه القصة ان ابا الحسن قدم الى هذا الثغر السكندري ليلاً وهو لا يعرف فيهِ احداً واشتدت حاجته الى مكان يأوي اليهِ مع اتباعه ولم يوفق احد من المسلمين لذلك حتى استضافه يهودي من اهل الذمة وبالغ في اكرامه فوقع في نفس الشيخ شيء من ذلك فنودي يا ابا الحسن ليس الشأن من ينصر باحبابه انما الشأن من ينصر باعدائه

المقالة الثانية

ان من تأمل حق التأمل فيما كان يصدر عن عرابي من المكاتبات في الجرائد الرسمية وفيما يكتب في غيرها عن افكاره وفيما تكتبهُ الجرائد المحلية التي تعتبر كلسانه يتضح لهُ جليًا انهُ كما خرج عن طاعة مخدومه الجناب الخديوي خروجاً صريحاً فكذلك خرج عن طاعة امير المؤمنين خروجاً صريحاً ايضاً

اما خروجه عن طاعة الامير الذي هو الجناب الخديوي فظاهر للعيان لا يختلف فيهِ اثنان واما خروجه عن طاعة الخليفة الاعظم فانهُ وان كان مترتباً على خروجه عن طاعة الامير لما تقتضيهِ البداهة من ان الخروج عن طاعة التابع خروج عن طاعة المتبوع غير انهُ زيادة على دلالة الالتزام هذه قد كشف القناع سابقاً ولاحقاً عن نبذ طاعة الخليفة وصرح بذلك في تلك المكاتبات تصريحاً جليًا لا يحتمل التأويل وانطبقت تحت اعماله على اقواله بحيث انهُ قد جمع في المخالفة بين القول والعمل ولعمري ان ذلك المقام

لهم جدًا لاسيما للاستانة العلية فليتدبره اولو الالباب واذا شئت ايها القارئ توضيح مخالفته في القول والعمل لامير المؤمنين فاليك البيان

بيان مخالفته قولاً لامير المؤمنين

نقتصر الان في اثبات ذلك على رقيمين اثنين صدرا من عرابي وادرجا في الوقائع المصرية التي هي الصحيفة العربية الرسمية احدهما فيما يختص بالتلغراف الوارد من الحضرة الشاهانية للخديو الاعظم بتوقيف اصلاح الطوابي حيث صرّح عرابي في ذلك الرقيم بان توقيف اصلاح الطوابي معلق على اقلاع الاساطيل الاجنبية وخروجها من مينا الاسكندرية والدليل على ذلك انهُ لما لم تخرج الاساطيل عاد الى اصلاح الطوابي وزاد عليهِ تركيب المدافع فوقها لان ذلك التركيب لابد وان يكون بعد اصلاح خلل الطوابي المنهي عنه اذ لا يتصور عاقل ان تركيب المدافع فوق طوابي خربة مختلة البناء فقد فعل ما نهى عنه وزاد عليهِ ذلك التركيب هذا مع ان النهي السلطاني عن اصلاح الطوابي ليس معلقًا على خروج الاساطيل ولا على شيء البتة

واما الرقيم الثاني فهو ما ما ادرج في الوقائع ايضًا في صورة الرد على الطائف فيما نقله عن مكاتب ستاندرد من ان عرابي يعتبر العساكر العثمانية اذا حضرت الى هذا الطرف كعساكر اجنبية حيث صرح ايضًا في الرقيم المذكور بانهُ لايتصور في العقل ارسال عساكر عثمانية وان الباب العالي لا يسعه ارضاء دولة اجنبية بذلك وتوضيح كون ذلك الرقيم دليلاً على مخالفته للحضرة السلطانية واصراره على معارضة عساكرها انه جعل فيهِ ارسال العساكر العثمانية من قبيل المستحيل العقلي وانهُ على فرض وقوعه يكون متمحضًا لارضاء دولة اجنبية (لعله يريد بها انكلترة) اي لاسبب للارسال غير ذلك الارضاء يعني واذا كان كذلك جازت له معارضتها اي العساكر الشاهانية هذه نتيجة ذلك الرقيم وبما اوضحنا يظهر جليًا ان عرابي هذا قد اقرّ في ذلك الرقيم بصحة ما اراد تكذيبه فليتأمل العاقلون هذا وان عرابي لم يحمله على تسطير هذا الرقيم بهذه الصورة التي اسلفناها سوى انهُ رغب ان يستميل بذلك حزبهُ الى مشاركته فيما اصر عليهِ من معارضتهِ العساكر العثمانية فجعل لهم تلك النتيجة التي اوضحناها محللاً لما حرّم الله تعالى لما شاهد منهم او من معظمهم العزم على عدم معارضة العساكر الشاهانية كما سمعناه من كثير من اعيان ضباطهم كما ان ذلك هو الذي اوجب شراهته الى محاربة الانكليز لا لاعتقاده ان عموم الطوابي المصرية في امكانها مقاومة اسطول اقل الدول الاجنبية لان ذلك مما لا تجهلهُ المجانين بل لكونه يروم مجرد المحاربة مع دولة اجنبية لكي يوهم جهلاء الامة ان ذلك من قبيل الحرب الديني وانهُ اذا جاءت عساكر عثمانية تكون ولا بد لاعانة تلك الدولة الاجنبية التي فتح معها الحرب فتعتبر كتلك الدولة المحاربة فتباح والحالة هذه معارضتها هذه هي مناورة عرابي في تلك الحرب وشرح رموز رقيمه الثاني فيما يظهر لفهمنا القاصر ولعل ذلك هو الذي اوجب تأخير ارسال العساكر العثمانية الى الان فان هذه المناورة من مشكلات السياسة التي تزل فيها الاقدام وتحار

العقول ويلزم لها التروي والتدبر فلا يظنن احد ان خليفة المسلمين قد اضاعنا سدىً او اهمل امرنا ولقد وضح بما قررناه ان الباب العالي غير راضٍ من اعمال عرابي او عن شيءٍ منها

بيان مخالفته فعلاً لامير المؤمنين

مرادنا بهذه المخالفة المخالفة الصريحة كما اسلفنا وتوضيح ذلك ان عرابي فضلاً عن تركيبهِ المدافع على طوابي الاسكندرية بعد اصلاحها ضدًّا للامر السلطاني السابق ذكره قد فتح باب المحاربة مع الاسطول الانكليزي بعد ان نهاه دولتلو درويش باشا عن ذلك وبالغ في نصيحتهِ ولما يئس منهُ امره بان لا يجيب مدافع الاسطول بالضرب اذا ابتدأته بذلك وسر هذا الامر ان عدم اجابتهِ لها يترتب عليهِ اخلاؤه من المسئولية وامتناع الاسطول عن التمادي في ضرب الطوابي وبذا كانت تحسم مادة الشرور غير ان ذلك لما كان لا يحصل بهِ مقصوده من فتح باب المحاربة مع دولة اجنبية ليبنى عليهِ ما سبق شرحه قد جاهر بالمخالفة كما انهُ لما تهدمت جميع الطوابي بعد عشر ساعات من الضرب واتلف فيها نحو ٤٥٠ مدفعًا ومقدارًا عظيمًا من العساكر بدون ادنى ضرر للاسطول تقرر في مجلس النظار بحضور درويش باشا وحضوره عدم اخلاء طابية الدخيله والعجمي والمكس فاخلاها وخرج بالعساكر الى كفر الدوار وترك البلدة في حالة النهب والتحريق لاماكن المسلمين والاجانب فاضطر الخديو منهُ لذلك الى اجازة نزول العساكر الانكليزية فانحسم ذلك الامر والبلدة للان في طمأنينة وامان وقد منع المواصلة واعادة المهاجرين مع ما يقاسونهُ من عساكره من انتهاك اعراض الاحرار وافتضاض الابكار وسلب حلي النساء وقتل من تخالفهنّ وموت الاطفال والضعفاء تحت الاقدام وغير ذلك

فهذا ايها القارئ بيان مخالفته عملاً لامير المؤمنين فتدبره حق التدبر ان تقرر ذلك لم تبقَ لعاقل ريبة في براءة الباب العالي عمّا نسبهُ اليهِ عرابي من اغرائهِ على مخالفة الامير اعني الجناب الخديوي ومعاذ الله تعالى ان يتصور عاقل ذلك كما انهُ لا يسع عاقلاً بل ولا من كان في قلبهِ مثقال ذرة من الايمان ان يعتقد او يظن ان ذلك الحرب من قبيل الحروب الدينية اذ قد ثبت بما ذكرنا انهُ ليس بامر الخليفة ولا بامر نائبهِ الذي هو الخديو الاعظم وانما وقع ذلك الحرب لمجرد منفعة ذاتية موهومة ألا وهي شخص عرابي ليس الاَّ لامتناعه عن الخروج من القطر المصري مع حفظ نياشينه ورتبته ومرتبه فآثر منفعتهُ الشخصية على خراب البلاد ودمار العباد . ولو فرضنا ان بعض علمائنا أفتاه بانهُ حرب ديني فلا نقدح في ذلك المفتي وانما هو كما يقال الفتوى على قدر السؤال ولو علم ذلك المفتي ان حقيقة الحال هي كما ذكرنا وان بلادنا لا طاقة لها الان بحرب ادنى دولة اجنبية لا برًّا ولا بحرًا وان ليس عندنا من الاستعدادات الحربية وغيرها شيءٌ يذكر وان الحرب والحالة هذه محض مخاطرة بالعباد والبلاد لغرض شخصي وان الجناب الخديوي على الجانب الاعظم من التقوى والديانة وحب الوطن وساكنيه والخبرة التامة بحقائق الامور ودقائق السياسة وان هذه الحرب قد نهى عنها الخليفة الاعظم ونائبهُ الخديو الاكرم

وان نفس امير المؤمنين اعلن عصيان عرابي ومخالفته القرآن الكريم وان الانكليز لا يصدون التغلب على بلادنا ولا التداخل في امورنا وانما يقصدون الزام الجهادية بالامتثال للقرآن الكريم في طاعة اولي الامر الواجبة شرعاً لما وسعه الافتاء بكون هذه الحرب دينية فليتق الله امرؤ يعلم انهُ ما يلفظ من قول الاَّ وعنده رقيب عتيد وان اهراق دماء الوف من المسلمين والذميين ونحوهم في غير مرضاة رب العالمين بل في شهوة عرابي وحزبه من اكبر الكبائر

وهذا هو الغرض الذي سقنا لاجلهِ هذا الحديث واطلنا في توضيحه كما ترى

لعل فيما اوضحنه بلاغًا لقوم يعقلون وعبرة لاولي الالباب كي يذعنوا الى الحق ولا يركنوا الى اكاذيب عرابي وعساهم يعجلون بالقبض عليهِ او التخلي عنهُ ليسلم لهم دينهم ودنياهم واحذروا ان تخدعكم مناورته هذه فقد اوضحنا لكم فسادها شرعًا وعقلاً فان كنتم ايها المصريون مع ذلك كله في ريب مما ذكرته ولا تصدقون الاَّ بالعيان فها هو الوفد الذي انتخبتموه لمشاهدة الحقيقة قد عاد اليكم معظمه وبقي لدينا بعضهُ فما عليكم سوى ان تؤمنوا من عاد اليكم فيخبركم بالحق وتعيدوا المواصلات التي قطعها عرابي عن الاسكندرية لتسمعوا ممن عندنا وسوى ان تبعثوا الى كفر الدوار من تثقون بهِ فانهُ يشاهد بكلتا عينيهِ نساء مهاجري المسلمين ايامى واطفالهم يتامى واعراضهم مباحة واموالهم منهوبة ودموعهم بحارًا ودماءهم انهارًا فلو انهم اصيبوا بالطاعون الفادح والوباء الفاضح واطلقت عليهم الوحوش الضارية والذئاب العادية لكانت حالتهم احسن مما دهاهم من الجنود العرابية واحزاب الجاهلية

فالله عليكم ان تحسموا ما بقي من الدماء وترحموا تلكم الضعفاء والاطفال والنساء فان ابيتم فما هي الاَّ ان تجول الخيل جولة والمدافع مرة فيصيبكم ما اصاب اولئك المهاجرين ثم تطلبون العفو فلا تجدون اليهِ سبيلاً

اما الحضرة الخديوية فهي الان فاتحة باب العفو

اشفاقًا على البلاد وشفقة بالعباد وحسمًا لهذه الفتنة التي كانت نائمة فايقظها عرابي لكنه ابى الكرامة ولا باباها الاَّ لئيم واصر على عناده وخالف الله ورسوله واطاع الشيطان الرجيم

ولم يزل الى الان بكفر الدوار والمهاجرون عنه يذوقون الوان العذاب ويهلك من اطفالهم وضعفائهم كل يوم ما يفوق الحساب

فهل يا علماء الديار المصرية يسوغ لكم ان تقروا هذا الشقي على اعماله فتقتدي بكم جهلاء الامة واذا كان عذركم في عدم نهيه انكم تخافون من اضراره بكم فهلا كان الاسلم لدينكم ودنياكم ان تخرجوا من هذه العهدة بالكلية اي لا لكم ولا عليكم وان لا تفتنوه ولا تفتوه فتضلوا وتضلوا ويجعل فتاويكم آلة لهلاك العباد وخراب البلاد فقد سودتم والله صحيفتكم بهذه المنكرات والاعانة على الفساد

واعلموا ان ليس لذلك الشقي واعوانهِ من عدة يركن اليها او الات حربية يعتمد او خبرة بالقتال او ثبات في النزال بل ان بضاعته في ذلك كاسدة وآراءه واحزابهُ فاسدة

ولما افلس من هذه البضاعة عمد الى بضاعة الكذب فاذاعه والبهتان فاشاعه واخذ

الجهال يلفقون له الاحلام ويختلقون المنام ويكذبون على الله ورسله واوليائه ويزعمون انه مؤيد بالروح القدس والملائكة المقربين فنسدت الاحوال وعمّت الاهوال بهزيمته في حرب الاسكندرية وخذلانه اشد الخذلان اذ ان الجاهلين والذين لا يعقلون من ضعفاء الامة ارتدوا او كادوا ان يرتدوا عن الاسلام ويتبدلوا الكفر بالايمان لكونهم اعتقدوا صدق تلك المنامات فارتابوا من عدم وقوع مقتضاها وبذا تعلم ان عرابي قد اضرّ باعماله المسلمين في دينهم ودنياهم وانفسهم ولم يعلموا ان تلك المنامات على فرض صحتها قد تعرضت الشريعة المطهرة لحل رموزها وكشف كنورها وتوضيح خفائها وكشف غطائها

فان أئمتنا معشر المسلمين وان اتفقت على ان الرؤيا النبوية في حد ذاتها حق بلا ريب ولا مدخل فيها للشيطان فكذلك اتفقت على انها اي الرؤيا اذا كانت محتوية على اوامر او نواهي فانه لا يجوز الاقدام على العمل بمقتضاها الأ بعد عرضها على معيار الشريعة المطهرة فان وافقتها فذاك والأ وجبت مخالفتها وحمل عدم موافقتها للشرع العزيز على تخليط من الرائي لعدم اعتدال مزاجه او على فساد في الاخلاط بفرط ما يتصعد من ابخرة الاغذية على غير انتظام فربما تخيل الرّائي بسبب ذلك ان الايجاب نفي والامر نهي

لا على ان الرؤيا في ذاتها ليست حقة وقد طالما نادينا الاحزاب العرابية بهذا المضمون قبل الحرب الاخيرة وصرحنا لهم باننا لو فرضنا ان الامة المصرية قد اتفق لها كلها ان ترى منامات نبوية تتضمن امر عرابي بالحرب والوعد بنصرته فانه يجب عليها عدم العمل بذلك

وبيانه اننا لما عرضنا على الشرع العزيز اعمال عرابي خصوصاً فيما يختص بالحرب وجدنا هذه الاعمال لا تصدر الأ ممن عميت بصيرته عن سبيل الرشاد ووجدناها مضادة للشريعة المطهرة على خط مستقيم ووجدناها ناشئة عن الجهل والبطر وكفران النعم واضرارًا محضاً على المسلمين في دينهم ودنياهم وانفسهم كما اثبتنا لك بيانه في هذه المقالة ولطالما خشيت على عقلي حينما كنت اجادل الاحزاب العرابية وكنت اقول في نفسي يا سبحان الله هولاء الالوف كلهم مخطئون وانا وحدي مصيب ... فلم يفرج عني الا حينما تذكرت حديثاً شريفاً معناه ان الحق تبارك وتعالى اذا اراد نفاذ امر سلب عقول العقلاء حتى ينفذ القضاء فوجب والحالة هذه رفض تلك المنامات على فرض وقوعها هذا فضلاً عما اجمعت عليه العقلاء من ان لولوع النفس بالشيء وفرط اشتغالها به مدخلاً في المنامات وقد علم العموم ان العرابيين قد مسهم طائف من الشيطان يسمى بالحرّية وآخر يقولون له (الوطنية) الى ما لا يحصى فكانوا يهتفون بتلك العفاريت في اليقظة والمنام فهذا ايها العقلاء ما يجب ان تحمل عليه اضغاث الاحلام اه .

وكانت المقالات والخطب والقصائد من جهة اخرى تتلى وتلقى في مجالس العرابيين ومنتدياتهم من غير انقطاع تحميساً وتهييجاً فمنها قول بعضهم معرّضاً بذكر ولسلي وسيمور في بيت السموأل :

وانا لقومٌ لا نرى القتل سبةً
اذا ما رآهُ ولسلي وسبمورُ

ومنها خطبة للشيخ محمد ابي الوصل القاها في جامع الاستاذ الحنفي وهذا نصها :

الحمد لله الذي البس المسلمين من انواع النصر اثوابًا والبس الكافرين وغلق عليهم ابوابًا ودمر تدبير كل انكليزي لئيم فسبحانهُ جعل الجهاد فرض كفاية على المسلمين في كل عام وفرض عين اذا حضر العدو ارض الاسلام ووعد المؤمنين بالنصر والفوز العظيم احمده سبحانهُ وتعالى واشكرهُ واتوب اليهِ واستغفره واسألهُ النصر والفتح العميم واشهد ان لا اله الاَّ الله وحده لا شريك لهُ المتعالي عن المشاركة والمشاكلة وعن الناصر والمعين حسبما دل عليهِ الدليل القويم واشهد ان سيدنا محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله الذي حث على الجهاد وبشر بالخير الجسيم اللهمَّ صلِّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والرسول السيد السند العظيم سيدنا محمد وعلى آلهِ واصحابهِ الذين جاهدوا في الله حق جهاده ولم يخشوا فيهِ لومة مليم وسلم تسليمًا كثيرًا اما بعد فيا عباد الله قد تميز الغث من السمين واستبان ان الانكليز جاؤنا محاربين يريدون لامكنهم الله سلب الاموال وهتك الحريم وقد جاءوا بمكرٍ وخداع يصطادون بشبكة حيلهم الاوطان من غير قتالٍ ودفاع كما هو ديدنهم القبيح في كل اقليم فتيقظ لذلك العقلاء والشجعان فذبوا عن الاعراض والاوطان وسقوهم كاس الحميم وايد الله المسلمين بالعساكر المصرية وامدهم بالعناية الربانية ومن عليهم بالثبات المولى الكريم واغتر لخداعهم بعض الجهال فاذاعوا سيئ الاقوال وحادوا عن الطريق المستقيم فتنبهوا من الغفلة يا بني الديار وارفعوا عنكم الذل والعار واذيقوا الانكليز العذاب الاليم واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل واحترسوا من طوارق النهار والليل وتجردوا عن كل وصفٍ ذميم واجعلوا سيوفكم لهامات الاعداء دامغه وقنابلكم في اكبادهم والغه وعجلوا بهم الى العذاب الاليم واجزموا بالنصر وان عن قلة وان الاعداء سيرجعون بالخيبة والذلة ويصلون من بنادقكم نار الجحيم واعتمدوا في النصر على الله ومن جاهد فالله ناصره ومولاه وما النصر الاَّ من عند الله العزيز الحكيم وحركوا سلاسل القدر بالادعية في الاسحار وتضرعوا الى الله في قطع دابر الكفار واعلموا ان الله بالمؤمنين رؤوف رحيم وسارعوا الى الجهاد فقد آنت المسارعة وقارعوا فقد حانت المقارعة واعلموا ان الآجال بتقدير العزيز العليم وانفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم ركبانًا ورجالاً وابتغوا بذلك الاجر العظيم والنعيم المقيم وقاتلوا قومًا نقضوا العهود والايمان وهموا باخراجكم من هذه الاوطان وهكذا سنتهم الحديث والقديم ولا تخشوهم فالله احق بالخشية ان كنتم مسلمين (قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) . اه

ومنها خطبة للشيخ حمزه الدمنهوري جاء في بعض فقراتها ما نصهُ :

اعدوا لاعدائكم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بهِ عدو الله وعدوكم وكونوا

لدين الله من المتنصرين تنوزوا برضى المولى اللطيف الخبير وقوموا لمحاربة اعداء الله واعدائكم البغاة الطغاة وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلهُ لله فان انتهوا فان الله بما يعلمون بصير فان الجهاد الان فرض واجب علينا لدخول الاعداء في بلادنا محاربين فمن اتى بواجب الجهاد احرز فضلهُ ومن تطوع خيرًا فهو خير لهُ فالسعيد من سارع الى اغتنام الاجر من الله العلي الكبير فيامن اراد الجهاد ورام بهِ رضاء مولاه اقدم عليهِ ولا تخف وبع نفسك في سبيل الله وكن على ثباتٍ اذا اقتحم الحرب ولو تحملت فيهِ كل امرٍ خطيرٍ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتًا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فهنيئًا لهم بما نالوا من الفضل والشرف ذلك هو الفوز الكبير

ومن قوله فيها

ان كل انسانٍ بما هو من تحمل النصب لنصرة الدين خبير فعلى الاغنياء اعانة هذا الجيش (جيش عرابي) بما يقدرون عليهِ من المؤونة ويحفظونهُ من غوائل الجوع ويقوونهُ فانهُ الحصن الحصين لردع العدو والخائن الحقير فمن جاد بنفسه لنصرة دينه قد نال الفوز والقبول ومن سارع لحفظ شرفه وعرضه ادرك المقصود والمأمول فالهمة الهمة يا اهل الغيرة الاسلامية والسرعة السرعة يا اهل الحمية الايمانية والنجدة النجدة يا امة الهادي البشير النذير قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين لا تظنوا غير النصر الذي وعدنا الله بهِ واصبروا فالصبر يهون كل عسير

الحديث

قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم لغدوة او روحة في سبيل الله افضل من الارض ومن عليها ولموقف الرجل في الصف افضل من عبادة ستين سنة وقال صلى الله عليهِ وسلم ان الله تعالى اعطى المجاهدين ثلاث خصال من قتل منهم صار حيًا مرزوقًا ومن غلب اعطاه الله اجرًا عظيمًا ومن عاش يرزقهُ الله رزقًا حسنًا

ومنها خطبة للشيخ عبد الوهاب ابي عسكر قال فيها

الحمد لله الذي اعز الاسلام ورفعه واذل من خذله ووضعه وهيأ لهُ في كل عصرٍ من الاعصار حماة وانصار ذوي همم وعزم وافتخار يحمون حوزته ويقوون صولته ويقيمون شوكته ويظهرون شريعته وهكذا في كل عصر يتجدد النصر ويلحق الاعداء الخزي والذل والقهر والصلاة والسلام على من سنَّ لنا سنة الجهاد وامرنا بتجريد السيوف من الاغماد لقتال اهل البغي والفساد واخبرنا صلى الله عليهِ ان الجنة تحت ظلال السيوف وان كل من قاتل في سبيله لحقه هلاك وحتوف فهو شهيد حي الدارين منعم في الجنان مع السبطين السعيدين الشهيدين القمرين النيرين ابي محمد الحسن وابي عبد الله الحسين واما من ادبر عن القتال او تهور في القتال او حيم فقد باء بخزي من الله ومأواه جهنم وعلى آله واصحابه الذين لهم في نصرة هذا الدين المقام المخصوص الممدوحين بقوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص وسلم تسليمًا كثيرًا

اما بعد فان لهذا المقام شأنًا عظيمًا يبقى حديثه على ممر الايام ترويه اقوام بعد اقوام قد افتخرت بهِ مصرنا وابتهج بهِ قطرنا باجتماع جيش عساكرنا المنصور والمتطوعين من العربان واهالي القطر راجين نيل الثواب والنصر من الغفور ايد الله شوكتهم وقوى صولتهم وجمع كلمتهم وايد نصرتهم وثبت اقدامهم وحسن ايامهم ونشر بالنصر اعلامهم ومكن في رقاب الانكليز حسامهم وجعلهم لحماية الدين ركنًا مكينًا ولحفظ الاوطان حصنًا حصينًا اينما سلكوا ملكوا ولاعدائهم الانكليز البغاة اهلكوا يملأون قلوب الاعداء رعبًا ويذيقونهم نكالاً وطعنًا وضربًا بصواعق السوارخ والمدافع وامطار البنادق من غير معارض لها ولا ممانع وبوارق السيوف الساطعة في سواد الدخان والغبار وحوافر الخيول السابقة التي ليس للعدو منها فرار ولا قرار والصنوف المائلة رؤيتها الشديد وطأتها طووا بخيولهم السوابق بساط الارض وانزلوا طواغيت الكفر من شامخ عالٍ الى خفض وجاء الحق وزهق الباطل وعمرت المساجد وكسرت الاصنام واصبحت كنائسهم عواطل لا يهزم لرجال جيشنا علم ولا تتزلزل لهم قدم ولا يدخل نظم جمعهم الخلال ولا يطمع في تفريق كلمتهم عدو محتال فهم لاعدائهم قاهرون وعلى جميع الكفار ظاهرون وفي حروبهم مؤيدون منصورون غالبون فرحون مستبشرون باحمد الذي نظم امرهم ورتب جيشهم وثبت اقدامهم واستنبت غراسهم عرابي وقتنا وزينة مصرنا وحامي قطرنا وامان بلادنا وديارنا ادام الله نصره واذاق المعتدين بأسه وقهره ووفقه لاجراء الخيرات وازالة المنكرات وواصل عليهِ من اخبار النصر المتجددة المسرات في سائر الاوقات لا زال النصر والسعد له خادمًا والظفر بابوابهِ ملازمًا واهالي القطر جميعًا باسطة اليهِ اكف طالبها والاعداء لابسة منهُ ثياب خوفها ورعبها تملى عليهِ مولاه جل علاه بالفتح والنصر المبين قال تعالى وكان علينا حقًا نصر المؤمنين

الحديث

رباط يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها . اه.

ومنها خطبة للشيخ محمد فتح الله خطيب قال فيها

الحمد لله الذي يؤيد بنصرهِ من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا الى دار القرار لا اله الا هو الرحمن الرحيم فسبحانه من الهٍ فرض على المؤمنين الجهاد وبين بهِ سبيل الهدى والرشاد احمده سبحانه وتعالى اذ جمع هذه الجموع لمصادمة اعدائهم ولو انفقت ما في الارض جميعًا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له المتعالي عن المشاركة والمشاكلة حسبما دل الدليل القويم واشهد ان سيدنا محمدًا رسول الله وصفوته من عباده وحبيبه الذي جاهد في الله حق جهاده والمرسل بالدين الحق والسراط المستقيم اللهمَّ صلِّ وبارك على هذا النبي الكريم والرسول العظيم ذي القلب الرحيم سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الذين اتوا ربهم بقلب سليم وسلم تسليمًا كثيرًا

عباد الله ان الله تعالى قد فرض الجهاد على المؤمنين من عباده ووفق له من اراد من اهل

محبته ووداده ووعد عليهِ الجزاء الجزيل الجسيم فابذلوا ايها المؤمنون في الجهاد انفسكم واموالكم يا ايها الذين امنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم وحرضوا قلوبكم على الجهاد في مرضاتهِ وجاهدوا في سبيلهِ لاعلاء كلماته يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم وابشروا بالنصر فقد وعدكم الله بهِ في الكتاب المبين حيث قال تعالى وكان علينا حقًا نصر المؤمنين وذلك بالنصل لا بالتخمين واعلموا ان الله قد اجزل للمجاهدين النفضل والمنة اذ قال ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يشربون فيها من الرحيق والتسنيم فاستعدوا رحمكم الله بالجهاد لما وعدكم الله بهِ ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم بهِ وذلك هو الفوز العظيم وارغبوا فيما اعده الله للمجاهدين من الاحسان في قولهِ يبشرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم واصبروا على مشقات الجهاد ليجزيكم بها يوم العرض وسارعوا الى مغفرةٍ من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين بالنيض العميم وايقنوا ان النصر مع الصبر وان الفرج مع اشتداد الكروب يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة على شدائد الحروب لتفوزوا من الله بجنات النعيم ولا ترهبوا من كثرة تعداد الكافرين كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ولا تقنطوا من رحمة الله عند طول خطبٍ جسيم واعلموا ان قتلى الغزاة احياء عند ربهم فرحين بما اتاهم الله من فضلهِ ويستبشرون والمتخلفون عن الجهاد لهم عذاب اليم فهنيئًا لمن بذل في الجهاد نفسه وماله وقد وفقه الله اليهِ واصلح باله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

الحديث

قال عليهِ الصلاة والسلام لغدوة في سبيل الله او روحة خير مما تطلع عليهِ الشمس

ومنها خطبة لعلي افندي غالب من ملازمي «برنجي الاي ياده» قال فيها

الحمد لله الذي عم بلادنا بنور نقتدي بهِ الى طريق الحق والايمان وجعلهُ سببًا موجبًا لصد المعتدين اولي البغي والطغيان والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاهد في مرضاة الله حق الجهاد وعلى آله واصحابه الذين سلكوا منهج العدل بين العباد وبعد فانهُ يتعين علينا معشر رجال العسكرية والامة المصرية ان نقدم مع الاحترام واجب الشكر ومزيد الامتنان لحضرة حامي حمى الديار القائم بصالحها اناء الليل واطراف النهار وهو سعادة احمد باشا عرابي ناظر الجنود البرية والبحرية ايده الله واكمل لهُ ما يتمناه ونثني كل الثناء على ما اتصف بهِ من الكمالات النفسية والاخلاق الذكية التي ملئت بها قلوب الخاصة والعامة من ابناء وطننا سرورًا وسارت بها الركبان في ارجاء المسكونة تنشر منها عنبرًا وعبيرًا

الى ان قال في مدح عرابي

وان من اكبر مآثره علينا انهُ هو السبب الوحيد في حل اعناقنا من سلاسل العبودية

ثم ختمها بالدعاء لهُ ولروساء الجيش

ومنها خطبة للشيخ محمد ابي الفضل قال في مطلعها

الحمد لله الذي رفع كلمة التوحيد والايمان

وخنض كلمة الشرك والبهتان

الى ان قال

ومصرنا هذه قد كادت ان تكون دار حرب لا دار سلام فقد اهين فيها الوطني وعظم الشام حتى صاروا روساء الدواوين فطغوا وبغوا وحل بهم المثل السائر وعلى الباغي تدور الدوائر فحكموا بالبنود والقوانين فعظم البلاء واشتد وزاد الكرب واحتد وكان ما علمتم من الحركات وكم لله في الحركات من بركات . اه .

ومنها منظومة للشيخ احمد سيف الباري قال في مطلعها

الى مَ يسوُ فعل الجاهلينا

وغمهم بفضل الجاهِ لينا

وفي مدح عرابي

اذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ

تلقاها عرابينا يمينـا

ومنها منظومة اخرى للشيخ السيد المرصفي قال في مستهلها

يا صاح قم واشكر الملك واحمدِ

فالدين منصور على يد احمدِ.

الى غير ذلك مما كان لا يثني مريدي عرابي عنه قول العقلاء المدبرين ونصائح اهل السداد المتبصرين

فصل

قبل استيفاء الكلام على ذكر تلك الاحوال وما تبعها من وقائع الحرب ندوّن في هذا الفصل ما جرى احصاؤه بعد خروج الانكليز الى الاسكندرية من الاماكن التي ردمتها نار الحريق وهي

(اسماء الاماكن المحترقة)

(واسماء اصحابها)

(قسم اول)

(شارع الجمرك)

ثلثة مخازن وقف الملاح
منزلان للسيد ابرهيم الناضوري
منزل حسن الخولي
« وقف الحرمة كوهيه
« احمد التنبني الفران
دائرة البكهجي عثمان
منزل حسن افندي شحلول
« وقف محمود الاجهوري
دكان من وقف بنت المدفر
منزل جاد الله بخيت
« منزل وقف الست زينب هانم

(قسم ثانٍ)

(شارع السبع بنات والمنشية)

دائرة عرفان باشا
« الخواجا اسكندر تونبدروني
« احمد زغبي
مدرسة الاباء العازاريين وكنيستهم
دائرة البرنس ابرهيم باشا
دائرة لجنة الاملاك الاميرية من اول الشارع « اوتيل ديروب »
منزل بندبازا
« العزبي
دائرة اولاد الشيخ سليمان باشا
وكالة وقف الراكشي
منزل وقف التكيه
دائرة راتب باشا

وكالة وقف الراكشي ومن ضمنها قره قول المنشية
سوق الجزارين والخضريه ملك ابرهيم بك
دائرة السيد نونو وشركائه
قسم من جامع الشيخ ابرهيم باشا
دائرة مصطفى الخشاب وابرهيم القطاطري
دائرة فوده حبيب
السوق المستجد ملك راتب باشا
ارض وقف كنيسة الروم الكاثوليكيين
دائرة ابرهيم باشا المعروفة بوكالة ابرق
قنصلية فرنسا
الوكالة الجديدة ملك ابرهيم بك الناضوري
دائرة الخواجا زيزينيا
دائرة السيد عبد الرزاق الشوربجي
وكالة وقف الراكشي
منزل السيد محمد الاجهوري
جزء من وكالة الانكليز بملك اولاد الشيخ سليمان باشا
منزل الموسيو دومربكر
« منزل كنج عثمان
(قسم ثالث)
(شارع باب شرقي وشارع المسلة)
منزل الكونت زغيب
دائرة الكونت زغيب
« الموسيو لوريا
« لوقا الارمني
دائرتان للخواجات سرسق
دائرتان للخواجا قرداحي
قطعة ارض وقف المرقصية
ثلاثة مخازن ملك راتب باشا

دائرة الموسيو ماركو مافرو
مخزنان للكونت دبانه
ادارة جريدة الاهرام ومطبعتها
منزل الخواجا اسكندر اديب بما فيه قنصلية انكلترة
دائرة الموسيو شالون
« اخرى للخواجات سرسق
« الخواجات كرم وبواكيم
« للخواجات سرسق
دائرتان للخواجا انطون اديب
دائرة الخواجات بسترس وتويني

***

دائرة القسيس بجهة السويقه بشارع البورصه
« البرنس ابرهيم باشا بالمنشية الكبيرة والصغيرة

***

شارع شريف باشا
اربع دوائر للجنة الاملاك الاميرية
دائرة الكونت دبانه
« الخواجات بسترس وتويني
« الكونت نخله زغيب
« الخواجا انطون اديب
« الخواجات سرسق
« الموسيو موسى فيس
« طوسون باشا
« الخواجا انطون عيد
« الموسيو كارلو شيزاري
« اخرى للخواجات سرسق
« تيتو بك
« رجل ارمني

منزل لرجل يوناني
» الموسيو كورنيل
دائرة اخرى للكونت نخله زغيب
» الموسيو موسى فيس
شارع توفيق
دائرة الموسيو توريا
دائرتان للبرنس احمد باشا
نصف دائرة دقور باشا
دائرة الموسيو دميانو
شارع البوسطة الايطاليانية
دائرة الخواجات صوصه ودوماني
مخازن وقف العطارين
دائرة كنيسة الاروام
» ارتين بك
» الموسيو قوقوا
شارع العطارين
دائرة فرنسيس افندي غبريل
منزل اولاد الغراب
دائرة اصلها ملك الزمار
» اصلها ملك علي البقري
منزل محمود يصار
» الشيخ حسن الشيخ
دائرة والدة الخديو السابق
» راتب باشا
مخازن راتب باشا
منزل سالم المبلط
دائرة احمد الدخاخني
منزل ابو حواش
» ابرهيم خناجي
» خليل المعابرجي

منزل لامرأة تدعى ام جرجي
» عبد الهادي سابق
(قسم رابع في جهة محرم بك)
منزل الموسيو جرجي ارشر
» » انجلو
اسطبل البارون يعقوب منشى
لوكندة ملك نوبار باشا
منزل حسين بك البغددلي
» الموسيو ديتري البقال
» » جواني
» ملك دائرة عرفان باشا
فرن احمد حجاج
دكان بقال (١) ملك المذكور

هذه اسماء الاماكن التي جعلتها نار الحريق خرابًا وقد عدّل البعض مساحتها بستة وتسعين الفًا وسبعمائة وتسعة من الامتار المربعة

فصلٌ

(اعلان جلالة السلطان المعظم)
(لعصيان عرابي)

وكان عرابي اثناء قيامه بالاعمال الحربية معتمدًا على مساعدة جلالة السلطان له وتعضيده في مشروعه ولكن خاب امله ويئس من الحصول على تلك المساعدة اثر صدور المنشورات الخديوية واتصال الخبر به ان القوم في دار السعادة عدوه عاصيًا نابذًا لطاعة الخليفة ونائبه في مصر توفيق باشا اميرها ولم يمضِ على ذلك

---

(١) البقال في اصطلاح العامة هو البدّال لغةً

بضعة ايام حتى تحققت تلك الخيبة بالمنشور الذي اصدره الباب العالي وقدمه للمؤتمر وهذا نصهُ

اولاً ان الدولة العلية السلطانية تعلن ان وكيلها الشرعي بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا

ثانيًا ان اعمال عرابي باشا كانت مخالفة لارادة الدولة العلية ثم التمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه ونال ايضًا من الحضرة السلطانية العفو العام

ثالثًا ان الشرف الذي نالهُ اخيرًا من الحضرة العلية السلطانية انما كان من تصريحهِ بالطاعة لاوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الاعظم

رابعًا قد تحقق الان رسميًا ان عرابي باشا رجع الى زلاته السابقة واستبد برئاسة العساكر المصرية بدون حق فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لاسيما انهُ تهدد اساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية

خامسًا بناء على ما تقدم يحسب عرابي باشا واعوانه عصاةً ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية

سادسًا تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابي باشا ورفقائه واعوانه يكون بصفة انهم عصاة

سابعًا يتعين على سكان الاقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الاعظم ان يطيعوا اوامر الخديو المعظم الذي هو في مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الاوامر يعرض نفسهُ لمسئولية عظيمة

ثامنًا ان معاملة عرابي باشا وحركاته واطواره مع حضرة السادات الاشراف هي مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية

وقد نشرت جرائد الاستانة يومئذٍ صورة هذا البيان وشفعته بقولها انهُ يجب ان نعد عرابي منذ الان خارجًا عن طاعة امير المؤمنين وان لا نعتبره امينًا ما لم يمتثل لاوامر سلطاننا الخليفة المعظم ويقلع عن غيه فان الاحوال الحاضرة (اذ ذاك) في مصر قد كدرت جميع المسلمين وضيقت على المصريين مذاهب الراحة وجعلتهم في حالٍ من الضيق لا يسهل بعدها العود الى سابق الصفاء

فصل

الميثاق الحربي

بين انكلترة والدولة العلية

وكان قد تقدم صدور هذا المنشور ان طرح اللورد دفرين سفير انكلترة اذ ذاك في الاستانة لائحة الى الباب العالي يلح عليهِ فيها باعلان عصيان عرابي واعتباره عاصيًا مع ذويه والاّ منعت انكلترة العساكر العثمانية التي كان قد تقرر ارسالها من النزول الى البر فطلب الباب العالي على اثر ذلك الى المؤتمر الاعتقاد بنيتهِ المنصرفة الى المناداة بعرابي عاصيًا ولكن بعد نزول الجيش العثماني الى البر

ثم جاء تلغراف من الاستانة ينبئ ان درويش باشا سيسافر الى مصر بخمسة الاف رجل من

الجنود العثمانية فكان نباه معقودًا باطراف الريب ثم اعقب هذا النباء نباء اخر يفيد ان سعيد باشا الصدر الاعظم وعد سفير انكلترة اللورد دفرين بعدم ارسال التجريدة العثمانية الى مصر قبل التوافق مع انكلترة وان الجنود العثمانية ستنطلق الى كريد لتسافر منها الى مصر اذا اقتضت الحال وتلا ذلك خبر تلغرافي انباه ان سعيد باشا وعد اللورد دوفرين باشهار عرابي عاصيًا متمردًا على جلالة السلطان والجناب الخديوي ولم تمضِ على ذلك بضعة ايام حتى صدر منشور المناداة بعرابي وذويه عصاةً متمردين

وعلم بعد ذلك ان درويش باشا اجل سفره الى مصر (وكان قد استدعي الى الاستانة بعد دخول الانكليز الى الاسكندرية) ثم ورد نباء يعلن انهُ سيأتي الاسكندرية قريبًا مصحوبًا بسرور باشا

وكانت الالسنة قد لهجت بامر اتفاق الدولة العلية وانكلترة على ابرام ميثاقٍ حربي ترسل بمقتضاه تجريدة عثمانية الى مصر ثم كثر التحدث في شأن ذلك وطال امر المخابرة بين الدولتين في ابرام ذلك الميثاق فقال السير شارل ديلك باديءَ بدء في مجلس العموم ان الميثاق الحربي لم يبرم ولكن الباب العالي مصرح بعزمهِ على ابرامه وقبول شروطه

وكان من شأن تلك المخابرة ان بعث على توقيف ارسال العساكر الالبانية التي عينت للمجيء الى مصر فاستقرت في جزيرة كريد الى ان يصدر لها الامر بالسفر الى مصر ثم علم ان الباب العالي لم يقبل الشروط التي اقترحتها انكلترة عليهِ لتكون اساسًا للميثاق الحربي فطلب اللورد دفرين منهُ ان يقبلها منعًا لتوقيف المخابرة في شأن ابرام ذلك العهد ثم اوضح ان الحكومة الانكليزية لا ترخص للجنود العثمانية في الذهاب الى مصر الا على شريطة ان تكون بقيادة الجنرال ولسلي

وبدت بعد ذلك من جانب الحكومة الانكليزية مظاهر التصعب بالتوقيع على ذلك الوفاق فرجت جريدة التيمس ان تعدل الحكومة الانكليزية عن كل ميلٍ الي ابرامه والتوقيع عليهِ وقد كررت هذا الطلب وزعمت ان قد فات وقت التداخل العثماني في مصر

وكان ذلك تابعًا لوقوع الخلاف بين الباب العالي وانكلترة في مسألة الشروط التي طلبت انكلترة من الدولة العثمانية ان تقبلها فلجاء الباب العالي الى وساطة الدول فابت ان تتداخل في امر الخلاف وكان في جملة القضايا التي اقترحها اللورد دفرين على الباب العالي طلبه ان لا يكون مقر الجنود العثمانية الاَّ في ثغور دمياط ورشيد وابي قير وان لا يرخص لها في النزول الى الاسكندرية وبور سعيد والسويس فصعب ذلك على الباب العالي وصعبٌ على صاحب السيادة ان يحظر عليهِ الحلول في جهةٍ من البلاد التابعة لهُ ويؤمر بالاقامة في جهةٍ اخرى فلو فعل ذلك لما كان في الامر مزية التداخل الواجب بل لعدت الجنود العثمانية خادمةً للانكليز يسوقونها الى اين شاؤا وقد حتى حصول هذه الصعوبة في وصول الدولتين الى حد الوفاق ما جاء بعد ذلك في تلغراف من الاستانة مفاده ان اللورد دفرين اجتمع برئيس الوكلاء سعيد باشا

وتحابرا في شأن الميثاق الحربي ثم افترقا على غير نتيجة وان صعوبة امكان اشتراك الدولة العلية في التداخل العسكري في مصر قد اخذت تزداد يومًا بعد يوم

وفي الجملة ان مسألة تعيين الموقع الذي يجب ان يعين للجنود العثمانية في مصر كانت علة ذلك الخلاف المانعة للدولتين من التوقيع على ذلك الوفاق

ولقد كان بعض ما منع من توافق الدولتين ما شاع يومئذٍ من ان انكلترة قبضت على كتاب مرسل من الحضرة السلطانية الى عرابي وقد قالت صحيفة التيمس في شأنهِ انهُ لو نُشر لكان لهُ تأثير عظيم وان العلاقات لم تزل مستمرة بين عرابي والاستانة بالرغم عن مناداة جلالة السلطان بعصيان عرابي والمنضوين اليهِ فترتب على ذلك تذرع انكلترة بتلك الشروط الصعبة الى منع سفر جنود عثمانية الى مصر مخافة ان تشترك مع العرابيين في مقاومة الانكليز فيشتد البلاء ويكون اعلان جلالة السلطان لعصيان عرابي ضربًا من الايهام توسلاً الى الفوز بالمقصود

وقد دلَّ على ذلك ما اشار اليهِ لسان البرق في خلال تلك الاحوال من ان اللورد دفرين لم يرضه ما جاء في منشور جلالة السلطان بسبب كون المناداة بعصيان عرابي لم تكن فيهِ صريحة العبارة واضحة الاشارة

وفي كل ذلك وهمٌ وخطاء واضحان فان منشور المناداة بالعصيان جاء ناطقًا بما ينبغي ان يقال مصرحًا بما يجب ان يُعتمد حجةً لا يتخللها ايهام ولا يمتزج بها ابهام

ومرَّت ايام طوال على المخابرة في شأن الميثاق بدون ان يتقرر امرٌ ما يفصل الخلاف ويدعو الى التوقيع عليهِ وسنأتي في غير هذا الفصل على استيفاء ما يتعلق بهِ حيث يكون تلاؤم الوان الحوادث قد قضى بالعود الى الكلام عليهِ ولكننا نثبت هنا تعريب شروطه اخذًا عما لدينا من مصادر اخبار ذلك العهد وهي :

اولاً ينبغي ان تكون التجريدة العثمانية مؤلفةً من ستة الاف جندي وان لا يضيف الباب العالي اليها عددًا اخر الا بمخابرة انكلترة والاتفاق معها على الزيادة

ثانيًا يجب ان يكون حلول الجنود العثمانية في رشيد او ابي قير او دمياط وان يكون خروجهم الى المواقع التي تدعى اليها من احد هذه الثغور

ثالثًا يكون جلاء الجيشين الانكليزي والعثماني عن وادي النيل في زمن واحد

رابعًا لا يقوم الجيشان بالاعمال الحربية الا بعد اجماع القائدين العموميين على ما يجب ان يكون موضع العمل

خامسًا يجب ان ينضم الى الجيش العثماني ضباط من اركان حرب الانكليز والى الجيش الانكليزي ضابط من اركان حرب العثمانيين

وقد انبأت الاخبار بعد القاء هذه الشروط ان الباب العالي ابدى بعض الصعوبة في كيفية انفاذ المادة الثانية منها فتوقف لذلك اعتمادها والعمل بها وجاء بعد ذلك ان الجرائد الانكليزية طلبت ان يظل الانكليز منفردين في تأييد سلطة الخديو وان تكون الافضلية لهم في اعادة الراحة وقهر العرابيين

فصل

الجنرال ولسلي

ورد تلغراف في ٣ اغسطس سنة ١٨٨٢ منبئ بسفر السير ولسلي على السفينة كلاباريا الى القطر المصري ففي اواسط الشهر المذكور وصل الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش واخذت من ثمَّ الجنود الانكليزية تتوارد على الثغر وتنضم الى الجيش حتى بلغ عددها في اواسط الشهر المذكور نحو خمسة وعشرين الفًا

وقد كان قدومه لاستلام قيادة الجيش الانكليزي داعيةً الى التيقن بفوز الانكليز واستظهارهم على العرابيين بالنظر الى ما اشتهر بهِ من البسالة والاقدام والتضلع من الفنون الحربية وهاك لمع من ترجمة حالهِ

هو الجنرال السير غارنت يوسف ولسلي ارلندي الاصل كاثوليكي المذهب ولد في دوبلين (١) قاعدة ارلنده عام ١٨٣٣ وانتظم في سلك العسكرية عام ١٨٥٢ وكان في مقدمة ابطال حرب القريم عام ١٨٥٥ فنال نيشان «الليجون دونور» الهندي والصيني . وفي سنة ١٨٦٥ سمي كولونيلاً وأُرسل لمقاتلة الهنود فقاتلهم ببأسٍ وثبات واستظهر عليهم فكوفئَ على ذلك برتبة «ماجور جنرال» ثم عين عام ١٨٧٣ قائدًا للحملة التي بعثت بها الى الحكومة الانكليزية لمحاربة الاشنتيين في افريقية فتغلب عليهم واسر ملكهم وعاد الى بلاده بالوية النصر فرفعت الملكة رتبته واجلّت قدره واعلت شأنه فجعلته «قائمقام جنرال» وعين لهُ مجلس النواب ستمائة واثنين وخمسين الف فرنك راتبًا سنويًا

ولما انتشبت حرب الزولوس عين قائدًا عامًا للجيش الانكليزي فقمع الثائرين واسر ملكهم واعادهم الى عهد الطاعة

وفي سنة ١٨٨٢ (سنة الغرائب وسنة حوادث هذا الجزء) اتى مصر قائدًا عامًا للجيش الانكليزي فبدد شمل العرابيين على ما سيجيء بيانهُ ودخل بجيشه عاصمة البلاد المصرية ظافرًا منصورًا

فمن هذا البيان اليسير من تاريخ حياتهِ يتضح ان البلاد الافريقية كانت مقر اعماله الحربية ومنبعث نور شهرتهِ العسكرية

وبعد وصوله الى الاسكندرية نشر الاعلان الآتي فقال:

بامر الحضرة الخديوية

اعلان الى جميع المصريين

يعلن الجنرال ولسلي قائد الجيوش الانكليزية ان الدولة البريطانية لم تقصد بارسال التجريدة العسكرية الى القطر المصري الا تأييد سلطة الجناب الخديوي فجنودنا لذلك لا تقاتل الا من كان شاكي السلاح خالعًا لطاعة الخديو اما سائر الاهالي الذين يكونون في هدوء وسكينة فيعاملون بالتؤدة ومقتضى الشعائر الانسانية فلا يمسهم اذىً بل سيحترم دينهم وتصان مساجدهم وعائلاتهم وما يلزم للجيش من زادٍ وغيره يؤدى

---

(١) تعرف هذه المدينة من اهم مدن المملكة الانكليزية وهي فسيحة الجوانب واسعة الارجاء تحتوي على ٢٥٠٠٠٠ نسمة من السكان

ثمنهٔ ولذلك ندعو الاهالي الى تقديم ما لديهم ما يحتاج اليهِ الجيش

ثم ان الجنرال قائد الجيوش يسرُّ كثيرًا ويشرح صدرًا من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم ممن يود المساعدة في قمع العصيان: والقاء القبض على العصاة الذين عقوا الجناب الخديوي امير البلاد وواليها الشرعي المعين من لدن الحضرة السلطانية

الاسكندرية في ١٩ اغسطس سنة ٨٢

الامضاء الجنرال غارنت ولسلي
قائد الجيوش الانكليزية في
الديار المصرية

الخاتمة

(وفيها ذكر بقية الحوادث اليومية)
(والوقائع الحربية وقدوم رياض)
(باشا ووزارة شريف باشا)
(وانحلال التل الكبير)
(والقبض على العرابيين)
(ودخول الانكليز الى)
(مصر وذكر بعض ما)
(نُظم في خراب)
(الاسكندرية وسبر)
(تلك الاحوال)

فصل

نبتدئ في هذه الخاتمة بسرد حوادثها اليومية من اواسط شهر اغسطس سنة ١٨٨٢ وننتهي بها الى ١٥ سبتمبر من السنة المذكورة جريًا على حكم المعين لهذا الجزء من حوادث تلك الايام فنقول

بعد ان نشر الجنرال ولسلي اعلانه زحف الجيش الانكليزي على المواقع العرابية مستطلعًا مستكشفًا وقد استصحب قطارين مشحونين بالذخيرة تخفرها فرقة من طلائع الجيش وفرقة من الخيالة وكان في الرملة عدد من الجند الانكليزي فترك مواقعه وسار متقدمًا ليساعد الجيش في الاستطلاع

فلما رأى عرابي طلائع الجيش الانكليزي مقبلةً على مراكزه ظنّ انه حامل عليه حملة عمومية فجمع جنوده وامرهم بالاندفاع على الانكليز كرةً واحدة ففعلوا واخذوا يطلقون المدافع على الانكليز فاشتبك الفريقان بقتال عنيف ولكنه لم يمس الانكليز باذىً وبالرغم عن ذلك استمر الانكليز متقدمين في طريقهم الى ان بلغوا مقتربات المحلة حيث تمكنوا من استكشاف مواقع العرابيين وسبروا غور قوتهم ثم انقلبوا عائدين الى مراكزهم بدون ان يتكبدوا اقل خسارة

وفي اليوم التالي قاموا بحركةٍ اخرى استطلاعية فيما امام الرملة فاطلقوا بعض طلقات من المدافع وكان قوم المستطلعين معززين بفرقة من الايكوسيين الذين انتشروا اذ ذاك في السهل الواقع بين الرملة والترعة فاقتتلوا مع العصاة بمناوشة لم يكن لهم فيها خسارة تذكر

اما خسائر العرابيين فكانت جسيمة بالنظر الى خسارة الانكليز ولكنهم اعتصموا بعد هذين الواقعتين بعرى المكابرة فارسل عرابي الى وكيل

الجهادية التلغراف الاتي . قال :

(ان ينصركم الله فلا غالب لكم)

انتشبت الحرب بيننا وبين العدو في الساعة ٩ من هذا اليوم ٤ شوال سنة ٩٩ وكانت قوته مركبة من نحو عشرة الاف منهم جانب حضر في اربعة قطارات بالسكة الحديدية من جهة القباري وفي كل قطار ثلاثة عربات فيها مدافع وعدة قولات حضرت من جهة المحمودية وحجر النواتية والرمل ومحطة السيوف مؤلفة من مشاة وخيالة وطوبجية في القره قولات الامامية فلما صارت القطارات بالقرب من المقدمة اطلق عليهم احمد افندي فضلي اليوزباشي مدفعًا فجاوبته مدافعهم من جانب السكة الحديدية ومن طابية الرمل وهنالك انفتحت افواه مدافعنا من الطابية وقابلتها مدافعهم من القولات وطابية الرمل والسكة الحديدية وعقد الدخان سحابًا في جو الميدان وقد وصلت قنابلنا الى عربات القطار الاول وانفجرت فيها واتلفت كثيرًا منها بمن فيها حتى اضطر العدو الى رفع مدافعهِ وعودته مع باقي القطارات الى القباري وفي اثناء هذه الحركة اقترب مشاتهم وخيالتهم حتى صاروا برأى العين من عساكرنا وتحت نيراننا وهنالك قامت الحرب على قدمٍ وساق واظهرت عساكرنا ما بتخريهِ كل مصري حتى اذا تقهقر العدو هجمت عليهِ خيالتنا وخمسمائة من خيالة العربان المشاة فانقضوا عليهِ كالسيل المنحدر حتى ادخلوه الاسكندرية وكان خيالتنا والعربان على شكل « جرخهجي » منتظم

وقد انتهت الحرب في الساعة ١٢ غروبًا فكانت مدتها ثلاث ساعات وقد رأى سعادة طلبه باشا قومندان الفرقة من الميرالايات والقائمقامات والبكباشية والضباط والعساكر والعربان ما يسر كل مصري ويكمد كل عدو اذ كانت العساكر تعدو خلف العدوّ لا تبالي بالنيران ومشاة العرب يسبقون الخيالة جريًا وكان في ساحة القتال مع سعادة القومندان سعادة رضا باشا وحضرة مصطفى بك عبد الرحيم وحضرة عيد بك وحضرة احمد بك عبد الغفار حكمدار السواري وحضرة احمد بك عفت القائمقام وحضرة سليمان بك سامي قائمقام وحضرة بدوي بك حكمدار برنجي طوبجية وكان سعادة طلبه باشا قد رتب الصف الاول ترتيبًا بديعًا ووضع الحكمدارية في نقطهم عندما ترآى لنا ان العدو يهيئ جميع قوته للقتال بها وخسائرنا قليلة جدًا اما خسائر العدو فكانت كثيرة فان حركة الهجوم كانت شديدة عليهم وقد تبعهم العساكر والعربان في الطرقات وتحت النخيل فكانت هزيمتهم عبارةً عن تبديد وتشتيت . والله يؤيد بنصرهِ من يشاء

فصل

وكانت المديريات تتابع في كل يوم ارسال الرجال الى المعسكرات العرابية فمنهم من كان يصلح للخدمة العسكرية ومنهم من كان ذا عاهةٍ تمنع من الخدمة فداخل عرابي الريب في امانة المشايخ واشاع ان المشايخ والمامورين الذين عينوا لفرز الانفار قد ارتكبوا الغش والخديعة فارسلوا الينا رجالاً لا يصلحون للخدمة ثم عين احد الضابطان وارسلهُ الى بعض المديريات للتحقيق

فصلٌ

وكان قد سبق ذلك من الوقائع اليومية ان قُبض على علي راغب احد ملازمي الجرية العرابيين وسيق الى مجلس عسكري للمحاكمة فصدر الحكم عليهِ بالاشغال الشاقة مدة خمس عشرة سنة

وقُبض ايضًا على احمد العوام وكان من الخطباء ايام التظاهرات العرابية

وحلَّ الانكليز في مدينة السويس من غير ان يلقوا اقل مقاومة

وعاد الى طاعة الخديو بعض الجند الذين كانوا منحازين الى عرابي

وعاد كثيرون من المهاجرين الى الاسكندرية واخذوا في تبادل صلات الاشغال

وصدر الامر الى سفينةٍ حربية فرنسوية بالذهاب الى المياه السورية استدراكًا لما كان يخشى البعض حدوثه فيها صادرًا عن الدسائس العرابية

وجاء في تلغراف ان الوزارات الاوربية اتفقت على تكليف المؤتمر بالنظر في مسألة حماية ترعة السويس ووضع حدٍ لها وذلك بناء على طلب الحكومة الايتاليانية

وقرر مجلس النظار ان لا تؤخذ رسوم الجمارك عما يرد للانكليز من المهمات والذخائر

وقرر ايضًا ان يعين راتب ونصف راتب للعساكر الذين نبذوا طاعة عرابي وانحازوا الى مولاهم الخديو وجعل هذا القرار شاملاً لكل من اراد الرجوع الى الطاعة وكان ذلك بناء على طلب عمر باشا لطفي

وكان كثيرون من رجال عرابي المقاتلين لا يعرفون من يقاتلون بالنظر الى انقيادهم الاعمى لعرابي واعوانه حتى ان بعضهم سئلوا بعد المناوشات الاولى عمن يحاربون فكانوا يجيبون (اننا نحارب المسكوب)

وفي ٦ اغسطس صدق مجلس شركة الترعة على حجة الموسيو دي لسبس في شأن حيادة الترعة .

وكانت تمر تلك الحوادث والامن مستتب في القاهرة بالرغم عن المذابح التي حصلت في طنطا والمحلة الكبرى وغيرهما

وكان كثيرون من الجنود العرابية يأتون معسكر الانكليز شاكين من سوء المعاملة ملتمسين قوتًا ورفقًا بحالهم

واعلنت الحكومة انها تعاقب باشد العقاب من يجترأ على شراء المنهوبات

واطلقت الدارعة « سوبرب » خمسة مدافع على قومٍ من العصاة كانوا مجتمعين بالقرب من قرية السيوف فبددت شملهم واُطلقت ايضًا بضعة مدافع برية في جهة الملاحة حيث كان بعضهم ضاربين

وصرفت الحكومة الخديوية منذ ذلك الوقت همها وعنايتها الى مسألة التعويض على ما مرت الاشارة اليهِ في فصلٍ سابق وكان الخديو يؤكد لسائليه انهُ لا بد من التعويض فكان الجميع يثنون عليهِ

وصدر امر الوزارة النمسوية الى مدير بوسطتها في الاسكندرية بان يصرف لمستخدمي البوسطة راتب ثلاثة اشهر علاوةً على راتبهم المعين وان يكافأ كل منهم فيما عدا ذلك بخمسة

وعشرين في المئة علاوةً على رواتبهم الشهرية

وورد تلغراف ينبئ ان السير شارل ديلك قال في مجلس العموم ان ليس للمؤتمر حق المراقبة على اعمال انكلترة الحربية في ترعة السويس

وأُخذ في البحث والنظر في امر مد سكة حديدية على طول خط الترعة

وكان عرابي يشيع بين قومه انهُ يقاتل باسم امير المؤمنين فلما علم بعض رجاله انهُ ينتظر قدوم جنود عثمانية الى مصر اعلن انهُ يستسلم لهم ويكف عن القتال

واهتمت الحكومة بمنع بعض الاشقياء من العودة الى الثغر وبالقبض على من كان يعود اليهِ ويعرف انهُ كان من مرتكبي المنكرات

وانعم الخديو على الاشخاص الاتية اسماؤهم بالنياشين المختلفة وهم الذين بدت لديه منهم عواطف الاخلاص من الضباط الذين خالفوا امر عرابي ولم يأتوا امرًا منكرًا في قصر الرمل من نحو الهجوم على الخديو وسائر اهل القصر على ما سبق لنا بيانه في فصلٍ سابق فرأينا ان ندون اسماءهم في هذا المقام وهم

منيب افندي البكباشي (النيشان المجيدي الثالث)

عبد الرحمن افندي نصر صاغقول اغاسي (النيشان العثماني الرابع)

بكير افندي كامل (النيشان المجيدي الرابع)

ابرهيم افندي قدري . .

صبري افندي . .

عوض افندي . .

ابرهيم افندي انسي (النيشان المجيدي الخامس)

محمد افندي ثاقب . .

محمد افندي رجا النيشان المجيدي الخامس

السيد افندي التقي . .

السيد افندي اسمعيل . .

احمد افندي واصف . .

محمد افندي طلعت . .

احمد افندي حسين . .

محجوب افندي . .

السيد حبيب افندي . .

وصدر الامر بتوقيف جريدة الفسطاط ثلاثة اشهر لانها حرَّضت على الكفاح والمقاومة ثم أُلغيت بعد ذلك ولم يظهر لها اثر

واخذ المغفور لهُ سلطان باشا في الاهتمام باحباط مساعي العرابيين على ما سيجيء الكلام عليهِ في مكانهِ فكان العرابيون واخصهم عبد الله نديم يشيعون عنهُ اخبارًا كاذبة من مثل انهُ اصيب بمرضٍ عضال ونحو ذلك وكانوا يتوقعون ان تمسهُ يد الشر باذًى تشفيًا منهُ وانتقامًا

وكان الخديو اثناء تلك الاحوال يتلقى الوفود من اعيان الانكليز ورؤساء جندهم ويتداولون كل يوم في المسألة وكان السير مالت لا ينقطع كل يوم عن زيارته واستشارته في الامر

وعين في خلال تلك الحوادث رؤوف باشا محافظًا لمدينة السويس

وكان عرابي عاملاً على اثارة خواطر مسلمي الهند وبث الدسائس بينهم فورد الى جريدة التيمس من مراسلها في كلكوتا رسالة عرَّبها يومئذٍ الموسيو شكري خوري ترجمان قنصلية دولة انكلترة في الاسكندرية وهي هذه بنص تعريبها

قال مراسل التيمس . بعث الحيّ العالم

العلامة الفاضل السيد امير علي احد اعضاء مجلس بنقال وكاتم اسرار الجمعية الاسلامية الوطنية باللائحة الاتية فاثرت ارسالها اليكم لتنشر لانها توضح اخفاق مساعي عرابي باشا في اثارة خواطر المسلمين سكان الهند . قال العلامة

لا شك ان الحوادث الجارية الان في القطر المصري نبهت اذهان مسلمي الهند ولكن هذا الانتباه ليس الاَّ لتتبع تلك الحوادث والاطلاع عليها ولا يمكن ان يقاس بما حصل هنا من الهياج اثناء الحرب بين الدولة العلية وروسيا وذلك لان اكثر مسلمي الهند اي جميع الحنفيين وجزءا كبيرًا من سائر المذاهب السنية يعتبرون الحضرة السلطانية خليفة الرسول (صلعم) وامير المؤمنين ولذلك حسبوا عدوان الروس للحضرة السلطانية اعتداء على الاسلام اجمعين واما عرابي باشا فانهُ بعصيانه لاوامر الخليفة قد نفر عن نفسه جميع المسلمين ولم يبقَ لهُ اي حق في انعطاف احدهم اليهِ . وتجرؤه على اعلان الجهاد بدون امر صريح من الخليفة يعتبر عند المسلمين على اختلاف مذاهبهم خروجًا واضحًا او جنونًا بينًا ولا يخفى ان بين السنيين والشيعيين اختلافًا اصوليًا في امر الجهاد فان الشيعيين حرَّم عليهم الجهاد حتى ظهور المهدي او الامام الثاني عشر ولذلك لا يحفل الشيعيون الهنود بنداء عرابي باشا بالجهاد لان نداءه ليس مبنيًا على اساس شرعي ولا مستندًا الى سلطة حقة والسنيون يعبثون بندائه ويعتبرونهُ متعديًا على حقوق الخليفة المقدسة منتحلاً مزاياه ومن تعدى حقوق الخليفة وانتحل مزاياه لاينالهُ من المسلمين عمومًا الاَّ الخزي والاحتقار

وجاء في ختام ذلك التعريب ما نصه .

ان عظمة ملكة بهوبال جعلت عساكرها معدة لخدمة الحكومة الانكليزية اذا شاءت استخدامها في مصر وعرضت ان تقدم نفقاتها بتمامها اما الحكومة الانكليزية فلم تقبل طلبها لاستغنائها عن اي مساعدة . اه

فصلٌ

(وقائع ٥ و٦ و٧ شوال)

وظلت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العصاة في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرابيين ولقوا منها مقاومةً ما قابلوها بقوة السلاح فتولي الادبار تاركةً في ساحة العراك من يجرح منها فينقله الانكليز الى معسكرهم ويعتنون بامره اما القتلى فكانوا يدفنونهم اذا وجدوهم قليلي العدد

وفي يوم الاحد الواقع في ٥ شوال سنة ١٢٩٩ و ٣٠ اغسطس سنة ١٨٨٢ حصلت بين العرابيين والانكليز واقعة في كفر الدوار استمرت ساعتين وكان فيها عدد العرابيين ضعفي عدد الانكليز فاشتدت بين الفريقين الحرب وظهرت على وجوه العرابيين اثناءها علائم الانفشال وكان ضباط اركان الحرب الانكليز يراقبون حركات العصاة بالنظارات المعظمة

وكان الانكليز قد تقدموا صفوفًا منتظمة نحو مراكز العصاة فاصلاهم العرابيون في بادئ الامر نارًا حامية ولبثوا مستقرين في مراكزهم ثم انتشر الانكليز في مراكز متفرقة واخذوا يهجمون على العرابيين هجومًا متقطعًا ثم ضيقوا عليهم مذاهب الفرار فاوقعوا بكثيرين منهم

وقد انجلت تلك الواقعة عن تقهقر قسم عظيم من العرابيين وانقلابهم الى تل الوادي ابتغاء تعزيز معسكره والتحصن فيه

وقد حلت عساكر الانكليز بعد ذلك في عدة مواقع من مواقع العصاة بعد ان قتلوا منهم ١٦٨ رجلاً واسروا ٦٢ .

وفي يوم الاثنين الواقع في ٦ شوال اندفع الانكليز على العرابيين من جهة الرمل واطلقوا عليهم نار المدافع فاشتبكوا بقتالٍ استمرَّ نحو ساعةٍ ونصف ساعة وقد انجلى عن انقلاب الانكليز الى مراكزهم بعد ان غنموا من العرابيين شيئًا غير يسير من المدافع والذخيرة وقد اصيب في هذه الواقعة بعض من ضباط العرابيين على ما رواه بعض المحققين

وفي يوم الثلثا الواقع في ٧ شوال و٢٢ اغسطس اقتتل الفريقان في كفر الدوار اقتتالاً عنيفًا تعزز فيهِ جند الانكليز بنجدة أُرسلت اليه على قطارٍ مخصوص وكان الفوز لهم بان جعلوا العرابيين مضطرين الى النكوص على الاعقاب والتربص بامرة طلبه عصمت في مواقعهم متوقعين غير فرصةٍ

اما العرابيون فكانوا يكتبون بعد كل قتال الى العاصمة ومراكز المديريات بما كانوا يثبتون بهِ الفوز لهم والاستظهار على الانكليز حتى انك لو تدبرت اقوالهم ومنشوراتهم من يوم انتشبت الحرب الى يوم انحلال التل الكبير لرأيتهم ظافرين في كل الوقائع فائزين في كل حركةٍ حربية كانوا يقومون بها فمن ذلك ما كتب بهِ عرابي الى وكيل الجهادية في شأن تلك الوقائع . قال

(ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)

في هذا اليوم (الاحد ٥ شوال سنة ٩٩) روئي العدو يرتب عساكره من الساعة السادسة فرتب سعادة طلبه باشا قومندان الفرقة عساكرنا بهيئة مؤلفة من اربع اورط من الجهة الشرقية تحت حكمدارية حضرة عيد بك وحضرة احمد بك عفت واربع اورط من الجهة الغربية تحت حكمدارية حضرة مصطفى بك عبد الرحيم وحضرة سليمان بك سامي والسواري والعربان تحت قومندانية حضرة احمد بك عبد الغفار وفي الساعة التاسعة ظهر العدو مرتبًا قولاته من ستة قولات من الجهة الشرقية وقولين من الجهة الغربية وقطارين من طريق القباري ثم ابتدأ الضرب بمدافع الطرفين واستمر ساعتين

وكانت نيراننا تتقدم تحت نيران الطوبجية وعند ما صار العدو تحت مقذوفات البيادة ابتدأ اطلاق النار من الفريقين واحتدمت الحرب وتوالى اطلاق النار الى منتصف الساعة الاولى من الليل فلما رأى العدو ثبات عساكرنا واقدامهم بالشجاعة والحركات النارية السريعة ولى منهزمًا فتبعتهُ السواري والعربان واوقعت بهِ حتى ادخلتهُ في نخيل الرمل وقد اتلفت منهُ مدافعنا وبنادقنا عددًا كثيرًا واستشهد من رجالنا واحد ولله در طوبجيتنا فقد اظهروا من المهارة ما ترك كثيرًا من رجال العدو صرعى في ميدان القتال

وقال . في الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم (الاثنين في ٦ شوال سنة ٩٩) حضر العدو بقولات من جهة الرمل وابتدأ اطلاق المدافع من الفريقين وكان مشاتنا يسيرون تحت

بران مدافعنا وقبل ان يصلوا الى مواقع المقذوفات تقهقر العدو واستمر اطلاق المدافع الى الغروب وعند ما رأى العدو نيران مدافعنا مؤثرة فيهِ تأثيرًا عظيمًا انهزم وعادت عساكرنا والوية النصر تخفق على رؤوسهم ولم يصب واحد منهم بسوءٍ وقد تحقق من استكشافات هذا اليوم ان العدو ترك كثيرًا من القتلى في ميدان امس

وقال في ٧ شوال الموافق ٢٢ اغسطس

صورة ما ورد لنا بالتلغراف من سعادة طلبه باشا قومندان فرقة كفر الدوار

بعد ان ظهر العدو ورتب عساكر من خطوط (جرنجيه) ثم طوابير ثم قولات الف الطوابير ونقدم حتى صار تحت نيران مقذوفاتنا ابتدأت الحرب في منتصف الساعة الحادية عشرة واشتغلت طوبجيتنا بمهارة عظيمة حتى بددتهُ وشتتهُ تحت النخيل ثم ما زالت نيراننا تقفو اثره حتى انهزم شر هزيمة وقد رأيت قنابلنا تنفرقع في وسط طوابير العدو وقولاته فتهلك الكثير من رجاله وكانت اصوات عساكرنا مرتفعة بالتكبير والتحميد ومشاتنا يتقدمون تحت نيرانه ولكن العدو لم يتمكن من الدخول في نيران البنادق لتأثير نيران مدافعنا فيهِ ولقد رأيت من مهارة طوبجيتنا واصابتهم في النيشان ما ابهجني وملأني سرورًا وزدت سرورًا بهم عند ما رأيت (جبه خانة) العدو قد التهبت واصابت كثيرًا من رؤسائهم ثم شاهدت في طابية الرمل كثيرًا من الذوات وكبار الافرنج يتفرجون بالنظارات ثم في منتصف الساعة الاولى من الليل انتهت الحرب وولى العدو على غير انتظام

فبشروا من تحت ادارتكم بتأييد الله ونصره للعساكر المصرية وما يظهرونهُ من الثبات وتبديد العدو الباغي . اه .

فصلٌ

(استعفاء وزارة راغب باشا)

(وتشكيل وزارة شريف باشا)

وبعث سير تلك الاحوال وزارة راغب باشا على الاستعفاء فاستعفت واستقدم الخديو رياض باشا من اوربا حيث كان متغيبًا فقدم في اواسط شهر اغسطس ٨٢ وبعد قدومهِ دعا الخديو شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة برئاسته فلبى الدعوة واجاب فرفع اليهِ العريضة الاتي نصها . قال .

مولاي

اعرض لسموكم ان استدعاءكم اياي لتشكيل وزارة جديدة في مثل هذه الظروف انما هو دليل على استدامة ثقتكم فيَّ وانني بالامتثال لامركم الكريم ابرهن على اخلاصي لوطني ولذاتكم السامية .

ان المبادئ التي عرضتها على سموكم منذ سنة لا تزال موضوع اهتمامي فان غايتنا هي نجاح الوطن ماديًا وادبيًا واما الوسائط التي يلزم اتخاذها لذلك فهي تعميم المعارف ونشر لواء العدالة وتوسيع نطاق المبادئ الحرة الملائمة لهيئتنا الاجتماعية والسياسية وكما انهُ لا يلزم ان نتجاوز حدود لوائح دسمبر كذلك لا ينبغي ان نحذف منها شيئًا

ومن الواجب ان تتجه كل خواطرنا الى موضوع واحد وهو صيانة البلاد وعليهِ فانني استدعي للاشتراك في ذلك كل ذي نيرة وقلب

مصري مخلص لذاتكم الشريفة

وساعرض عما قليل لحضرتكم اسماء نظار الهيئة الجديدة للتصديق عليها

فاقبلوا مولاي فائق احترامي وانني اتشرف بان اكون لسموكم الخادم المطيع والامين المتواضع

التوقيع (شريف)

فاجابهُ الخديو بالكتاب الاتي نصهُ :

عزيزي شريف باشا

ان استدعاءنا اياك في مثل هذه الظروف لتشكيل وزارة جديدة مبني على اخلاصك وحبك للوطن اللذين لنا فيهما كل الثقة

اننا نوافق تماماً على المبادئ التي عرضتها علينا ومن الواجب ان تجه جميع الافكار والقلوب الى موضوع واحد وهو استئناف تقدم البلاد ادبيًا وماديًا . واننا واثقون نظيرك بان الواسطة الفعالة للحصول على هذه الغاية المرغوبة هي تعميم المعارف ونشر لواء العدالة وتوسيع نطاق المبادئ الحرة الملائمة لهيئة البلاد الاجتماعية والسياسية ونرى ايضًا انهُ لا بد في زمن الاضطراب من انتشار سلطتنا على الشعب وادارة الاعمال انتشارًا اكثر قوةً ووضوحًا ولذلك فاننا نستدعي عند الاقتضاء التئام مجلس النظار برئاستنا للبحث في المسائل المهمة خارجية كانت اما داخلية وبما ان لنا السيادة العليا على القوات البرية والبحرية فتنفيذ اوامرنا يجب ان يتم بدون ان تمس اختصاصات ناظر جهاديتنا

ولا نشك يا وزيري العزيز انك توافق افكارنا في كل هذه المبادئ ولنا الامل الوطيد ان وزارتك ستهتم بان تفتح للبلاد عصرًا جديدًا وتشترك في رفعها الى اعلى ذرى التقدم والفلاح

واعتقد ان عواطفي نحوك هي عواطف اعتبار تام وحسن مودة واخلاص

التوقيع توفيق

ثم تم تشكيل الوزارة على الوجه الآتي :

شريف باشا رئيس النظار وناظر الخارجية

رياض باشا للداخلية

عمر باشا لطفي للجهادية والبحرية

حيدر باشا للمالية

علي باشا مبارك للنافعة

خيري باشا للمعارف

فخري باشا للحقانية

زكي باشا للاوقاف

فصل

(ارادة خديوية)

وقد تلا تشكيل هذه الوزارة ان ترعة السويس عادت الى حالها السابقة من الامن وصرَّح الموسيو دي لسبس ان انحيازه الى عرابي لم يكن ناشئًا الاَّ عن خوفهِ من ان يضر العرابيون بالترعة فلما رأى قوة الانكليز كافية لوقايتها اقلع عن ذلك الميل

وانصرفت عناية الوزارة الى اتخاذ الوسائل الشافية للبلاد من داء الثورة وكان سلطان باشا يجول أكناف البلاد ويجتمع بعمدها ومشايخها ورؤساء العربان ويحضهم على مخالفة عرابي والرجوع الى طاعة الخديو ويوضح لهم ان سيأتي العرابيين يوم يسقطون فيهِ من اعلى قمم الاستكبار الى حضيض الندم فكان كثيرون يذعنون لمشوراته وينقادون اليهِ انقياد المتبصر في الامر

والمعتبر بما كان يلقى العرابيون من الفشل والتاخر يومًا بعد يوم

وفي غضون ذلك اصدر الخديو الارادة السنية الاتي نصها

(الى جميع اهالي وسكان القطر المصري)

ليس خافيًا ما اقدم عليهِ احمد عرابي وشيعته الضالة من الافعال المغايرة والتشبثات الفوضوية التي اخلت بنظام القطر واضعفت الثقة بهِ بل اورثتهُ الخسائر والاضرار الجسيمة ولاسيما بانضمام الجيش المصري اليهِ واتحادهم معهُ في البغي والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الاحوال وخيفت العاقبة فبادرت الممالك العظيمة الى عقد المؤتمر الدولي بالاستانة لنظر في المسألة وتقرير ما يحلها وبالبحث والمذاكرة في ذلك استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التي يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هولاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول اسباب المفاسد حرصًا على عمارية القطر واحترازًا ما عسى ان يلم بهِ من الدمار ولما كانت الدولة البريطانية الانكليزية لها فيهِ المنافع الكبرى ولاسيما بالنظر الى ترعة السويس التي هي طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة فقد اخذت على عهدتها وتحت امرتها التداخل الفعلي لقمع هولاء المفسدين ومحو آثار الفتن دون ان تمس حقوق السلطنة السنية ولا الامتيازات المصرية ولتحققنا ان نيتها ومساعيها في الظاهر والباطن ليس الأ الاصلاح ولا غاية لها في الاستيلاء على البلاد ولا الفتك باهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك ما يذيعهُ العصاة تنفيرًا منهم للعامة وتبغيضًا لهم في الامة الانكليزية على حسن مقاصدها المذكورة ولا يزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدي لزيادة الخراب حتى اعترفتهم السلطنة السنية عصاة مخالفين للاحكام الشرعية فاستدراكًا للامر ومراعاةً للمصلحة العمومية قد رخصنا لحضرة القائد العمومي للجيش الانكليزي بالتجول نحو جموع العصاة واستعمال الوسائط القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤوسهم لمقاصتهم بما يستحقون من اشد العقاب

وبما ان العساكر الانكليزية يعدون في هذه الحالة نائبين عنا في قطع دابر المفسدين وتطهير البلاد منهم ليعود الامن والراحة ويزول الشقاء عن العباد ومن كانت هذه صفتهم فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ولا ريب من جهتهم بوجه من الوجوه فينبغي ان لا يرهب منهم احد ولا يظن فيهم سوءًا او مكروهًا وان لا يعاملوا بما يستوجب المنافرة بل على كل مصري يحب وطنه ويخشى خرابهُ ان يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر احد عن مساعدتهم في تقديم ما ربما يحتاجونهُ من المؤونة والعلوفة باثمانها السائرة التي هم مستعدون لادائها فورًا فمن فعل كذلك فقد وفى ما يجب عليهِ من حقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضاء الله ورضانا عنهُ فضلاً عما يراه منهم من المكرمة ومن ابى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التي لا تجديه نفعًا فقد عرض نفسهُ للتهلكة التي نهى الله عنها وتحققنا انهُ من العصبة الباغية فامره كأمرهم .

هذا واننا نحذر الناس جميعًا من سكان البنادر والبلدان وبالاخص المحروسة عن المهاجرة من بلادهم وانحيازهم الى العصاة طوعًا وكرهًا

منهم فيدهمونهم بما دهموا به اهل الاسكندرية عندما خدعوهم على اخلائها في اقل برهة وبخروجهم تمكن الباغون المنافقون من نهب المدينة واحراق اهم جزء فيها بغتةً فليعتبر العاقل بغيره

فعلى علماء وذوات وعمد ومشايخ البلاد ووجهائها وتجارها الذين نتوسم فيهم الخشية والسكينة والاخلاص الحقيقي لجانب الحكومة ويعز عليهم وطنهم ولهم الخبرة بالعواقب ان يذعنوا ويمتثلوا لاوامرنا هذه وينظروها بعين النصيحة المحضة لمصلحتهم ومصلحة القطر ويلزموا العامة باتباعها كيلا يتزعزعوا ويكونوا آمنين مطمئنين على انفسهم واعراضهم واموالهم من قبل العساكر الانكليزية فلا يمسهم ضرر ولا يلحقهم كدر ما داموا مجتنبين العصاة وهذا ما اقتضتهُ ارادتنا . اه .

فصلٌ

(تعريب الكتاب المرسل من شريف باشا)
الى القناصل

وبعد ان استقرت الوزارة الجديدة عادت مصالح الحكومة الى النظر في اشغالها وصدر الامر الخديوي بتعيين عثمان باشا عرفي مأمورًا للضبطية (وكان اذ ذاك برتبة بك) بدلاً من مصطفى بك صبحي الذي عين مأمورًا للدائرة البلدية ثم نظمت احوال البوليس وعين كثيرون من الاتراك والالبان في هذا السلك بدلاً من الحرس الوطنيين والمستحفظين وذلك بامرة الكونت ديلاسالا باشا الذي عني كثيرًا بامر تأييد الراحة ووقاية المدينة من الاسباب المزعجة فنهى السكان عن التجول في شوارع المدينة والخروج من المنازل بعد الساعة العاشرة من الليل (على الاصطلاح الافرنجي) ثم اصدر ناظر الجهادية والحربية الجديد امرًا بالبحث عن المستحفظين والقاء القبض عليهم وعلى سائر الجنود الذين توجه عليهم شبهة الاشتراك في فظائع القتل والنهب والاحراق

وفي ٢٧ اغسطس اي بعد صدور الامر بتشكيل الوزارة الجديدة ارسل شريف باشا الى القناصل الجنرالية الكتاب الاتي تعريبهُ :

قال

يا حضرة القنصل الجنرال

لقد استُلفِتَ نظر الحكومة الى العدد الكثير من الاجانب الذين اخذوا في الوفود على الاسكندرية وليس لهم من وسائل المعيشة ما يقيهم من شر الضنك والفاقة

فتوافد كثيرين منهم على الثغر يجعل لذلك اسبابًا تتوعد الراحة العمومية بالخطر خصوصًا وان المدينة في حالٍ من الافتقار الى الماء

ولذلك فحكومة الجناب الخديوي قررت ان لا يُقبل احدٌ ممن يفد على الثغر من الاشخاص الفاقدين لوسائل المعيشة المحتاجين الى القوت وهكذا جميع الفعلة الذين يأتون التماس الحصول على عمل يقوم باودهم ما لم يكونوا مقيدين مع اصحاب الاعمال بضمانات ومقاولات تمنع من تطوحهم الى ما ينشأ عنهُ الاخلالَ الذي تقدمت الاشارة اليهِ

واني لمعتقد يا حضرة القنصل انكم تعترفون بالضرورة القاضية باتخاذ هذا الاحتياط صيانةً للمصلحة العمومية وتشتركون في اعتبارها موضعًا للنظر ومحلاً للاجراء . اه .

فصل

اعلان من قنصلية انكلترة

وكانت مياه المحمودية في واقع الامر قد تناقصت الى درجة يخشى معها الخطر على سكان الثغر بالرغم عن مياه الصهاريج فعمدت قنصلية انكلترة الى اتخاذ الوسائط الفعالة فالصقت على شوارع المدينة الاعلان الآتي معرّبة وهو

ليعلم الجمهور انهُ ابتداء من ثامن وعشرين الشهر الجاري (اغسطس) لا يجري توزيع المياه بانابيب المدينة الا مرةً واحدة في كل ثلثة ايام وانهُ اعتباراً من ٣٠ الشهر يفتح في كل ثلثة ايام ايضاً صهريج واحد توزع مياهه على من يكون حاصلاً على التذكرة المعتادة وذلك من الساعة السادسة الى الساعة الثامنة صباحاً ومن الساعة ٩ الى الظهر ومن الساعة الثانية الى الساعة الرابعة بعد الظهر

ومن مؤدى ذلك الاعلان ما يأتي

كل تذكرة تكون صالحة للاستعمال مدة عشرين يوماً

اما مكتب التوزيع ففي سراي الحقانية واما خدمة توزيع المياه فستقوم بها قنصلية انكلترة

وسيعطى لمحافظة المدينة عدد كافٍ من هذه التذاكر قبل الشروع في توزيع المياه

اما الصهاريج الاربعة التي ستخصص مياهها لهذه الخدمة فهي

الصهريجان الكائنان في شارع باب رشيد (او باب شرقي) ازاء المدرسة المجانية

الصهريج الكائن قبالة محطة محرم بك

الصهريج الكائن تجاه منزل علي ابي الخير في جنوبي حصن كوم الناضوره (حصن نابوليون)

الاسكندرية في ٢٤ اغسطس سنة ١٨٨٢

فصل

استيلاء الانكليز على المحسمة وواقعة المسخوطة والقبض على محمود باشا فهمي

وفي ٤ شوال سنة ٩٩ الموافق ٢٢ اغسطس سنة ٨٢ اشتبك الانكليز مع العرابيين بين المسخوطة والاسمعيلية اثناء اشتغال العرابيين في انشاء الاستحكامات تجاه المسخوطة وكانوا قد تمكنوا من حجز المياه عن الاسمعيلية وبورسعيد والسويس فاقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً اشتركت فيهِ العربان ولكن الانكليز لم يكونوا لترهبهم وفرة العدد الكثير من الجند غير المنتظم فاوقعوا بهم واستولوا على مواقعهم ثم كر عليهم العرابيون فاخرجوهم من مركزهم ولكنهم استولوا عليها بعد قليل

وكان الانكليز قد استولوا على المحسمة وامست المسافة بينهم وبين التل الكبير عشرة اميال .

اما تفصيل موقعة المسخوطة ببيانٍ اجلى وشرحٍ اوفى فهو ان الانكليز بعد ان حلوا في المحسمة وتحصنوا فيها تجمع العرابيون بقوة الايين من المشاة وثلاث بطاريات من المدافع وعدد كثير من العربان وهجموا على مواقع الانكليز بامرة راشد باشا حسني

في ابتداء العراك قتل العرابيون رجلين من رجال المدافع الانكليز وخمسة افراس من خيولهم فاعقب ذلك اشتباك عام لزم فيهِ الانكليز خطة الهجوم وحاولوا قطع خط الرجعة على العرابيين فنجحوا في بادئ الامر واستولوا على بعض مواقعهم بعد ان كبدوا العصاة خسارة

نحو خمسمائة رجل وهزموا البقية فولى العصاة تاركين قتلاهم واسلحتهم النارية على ضفاف الترعة

وبينا كان القتال جاريًا وصل مصطفى باشا فهمي على قطار مخصوص لانجاد راشد باشا حسني وكان قد سبق ذلك ان تشدد العرابيون وكروا على الانكليز كرةً واحدة ابعدتهم قليلاً عن المواقع التي كانوا قد استولوا عليها فلما رأى القادة الانكليز ما كان اندفعوا عليهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا والجأوهم الى الانهزام

واتفق ان محمود باشا فهمي وصل الى ساحة القتال ساعة الانهزام ولم يكن بصحبته الا خادمة فناجاه الخيالة الانكليز والقوا القبض عليهِ واودعوهُ حجرة صغيرة اعدوها سجنًا لهُ

وفي اليوم التالي نقل الى الاسمعيلية وسيق الى مجلس الجنرال ولسلي فسألهُ الجنرال عما اذا كان ممن ولوا الادبار تاركين المعسكر بعد الموقعة او ممن دخلوا في الاسر قهرًا فاجابه اني اسير ولست منهزمًا

وفي اليوم الاول من سبتمبر (ايلول) نقل الى الاسكندرية على الباخرة «الفرات» الانكليزية وحجر عليهِ في قصر رأس التين

اما رواية العرابيين لتناصيل هذه الواقعة فقد جاءت ناقصةً لهذا البيان الصحيح على خط مستقيم فنحن ننشرها من باب المقابلة للنباء الصادق وبيان اغترارهم بما كان يدونهُ كتبتهم من الاخبار الكاذبة

قالوا :

نص تلغراف ورد من رئيس اركان حرب الجيش الشرقي بالمحسمة لوكيل الجهادية بمصر نهنيءُ سعادتكم بما حصل من الظفر في هذا اليوم على العدو في ميدان الحرب الكائن بين المحخوطه وبين الاسمعيلية وان جهة المحخوطة هي حذاء الاستحكامات الجاري تشغيلة وسبب حركة العدو في هذا اليوم هو بالنسبة لما اصابهُ من سد الترعة الحلوة وحجز المياه عن الاسمعيلية وبورت سعيد والسويس ورؤيته كثرة انفار العملية الموجودة في اشغال الاستحكامات خرج يوم تاريخه صباحًا من الاساعيلية باربع اورط پيادة واربعة مدافع جبلية وكثير من السواري ولم يكن موجودًا في خفر الاستحكامات الا اربعة بلوكات پيادة وبلوكان سواري ومدفعان جبليان وفي الحال توجه حضرة عبد القائد بك بالايه واورطة من الاي علي بك وحضرة محمود افندي الرشيدي باورطة سواري وبعد ان قابلتهم بلوكات الخفر والمدفعان والبلوكان السواري امدتهم العساكر وانتشرت العربان واستمر الحرب من الصباح لحد ساعة تاريخه حتى تزلزلت اقدامهُ ورجع الى الخلف الى ان وصل تلول الاسمعيلية واقتفت اثره عساكرنا المنصورة ولم يزل سعادة راشد باشا حسني وعبد القادر بك ومحمد بك عيد وسعادة خالد باشا في ميدان المحاربة وها هم على قدم الحضور وسنعرض عما حصل للعدو من الخسائر فبشروا سعادتكم سعادة ناظر الجهادية والبحرية والمراكز العسكرية وجهات اللزوم بهذا الخبر المسر ايدنا الله بفضلهِ وكرمهِ انهُ على نصرنا قدير وبالاجابة جدير

ولم تزل عساكرنا المنصورة تقفو اثر العدو حتى بددت شمله وهزمتهُ شر هزيمة ثم عادت الساعة ½ ١ ليلاً والوية النصر تخفق على رؤوسهم وعند ما بلغ سعادة حامي حمى الديار

المصرية ما ايدنا الله بهِ من النصر المبين ارسل تلغرافًا يهنئ بهِ سعادة الشهم الهمام راشد باشا حسني قومندان الجيش الشرقي وهذه صورتهُ

صورة تلغراف ورد من سعادة ناظر الجهادية والبحرية بكفر الدوار الى سعادة راشد باشا حسني قومندان الخط الشرقي بتاريخ ليلة ١٠ شوال سنة ٩٩ الساعة ٤٤ والدقيقة ٣٠ عربي

اهنئ سعادتكم والامة المصرية كما اهنئ نفسي بما ايدكم الله بهِ من النصر والفتك بالعدو الباغي فقد ملأتم القطر سرورًا بثباتكم العظيم وحليتم صحف التاريخ باعمالكم الحربية وليس بعجيب ان اراكم سائرين تحت الوية النصر في كل واقعة تبارزون فيها الانكليز اعداء الدين الانسانية بعد علي بانكم المديرون المحنكون وتحت ادارتكم اسود لا يعبأون بجيش العدو وان كثر لما وعدهم الله بهِ من النصر المبين وما غرس في قلوبهم من حب اوطانهم والدفاع عنها والحرب وان استمر ١٢ ساعة فانها ما كانت الاَّ ملعب فرسان تكتب فيهِ يد الفخر شرف المصريين بدم الانكليز لتكون آيةً يتلوها كل من مرَّ في ذاك الميدان على تعاقب الدهور فاقبلوا الشكر الجليل والثناء الجميل من مخلص اسكنكم في فؤاده فلا يتحرك حركة الاَّ وانتم في وجهتها كباقي الامراء والعساكر المصرية والعربان وبلغوا عنا سعادة محمود باشا فهمي وسعادة خالد باشا وحضرات امراء العسكرية والضباط والعساكر ومشايخ العربان مثل ما لسعادتكم من الثناء واجعلوا بين اعينكم قوله تعالى وكان حقًا علينا نصر المؤمنين والله خليفتي عليكم فانهُ نعم المولى ونعم النصير

فصل

واقعة القصاصين

وفي يوم الاثنين الواقع في ٢٨ اغسطس هجم العرابيون على مراكز الانكليز في القصاصين بثماني فرقٍ من المشاة واثني عشر مدفعًا ابتغاء الاستيلاء على سدود الترعة التي كانت في حوزة فرقة من الجيش الانكليزي بامرة الجنرال وكان العرابيون بعددٍ عظيم لم تقوَ عليهِ الفرقة الانكليزية فوردت اليها نجدة من المحسمة ثم اشتد القتال واستمر الى اوائل الليل فتشتت شمل العرابيين وتكبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الانكليز اما خسارة الانكليز فكانت قتيلاً واحدًا وستة جرحى من الضباط و١٩ قتيلاً و٥٢ جريحًا من الجند

وقد خط بنان الجنرال غرام التقرير الآتية ترجمتهُ بعد انقضاء القتال وهو

بينما كان جيشي مستقرًا عند سد الترعة في القصاصين اذ ظهر العدو في الصباح كأنهُ يروم الكفاح ففي الظهر اطلق العصاة علينا نارًا شديدة من مدافع العيار الاول فلم يلحق بنا اقل ضرر وفي الساعة الثالثة بعد الظهر امرت رجالي بالرجوع الى مراكزهم فعادت فرقة الخيالة الى المحسمة وكانت قد وفدت عليَّ امدادًا لي وانجادًا وفي الساعة الرابعة تقدمت نحونا فرقة المشاة الاعداء وحاولت التغلب على ميمنة جيشي واكراهه على الاستسلام فعند ذلك امرت فرقة الخيالة وفرقة المشاة بالتقدم نحو المحسمة وفي الوقت ذاته اشرت الى فرقة مشاة البحرية بالتقدم

والسير على طول خط الترعة الجنوبي قصد الوقوع بالاعداء عن جوانبهم فاتمَّ الكولونل تبزون هذه الحركات الحربية بتمام المهارة وكان رجالهُ يرمون العصاة بنارٍ لا تخطئ المرمى الاَّ فيما ندر

وفي الساعة الخامسة امرت الجنرال لاو بالحمل على ميسرة العدو بمن لدينا من الخيالة ففعل وفي الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والاربعين امرت الجيش بان يزحف على مواقع العصاة زحفًا عموميًا ثم وصلت الينا فرقة المشاة البحرية من المحسمة وتقدمت معنا مسافة فرسخين او ثلثة فلما رآنا الاعداء على هذا الانتظام واتخاذ اساليب التضييق عليهِ رجعوا الى الوراء وفي الساعة الثامنة اتصل بي خبر فوز فرقة الخيالة وبعد ذلك بثلاثة ارباع الساعة عدت الى معسكري ناعم البال

وكان رجالي تحت نيران العصاة في ثبات تام وقد امتاز منهم مشاة الليوتنان بيكوت وهو ضابط ماهر شجاع اصيب مع الضابط ادوار بجرحٍ بالغ وكان مدفعيو القبودان توشر يطلقون المدافع اطلاقًا محكمًا

وقد ظهر لي ان قوة الاعداء كانت موَلفة في هذه الواقعة من الف خيال وثمانية الاف من المشاة

وقد كان هذا التقرير بما ايدتهُ قرائن الاحوال وانباء المخبرين الثقاة مقارنًا للصحة منطبقًا على الواقع خلافًا لما اشاعه العرابيون ونشر في جريدة الطائف على لسان عبد الله نديم اذ قال ما نصهُ

جعلت الحرب سجالاً بين المتحاربين فاحتاطت مراكب الانكليز بعساكرنا في المحوطة امام الاسمعيلية يوم الجمعة ١٠ شوال الحاضر بعد ان اذاقهم عساكرنا كاس المنون يوم الخميس وكان في وسط عساكرنا ٦ الاف يشتغلون في الاستحكامات فلما نزلت عليهم مقذوفات العدو تشتتوا وتخللوا العساكر فعاقوهم عن الحركة وعلا صياحهم في وجوه العساكر فلم تتمكن العساكر من الضرب لامتلاء الميدان بهم حتى فجاءَهم العدو برجاله فلم يجدوا بدًا من الرجعة فرارًا من تمكنه منهم فصاروا يضربون ويرجعون حتى تخلصوا من شرك العدو وعندما بلغ الخبر عرابي باشا اقسم ليذيقنهم عذاب الهون مستعينًا بحول الله وقوته وقام من كفر الدوار الى رأس الوادي وحضر من مصر علي باشا فهمي وعند وصولهما الى معسكر راس الوادي اتما ترتيب الجيش ومواقع الاستحكام في ٢٤ ساعة وفي الصباح حضر من كفر الدوار احمد بك عبد الغفار ثم عقد مجلس حربي برئاسة عرابي باشا وتقررت فيهِ هيئة الهجوم على العدو وعرف الروساء كيفية ترتيب الجيش وسيره ثم في ليلة الاثنين سهر علي باشا فهمي في تهيئة العساكر وتعيين النقط واعطاء التعليمات الى الضباط وفي الصباح وقفت العساكر على هذا الترتيب في الجناح الايمن بعد ترعة الاسمعيلية اورطة من البيادة واورطة من السواري وجانب من العرب وفي هذا الجناح من يسار الترعة ٣ اورط من البيادة خلفها ٦ مدفعان واورطة امداد وهذا الجناح تحت حكمدارية احمد بك فرج وفي القلب ٨ مدافع من الكروب خلفها ٣ اورط من البيادة ثم ستة مدافع امداد وهذا القلب تحت حكمدارية علي باشا فهمي والطوبجية

تحت حكمدارية حسن بك رأفت وفي الجناح اليسار ست اورط من السواري تحت حكمدارية احمد بك عبد الغفار بصحبها اورطتان من البيادة ومدفعان تحت حكمدارية عبد بك ثم تقدمت اورطة اخرى من السواري وسارت في الصباح الى جهة العدو تكشف حالة وتناوشة وفي الساعة ٢ من يوم الاثنين ١٢ شوال ابتدأت مدافع مقدمتنا تضرب مقدمة العدو وسار هذا الجيش تحت قومندانية راشد باشا حسني وقد شغلت بيادة الميمنة نحو ستمائة متر وشغل القلب نحو ثلثمائة متر وشغلت الميسرة نحو الف متر وقد اقام حامي حمى مصر في الحذاء الثاني يلاحظ الحركة وينجز المطلوبات ويوالي الامداد من العساكر والجبه خانات والمياه وصحب هذا الجيش العظيم خادم المصريين (نديم)

فسرنا في الفضاء المتسع ومقدمتنا من السواري والطوبجية تضرب مقدمات العدو وتزحزحها من مراكزها حتى قطعنا ستة الاف متر ووقفنا برهة فيها وسقيت الخيل واستراحت العساكر ثم قمنا قاصدين جهة العدو ونيراننا تطرده بقذوفاتها حتى قطعنا خمسة الاف متر وبقي بيننا وبين معسكره في القنطرة اربعة الاف وخمسمائة متر هنالك وضعت مدافعنا القلبية على شكل نصف دائرة محيطة بمعسكر العدو وامتدت سواريناا في هيئة شرنجية حتى شغلت الفي متر واستعنا بالله وكبرنا وحمدلنا وابتدأت مدافعنا بتحية القدوم بصوتٍ عالٍ ودخلت قنابلنا تعتنق الانكليز عناق مشوق ولهان فجاوبتها مدافعهم بشدة وما هي الا نقرة طائر حتى احتدت النيران واطلقت طوبجيتنا نوبة (انش) متتالية ومدافع العدو امامها تضرب في نقط متفرقة يجمعها محيط دائرتنا اذ ذاك ارتج الجبل وزلزلت الارض وغابت الشمس واستحال حصر القنابل التي يمطرها الجو في ساحةٍ بساطها الانسان ثم تقدمت بيادتنا تحت حماية مدافعنا فسمعت الحرب تناديها

بني العرب هيًّا لا يعيش جبانُ
فجسمي وروحي همةٌ وجنان

انا النار تذكو غير ان لهيبها
بهِ العرض في وسط الوجودِ مصانُ

انا الشؤمُ لكن في ظلام وجنتي
شموسٌ عليها للسعود ضمان

وقد اطال في النظم من مثل هذا القول وانتهى بهِ الى ان قال

فما اتمّت افواه المدافع قولها حتى ملئت رجالنا حماسة وعزمًا وارسلت الرصاص الحارّ على الامة الباردة وجاوبتها مشاة العدو ببنادقها وتصورت ساحة القتال بشكل مربع وكنت كلما مررت على اورطة احسها واشجعها لا اسمع منها الا صوت بنادقها ولا ارى الا سرعة حركتها وكلما وصلت مدفعًا ارى ايدي رجاله كآلات مكينة بخارية لاحد لسرعتها وكلما تحوّل العدو لنقطةٍ تحوّلت عليهِ الرجال والمدافع ومع كونهِ كان في متاريس حصينة فان المدافع والقنابل اخرجتهُ منها رغبةً في النار فقطعت عليهِ المدافع خط الوصول الى المعسكر وحالت البنادق بينهُ وبين المتاريس فلم يجد بدًا من الثبات فثبت ولكن بقدر ما عدم نصف رجالهِ ووقف ولكن انتظارًا للمنون وفي خلال انسياب نيران البيادة والطوبجية اخذت السواري تدافع ميمنة العدو حفظًا لخط رجعتنا ثم امتدت المدافعة

زمنًا تغيظ منهُ احمد بك عبد الغفار فهجم على العدوّ وانقضت سوارينا انقضاض الكواسر واشتغلت النار في سائر انحاء الميدان وكنت ارى علي باشا فهمي متردداً على الصنوف يلاحظ الضرب ويامر بمناولة الجبه خانة ويلاطف الجرحى ويقتحم النيران غير مبالٍ بها حتى لقد مرّت رصاصة من فوق انفه ثم مرّت بين ذقني وياقة القميص اذ كنت راكبًا بجواره ورايت راشد باشا حسني راكبًا جواده في نقطة حول العدوّ عليها مدافعهُ وهو ثابت لا يحرك راسًا ولا يلتفت لجهة بل هو مشغول بالنظارة ينظر بها مرمى الرصاص والقنابل ثم يأمر بتحويل الضرب للجهة التي يرى العدو فيها او بتطويل المسافة او تقصيرها

ثم دخل الليل وقد غضبت عساكرنا وزمجرت زمجرة الاسود وتهورت مدافعنا تهورًا اطلق فيهِ كل مدفع ٢٠٠ قنبلة ورمى فيهِ كل رجل من رجالنا ٥٠ دستة من الرصاص فلا تسل عن هيئة الجو وصورة الميدان اذ ذاك ولا تعجب اذا رايت عساكرنا كانهم العمد ثباتًا والغزلان حركة والموت نشاتًا واعجب لوقوف الانكليز ولو في الحيرة والتنقل امام هؤلاء الاسود وعندما اشتد الظلام وطال القتال هجمت سوارينا على سواري العدو هجومًا اوجب الالتحام

وهو مقال طويل انتهى بهِ الى حد هذا القول : وما احسن ما قابل بهِ محمود باشا سامي قومندان فرقة الصالحية عندما وصل اليهِ تلغراف الانتصار فقابلهُ بتلغراف التهنئة متمًا بغنيمة ٥٠ رجلاً من رجال الانكليز

فصلٌ

(تفاصيل مقتضبة)

ومما تجمع لدينا من التفاصيل التلغرافية المنثورة الشارحة لسير تلك الوقائع الحربية يستفاد ان الانكليز استولوا في ٢٤ اغسطس على جسر الترعة في الجفر وانهم غنموا في تل المسخوطة خمسة مدافع كروب وكمية من البنادق والذخائر و ٧٥ عربة من عربات السكة الحديدية مشحونة من المؤن وان عرابي انقلب على اثر ذلك الى الصالحية الواقعة على مسافة عشرين ميلاً من غربي الاسمعيلية

وقد ورد في تقريرِ للجنرال ولسلي عن واقعة القصاصين ما جاء مطابقًا لما اوردناه قبل هذا الفصل حيث قال ان العرابيين هجموا على مراكز الانكليز في القصاصين وكانوا مؤلفين من ثماني فرق من المشاة معززة باثنى عشر مدفعاً ولم يكن الانكليز اكثر من فرقتين ونصف فرقة من المشاة وفرقة من الخيالة ولم يكن معهم اكثر من خمسة مدافع فحملوا على العرابيين واندفعت عليهم فرقة الخيالة فاعملت فيهم السلاح الابيض فاندحروا تاركين في ساحة القتال ذخائرهم ولكنهم تمكنوا من استرجاعها بعد ان خيم الظلام . اه .

وقد اسر الانكليز ٦٥٠ عرابيًا في مناوشة نازلوا فيها العرابيين في جهتي الجفر والمحسمة وغنموا عدة ذخائر ومدافع ثم اتى معسكر الانكليز قوم من ضباط عرابي واعلنوا انهم عبيد خاضعون للجناب الخديوي

ولقد كان في استيلاء الانكليز على المحسمة

خطوتهم الاولى نحو موقع التل الكبير وهو الموقع الذي اعتمده العرابيون حصناً امنع من العقاب واعز من جبهة الليث

وبالرغم عما لحق بجيش عرابي من الخسائر في الوقائع التي سلف ذكرها لم يقنط رؤساؤه ولم ينقطعوا عن التحصين والاستحكام في الرملة وفي جهة ابي قير

ففي ٣ سبتمبر تجمع كثير من العربان في جهة ابي قير واخذوا في الاسراع باتمام الاعمال الحربية التي عهد اليهم بها فالجأ ذلك السفينة الانكليزية مينوتور الى رميهم بالنار وكان فيها السير افيلن وود

وفي ٤ منه صوّب الانكليز نحو سكة القاهرة الحديدية بطارية من المدافع واطلقوها على معسكر العصاة فاجابهم المعسكر بمثلها ثم انقطع الفريقان عن حركة ذلك العدوان

وفي ٦ تقدمت عصابة من العربان نحو ضواحي المكس قصد الاستكشاف ومراقبة حركات الجيش الانكليزي فبددهم اللبوتنان هانكوك بفرقة من الجند

ثم عاودوا العمل في اليوم التالي وتمكنوا من الدخول الى قرية المكس فاضطر اللبوتنان كونيه الى محاصرة كل بيت من بيوت القرية ليتيسر له طرد العربان منها

وفي ٩ منه حمل العصاة على الانكليز في القصاصين كما تقدم في غير هذا الموطن من مواطن الاستيفاء والتفصيل فدفعهم الجنرال ويلس ثم نقل معسكر الانكليز العام بعد ذلك الى القصاصين

فصل

حوادث متفرقة

وقد تخلل سير تلك الحوادث الى ١٥ سبتمبر الامور الاتية

قبض الانكليز على ثلاثة جواسيس للعصاة متنكرين فوجدوا معهم بعض رسائل تبينوا منها اموراً مفيدة

وشدد في منع القادمين الى الاسكندرية بدون تذكرة مرور من الدخول اليها

ومرّت السفينة الحربية النمسوية (نوتيلوس) بابي قير فرأت راية بيضاء فوق الطوابي فظن اهلها ان الانكليز تبوأوها فخرج منهم الى البر ضابط وملازم وطبيب السفينة وثمانية من ملاحيها فقبض العرابيون عليهم ثم اخلوا سبيلهم

وهجم قوم في دمياط على دار القنصلية الانكليزية فنهبوها وكسروا (الارمه) ومزقوا الراية ثم اخذوا يطوفون الازقة شاتمين متوعدين بالقتل من كان قد بقي فيها من المسيحيين

وعمد بعض قبائل العربان المخلصين للخديو الى خطوط السكة الحديدية الممتدة من فرع بولاق دكرور فعطلوها ليمتنع على عرابي وقومه الذهاب الى الصعيد

وهجم نفرٌ من العربان على منازل الخواجات جروه وشكري خوري وفاشه وبتريتيني وغيرهم في محطة الرمل الاخيرة ونهبوها فاطلق الخفراء الانكليز الرصاص عليهم فقتلوا واحداً منهم والقوا القبض على اربعة وجرحوا نيفاً وعشرة ركنوا الى الفرار

وكان قد تظاهر قوم في بيروت ببعض

المقاصد على اثر وقوع قتيل في احد الازقة المتعرجة عن طريق عربات الشام فداروا بهِ في شوارع المدينة مسلحين فعم الخوف فيها حتى ايقن كثيرون من اهلها بوقوع القتل في الاسواق فطار الخبر الى الاستانة فاهتم للمسألة سفير الحكومة الفرنسوية لدى الباب العالي وساء وكلاء الدولة حدوث ذلك التظاهر فواعدوهُ على الاجتهاد بصيانة الراحة وكان كذلك فان عمال الحكومة في بيروت لم يألوا جهدًا في اتخاذ اسباب الوقاية والمحافظة على الامن العمومي وقد عضّد سفراء الدول في الاستانة طلب سفير فرنسا واهتمامه في الامر

وشاع في بور سعيد ان اربعة الاف من معسكر دمياط عقدوا نية الهجوم عليها لاحراقها وتدميرها فنزل اليها عدد غفير من الملاحين الانكليز لوقايتها

وقد نهب في القاهرة فندق اوربا الكائن في شارع نوبار باشا وأُضرمت فيهِ النار فتدمر

ولم يبقَ في العاصمة اثناء تلك الاحوال من الجند الاَّ عدد قليل منهم كانوا مستقرين في القلعة بامرة علي الديب

وارسل الخديو وفدًا الى بور سعيد مؤلفًا من سلطان باشا وفريد باشا وذكي بك وعثمان بك لدعوة الاهالي الى الطاعة والسكينة وقد كلفوا بالتنقل في البلاد الريفية لهذا القصد على نحو ما سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على اجتهاد سلطان باشا باقرار الراحة ومحو اثار الثورة

ونشرت الحكومة الخديوية الاعلان الاتي نصهُ بشأن التعويض وهو:

ان كلاً من رعايا الدولة العلية الذي يكون قد أُصيب بالنهب والحريق ويريد تحقيق الخسائر التي لحقت بهِ عليهِ ان يقدم عريضة الى محافظ الاسكندرية يبين فيها اسمه ولقبه وصناعته ومحل اقامته ويوضح موضوع طلبه ومقدار تلك الخسائر ويطلب تعيين احد آل الخبرة للتحقيق والمعاينة وعلى تلك العريضة يصدر امر سعادة المحافظ بتعيين احد ارباب الخبرة وبعد ان يصير تحليفه اليمين على يد سعادة المحافظ باتمام مأموريته بكل صداقة ودقة يحرر في الحال محضر ويعين فيهِ اليوم الذي يجب اجراء التحقيق فيهِ . ثم على المذكور ان يقدم الى المحافظ في ظرف ثمانية ايام من تاريخ الاجراء تقريرًا يبين فيهِ ما ظهر لهُ من حالة الكشف ومنها يرسل الى قسم القضايا لاجراء اللازم في شأنه واما مصاريف آل الخبرة فيصير تقديرها بمعرفة محافظ الاسكندرية على نسق الطريقة المتبعة في المحاكم المختلطة . اه .

والتأمت في دار المحافظة لجنة برئاسة ناظر الداخلية رياض باشا مؤلفة من المحافظ ومأمور الضبطية والموسيو مارك للبحث في وضع نظام لسلك بوليس جديد تلقى اليهِ مقاليد المحافظة على راحة المدينة بالدقة والضبط وقد ارسلت الحكومة معتمدًا مخصوصًا الى حيث يجمع لها عددًا كافيًا من الاوربيين والالبان لينتظموا في ذلك السلك

والقت الحكومة القبض على بعض الذين اشتركوا في حوادث ١١ يونيو و١١ يوليو واودعتهم السجون لتقتص منهم جزاء ما اقترفوا

وابت قبيلة ولد علي الانضمام الى جيش العرابيين فقبض عرابي على ٢٤ شيخًا من مشايخهم

وارسل نفرًا من قومهِ الى مربوط ليقيموا في مساكنهم ويضيقون على ذويهم مذاهب الراحة

وعنيت لجنة الصحة العمومية برفع الرمم البالية ودفنها وقايةً للصحة فكان عددها بالغًا الى اوائل سبتمبر ٢٢٧٧ منها ٦٣ من جثث القتلى و٢٢١٤ من رمم الحيوانات

واهتم الانكليز وعمال الحكومة بهدم الجدران التي كانت لا تزال قائمة من بقايا المنازل المحترقة وذلك بواسطة الديناميت خوفًا من تداعيها الى السقوط على المارة

ونشرت جريدة التيمس اثناء قيام الانكليز بالاعمال الحربية البيان الجوغرافي الآتي. قالت:

ان الخط المنتهي الى عاصمة الديار المصرية يمتد من الاسكندرية مسافة ١٩٢ كيلو مترًا ومن الاسمعيلية مسافة ١١٢ كيلو مترًا وبين ثغر السويس والقاهرة صحراء طولها ١٢٠ كيلو مترًا وهي خط فاصل بين المدينتين. ومن ذلك الثغر الى القاهرة سكة حديدية تمر بالاسمعيلية لوجود خط السويس القديم معطلاً بسبب افتقار تلك الصحراء الى الماء وهو ذو مسافة تنقص ١١٢ كيلو مترًا عن خط الاسمعيلية

وليس بخافٍ ان وسائل النقل كانت قبل انشاء السكة الحديدية محصورة في استخدام الجمال ثم استبدلت منذ عام ١٨٤٥ بمركبات الاومنيبوس ولم يمض على ذلك حين من الزمن حتى اخذ عباس باشا في انشاء الطريق الحديدية ولكن انشاءها لم يبلغ حد التمام اذ ذاك

اما السكة الحديدية الكائنة خط صلة بين السويس والقاهرة فممتدة على ضفاف الترعة الى الاسمعيلية ومنها تتجه الى الغرب محاذيةً للترعة الحلوة وتنتهي بالقرب من الزقازيق حيث تتصل بخط الوجه البحري

واما المسافة الكائنة بين السويس والاسمعيلية فتبلغ ٨٨ كيلو مترًا وهي من الاسمعيلية الى الزقازيق ٦٤ ومن الزقازيق الى القاهرة ٧٢ وجملتها ٢٢٤ كيلو مترًا

وعلى مسافة اربعة كيلو مترات من الاسمعيلية مكان معروف بالنفيشه وهو محطة الاسمعيلية الاولى فنيه تنقسم الترعة الحلوة فرعين احدهما يجري الى الاسمعيلية والآخر الى السويس وتمتد السكة الحديدية من نفيشه الى المجفر على ضفة الترعة

وعلى مسافة ٣٢ كيلو مترًا من النفيشة محطة تعرف بمحطة المحسمة وتليها محطة التل الكبير التي انشأ عرابي فيها المتاريس والاستحكامات وعلى مقربة من هذه المحطة قرية تسمى باسمها وهي بعيدة عن الخط الحديدي وفيها اراضٍ جيدة التربة كثيرة الخصب كانت فيما مضى تختص بشركة ترعة السويس فباعتها الشركة من الحكومة المصرية بعشرة ملايين من الفرنكات

وتلي التل الكبير محطة تعرف بمحطة «ابو حماد» ومنها يمتد خط السكة الى الزقازيق وهي من المدن المهمة يبلغ عدد سكانها ٣٨ الف نسمة وعلى مسافة ١١ كيلو مترًا منها قرية تعرف باسم «بردين» تليها محطة بلبيس التي تبعد عنها مسافة ٩ كيلومترات ونصف كيلومتر ومنها يمتد الخط الى الجهة الجنوبية الغربية مسافة ٢٨ كيلو مترًا منتهيًا الى شبين القناطر التي تبعد ١٩ كيلو مترًا عن مدينة قليوب الكائنة على

مسافة ١٦ كيلو مترًا من القاهرة اه‍ .

وسافر الموسيو دي لسبس الى باريس فاعد له اصحاب الجرائد الخطيرة وليمة فابى اجابة الدعوة اليها وقال ان البعض اتخذوني عدوًا لانكلترة وصديقًا لعرابي مع انني لم انصرف الا تصرف محافظ على الترعة واق لها اما عرابي الذي وصفوه بالهمجية فلا اقول في شأنه الا انه احترم حيادة الترعة

واصدرت نظارة الداخلية امرًا الى محافظة الاسكندرية بقبول من يعود من موظفيها القدماء لاستلام وظيفته وان تؤدي لهم رواتبهم السالفة

ومما تقدم بيانه في الفصول السابقة يبين ان العرابيين لم يأتوا عملاً حربيًا في بور سعيد بل تقهقروا مع حامية طابية الجميل الى دمياط اما الانكليز فكانوا قد استولوا على بقية نقط البوغاز كبورسعيد والقنطرة والاسمعيلية بحيث كان كل من هذه المراكز صالحًا لان يكون طريقًا الى القاهرة يمكن الانكليز من قهر العرابيين والقبض على روسائهم

واستنطق المجلس العسكري المسمى حسن عطيه احد الذين اشتركوا في حادثة ١١ يونيو فاعترف انه قتل في تلك الحادثة عدة اشخاص من الاوربيين والقاهم في البحر فقضى المجلس عليه بالاعدام شنقًا فشنق في كوم الشقافه صباح الخميس (٦ سبتمبر) بحضور ضباط الانكليز وعدد من العساكر وكبار رجال البوليس

واخذ العرابيون بعد انشغالهم في الوقائع السالفة الذكر يفرغون الجهد في تعزيز مراكز الدفاع في المطرية والعباسية

وقطع الانكليز السلك البرقي بين القاهرة والاستانة اضعافًا لعزائم العرابيين

وكتب من الاسمعيلية في ٨ سبتمبر ان الانكليز لم ينقطعوا منذ حلولهم فيها عن تجهيز العدد والعدد وان البلدة امست لا تسعها المهمات والذخائر وان السفن في بحيرة التمساح بلغت الى ذلك اليوم نحو ١٤٠ عدًا وان القائد العام (الجنرال ولسلي) مستمر على مراقبة حركات الجيش بنفسه فيرى ساعة في الاسمعيلية ووقتًا في المحسمة وتارة في المسخوطة وطورًا في القصاصين وان سلطان باشا دعاه الى تناول الطعام فلما هما على المائدة قال له سلطان باشا (في مثل يوم غد من السنة الفائتة رفع العصاة على اميرنا راية العصيان) كناية عن حادثة عابدين . فقال له الجنرال (لا تنس يوم ١١ يوليو انه مقدمة الفرج)

وكان الذين يستسلمون من العصاة للانكليز يكثرون التشكي من سوء معاملة القادة العرابيين لهم

ونودي في العاصمة ان من لا ينادي باسم عرابي حل به العذاب وقد اغتصبت نظارة الجهادية العرابية خيولاً وبهمًا كثيرة واستخدمتها للمهمات والجند

واستأمن في ١٠ سبتمبر اربعة من الضباط المصريين الذين كانوا مستقرين في خط ابي قير وافادوا ان الجند في قلق عظيم من اعمال عرابي اما المستأمنون فهم :

عفيفي افندي سالم يوزباشي

محمد افندي كامل
محمد افندي شريف
بكير افندي رحمي
} ملازمون

وقد انبأوا ان قوة كفر الدوار مؤلفة من

ستة الاف جندي وان كثيرين من الضباط يودون الاستسلام لو تمكنهم الفرصة منهُ

وتحقق بالبحث الطبي ان بعض الجثث التي القاها العصاة في الترعة بعد واقعة المحروطة طرحت في المياه قبل ان قضى ذووها نحبهم فجمعها الانكليز ودفنوها باحترام

واخذ بعض السقاط من الاوربيين في الاسكندرية يحاولون نهب بعض البيوت فقبض على بعضهم وتداركت القنصليات الامر

وروى العرابيون ما يأتي عن الحوادث التي كانت تطلق عليهم فيها مدافع الانكليز من جهة الملاحة وهي الحوادث التي مرت بنا في تفصيل سابق فكتب قومندان فرقة مربوط الى وكيل الجهادية يقول ما نصهُ

صورة ما ورد من احمد بك كامل الذي كان تعين مأمور ترتيب المقدمة بجهة ام زغيب . الذي حصل في صباح هذا اليوم هو ان مقدمة العدو نحو الثلاثين نفرًا تقدمت للكشف امام طوبجيتنا وضربت نارًا بالسلاح وكان خلفها من عساكر العدو اورطتان سواري على رأس الملاحة من جهه طوابي العدو فضربت عليها مدافعنا الامامية ثلاث كلل شتتت شمل المقدمة وولت الفرار ثم ضربت مدافع العدو ثلاث كلات احداها من الموبسة والاثنان من مراكبهم بالبحر فلم تصل طوابينا ولا عساكرنا ثم جاوبتهم الطابية المنصورة بثلاث ضربات كروب هزمت جيوشهم وولوا الفرار ثم وقت تحريره جاءت كلة من البحر من طرف العدو ولم تصل لحد نصف الملاحة والحمد لله على النصر المبين واما الخسائر منهم فلم تعلم للآن والحمد لله لم يحصل لعساكرنا ادنى ضرر وكل اثبت حمية الوطن العزيز بالثبات والحزم خصوصًا العربان الذين كانوا في مقدمتنا وضربوا نارًا على العدو وهم قبيلة المشارقة شياخة معوض ابو ذراع وعند امكان الكشف نوضح حقيقة ما تلف منهم ورجاؤنا انهُ لا يرسل اعانة ولا جبه خانة ولا يكون عندكم فكرة فانهُ بعد انهزامهم وتشتتهم ما ظهر اثر للآن ومدة المناوشة ساعة ونصف فقط اه

ومن منشوراتهم في شأن واقعة القصاصين والمناوشات التي تبعتها مما تقدم بيانهُ في التفاصيل السابقة وتقرير الجنرال ولسلي قولهم :

في الساعة الثانية من يوم الاربعاء ٢٢ ل سنة ٩٩ خرجت سريتنا المؤلفة من سبعين فارسًا عربيًا من النوائد والحرابي ومعها الفارس المقدام شيخ العرب محجوب الجبالي شيخ الحرابي والبطل الهام شيخ العرب المصري السعدي شيخ النوائد و٤٠ من فرسان السواري معهم عبد الرحمن افندي محمود اليوزباشي (من بني محمود بالرحمانية) وتقابلت مع مقدمة العدو وعندما قربوا منهُ على مرمى الرصاص خرج الحاج شعيب من فرسان الحرابي وهجم على ديدبان العدو وضربهُ برصاصة القاه صريعًا ثم هجم على عساكر العدو واطلق فيهم عدة رصاصات وهو ينادي (الى اين يا انكليز) ثم تلاحقت بهِ الفرسان وهجمت وهي تنادي يا عز العرب نحن ابناء الحرب وفرسان الطعان فتقهقر العدو وهم يزحفون حولهُ ثم رتبهم عبد الرحمن افندي في صورة شرنجية وجعلهم جتربرًا على جهات العدو فخرج اليهم ٤ اورط من السواري واورطة من البيادة

واشتعلت النار بين الفريقين وجاء المخبرون بانتشاب الحرب بين مقدمتنا وجيش العدو فارسل اليها اورطتان من السواري وتلاحق بها المدد من القراقولات الامامية وامتدت الحرب ٣ساعات وفي منتهى الساعة الخامسة هجم العرب هجمة واحدة بها فرقوا الجموع وبددوا شملها وكرّوا على العدو يصيحون ويصرخون حتى ادخلوه خيامه وقد قتلوا منه ٧ رجال و٨ افراس وسلبوا منه سروج الخيل واسلحة القتلى وقد تعرّض الحاج شعيب الهمام لشرذمة من العدو يهاجمها ويضربها حتى قتل منها واحدًا ثم تقدم لاخذ سلبه فعارضة ٤ فلم يزل يدافعهم حتى اخذ سلب قتيله وسرجه وسلاحه ووجد مع القتيل انجيل صغير في جيبه وعندما اراد الرجوع لفرساننا هجم عليهِ بعض سواري الانكليز فاصابوا فرسهُ فتركها وصار يعدو على قدميهِ ويقاتل حتى حمتهُ اخوانهُ وقد اصيب بجرح خفيف في رجلهِ اليسرى وفي الساعة التاسعة عاد فرسان العرب لساحة عرابي باشا يطردون الجياد وينشدون مغاني الحماسة وابيات المفاخرة وينادون على الانكليز بالويل والحرب فهنأهم سعادتهُ بهذه الشجاعة والحماسة ومدحهم على ما لهم من الاقدام والثبات وانصرفوا من ساحته شاكرين

وقام حضرة الليث الهمام علي بك عصمت مأمور اشغال العربان وسار ومعهُ ٥٠ خيالاً من عربان النفيعات والطميلات والعائد وهشيم بصحبة الفارس الصنديد شيخ العرب ابرهيم ابو نصرالله و١٥ من العساكر النظامية وقصد جهة العدو بقنطرة القصاصين في بطن الجبل الشرقي من ترعة الوادي وما زال سائرًا حتى تلاقى بمقدمة العدو فبادرها العربان باطلاق النار والهجوم وهي تروغ منهم في الشعوب والملاجئ وهم خلفها ساعين حتى ادخلوها القصاصين منهزمة خائبة وعادوا في الساعة ٨ غانمين السلامة ثم عادوا لمراكزهم بعد ان اكتشفوا جيش العدو ومواقعه التي اتخذها ومقدار عساكره اه.

فصل

(منشورات العرابيين)
(بحروفها)

نستوفي في هذا الفصل بقية ما عثرنا عليهِ من منشورات العرابيين المتفرقة المتضمنة لكلامهم على الوقائع الحربية مما لم نثبته قبالة التقارير الاخرى التي سلف اثباتها والالماع اليها وهي بنصها :

(تقرير لوكيل الجهادية)

قال . قد استفدنا من الاخبار الواردة الينا عن حرب يوم الاثنين الماضي (٢٨ اغسطس) من مركز الجيش الشرقي ان عساكرنا غنموا من جيش العدو غنائم كثيرة من ضمنها سبعون رجلاً انكليزيًا وعدد وافر من الخيول الافرنجية ولا يزالون يعثرون على الخيول الانكليزية شاردة في سهول اراضينا فتأخذها عساكرنا الى مركز جيشنا ومقادير كثيرة من الاسلحة وقد تركوا قتلاهم في ميدان الحرب بعد ان ولوا منهزمين فالتزم عساكرنا بدفنهم حسب القانون العسكري القاضي على الغالب بدفن قتلى المغلوب اذا لم يأتِ لدفنهم فالذين دفنوه الى هذا اليوم ثمانمائة قتيل وجدوهم مجندلين باسلحتهم والبستهم وذخيرتهم

وهم غير الذين سيعثر عليهم فيما بعد والذين امكن للعدو حملهم الى مراكزه او احراقهم فقد ورد الينا من علي باشا فهمي انهُ رأى حريقاً في جهة الكبري فارسل الى تلك الجهة من يكتشف هذا الحريق فاخبر المرسلون بعد الاستكشاف انهُ حريق قتلى الانكليز

وقد استشهد من عساكرنا في هذه الحرب ستون شهيدًا وجرح خمسة وثمانون وأرسلوا الى القاهرة فوصلوا عصر يوم الثلثا وبوصولهم ذهبت اليهم بنفسي لاقتبس من بركاتهم واسلم عليهم واحييهم وبالتأمل في جراحاتهم وجدت نحو ثلثة ارباع الجراح من السيوف والسنج (اي حراب البنادق) وقت الالتحام واستعمال السلاح الابيض ورأيت نحو الستين منهم بجراح خفيفة يؤمل شفاؤها قريبًا والباقون لا خطر عليهم وان احتاجت جروحهم الى علاج اطول من علاج اخوانهم وعندما كنا نحييهم ونلاطفهم ونسألهم عن احوالهم لتخفف عنهم بعض ما بهم من الالام نطقوا بلسانٍ واحد اننا نتمنى الشفاء في هذا الان ونرجع الى مواقع القتال لننتقم من اعدائنا المعتدين ونبيض تاريخنا باعمالٍ تذكر عنا على مدى الايام ثم ذهبت مرة ثانية لزيارتهم في هذا اليوم (يوم الخميس) ولما رأينا من ناظر الاسبتالية نوعًا من الاهمال في وظيفتهِ غيرناه في الحال وابدلناه بمن فيهِ الكفاءة والاهلية لاداء واجبات هذه الوظيفة ثم اوصينا موظفي الاسبتالية بان يميزوا المجاريح في المعاملة والاطعمة والاشربة عن سائر المرضى وقد نبهنا بان يحضر لهم جميع لوازم المآكل والمشارب من اصناف اللحوم والطيور والفواكه والشربات وما اشبه ذلك ونبهنا بان يكون الخبز الذي يقدم اليهم من الخبز الجيد ممتازًا عن الخبز المعتاد وكلما زرناهم مرةً عدنا مسرورين

وفي هذا اليوم (يوم الخميس) ورد لنا تلغراف من مركز الجيش الشرقي مفاده ان الكشافين من عربان الفوائد والرماح وعددهم ١٢ شخصًا تقابلوا مع كشافي العدو وكانوا خمسة عشر خيالاً بجهــة الكبري فحصلت بينهم مناوشة حربية نحو ساعة وفي اثناء المناوشة انضم الى كشافي العدو خمسة وعشرون من الامداد ومع ذلك تمكن عرباننا من رد الاربعين على اعقابهم منهزمين حتى تركوا الكبري وولوا هاربين تاركين موقعهم الاصلي وغنم كشافونا منهم خيمةً وبعض مهماتٍ حربية وحضروا الى خط النار فرحين مستبشرين

(نص تلغراف وارد من عرابي الى)
(وكيل جهاديته)
(في ١٣ شوال)

عساكرنا المنصورة قهرت العدو وردتهُ الى المحسمة بحولهِ تعالى وقوتهِ فالجيشان الان امام بعضهما على بعد خمسة آلاف متر من المحسمة وبعد الاستراحة قليلاً وسقي الخيل يصير تتميم الهجوم بمشية الله فدونا بانفاسكم الطاهرة وطلب النصر من المولى المقتدر

(نص تلغراف وارد الى عرابي من)
(مركز الجيش بالتل في ١٦ شوال)

ان كشافي عربان الفوايد والرماح تقابلوا مع كشافي العدو في جهة الكبري فحصلت بينهم مناوشة حربية مدة ساعة فانهزم كشافو الانكليز امامهم حتى تركوا الكبري وولوا هاربين الى

المحسمه وتركوا موقعهم الاصلي واغتنم كشافونا منهم خيمة وبعض مهمات حربية وحضروا لطرفنا بخط النار مثل السباع يتلألأ في وجوههم النصر والسرور والمحل الذي حصلت به محاربة يوم الاثنين الماضي صار خاليًا من العدو حسب تعريفهم فتهنئ سعادتكم بالظفر ونتشكر لعرباننا عربان قبيلتي الفوايد والرماح ونسأله تعالى ان يؤيدنا بنصره المبين انه على ما يشاء قدير

(نص تلغراف ورد من عرابي الى)
(وكيل الجهادية العرابية)
(في ١٧ شوال)

يوم تاريخه توجه مقدار خمسين خيالاً من عربان قبائل الفوايد والرماح والحرابي والبراعة تحت قيادة كلٍ من المصري السعدي من الفوائد وابرهيم ديهوم ومهدي دهيم الى الاستكشافات بموقع محاربة يوم الاثنين الماضي فتقابلوا مع كشافي العدو فقهقروهم الى ان ادخلوهم خيامهم بالمحسمة واغتنموا منهم بعض برانيط وصناديق بها ماكولات وجملة اسلحة من ميدان الحرب وبعض موازين وحضروا من الاستكشافات لهذا الطرف الساعة ٨ فنهنئكم بمواهب الله وتأييد عباده المؤمنين بنصره العزيز

(نص رسالة واردة من قومندان فرقة)
(كفر الدوار الى وكيل الجهادية بمصر)
(في ١٨ شوال)

لقلة عساكر الانكليز بسكندرية الان زيادة عما كانت عليه قبل واقعة يوم الاثنين التي حصلت بخط الشرق اخذوا امدادًا من اسكندرية خفر الابواب وغيرها وصاروا ينهبون البيوت والحيوانات من اهالي اسكندرية بالقوة الجبرية بقصد ارسالها الى الخط الشرقي وهذا كله بناء على ما اصابهم من عساكرنا المنصورة بالخط المذكور ثم ان قومندان الانكليز الذي بجهة الاسمعيلية كان اخبر اسكندرية انهم دخلوا بالزقازيق قبل واقعة يوم الاثنين فتوجه سلطان باشا وعلي باشا مبارك وزكي باشا وعمر باشا لطفي الى بورسعيد لمساعدة الانكليز بتغيير افكار الاهالي وتطبيقها على افكار العدو فاندهلوا مما الم بالانكليز من العذاب الاليم في واقعة يوم الاثنين الماضي

هذا وان الاوربيين الذين باسكندرية ساخطون على الانكليز واكثرهم آخذون في المهاجرة من الاسكندرية بالنسبة لمعيشتهم الضنكة كما ان الشائع هناك ان الانكليز يخلون القطر المصري بعد خمسة عشر يومًا فيظهر من هذا ان هناك اتفاقًا دوليًا بان الانكليز لهم مدة محدودة لمحاربة مصر فهذه هي الاخبار التي تحصلنا عليها من الاين من اسكندرية فنسأله تعالى ان ينصرنا ويحسن ختامنا جميعًا

(نص تلغراف وارد الى عرابي من قومندان)
(خط رشيد وابي قير)
(في ١٨ شوال)

ليلة تاريخه حضر وابور من وابورات العدو حامل عساكر بياده ووقف بين الرمل والمركب الحربي الكبير الواقف امام المندرة وفي الساعة ٨ من الليل اخرج العساكر الى البر وابتدأوا باطلاق النار على مقدمتنا الامامية فقابلوهم عساكرنا بالضرب الشديد وما زال الضرب مستمرًا حتى سطع نور النهار فتأخر العدو متقهقرًا الى جهة الرمل وابتداء الضرب من الوابور على

خط المقدمة وبعد ما رمى جملة مقذوفات كبيرة بطل الضرب من الوابور وابتداء الضرب بمدفعين في فلوكة كبيرة مقطورة برفاص صغير واستمر الضرب بمقذوفاتها على الخط لغاية الساعة ٣ من النهار فمدة الحرب ٦ ساعات وقد اظهرت عساكرنا ثباتًا عظيمًا وقاومت العدو اشد المقاومة حتى انه لم يتمكن من الاقتراب من خطنا وبعد ان القى مقذوفات عديدة ووجدها لم تثمر فتأخر الوابور على بعد من الرمل وتقهقرت عساكره البياده ايضًا ولله الحمد لم تؤثر نيرانه في عساكرنا بحيث لم يصب واحد منهم بادنى سوء ونحن وحضرات الضباط وجميع عساكرنا في غاية التيقظ والاستعداد لقهر العدو وطرده والله يؤيدنا بنصره فبشروا الذين تحت ادارتكم بتأييد الله وحفظ عساكرنا المنصورة اما حالة الشرق فهي في سكون ولم يحصل حركة اليوم

(نص تلغراف وارد من قومندان)
(فرقة رشيد وابي قير)
(الى وكيل الجهادية بمصر)
(في ٢٠ شوال)

بناء على ما ورد لنا من حضرة ابرهيم بك فوزي ميرالاي برنجي بياده اوجنجي فرقة انه في يوم تاريخه الساعة ٩ حصلت مناوشة ما بين مقدمة عساكرنا المنصورة وبين مقدمة العدو المخذولة جرى فيها اطلاق النار من الطرفين فتقهقر العدو وشوهد من قتلاه ثمانية اشخاص وارتد العدو خائبًا وكان بمقدمتنا المنصورة اسمعيل افندي رسمي البكباشي ومحمد افندي مرعي الصباغ والحمد لله لم يحصل لعساكرنا ادنى اذى فنهنئكم بهذا النصر العظيم

(نص تلغراف وارد من طلبه عصمت)
(الى وكيل الجهادية بمصر)
(في ٢١ شوال)

في الساعة ٩ من يومنا هذا تحقق لنا مشاهدة استعداد العدو وتهيوئه للمحاربة فاستعددنا لمقابلته متوكلين على الباري جل شأنه وتهيئات طوبجيتنا وبيادتنا بغاية النشاط مهللين ومكبرين وفي الساعة العاشرة انتشب الحرب بمقذوفات الطوبجية من الطرفين وفي هذا الوقت تقدمت البياده امام الطوابي تحت مسير المقذوفات اعني تحت النقطة الغير خطرة لمقذوفات مدافعنا فمن الجهة الشرقية للمحمودية كان صاحب الغيرة والتدبير مصطفى بك عبد الرحيم مع الاورطة الامامية التي هي اورطة ابرهيم افندي هيبه البكباشي ومن الجهة القبلية حضرة احمد بك عفت مع الاورطة الامامية التي هي اورطة سليمان افندي تعيلب وخلف هاتين الاورطتين اورط الامداد تحت قيادة عبد الحميد افندي سعودي وعبد الرحمن افندي سليم ورزق افندي حجازي واحمد افندي عبد الرحمن البكباشية وتقدم جميع الضابطان مع عساكر اورطهم بغاية النشاط واستمر اطلاق المدافع لغاية الساعة نصف ليلاً ولله در طوبجيتنا حيث ان مقذوفات المدافع كانت مؤثرة تأثيرًا شديدًا في العدو بهمة بدوي بك ومحمد افندي حشمت البكباشية وباقي الصاغقول اغاسية والبوزباشية والملازمين والصف ضباط والعساكر بما ان المقذوفات كانت تشتت جموع العدو ووقت

سقوطها لانهُ بوجودي ووجود عمر بك رحمي على رأس المدافع كنت آمرهم باطلاق النار على الجهة الثلاثية مثلاً فالمقذوف يرسل الى الجهة المطلوبة ويسقط فيها ويعمل عمله المخصوص بهِ كما شاهدنا ذلك بالنظارات حتى اني نظرت اشارة على منزل بقرب الطابية فامرت بضربه فسقطت عليهِ وهدمت منهُ جزءًا عظيمًا ولا بد ان تكون اثرت تأثيرًا جسيمًا فنهنئ سعادتكم بهذا النصر الذي هو نتيجة التوكل على المولى سبحانه وتعالى ونهنئ ايضًا سعادتكم بوجود عساكر كالاسود الكاسرة فنسأل المولى سبحانه وتعالى ان يجعل النصر مقرونًا بطالع سعادتكم الميمون بحرمة محمد صلى الله عليهِ آمين يا رب العالمين

(نص تلغراف وارد من عرابي)
(الى وكيل الجهادية بمصر)
(في ٢٣ شوال)

في الساعة الثانية من هذا اليوم توجهت سرية مؤلفة من بعض عربان الفوائد والحرابي وتلاقت مع مقدمة العدو على مقربة من معسكره فاطلقت عليهِ النيران واظهرت العرب غاية الحماسة والشجاعة وصارت تصيح على العدو وتهجم عليهِ المرة بعد المرة هجوم الاسود وفي اثناء المناوشة تلاحق بهم عبد الرحمن افندي محمود يوزباشي سواري ببلوكين من السواري فزحفت العرب على العدو وطردتهُ حتى ادخلتهُ خيامه وهي تنادي عليهِ بالويل والثبور وتصيح في وجهه بصوت عالٍ وقد استمرت المناوشة بالنيران ثلاث ساعات قتل فيها من الانكليز سبعة وجرح فيها من عرباننا واحد وحال انتشاب المناوشة قام كثير من العربان من مركز الجيش وتلاحقوا باخوانهم ثم عاد الجميع يتسابقون على جيادهم ويترنمون باناشيد الحماسة والمفاخرة بالانساب فهنأناهم بالسلامة واثنينا على شجاعتهم بما هم اهله فبشروا الذين تحت ادارتكم بنصر المولى وتأييد عباده المؤمنين آمين

(نص تلغراف وارد من محمود افندي سليم)
(الى وكيل الجهادية بمصر فارسلهُ الى)
(عرابي وهو بتاريخ ٢٣ شوال)

قال الوكيل في هذا اليوم وردت لنا افادة من محمود افندي سليم اليوزباشي المعين بدرب الغويبه والبساتين الموصلة الى السويس يقول فيها ان علي الترك الجاويش من سواري مستحفظي مصر المقيم بنقطة تلاقي درب السويس قام من النقطة مع شيخ العرب جمعه علام من الطرايين واثني عشر من العربان وخرجوا للكشف جهة جبل عناقة في يوم الاثنين اول امس وبعد كونهم بالجبل نظروا نحو اربعين رجلاً منهم عشرة من الانكليز والباقي من الهنود وعربان الطور وخرجوا اليهم بجهة عجرود واطلقوا النيران على العدو فجاوبتهم نيرانهُ وبعد ان استمر اطلاق النار من الجهتين مدةً انهزم العدو بعد ما قتل بخمسة عشر رجلاً وبعون الله وقوته لم يصب احدًا من رجالنا مضرة وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور وان محمود افندي ارسل اربعة عشر هجانًا وخيالاً من عربان العبابده امدادًا الى الجاويش والعربان وقد كتبنا لهُ تشكرًا على همتهِ وطلبنا منهُ ان يتشكر للجاويش والعربان وان يستمر

على التفاني وسرعة ارسال الامداد عند اللزوم قياماً بواجب مأموريتي فنهنئ سعادتكم بهذا الفوز والنصر العظيم وارتداد العدو منهزماً في كل محل حلّ به فابشروا بنصر الله وتأييد المؤمنين

(تلغراف وارد من عرابي)

(الى مديرية الشرقية)

(في ٢٤ شوال)

ليلة امس ركب عربان الشرقية من النفيعات والطميلات والعبابده وهنيم وساروا الى جهة العدو الساعة ٨ تحت حكمدارية حضرة علي بك عصمت مأمور العربان ومعهم عبد الحميد افندي اليوزباشي باربعين من السواري وما زالوا يتقدمون الى جهة العدو حتى تلاقوا بمقدمته فرجعت عليهم العرب واطلقوا نيرانهم حتى ابعدوهم عن نقطة المقدمة وهناك وجدوا خمسة واربعين جندياً انكليزياً فساقوهم امامهم ووقف فهم فريق لدفع العدو وفي شروق الشمس خرج اليهم العدو بقوة مركبة من سواري وبياده وطوبجية واشتعلت النيران من الجانبين ساعة ثم هجمت العرب هجوم الاسود واظهروا من الشجاعة والبسالة ما امكنهم به طرد الاعداء الكثيري العدد عنهم ثم اقتفوا اثرهم يضربونهم ويطردونهم حتى قتلوا نحو مائة وبددوا شملهم وادخلوهم خيمة واغتنموا نحو خمسمائة متر من سكك الطريل وبعض ادوات حربية ثم عادوا لنقطهم والنصر مقدمهم ورتبوا نقطهم الامامية واستمرت هذه المحاربة في المناوشة والضرب نحو ست ساعات ثم حضر حضرة عليّ بك عصمت وعبد الحميد افندي حمدي ومشايخ العرب ومحمد حسن البعلي وابرهيم ابو نصرالله وخليل ابو بغدادي والعسكر والحاج حسن الاعصر وحصل الشكر لهم على ما ابدوه من الثبات وما قاموا به من قهر العدو ولله الحمد لم يصب احد من فرسان العربان ولا من السوراي فابشروا بتأييد الله ونصره للمؤمنين وبشروا من تحت ادارتكم بذلك

(صورة تلغرف آخر منه بتاريخ ٢٤ شوال)

ان عساكر الانكليز الموجودين ببورسعيد عندما محاربة جيشنا المنصور بجهة الاسماعيلية بعد واقعة الاثنين اظهروا العصيان وابوا المحاربة لشدة ما اصابهم من الجيوش المصرية المنصورة ولما نظروه من كثرة قتلاهم فهددهم الرؤساء بالاعدام فاصروا على الفرار والانضمام لعساكرنا المنصورة بطابية الجميل وبالفعل هرب منهم احد عشر رجلاً وقصدوا الطابية فادركهم العدو في الطريق واعدمهم بالرصاص بمشاهدة من كان بتلك الجهة وحيث ان هذه الدولة ضعيفة الرجال فقد اخذت في استئجار اناس من نصارى الشوام والاجريج (اي اليونان) للاستعانة بهم على محاربتنا فعند استئجارهم وحينما يحضرون ويرون قتلى الانكليز ويتمكن الرعب من عساكرهم يلقون السلاح ويفرون

(نص تلغراف وارد من لوا برنجي بياده)

(في القصاصين الى وكيل الجهادية بمصر)

(في ٢٤ شوال)

في صباح يومنا هذا الساعة ١١ حصلت مناوشة ضرب نار بين داوريتنا وداورية العدو

والضرب مستمر الى الان وضرب النار ابتدأ من داوريتنا وعلى الله النصر آمين

ومنهُ

المناوشة التي عرضنا لسعادتكم عنها مكثت ساعةً وانهزم العدو بعون الله وعاد الى معسكره ناكصًا على عقبيه فنبشر سعادتكم بالنصر المبين

(نص تلغراف وارد من قومندان)

(كفرالدوار الى عرابي)

(في ٢٤ شوال)

اعرض لسعادتكم ان احوالنا جيدة وعلى ما يرام هذا وقد جاءنا من اخبار اسكندرية من المتواردين منها ان اثنين من الانكليز احدهما قبودان والاخر ملازم اول ارادا الفرار والحضور للجيش المنصور واسباب ذلك هو التضرر الحاصل لهم من مشاق المحاربات وكثرة الموتى فلما تركا مركزهما موجهين وجههما الى هنا وقطعا مسافة عظيمة لحقهما آخرون وضربوهما بالرصاص فقتل احدهما واخذوا الثاني وسجنوه وان عساكرهم متضررة بهذه الكيفية واخبرنا ايضًا انهُ في احدى محاربات هذا الطرف ضرب احد بكباشية الانكليز نفسه برصاصة فمات وسبب ذلك انهزام عساكر الانكليز وخروجهم عن طاعته في وقت المحاربة ولهذا بادرت بتبشير سعادتكم بخذلان هذه الملة الباغية نسأل الله ان يتم النصر والظفر بحرمة سيدنا محمد صلى الله عليهِ وسلم آمين

(نص تلغراف وارد من وكيل)

(الجهادية بمصر الى عرابي)

(في ٢٤ شوال)

الحمد لله الذي سخر لسعادتكم النصر والتأييد في جميع مواقعنا العسكرية القريبة والبعيدة وقد افتخرنا بتلغراف عطوفتكم المحقق لما ابداه شجعان عرباننا وفرسان سواريتنا تحت قيادة علي بك عصمت من الشجاعة والبسالة وقد اعلنت ذلك لجميع الضباط والعساكر الموجودين بمركز مصر فدخل عليهم السرور فوق ما هو حاصل لهم وبالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط والعساكر بل والمستوطنين بمصر اهنئ سعادتكم بهولاء الشجعان والفرسان واهنئ حضراتهم ايضًا بمرافقة عطوفتكم وما نالوه من العز والفخر افندم

(نص قرار من ديوان الجهادية)

(العرابية بمصر)

حضرة مأمور ضبطية مصر بعث لديوان الجهادية افادة رقم ١٦ الجاري يقول فيها ان العدوان الانكليزي الذي تهورت فيهِ الدولة البريتانية العائد عليها بالوبال والدمار والخيبة والشنار قد اوجب تشتت كثيرين من الثغور مثل اسكندرية والسويس والاسمعيلية وبورسعيد التي صارت ميدانًا للقتال وليس بخافٍ ان اولئك الالوف المؤلفة قد هاجروا الى هنا متفرقين بالجهات بعد ان تركوا اوطانهم واموالهم واملاكهم وامتعتهم بحيث لم يخرجوا من هاتيك الثغور الاَّ بملبوس ابدانهم فارغي الايدي مما يسدون بهِ رمقهم ويقيمون بهِ اولادهم وما منهم الاَّ صغير ضلَّ عن ابيهِ او ارملة فارقت ولدها وزوج غابت عنهُ زوجته وقريب تشتتت اقاربهُ والكل في حزنٍ وعويل لا يدرون كيف يتعيشون مع خروجهم عن اوطانهم ولا احتياج

للاطناب فيما دهمهم من سوء الحال المفتت للاكباد ولقد غصت بهم مصر لكثرتهم ومع ذلك فالحكومة مع ما هي فيهِ من الاشتغال الزائد في مدافعة العدو قد بذلت ما في وسعها من استقبالهم واعداد عدة محلات وسرايات رحبة لانزالهم فيها واقامتهم بها وأجرت على كثير من الارزاق والرواتب اليومية لتعيشهم ومع ما اجرتهُ من تسفير بعضهم الى جهات الارياف لاقامتهم وتعيشهم هناك لم يزل باقيًا بمصر المحروسة مقدار وافر منهم وجارٍ صرف الجرايات اللازمة لمن اقاموا بالمراكز المعدة لاقامتهم والمهاجرون المقيمون بمحلاتٍ خارجة عن المراكز جارٍ صرف مقدار من الحنطة اليهم يبلغ نحو ....٥ اردب شهريًا وهذا عدا ما هو جارٍ صرفه على تلك المراكز ما يلزم للاستصباح والنظافة وما يصرف للفقراء من النقود لماكولهم وتجهيز موتاهم ونحو ذلك كل هذا مراعاةً لتعيش هذا العدد الكثير الذي اصبح لا يملك نقيرًا ولا فتيلاً ولقد ارتاح كثير من الوطنيين الذين جبلوا على حب المكارم الى التقدم لمساعدة اخوانهم المهاجرين ببذل الاعانات فكان لهم السبق في ميادين الفضل والكرم وترطيب الالسن بالثناء على ما اظهروه من الغيرة وعلو الهمم وحيث كانت حالة هذا العدد الكثير من المهاجرين على نحو ما ذكر كما هو مشاهد للعيان وغير خافٍ ان الحكومة مع ما هي عليه من الاهتمام بالاستعدادات الحربية واللوازم الدفاعية لا يتيسر لها المداومة على القيام بالصرف من خزينتها على هذا العدد الكثير ولما كانت الانسانية التي اشربت في قلوب المصريين والحمية الوطنية التي سرت في عروقهم توجب عليهم التقدم لاخوانهم بالمساعدة والاعانة حسب ما تصل اليهِ ايديهم من المبرات تخفيفًا لمصاب اخوانهم حتى تكون لهم اليد البيضاء في تعزيز وطنهم ويخلد لهم في التاريخ اثر لا يمحوهُ مرور الزمان ولا تقلب الجديدين وعونًا لحكومتهم على التفرغ للذود عن الوطن والدين وقهر الاعداء الذين ارادوا التهام البلاد سنح بخاطر حضرة المأمور المومأ اليهِ ان يتبرع المستخدمون وارباب الرواتب والمعاشات الذين هم اولى الناس باعانة اخوانهم بجزوءٍ طفيف من رواتبهم التي تصرف لهم من الحكومة بالاطراد ولاجل ان لا يثقل عليهم دفعها ويكون مجموعها مساعدًا لتعيش المهاجرين ومخففًا لما تتكبده الحكومة من المصاريف عليهم قد خطر بفكر حضرته ان يقتطع من رواتب المستخدمين عمومًا مهما بلغت رواتبهم خمسة من كل مائة ومثلهم ارباب المعاشات والمرتبات ايضًا ويكون ذلك كل شهر لحين ان يحسم القتال وتولي الاعداء وجهة الفرار ويرجع كل الى وطنه اذ لا جرم ان المستخدمين وارباب المعاشات والمرتبات مهما كانت طبقاتهم لا بد ان تطيب نفوسهم بالتبرع بهذا القدر الزهيد مساعدةً لاخوانهم

ولدى المداولة في ذلك بالمجلس تقرر باتحاد الاراء بان يقتطع من ماهيات عموم المستخدمين وارباب المعاشات والمرتبات جهادية وملكية بالمحروسة وبسائر المديريات والمحافظات والضبطيات والمجالس وقومسيون الاراضي الميرية والاوقاف وبيت المال والدائرة السنية وفروع تلك المصالح والدواوين بدون استثناء خمسة غروش في المائة كل شهر وذلك من الذين

تبلغ ماهياتهم او مرتباتهم او معاشهم من فوق المائة قرش فصاعدًا ما عدا الجهادية الذين يكونون في المحاربة او يتوجهون اليها فهؤلاء لا يقتطع منهم شيء ويكون اجراء ذلك من اول شهر ستمبر سنة ٨٢ لحين ما تنتهي حركة المحاربة وعودة المهاجرين الى اوطانهم وجميع ما يتحصل من ذلك يرسل الى ضبطية مصر بالافادات اللازمة لحصره وصرفه بمعرفتها على المهاجرين المستحقين وفقًا لما راَهُ حضرة مأمور الضبطية هذا ما وافق واستقر عليهِ رأي المجلس .اه .

(نص تلغراف وارد من عرابي بالتل)
(الكبير الى وكيل الجهادية بمصر)
(ليلة ٢٦ شوال)

في هذا اليوم انتشب الحرب بيننا وبين العدو من الساعة الحادية عشرة صباحًا وكانت قوتنا مركبة من بيادة وسواري وطوبجية من جهتي رأس الوادي والصالحية وبعد ان التجأ العدو لاستحكاماته بجهة قنطرة القصاصين عادت عساكرنا لمراكزها بغاية الانتظام وعندما صار بينها وبين العدو مسافة بعيدة خرج من ملاجئه وقصد تأخير الجيش فاستمرت الحرب الى الساعة الحادية عشرة نهارًا حيث تقهقر العدو خائبًا خاسرًا الى القصاصين ولله الحمد تلفياتنا قليلة جدًا بالنسبة لتلفيات العدو ونحن وحضرات الضباط وباقي الجيش المنصور وسعادة محمود باشا سامي وضباطه وعساكره في غاية الصحة والسلامة والجيشان في مراكزها على غاية من الاستعداد ونسأل الله تعالى ان ينصرنا عليهم ويثبت اقدامنا امامهم بجاه سيد الاولين والاخرين آمين يا رب العالمين

(نص تلغراف وارد من قومندان)
(فرقة مربوط الى وكيل الجهادية)
(ليلة ٢٦ شوال)

يوم تاريخه قام للاستكشاف يوسف افندي فهمي ملازم ثاني باورطة السواري الموجودة بنقطة ام زغيب واخذ معهُ ستة من السواري من عساكر السرية وشيخ العرب سيف النصر الفضلي شيخ قبيلة الضعفا الموجود بهذه النقطة وثلاثين نفرًا من العربان منهم ثلاثة من السواري والباقي من البيادة وساروا حتى وصلوا الى طابية العجمي فلم يقابلهم احد ثم استمروا في سيرهم من غير ان يقابلهم احد الى ان دخلوا طابية الدخيله فما وجدوا بها احدًا بل وجدوا المدافع مركبة بالمزاغل فابطلوا منفعتها وكذا وجدوا مخزنًا ملآنًا بالكلل وصناديق خشب ملآنة بالكبسول فتركوها وبعد ذلك ساروا حتى قربوا من طابية المكس فاطلق العدو عليهم كلة من البحر فلم تصب احدًا ثم مضى العرب الى ان وصلوا الطابية فوجدوا بها شيئًا من النحاس اشبه بقزان فاحضروهُ وهو باقٍ عندهم وسيحضرونهُ لطرفنا غدًا وقد وجدوا في البحر مركبين حربيين وفلوكة واحدى المركبين ثابتة في موضعها والثانية والفلوكة مارتان بالبحر قريبًا من الثانية فاقتضى عرض ما ظهر من نتيجة الاستكشافات ادام الله علينا النصر آمين يا رب العالمين

(نص تلغراف وارد من قومندان عساكر)
(دمياط ومحافظها الى وكيل الجهادية)
(بمصر في ٩ سنمبر)

الساعة ٨ من يوم الجمعة حضر اربع مراكب حربية امام طابية الجميل من جهة البورت على بعد ثلاثة آلاف متر من الطابية وحضر من البورت بلوكان بياده من عساكر الانكليز ووقفوا امام المراكب بالقرب من الاشتوم ولما نظر ذلك حكمدار الطابية شرع في الاستعداد ثم آمر بنزول العساكر السودانية البيادة الى خط النار القريب من الاشتوم فنزلوا مثل الاسود الكواسر ولما نظر ذلك البلوكات البيادة الانكليز ورأوا حالة العساكر السودانية ولوا الفرار متقهقرين منهزمين بدون ان يحصل منهم ضرب نار ومن بعد مكث المراكب نحو ساعة قامت وتوجهت الى البورت ثانيًا نسأل الله تعالى ان يثبت اقدامنا ويخذل اعداءنا وينصرنا على القوم الكافرين . آمين .

(نص تلغراف وارد من قومندان فرقة)
(رشيد وابي قير الى وكيل الجهادية)
(بمصر في ٩ سنمبر)

علم من بوصلة واردة من حضرة ابرهيم بك فوزي بالمقدمة انهُ في امس تاريخهِ الساعة ١١ ونصف عربي حصلت مناوشة بين سوارينا وسواري العدو وجرى ضرب النار من الطرفين فارسل في الحال نصف بلوك سواري ليكون امدادًا لسوارينا الموجودين هناك ولما نظر العدو كثرة الامداد فرَّ هاربًا ولم يحصل لعساكرنا المنصورة ادنى ضرر وشوهد نحو الثلاثة او الاربعة مقتولين من عساكر العدو وهذا بفضل الله وكرمه

(نص تلغراف وارد من قومندان)
(عساكر دمياط ومحافظها)
(في ٩ سنمبر)

ليلة امس ورد تلغراف من حضرة ميرالاي ٢جي سواحل بطابية العزبة بناء على ما ورد لهُ من عبد العال افندي البكباشي الطوبجي حكمدار طابية الجميل بانهُ في الساعة ٤ من يوم الجمعة حضر الى طابية الجميل اثنان من الخيول وبغلة من عند الانكليز وهذه الحيوانات فارة من بورسعيد الى تلك الطابية وخلفها عسكري واحد الانكليزي فلما نظر ذلك العساكر الموجودون بطابية الجميل توجهوا لجهة الاشتوم لضبط هذه الحيوانات فلم يتمكنوا من ذلك بسبب رجوعها ثانيًا الى جهة بورسعيد ولكنهم ضبطوا العسكري الانكليزي الذي كان خلفها فنسأل الله تعالى ان يؤيدنا بنصره المبين وينصرنا على اعداء الوطن والدين

(نص تلغراف وارد من القومندان)
(المذكور الى وكيل الجهادية بمصر)
(في ٩ سنمبر)

بلغنا من جملة مصادر من المترددين على اسكندرية ان الانكليز الذين بها نزل عليهم الخزي وحل بهم الكدر من مدة خمسة ايام فاخذوا في نهب البيوت واغاب السرايات وانزال ما ينهبونهُ في مراكبهم بغاية السرعة وانهم شارعون

في اخذ بعض الذخائر الحربية من الطوابي وانزالها في مراكبهم ايضًا وان حالتهم تغيرت في اسكندرية من معاملة من فيها من الاهالي والسكان بالمضايقة

(نص تلغراف وارد من عرابي)
(الى وكيل الجهادية بمصر)
(في ١١ سبتمبر)

امس وفي هذا اليوم لم تحصل مناوشات في عموم المراكز الحربية والعدو الان بمراكزه الاصلية وعساكرنا المنصورة بعناية الله بغاية الثبات والاستعداد التام وقد تبين من الاستكشافات الحقيقية ان تلفيات العدو من المحاربة الاخيرة التي اجريت بالخط الشرقي يوم السبت الماضي جسيمة جدًّا تزيد عن تلفياته في محاربة يوم الاثنين فنهنئكم بذلك ونسأله تعالى تمام النصر امين

(نص تلغراف وارد من عرابي الى)
(وكيل الجهادية بمصر في)
(١٢ سبتمبر)

ابشر سعادتكم بامر يسركم ويسر افراد الامة وذلك ان حرب يوم السبت (٢٥ شوال سنة ٩٩) كانت اشد حرب انتشبت بيننا وبين الانكليز اذ كانت قوة الجيشين عظيمة واستمر القتال ١٢ ساعة بشدة وقوة

ومع استدامة ضرب المدافع والبنادق التي كانت مقذوفاتها كالمطر في الميدان فانهُ لم يستشهد من عساكرنا الا واحد وثلثون وجرح واحد وخمسون بجراح خفيفة غير خطرة كما يعلم من اليوميات المتقدمة من الالايات بالضبط والدقة وكان الظن ان يكون ذلك اضعاف هذا العدد نظرًا لشدة الحركة وطول مدة القتال ومن الاستكشافات الصحيحة تبين ان قتلى العدو الباقية في ميدان القتال نحو الفين وخمسمائة وقد ضاقت عربات النقل بجرحاه وبهذا يعلم الجميع ان الوقاية الصمدانية حاطت المؤمنين بسور حفظ وحصن نجاة من نيران العدو الباغي فنقدم لله مزيد الشكر ونحمده على حفظ عباده المؤمنين مع اقدامهم وهجومهم على العدو هجوم من لا يخاف الموت ولا يهاب الاعداء فبشروا الامة بهذه النعمة العظمى والعناية الالهية التي شملت جيشنا المنصور وحفته بالطافه نسال الله دوامها آمين (انتهى)

ملاحظة

هذا ما عثرنا عليهِ من منشورات العرابيين بتواريخها اثبتناه بحرفه الواحد والحقناه بسائر ما تجمع لدينا من اخبارهم تتميمًا للفائدة التاريخية وللقارئ الناقد ان يميز بين اقوالهم في شأن اجراآت الانكليز بالاسكندرية وبين ما تقدم لنا ذكره من حرصهم على راحة اهالي الثغر بعد حلولهم فيهِ واهتمامهم بنفعتهم ومحافظتهم على السكينة والطأنينة وسهرهم على شأن الخديو وذويه الى ان تيسر لهم الفوز الاخير والدخول الى مصر كما سيجيئ تفصيله اما نظرنا السياسي في المسألة فمن خصائص الجزء السادس ومحتوياته

فصلٌ
(منظومات في خراب الاسكندرية والحرب)

وقبل ان نختم هذا الجزء بذكر واقعة

التل الكبير ودخول الانكليز الى مصر والقبض على الروساء العرابيين نثبت في هذا الفصل بعض ما نظمتهُ قرائح الادباء الفضلاء الاتية اسماؤهم في خراب الاسكندرية واطلاق المدافع عليها وسير الحوادث الحربية مما جاء منطويًا على ذكر احوال واظهار عواطف وبيان اسفٍ ظاهر في بث ضميرٍ طاهر

وقد اكتفينا في هذه المنظومات بما وصلت اليهِ اليد ووقع عليهِ النظر غير مؤثرين الموجود منها لدينا على المفقود مما لم يصل الينا فادرجناها على الترتيب الاتي

(منظومة مصطفى باشا صبحي)

(وهي بعنوان)

(صدق المقال في مثالب البغاة الجهال)

تبيّن عُقبى غبّهِ كل معتدي
وامسى العرابي وهو بالذل مرتدي

يعض بنان المستكين ندامةً
ويقرع بالاذلال سن المسهّد

فهلّا رعى نعماء كانت ظليلةً
عليهِ وهلّا قد وعى نصح مرشد

وهل ندم الباغي اذا حم امرهُ
الى الحين يجدي بالرجاء المردد

بني الجهل والطغيان كيف كفرتمو
بانعم توفيق العزيز محمد

مليكٌ توافيهِ الملوك لنصرهِ
بانفسها غير الخميس المجرّد

وهل غير احسان الخديوي عليكمو
سوابغ كانت من ظريف ومتلد

نبذتم قوانين الشريعة ضلةً
وجاهرتمو بالبغي في كل مشهد

ومن كان لا يدري حقيقة امركم
انبئهُ الانباء عنكم ليهتدي

ولست مريدًا بالقوافي مصانعًا
ولا راهبًا من غائلٍ او مندد

فقد تلجئُ الاحوال للعجز حازمًا
كما تلبس الاحرار اثواب اعبد

ويدخل في عدّ النواصب خيفة الـ
ـردى علوي حين لم يلق مفتدي

ومـا انا الّا ذاكرٌ ما جنيتمو
كما يذكر الرائي فعال المعربد

سرقتم نقود الجنـد ثم رميتمو
دفاترهـا ليلاً بسرداب مفقد

وقد ظهرت تلك الخفايا جليةً
وحان جزاء السارق المتعمد

كما سرق التفتيش طلبة عامدًا
وبالرفت امسى في عقال التلدد

ورُبَّ يتيمٍ قـد اكلتم تراثه
وابعدتموهُ عن مجيرٍ ومسعد

وقلتم جنى ذنبًا لينفى وتظفروا
باعدامهِ والمال يبقى لذي اليد

وارملة اتلفتمو جل ما لهـا
وصيرتموهـا عرضةً للمفنـد

واظهرتم التوكيل عنها تسترًا
على نهب محصولاتهـا والتردد

وبالوفر لما ان فصلتم كغيركم
تضرمتمو كالارقش المتوقد

ووطأتم العصيان بالعهد بينكم
وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد

وفي مصر ساورتم سراي اميركم
مرارًا واوريتم زناد التمرد

وجئتم تجرون المدافع حولها
حصارًا وابرقتم باصوات مرعد
فاصبحتمو اصحاب سيفٍ ومدفعٍ
وللفاس والشادوف وسمات باليد
ولما تيقنتم بان جزاءكم
هو القتل اعملتم دسائس ملحد
واجمعتمو كيد ابن ملجم اذ غدا
يحاول قتل الابرياء ولا يدي
والفتمو حزب الضلال بحوطكم
بترقيش بهتانٍ وزورٍ ممهد
وقلتم عن الاوطان والدين انكم
تحامون في الجلى محاماة صندد
وما كان للاوطان والدين آفة
سواكم عليها اذ انتم بمؤيد
وزدتم على ماهية الجند وافرا
ومن يستزد بالبغي ما شاء يردد
وانشأتمو قانون يربي معاشكم
بتلفيق احكام وقول معقَّد
يخالف اسلوب القوانين وضعه
ويزري ببيت المال ازراء محصد
فامست بهِ بعض الارامل منكمو
لواء واخرى كالفريق المجد
وغيرتم الضباط عمرًا بفاسد
وسعدًا بمشومٍ وحرًّا باوغد
ولقبتمو منكم عُبيدًا بخالدٍ
تريدون سيف الله بعدًا لمعتدي
والقاب شتى من همامٍ وقائدٍ
وحامي حمى الهيجا وفارس معهد
وقدمتمو اهل الرذائل منكمو
كما شئتمو في مسندٍ بعد مسند

يجرّون اعقاب السيوف على الثرى
فتعركه فعل السفيه اليَلندد
وصحتم الاضغاث بالوهم بينكم
على الحرب ان في اليوم تنشب او غد
وكان عفا بالحلم عنكم اميركم
فاكبتمو الأ وفاء التعهد
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه
وترمى بهِ الاهواء في شر مورد
ولما اتى الاسطول مصر مسالما
اثرتم بريح البغي نار التعند
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم
وادمج غشًا في حماسٍ مقلد
واوهم زورًا ان فيكم بسالةً
فحاولتمو بالجد خطة اصيد
وهيأتمو بعض الطوابي تمرا
وهددتمو سيمور كل التهدد
فسببتمو احراقها وخرابها
وكانت حصانًا بالبناء المشيد
واتلفتم الخرطوش من غير عائدٍ
مع الريح بدوي لا الى الفلك يهتدي
ولم ترَ منكم في سفين اصابةً
تعلل نفس الحر عند التنهد
وغادرتمو قتلاكمو دون ملحدٍ
وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
وصلتم على المستأمنين لتأخذوا
بثار الطوابي من ضعيفٍ ومقعد
واخرجتم السكان من دور ثغرهم
سراعا بتهديد وضرب مبدد
وكم من بريءٍ قد قتلتم ببغيكم
وكم من عزيز قد اهنتم وسيّد

وكم ذات خدر قد فضحتم وحامل
جبهتم فألقتْ حملها دون مَوْلد
وَاحرقتمو منشية الثغر بعد مـا
نهبتم وسرتم كالنعام المشرَّد
وكان سليمان الغبيُّ معينًا
الى الحرق وَقَّافًا لدى كل مرصد
فمالكمو لا احسن الله حالكم
هربتم هروب الارعش المتبلّد
وخلفتمو في الثغر عارًا ورحتمو
بخزي لكم يبقى بذمٍّ مخلَّد
وعاودكم بعض الغرور فملتمو
الى الرمل ميل الغادر المتصدّ
وحاصرتمو قصر الخديوي بعسكر
وخيل توالت من كميت واجرد
وفي كفرة الدوار خلتم مقامكم
منيعًا فاظهرتم كمين التحشد
وحالفتمو ابليس فيها وقد خلا
لكم جوّها في فدفدٍ بعد فدفدِ
فصفرتمو تيهًا ونقر بعضكم
ولاح لكم بيض به النصر يفتدي
وفي العزل والتنصيب والحكم جرتمو
وكنتم لجمع المال اشره مجتدي
سلبتم من الانحاء محصول زرعها
وما للاهالي من لجين وعسجد
واظمأتم الاسكندرية حينا
منعتم وصول الماء من كل مورد
وكم محصر امضيتموه بقهركم
وممتنع ارهبتمو بالتوعد
واخربتم البلدان ثم صعدتمو
الى التل في جيش كثيف معدد

اليكم اليكم انما قد تركتمو
الى اجل دون القصاص محدد
فهذي جيوش للنضال تواصلت
بكل سفين مثل صرح ممرّد
لنصر الخديوي او لقهر عداته
لهم وثبات بين راغٍ ومزبد
واضحت رحى طغيانكم في عديدكم
تدور عليكم بالكروب المهدد
بطالع توفيق المندّى وبغيكم
خذلتم غداة الحرب في كل مطرد
وفي وقعة التل الكبير انهزامكم
يعيركم في كل عصر مجدّد
اغارت عليكم فيه اول فرقة
فطرتم شعاعًا كالهباء المبدّد
وما رآبها الروبي هناك بخيله
ولا زار الذئب الكمين بمرقد
فَاينَ الذي اعددتمو وادعيتمو
به من ثباتٍ في الوغى وتجلد
فهلاّ صبرتم وهوَ تصديق زعمكم
وهلاّ قتلتم وهو خير لمرتدي
اِذَنْ كانت العوْرات يخفى ظهورها
لدَى البحث في نادٍ دقيق التنقد
ولكن فضحتم بالفرار كدأبكم
وكانَ العرابي بالهزيمة مبتدي
كدأب بني كلب غداة تمكَّنتْ
بنو أسد منها بضرب المهند
كدأب جهول باع ثورًا لبومة
وقيدهُ في غصنها المتأوّد
لعمري لقد ابدى العزيز لجهلكم
من الحكم ما يوهي صلابة اقود

وَرَقَاكمو بالمكرمات فحدتمو
وكلّ لئيم ان رقى يتمرّد
مطايا العلى في الخطب تنجو بصادق
ونكبو بمعتل السريرة احقد
بيمن الخديوي مصر كانت لاهلها
عروسًا تجلّت في كساء زمرّدي
سقاها نمير النيل صفوًا فازهرت
وراقت بني الدنيا بوجه مورد
تُدَبّرها للسّلم نُظّار مجدها
وَاحكامها تبدو بعدلٍ موطد
فعهد رياض كان يزهو نضارة
وكانَ شريف للعلى خير منجد
وقد حذراكم ما استطاعا فخنتمو
واضحى بكم سامي اثر مقلدِ
تضلونهُ جهلاً ومكرًا يضلكم
وكلٌّ باراء المضلين مقتدي
وما زال في امر البريئين اخذًا
بقول العرابي مظهرًا للتشددِ
الى ان هوى بعد العتو ولالعًا
لعثرة باغٍ في الحماقة اوحدِ
جعلتم لدى الداهين فيها رئاسة
فعرضتموها للدواهي باجرد
وهل ميت الاحياء يرجى لمعظم
من الامر في يوم من الخطب اسود
بمنشوره البرقي هيج فتنةً
واسند عهد الحكم في غير مسند
كأَن لهُ في الامر حق تصرفٍ
وصيره فيكم بقصد التودد
لقد زاد في الطنبور انكر نغمةً
بها ارّق المحزون صوت المغرّد

ولولاه ما حاز العصاة من القرى
مغانم شتى غير رفدٍ ومرفد
فقل للعرابي ان رؤياك صادفت
ولكنها وافت على غير مقصد
وتأويلها بالحبس تلقى اهانةً
ويعقبها شرٌّ يسوءك في غد
فيا كل مشوم وكل مغفلٍ
لك الويل من عاد عن الرشد مبعد
اراك درست البغي بالجهل كاملاً
وفي الحزم لم تبدأ باول ابجد
وسلمت سيف الذل في مصر صاغرًا
فيا شؤم سيفٍ في الوغى لم يجرد
فلو كنت تجزى بالذي تستحقهُ
لناداك داعي الحكم غير مردد
تقدم عرابي وارق أعواد واعظٍ
بصمتٍ وقبل الارتقاء تشهد
ومثلك في ذا الحكم كل مجاهرٍ
ببغيٍ على عدل العزيز المؤيد
ولكن عفا عنكم اميرٌ تعودت
خلائقهُ الاحسان كل التعود
لهُ الفضل اما انتمو بفضولكم
تعيشون امواتًا بذلة انكد
ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم
وغص بنوكم بالقراح المبرّد
وان تبعدوا لاقرب الله داركم
ولا دار مَن والاكمو في التجند
فبغيكمو ابقى عراقيل جمة
عليكم بها لعنٌ من الله سرمدي
فسيروا الى ارض الجزيرة حيثما
منيتكم حمت بها وكان قد

وكم سائلٍ هل اخرجوا من ديارنا
وهل امنت اوطاننا عود معتدي
فقل في جواب السائلين مؤرخًا
بلى خرجوا كرهًا لنفي مؤبدِ
٤٢ ٨١٠ ٢٢٦ ١٧٠ ٥٢
سنة ١٣٠٠

***

يعيش ابو العباس ذخرًا لمصرهِ
وكهفًا لاهليهـا ورغمًا لحسدِ
يعيش الخديوي مصلحًا لرسومها
بعدلٍ واجلالٍ ومجدٍ وسوددِ
وتسمو بهِ الانجال مثل جدودهم
سموًا لابراهيم بعد محمدِ
ولا زالت النظار تحمي ذمارها
بحزمٍ وتدبيرٍ ورايٍ مسددِ
وان تعرض الاراء من اي وجهةٍ
فان الخديوي ينتقي كل افيدِ
اصالتهُ بالرأي في مصر ارخت
محمد توفيق بهِ الكل يقتدي
٩٣ ٥٩٦ ٧ ٨١ ٥٢٤
سنة ١٣٠٠

(منظومة الطيب الذكر اديب افندي اسحق)

(وقد نظمها بعنوان)

(رثاء ووجاء)

عج بي على تلك الطلول وناد
أنى تحمل اهلُ هذا النادي
هل صادهم شركُ الردى فابادهم
صرفٌ اناخَ على ثمود وعادِ
ام غادروا الاوطانَ في اوطانهم
مذ حاذروا غدر الزمانِ العادي
وسلِ الرسومَ وان عنت عنهم وما
فعلوا قُبيلَ رحيلهم بفؤادي
خلفتهُ في حيهم ميتًا فهل
احياهُ ام حيَّاهُ اهل ودادي
ام حملوه رديف صبري والمنى
وتجلدي وتعللي ورقادي
ام غادروهُ رفيق وجدي والضنى
وتلهفي وتذللي وسهادي
يا واردَ الاسكندرية طامعًا
بمنافع الإصدار والايرادِ
اقصورها خفيت عن الانظار ام
اثار لقصر في الفنارِ بواد
ام تدمرٌ قد دُمرت وعمورة
ما عُمرت ام دار ذي الاوتاد
هذي عروس الشرق ماتت فاكتسى
حزنًا عليها الغربُ ثوب حداد
بالامس كانت والبياضُ دثارها
واليوم صارت ارسمًا بسواد
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت
والخوفُ منها مبعدُ القصاد
كانت موارد للظماء وقد غدت
ما أن بها من موردٍ للصادي
كانت مراتع نعمةٍ فغدت وما
فيها سوى البأساء للمرتاد
كانت وكان الدهر يسعد اهلها
فاصابهـا بالاهل والاسعاد
كانت وكنا لا ينامُ حسودنا
صارت وصرنا راحة الحساد

كانت وما تخشى بوادر ضدها
فغدت ترجي رحمة الاضداد
قامت على اقوى العماد تزين ما
تحت التي رُفعت بغير عماد
فأبادها جهلٌ خفيٌّ ما بدا
مثلٌ له من حاضرٍ او باد
جهلُ الذي رام الاماني وهي في
قمم الجبال وكان دون الوادي
وعدا وما لقي الثعالب عمرهُ
يبغي اقتحام عرائن الاساد
وسعى الى الشورى ولكن خالها
لـما تهتك برقع استبداد
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا
لـما تساوى حزبهُ بفساد
وقد ادعى في عسفهِ حريةً
يا من رأى حرية استعباد
والى الإخاء دعا فنال بفعلهِ
من قومه ما لم ينلهُ العادي
شقيت بزلتهِ الجموع وطالما
اشقت جموعًا زلـة الافراد
وتلاه في سبل الغواية معشرٌ
زلوا وضلوا حيث ضلَّ الهادي
غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا
مما جنوهُ غير شوك قتـاد
وسعوا فسادًا في البلاد كأنهم
والحادثات أتوا على ميعاد
خلعوا الشعارَ المستعارَ من الحيا
فتقمصوا عارًا الى الاباد
وتخيلوا ان الطريق خلت لهم
فسعوا فكان العدل بالمرصاد

فأتاهم رعدُ المدافع مبرقـًا
فنبوا عن الإبراق والإرعاد
وسطوا على المستأمنين خيانةً
لم تشفِ منهم غلة الاحقادِ
ورموا بنارهم الديار وبددوا
ما استجمعت من طارفٍ وتلادِ
نكرٌ عرفنا منهُ ان لبغضهم
بزَّ اللصوصِ وبزة الاجنادِ
ونقيصةٌ يسعى بهـا ابناؤهم
لمقابر الابـاء والاجداد
اسفًا على تلك القصورِ فانها
كانت مُنى الورّادِ والروّاد
اسفًا على من قادهُ استئمانهُ
للفاتكين ولم يجد من فاد
اسفًا على قومٍ اتاهم فجأةً
صوتُ المنادي بالبلاد يُنادي
فتسارعوا طلَبَ النجاةِ من الرّدى
بنفوسهم والاهلِ والاولاد
ياهولها من ساعةٍ مرّت بها
زهقت بهِ الارواحُ م الاجساد
كم حاملٍ خرجت بها محمولةً
فوق الكواهلِ او على الاعواد
ومصونة نُفسا تقول لصحبها
ياليتني قد متُّ قبل ولادي
لطخت بآثارِ الولاد وما درت
جسدًا تضرّج قبلهُ بجساد
ومبأباء يُدميه لمسُ حريره
طفلٍ قريب العهدِ بالميلاد
ومعمّرٍ لم يبقَ في الدنيا لهُ
غير السكينة من مُنىً ومراد

ومريضِ قومٍ غابَ عنهُ طبيبهُ
وجفاهُ انسُ الاهلِ والعوّاد
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم
والنائباتُ روائحٌ وغواد
ودموعهم والنارُ في احشائهم
حلّت محلّ مزادهم والزاد
فكأنهم ابلٌ بدوٍّ نالها
أمُّ السغوب وحادَ عنها الحادي
تعلو وتهبط جانحاتٍ لا ترى
من بلغةٍ في النجدِ ووهاد
او انهم قصدوا الصبوح فجاءهم
في فجأةٍ منهم طريد طراد
شهد الوبال ولم يجد من منجد
فاغذّ في الاتهام والانجاد
فتفرقوا والهول ملءُ قلوبهم
يتنادم زمرًا بغير قياد
او انهم اهل القبور تيقظوا
سحرًا بنفخ الصور بعد رقاد
نشروا عراةً واجفين فيومهم
يوم المعاد اتى بلا ميعاد
والنار موقدةٌ سرت من خلفهم
فكأنها حيات بطن الوادي
والجند شردهم قتال عدوهم
فرقًا فلم يتجلدوا الجلاد
ونضوا على اهل السبيل بواترًا
في الحرب ما انضيت من الاغماد
قد حددت شفراتها لكنها
كانت على الاعداء غير حداد
ولرب عادٍ منهمُ في رعدةٍ
ما ان تلم بصائد الرعاد

سكنت فرائصهُ على نهب الحمى
من قبل تسكنَ رعدة الصياد
ومرأسٍ حثّ الجواد وخلفهُ
مما حباه النهب حمل جواد
عدم الرباط فشده بنجاده
وانّى معسكره بغير نجاد
فهم اللصوص وان هم قد اوهموا
ان ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم
ما لم يحق في عهدنا ببلاد
عيبت فلولا السابقون ومجدهم
وبقاءُ من ولدوا من الامجاد
ومؤيدٌ ملكٌ اميرٌ عادلٌ
اربى بمفرده على الاعداد
وعصابةٌ كانت قلائد فضلهم
ابهى من الاطواق في الاجياد
لم تلقَ في مصرٍ ومصر عزيزةٌ
من قائلٍ هذي البلاد بلادي
امّا وقد وَليَ الشريفُ امورها
فلها بحولِ اللهِ خيرُ مَعاد
مولى لهُ في النفعِ رَغبةُ طامعٍ
وعن المضرّةِ عفّةُ الزهّاد
وهو الذي يخبا ليوم كريهةٍ
وسدادِ ثغرٍ من طريق سداد
واذا بدا في ليلِ خطبٍ رأيهُ
ازرى بنور الكوكب الوقاد
يا حائز المجد الرفيعِ وجامع آل
فضلِ الصديعِ وواحد الاحاد
يا جالب النعمِ العظامِ ودافع آل
نقمِ الجسام ومؤيلَ القصّاد

(١) . . . .

. . . .

يَضت بالنعاء ايامي وما
حالت فأصبغ عرفها بسواد
وبلوني فرأيت مني صادقًا
ما شاب ورد صلاحهِ بفساد
وحميتني والنائبات ملمةٌ
ونصرت ضعفي والزمان معاد
وظهرتُ فيك بكل مدحٍ صادقٍ
صِرفٍ وما جمري كمين رمادي
وقد اعتذرتُ وما وراء تنصلي
في القلبِ غير امانةٍ ووداد
فاذا صفوتَ فذاك غاية مقصدي
واذا رضيت فذاك كل مرادي
يا صبحَ كل مؤمل بانجح كل م
توسلٍ يا مورد الامداد
لولاك ما احييت ليلي ضاربًا
في الشعر بالاسبابِ والاوتاد
وصنًا لما يجري الدموع اقلهُ
وبقلبٍ فيهِ تفتت الاكباد
فلقد هجرتُ الشعرَ لما ان رمى
ضعفُ السليقة سوقه بكساد
واستامهُ من ليس يفرق بين ما
يفنى وما يبقى على الانشاد
لكن رأيتك يا نصيري جامعًا
نقد البصيرِ ودقة النقاد

---

(١) عرّض الناظم هنا بذكر امور لا محل لذكرها في مثل هذا المقام.

فنظمتهُ نظم الفرائد مثلما
نظمت لديك قلائد الاوفاد
وهنا بيت عرّض فيهِ بذكر حاجة فحذفناه واثبتنا ما بعده
قال :
زعموا بان سريرتي قد كُدّرت
فلمن يصافي بالجميل تصادي
فبعثتُ صافي الشعرِ يثبت صفوها
ولو استطعتُ جعلتُ فيهِ فؤادي

(منظومتان لحضرة قدري بك)
(احد اعضاء الوفد العثماني)
(في مصر)

المنظومة الاولى

اسكندرية هذه احلام
ام قد قضت فيما نرى الايام
ما هذه الاحوال يا ثغر الغنا
حارت بها الافكار والاوهام
اليوم اضحى باكيًا اسكندر
مما اعتراك وما بذا اعظام
لو انها تدريه يا بلد الهنا
لتدكدكت من حزنها الاهرام
انكون قاعًا بلقعًا منثبةً
ان العمارة بعدها لحرام
جاست خلالك يا ديار بواغمٌ
تبًا لهم ان البغام بغام
يا ثغر حسنٍ للبلاد لقد كفى
ما مر فليصفو اللمى والجام
اضرمت نارًا في القلوب تاججت
لما بدا بحريقك الاضرام

او تنظر العينان ابهج بلدة
اضحت رمادًا والسماء قتام
او بعد ذا المنشية الكبرى لذي
فكر محل تنزهٍ ومقام
هيهات بعد النقض بامنشية
ان يستعاد بحالهِ الابرام
ويلٌ لمن يرجو الصفا من دهره
فلتاتهِ الاحزان والالام
يبكيك من يدريك باثغر الغنا
واقل حزنٍ للبكاء لزام
احرقت اعرابيُ ثغر بلادنا
والله قد حاطت بك الاثام
فانظر جزاك كيف يأتي عاجلاً
يا ابن الزنا ما هذه الاجرام
ياليت تدري ما اقترفت فانهُ
ما سام هذا الفعل قبلك حام
وبعزة التوفيق تلقى في غدٍ
ما تستحق وتفسد الاحلام
فتقول من فرط المنا اهل العنا
اسكندرية هذه احلام

المنظومة الثانية

اواري في حديثي ما اواري
ولكن ضاق عن سري دثاري
فقد شاعت لنا اعمال سوء
فما يجدي بها قصدي التواري
الما يكفنا سكان مصرٍ
دعتنا الناس من وحش البراري
تبعنا جاهلاً فظًا غليظًا
وقمنا كلنا في اخذ ثارِ
وما ندري بان الناس طرًا
ستلعننا بتخريب الديار
وماذا الثار يا قومي جهلتم
اياد قد غدت مثل النهار
انتسى كلنا فعلاً جميلاً
بهِ نلنا كمال الاعتبارِ
جهلنا شأننا بغيًا فعدنا
بشر الصنع في ذل الصغارِ
ولو انا علمنا ما فعلنا
ولكن كان امر الله جاري
اما يكفي لمن يدري فانا
لبسنا بالخيانة ثوب عارِ
الاعرابي يتبع بانتصارِ
وبئس السعي في ذا الانتصارِ
وما نبغي اذا كنا تبعنا
جهولاً احمقًا مثل الحمارِ
وان يك زاد جسمًا ليس علمًا
فاعظم منهُ عامود السواري
وهب انا نراهُ اليوم عجلاً
كعجل السامري بلا خوارِ
الى مَ الجهل يا قومي كفانا
تعالوا للتبصر بافتكارِ
اذا كان الغراب دليل قوم
فسراهم الى دار البوارِ
لقد قامت قيامتنا بجهلٍ
وصرنا عند منتصف النهارِ
وان امسى بنا ذا اليوم قومي
فغايتهُ دمارٌ في دمار
فمن ذا الفج اعرابي حتى
لهُ تنقاد ابناء الديار

وصاحبة البس ابا الرزايا
كبارودٍ تقرب من شرارِ
فانهما وقومهما جميعًا
رجال السوء ابناء الشرارِ

(وعثرنا على القصيدة الاتية)
(لاديبٍ لم نقف على اسمهِ)

تنطر القلب من حزن ولا عجبا
والدمع فاض على الخدين منسكبا
اسكندرية ما هذا الخراب وكم
من نكبة بك قد حلت فوا حربا
قتل وموت وتدمير مهاجرة
سلب ونهب ونيران وكف سبا
دخلت میناك ابغي الوصل ملتهفًا
وجدت قلبك بالنيران ملتهبا
ثملت مما رات عيناي واضطربت
مني الحواس وطار العقل منسلبا
فعدت والقلب قد قامت قيامتهُ
اسري كسير الاسير الطالب الهربا
انعيك ما عشت لا عاشت انامله
ذاك الذي كان في اذلالك السببا
اين القصور واين الناس قد رحلت
عنها واين الغنى والمال قد ذهبا
كم شارع زينة الغاديات غدا
تلاًّ من الردم فيهِ اليوم قد نعبا
خلت ربوعك من اهليك واندرست
وانداس كل ثمين فيك وانقلبا
قد كنت راقصة مثل العروس وها
اصبحت ثكلى فلا حظًا ولا طربا
وكنت بالامس مثل الشمس مشرقة
فناء كل ضياء عنك واحتجبا
ما هذه الحال في يوم وليلته
يحل فيك مصاب قط ما كتبا
يا زينة الشرق يا خير البلاد ومن
بالجد والفخر والعز ارتقت رتبا
ندبت حظك ندب الطفل والدهُ
ولست اول من قد ناح وانتدبا
يبكيك دانٍ وقاصٍ والدموع دمٌ
وقد كوت نارك الاهلين والغربا
سالت ربي ان يكسوك ثانيةً
ثوب الجمال معيدًا كل ما خربا
وان يحفك بالتوفيق رافلة
فان ربي مجيب كل من طلبا

فصلٌ
واقعة التل الكبير

في مساء ١٢ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٢ ورد على الخديو تلغراف من سلطان باشا منبئ ان الجيش الانكليزي قد استعد للهجوم على العصاة في التل الكبير ثم ورد تلغراف اخر من الاسمعيلية يعلن ان الانكليز هجموا على التل من كل ناحيةٍ وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ (على الاصطلاح الافرنجي) بعد منتصف ليل ذلك اليوم وان العرابيين لم يقفوا امام الانكليز الاَّ عشرين دقيقة استولى الانكليز بانقضائها على التل فغنموا اربعين مدفعًا وقتلوا الفي رجل واسروا الفين واستولوا على المؤن والذخائر ثم اخذوا يتعقبون الجند المنهزم

هذا مفاد التلغراف بشرحه ومعناه انبتناه

نوطئةً لما سيجيء تفصيله اخذًا عن تلغراف وارد من الجنرال ولسلي في مساء ١٢ سمبر ومقدمةً لما تجمع لدينا من التفاصيل الواردة على السنة الرواة ممن نقلوا الينا البيان الاتي في شأن انحلال جيش التل الكبير وهزيمته وهو:

قبل ان تتحول القوة الانكليزية الى الخط الشرقي ببضعة ايام ورد على عرابي في كفر الدوار بعض نسخٍ من صحيفة الجوائب وفيها صورة «البيانامه» السلطانية المتضمنة ان عرابي مرق من الدين وعصى على امير المؤمنين وخرج عن حد الشرع الشريف الى غير ذلك مما تقدم ايراده في الصفحات السابقة فعندما وقف عرابي عليها واتى على آخرها بلغ منهُ الغيظ مبلغًا عظيمًا وزال ما كان يعتقده من ميل السلطان اليهِ ورضاه عنه فاستدعى في الحال بعبد الله نديم وبعض خواصه واطلعهم على نص ذلك البيان السلطاني واستشارهم فيما يجب ان يفعلهُ في مثل تلك الحال فاشار عليهِ نديم بنشرها في صحيفة الطائف والرد عليها مع الاستمرار على المدافعة والذود عن الوطن حتى في الحالة التي ترد فيها عساكر تركية لمحاربتهم فلم يستحسن عرابي نشرها واظهارها الناس خشية ان تحول القلوب عنهُ وتحل رابطة اجتماع الامة على ولائه خصوصًا وان عامة الناس ومعظم الضباط وكبار الجند كانوا معتقدين ان هذه الحرب لم تنشب الاَّ للمحافظة على حقوق السلطان في القطر المصري فامرهم بكتم هذا الامر وقال : ربما كانت هذه «البيانامه» مبنية على سياسةٍ من السلطان اضطرتهُ الى اصدارها مراعاة لظروف الاحوال والخوف من ظهور المسألة الشرقية في مظهرٍ يصعب استدراكه ويعز تلافيه . اه .

فبناء على ما تقدم حجبت هذه «البيانامه» عن اعين الناس وافهامهم كأن لم تكن شيئًا مذكورًا ثم ظلت تحت برقع الاحتجاب الى ان طرأ على الاعمال الحربية ما اوجب انتقالها الى الخط الشرقي فدخلت الدوارع الانكليزية في الترعة وحدثت واقعة المحفوطة (١) وواقعة القصاصين وامست الطريق بين الصالحية (وكان حكمدارها اذ ذاك محمود سامي) وبين التل الكبير خالية من الحامية (ما عدا قبيلة عربان المنادي التي كانت مائلة الى الخديو باطنًا) فبذلك تمكنت جواسيس الانكليز (وكانوا من المصريين) من الدخول في وسط جيش التل الكبير وتوزيع نسخ كثيرة من صورة « البيانامه » الآنفة الذكر على كبار الضباط وصغارهم فلما اطلعوا عليها ضعفت عزائمهم ووهنت قواهم فعم الاختلال وساد على عقولهم الارتباك

ولما علم عرابي بذلك ووقع في المحذور جمع مجلسًا حافلاً مؤلفًا من جميع الضباط وتلا عليهم « البيانامه » المشار اليها ثم طلب منهم ابداء آرائهم في هذا الشأن فكان من رأي اكثرهم وجوب الاستمرار على الدفاع (وما كان ذلك منهم الاَّ محاباةً ورياء) اما الباقون فرأوا ان التسليم اسلم وبعد ذلك انفض المجلس على نية الدفاع بغالبية الاراء مع ان الجميع كان بودهم ان يستسلموا وكانوا يحذرون من مناوأة السلطان ويتقون الخروج عن طاعته

---

(١) التي اسر فيها محمود فهمي حينما ارسله عرابي لسد الترعة

وفي خلال ذلك كانت الرسائل تبعث من قبل الخديو الى كبراء الضباط بالوعد والوعيد معلنةً لهم ان الجيش الانكليزي لم يرسل الى مصر الاَّ بأمرٍ من السلطان خدمةً للخديو وتأييدًا لسلطته واستمر ذلك الى ان كان يوم الثلثاء الواقع في ١٢ سبتمبر سنة ٨٢ ففيه كتب علي بك يوسف اميرالاي المقدمة الى عرابي بانهُ قد تحقق ان العدو لا يخرج في هذه الليلة (ليلة ١٣ سبتمبر) كما اخبر بذلك الجواسيس فبناء على هذه الافادة اصدر عرابي امره الى الجيش بالاستراحة في تلك الليلة والامساك عن الاعمال الحربية وعزم الشيخ عبد الجواد على احياء تلك الليلة بالاذكار

وكانت العساكر الانكليزية قد سارت من اول الليل لا تفتر لها عزيمة ولا تشكو مللاً وفي مقدمتها بعض ضباط اركان حرب المصريين الذين انحازوا الى الخديو وامامهم عربان المنادي يرشدونهم الى الطريق ما بين الصالحية والتل الكبير واستمروا سائرين الى ان بلغوا المقدمة في آخر الليل فاخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومروا بين العساكر لا راد يردهم ولا مانع يمنعهم فاطلقوا النار على الاستحكامات واوقعوا بالجند الراقد فالقت الاجناد اسلحتها وفرت طالبة لانفسها النجاة

واستيقظ عرابي من نومه على دوي المدافع وخرج من خيمته لاستكشاف الخبر فارتاع وتولاه الاندهال لما علم ان الانكليز استولوا على الاستحكامات ورأى الجنود المصرية منهزمة لا يلتفت بعضها الى بعض فاخذ يناديهم بعالي صوته ويحرضهم على الرجوع والثبات في ساحة القتال فما سمعهُ سامع ولا لباه مجيب بل كان كمن يضرب في حديد بارد او ينفخ في رماد

وقد ظن الضباط والجند ان العساكر الهندية جنود عثمانية مرسلة من قبل السلطان فكان ذلك من بواعث هزيمتهم والقائهم للاسلحة بدون قتال

ولما يئس عرابي من اعادة الحماسة الى رؤوس جنده ورأى خيمته طائرة في الهواء اثر قنبلةٍ انكليزية اصابتها علم ان الخطب جلل ولا ينجيه من الموت الاَّ الفرار فركب جوادًا كريمًا ورضي من الغنيمة بالهزيمة ففرَّ وتبعه نديم على ضامرٍ من الخيل وقد حاولت فرقة من سواري الانكليز ادراكهما فما ادركت غير ما كان يثور وراءهما من الغبار

وهكذا تم استيلاء الانكليز على التل الكبير ومهماته وذخائره وبهِ كانت نهاية هذه الحرب المشؤمة .

وهذا معرَّب التلغراف الذي ورد على الاسكندرية من الجنرال ولسلي مؤرخًا في الساعة ١١ والدقيقه ٣٠ (على الاصطلاح الافرنجي) من صباح الثلثاء الواقع في ١٤ سبتمبر

قال . في ليل امس امرت جيشي بالاستقرار في القصاصين تحت الخيام فاستقر الى الساعة ١ والدقيقة ٣٠ بعد منتصف الليل مستعدًا للمسير وحينئذٍ زحفت على التل الكبير بقوة ١١٠٠٠ من المشاة المسلحين بالحراب و ٢٠٠٠ من الفرسان متقلدين السيوف و ٦٠ مدفعًا على عزم ان نهجم على التل عند بزوغ الفجر

وكان عرابي ضاربًا في ذلك الموقع الحصين بقوة عشرين الف مقاتل من المشاة و ٢٥٠٠ من الفرسان و ٦٠٠٠ من العربان و ٧٠ مدفعًا

وقد سرت ليلاً فقطعت مسافة الستة الاميال الكائنة بيني وبين العصاة من غير ان القى مزعجًا وكان مع فرساني في ميمنة الجيش بطاريتان وفي الميسرة فرسان بامرة الجنرال غراهم وفي مقدمة الجيش وخلفه فرسان بامرة نجل الملكة وكان عن يسار الخيالة ٧ بطاريات و٤٢ مدفعًا على خط واحد ومعهم الاباث العساكر الجبلية وكان فرسان الميمنة ما وربن بقطع خط الرجعة على العصاة عند طلوع النهار

وقد جعل هذا الترتيب مبنيًا على نية الهجوم كرةً واحدة على التل الكبير وكان كذلك فاننا اندفعنا عليهِ بثباتٍ وبأس وقد امتاز في البسالة الاي الملكة الارلندي وعلى الخصوص في الكيفية التي استولى بها على مهمات العصاة

وقد استولينا على عدة قطارات وكميات وافرة من المؤونات والمهمات الحربية اما المدافع التي غنمناها فلا اعلم عددها الى الان ولكنها كثيرة

ولقد رأينا العصاة منهزمين الوفًا ساعة هجوم الفرسان عليهم فانهم القوا اسلحتهم من ايديهم وشمروا عن ساق الفرار بعد ان نكبوا بخسائر جسيمة

وجرح منا الجنرال ويلس جرحًا خفيفًا والكولونل ريتشرسون جرحًا بليغًا وأصيب من الجبليين الماجور كولنل واندرودر وسمرفيل وقتل القائمقام ادوار وجرح الكولونل ستران وأصيب الطبيب كان برصاصةٍ جرحتهُ جرحًا خفيفًا والكولونل بلنور برصاصةٍ جرحتهُ في رجله وقتل السير جان هولس وجرح اربعة غير هولاء من الضباط

اما عرابي فقد فرَّ الى الزقازيق على جوادٍ سريع العدو وقد جرح راشد باشا في رجلهِ وعلي باشا فهمي في ذراعه

وقد حدث بعد الواقعة ان توجه فرساننا الى بلبيس والهنود الى الزقازيق وسيلحق بهم الجبليون في مساء هذا اليوم

قطعت الترعة الحلوة من جهاتٍ متعددة ولم تصب السكة الحديدية بضرر . اه .

ثم ورد منهُ بعد ذلك تلغراف يقول فيهِ

بلغ عدد المدافع التي غنمناها من ٥٠ الى ٦٠ مدفعًا وفي الساعة الرابعة من مساء اليوم (١٣ سبتمبر) دخلنا الزقازيق بعساكر الهند واستولى الجنرال ماكفرسون قائد الجيوش الهندية على خمسة قطارات ملأى بالذخائر الحربية والمؤن

اهالي الزقازيق مبتهجون فرحون بزوال الضيق

فر عرابي الى مصر

حل فرساننا في بلبيس وقد عزمت على ارسال المشاة اليها بقصد ان ادخلها غدًا

في الامل ان استولي غدًا (١٤ سبتمبر) على بنها العسل واذا لم القَ صعوبةً ما تقدمت بالفرسان الى قليوب ومنها انطلقت الى مصر . اه

ولما ورد على الاسكندرية خبر استيلاء الانكليز على التل الكبير سر سكان الثغر بهِ ووفد الوطنيون والاجانب على الخديو يهنئونهُ بالفوز والنصر وصدحت الموسيقى الخديوية بانغام التبشير بالظفر وزعقت بالسلام الخديوي امام سراي الحقانية فرفعت العساكر الانكليزية السلاح تعظيمًا واجلالاً وصرخ الجمهور ثلاثًا (فليحيَ توفيق الاول خديو مصر) ثم ختم ذلك بالدعاء

للخديو وملكة انكلترة والجنرال ولسلي والدولة الانكليزية وتفرق القوم بعد ذلك وهم لشدة فرحهم يكادون لا يصدقون بحلول الفرج وزوال العسر

وفي ١٤ سبتمبر وفد على السير افيلين وود قائد العساكر الانكليزية في الاسكندرية ضابط مصري حاملاً الى شريف باشا كتاباً متضمناً ان العساكر والضباط اعلنوا انفسهم عبيداً امناء خاضعين لامير البلاد وقد ورد موقعاً عليهِ من بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمود راؤف باشا

ثم ورد كتاب ثانٍ من بطرس باشا وراؤف باشا المومأ اليهما مفاده انهما قدما الى كفر الدوار نائبين عن اهالي العاصمة واعيانها في تقديم الطاعة والخضوع للحضرة الخديوية فارسل الخديو مندوباً مخصوصاً ليستدعيهما فتوجه وعاد بهما اليهِ

وقد جرى بعد ذلك ان عادت مياه ترعة المحمودية الى مجاريها فاقفلت الصهاريج وانتفى سبب الضيق من قلة الماء

فصل

(فيما كان بعد انهزام عرابي)

(من التل الكبير)

بعد ان انحل جيش التل الكبير وتفرقت جموعه استمر عرابي في هزيمته يسابق الرياح ويطير من غير جناح وفرسان الانكليز من ورائه تطارده وتحاول القبض عليهِ حتى وصل الى محطة ابي حماد وقد اعياه التعب وتولاه الملل فاسرع بالنزول الى القطار ومعهُ عبد الله نديم وامر السائق بالمسير قبل ان يدركهُ المطاردون فتأخر عن اجابتهِ متعللاً باعذار لم يكن القصد منها الا عوقهُ عن الهرب وايقاعه في شرك مطارديه

فلما احس بالمكيدة وعلم ان السائق مغرى عليها استل سيفهُ وتهدده بالقتل فامتثل امره خوفاً وسار بالقطار وبهذه الواسطة تمكن عرابي من النجاة فوصل الى القاهرة يوم الاربعاء (١٣ سبتمبر) وذهب الى قصر النيل فعقد مجلساً حافلاً من امراء العسكرية والملكية واعيان المحروسة واخبرهم بالهزيمة وما آلت اليه حالة الجيش ثم استشارهم فيما يجب ان يفعل وهل يستمر مدافعاً او يسلم الامر لاحكام القضاء والقدر

فاجاب كلٌّ منهم بما وصل اليهِ رأيه ثم علت الضوضاء وكثر اللغط بين سالبٍ من القوم وموجب الى ان اسكتهم البرنس ابرهيم باشا (ابن عم الخديو) بان قام في المجلس خطيباً وبرهن على وجوب الدفاع عن الوطن وقال ان مصر غاصة بالجند ومخازن الجهادية ملأى بالمؤن والذخائر والاسلحة ومعدات الدفاع متوفرة فاجابه الجميع بالاستحسان ولكن في الظاهر اما في الباطن فكانت اراؤهم مختلفة واغراضهم متباينة ثم استقر الرأي على انشاء خطٍ دفاعي في ضواحي المحروسة وبناء على ذلك توجه عرابي الى العباسية مستصحباً قوماً من المهندسين والضباط لاختيار الموقع الملائم وفيما كان يتكلم مع المهندسين في هذا الشأن خاطبه احد الضباط بكلامٍ جافٍ معقود باطراف الاحتقار فقال لهُ : « انك بجهلك وسوء تدبيرك قد احرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فاذا لم يكن لك فيها ما يهمك فاعلم بان

لنا فيها نساء واطفالاً واملاكاً لا نسلم بضياعها ارضاء لك وتنفيذًا لاغراضك . ألا تدري انك تعرض مصر للخطر بانشاء الاستحكامات في العباسية وتجعل منازلها هدفًا لكرات المدافع فنحن لا نوافقك على ذلك واني اقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترجُ منا مساعدةً ويكفي ما قد جرى»

فلما سمع عرابي هذا الكلام حاق بهِ الاندهال وارتبك في امرهِ لا سيما انهُ رأى علامات الاستحسان لقول الضابط باديةً على الوجوه فعلم ان انصاره خذلوه فكرَّ راجعًا على عقبيه كئيبًا كاسف البال ثم اجتمع باصدقائهِ ودعاهم الى النظر في الامر فاعملوا الفكر في استخراج نتيجةٍ يتخلصون بها من شرك الانتقام فلم يجدوا افضل من رفع عريضةٍ الى الخديو يعتذرون بها عن افعالهم ويقدمون لهُ الخضوع ويلتمسون عفوه عنهم فحرروا العريضة وارسلوها على ما تقدم ذكره في الفصل السابق مع بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمد راؤف باشا ثم عرض لهم بعض تغيير وتنقيح في تلك العريضة فاردفوها بعريضةٍ اخرى وارسلوها مع عبدالله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في يوم الخميس الواقع في ١٤ سبتمبر سنة ٨٢ فلم يجدهم هذا الفعل نفعًا فان مساعيهم اخفقت وآمالهم خابت بان ابى الخديو قبول العريضة واجابة الالتماس وأمر بالقاء علي الروبي في السجن فسجن في الاسكندرية

اما نديم فانهُ ركب القطار الذي قدم عليهِ وعاد من فوره بعد ان وصل الى كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليهِ الى الان

وقد صدر الامر بسجن عرابي واحزابهِ وانصاره وكان من امر المحاكمة وما تبعها ما كان مما سيذكر مفصلاً في الجزء السادس

وكانت العساكر الانكليزية قد وصلت زمرًا وافواجًا الى العباسية في مساء الخميس وعسكرت في سفح الجبل فخرج اليها بعض رعاع القاهرة من اهل باب الشعرية والحسينية بالعصي والهراوي قصد محاربتها فردهم ابرهيم بك فوزي مأمور ضبطية العاصمة يومئذٍ واخذ من ثمَّ يراقبهم ويرصد حركات امثالهم منعًا لوقوع الخلل .

وكان قد خاف الناس كثيرًا وظنوا ان الانكليز سيدخلون مصر بصفة الفاتحين فيقتلون وينهبون ولكن جاء الامر بعكس ما كانوا يتوهمون فانهم دخلوا العاصمة بحالةٍ سلمية في يوم الجمعة الواقع في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ طبقًا لما تنبأ بهِ الجنرال ولسلي

تمَّ الجزء الخامس ويليهِ الجزء السادس

تذييل

لا بد ان يكون حضرة القراء قد علموا بطالعة الجزء الرابع ولا شك انهم يعلمون
بطالعة هذا الجزء ما تكبدنا من المشاق انفاقًا للوقت والدرهم في سبيل اصدارها
بما امكن من السرعة مع طبع قسمٍ وافر من استنطاقات العرابين مما الحقناه
بالجزء السالف من اجزاء التأليف معروفًا بالجزء السابع في مراتب عدد
الاجزاء جميعها وما سنردف به عما قليل هذا الجزء منها معدودًا
جزءًا ثامنًا فاستنادًا لذلك الى علمهم بما صرفنا من الجهد في
انجاز هذين الجزئين وقسم الاستنطاقات الملحق بهما اصبحنا
على يقين من انهُ لم يبقَ عندهم ريب في قرب تكامل
عدد الاجزاء الباقية من التأليف والاستنطاقات
وهو ما جعلنا هنا منصرفًا اليهِ تنفيذًا لوصية
فقيدنا العزيز بالاعتماد على غيرة ويراع
خدنهِ ومساعدهِ في التأليف حضرة
صديقنا الصادق وصفينا اللوذعي الفاضل
جرجس افندي مخائيل نحاس فأملنا
في حضرة المشتركين ان يتلقوا هذا
الجزء بالنفس الراضية ويوازرونا
من خير الدعاء بما يطيب
معهُ خالص الشكر لهم
وعاطر الثناء

« خليل النقاش »

تنبيه

يرى القارئ انا اعتمدنا في سياق كلامنا التاريخي ذكر اسماء العظام من
رجال الحكومة المصرية مجردة من لقب الرتبة كصاحب السمو وصاحب
الدولة او السعادة مثلاً ونحو ذلك فهذا السير حذونا بهِ حذو
المؤرخين الافرنج الاّ في بعض مواضع دعا الى ذكره فيها
مقتضى الحال وفي الاقوال والمحررات الرسمية المأثورة
مراعاةً للاصل كما لا يخفى على الحاذق اللبيب اما
ذكر اسماء الرؤساء العرابيين مجردة من الرتبة
واللقب فلانهم جردوا منها قبل الشروع
في كتابة هذا التاريخ فبناء عليهِ رأينا
ان نشير بهذا الايضاح الى
ما تقدم دفعًا لمظان
الانتقاد

اصلاح خطاء

سطر	عمود	صفحة	خطاء	صواب
٢٧	٢	٧	آذَنَ	أَذِنَ (١)
١٤	٢	٨	وامراه	وامراء
٢٣	٢	٨	قتلوا	قتلا
٦	١	١٢	قيامه	قيامة
١٣	٢	١٢	ففيل	فيل
١	١	١٤	التحفظات	التحفظات
٢٢	١	٣٠	يا نرى	يا ترى
١٠	١	٣٣	نكون	تكون
١٣	١	٣٦	الرضا	الرضى
٢٢	١	٥٣	الشهاني	الشاهاني
٢٤	١	١٣١	السفرنوي	الفرنسوي
٢٠	٢	١٣١	قرينة	قرينته
٢٢	١	١٣٤	عرابي للخديو	الخديو لعرابي
٢٧	٢	١٣٩	٨١	٨٣
٣٠	١	١٥٩	وتبغنا	ونبقنا
٥	٢	١٥٩	روساأوهم	روساؤهم
٨	٢	١٦٠	قائدة	فائدة
٢٤	١	٢٠٤	بعثت بها الى الحكومة	بعثت بها الحكومة
٣	١	٢١٧	مصطفى	محمود
٢٤	١	٢٤٣	ووجاء	ورجاء

ونرجو القراء عفوًا عما يمر بهم من هفوات الطبع والسهو مما ليس في هذا الاصلاح اشارة اليه

---

(١) وقع لاحد مرتبي الحروف ان جعل « اذن » آذَنَ بالمدِّ والفتح فتُركت سهوًا ولما كانت بمعنى « اعلم بالامر » رأينا ان نُصححها في هذا الاصلاح ليستقيم معناها حيث وردت فتكون « أذِنَ » بمعنى اباح ولولا ضرورة دفع اللبسة ما تعرَّضنا لامرٍ هو من غير هذا المطلب

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صحيفة